الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية السادسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الرابع والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١— حروب فردريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية و قبرص

٢ — وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة

٣ — رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

(١)

حروب فردريك الثاني ضد الإيبليين

في

سورية و قبرص

تأليف

فيليب دي نوفار

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أوجد انتصار حطين و ما أعقبه من تحرير للقدس و لعدد كبير من المدن و الحصون واقعاً جديداً، كاد أن يصبح صاحب تأثيرات شاملة دائمة، لكن اخفاق صلاح الدين في تحرير صور، و سياسته تجاه أعيان أسرى حطين و كذلك الأفراد شكلت بداية تراجع، إن لم أقل انتكاسة، ووضح هذا أثناء وقائع الحملة الثالثة، حيث فرضت واقعاً جديداً، تمثل بشكل رئيسي بإزاحة بيزنطة من على مسرح الأحداث، و بتأسيس حكم لاتيني في قبرص، و بإعادة تأسيس مملكة القدس في عكا، و كان بالين دي ايبلين من أبرز شخصيات الفرنجة التي تعاملت مع صلاح الدين أثناء استسلام القدس له، لابل بعد ذلك ايضاً، و نظراً للفراغ الكبير الذي تكون في اوساط الفرنجة البلديين — البوليان — تقدمت أسرة بالين إلى الصدارة، و تابعت تقدمها لاسيما بعد وفاة صلاح الدين.

فبعد وفاة صلاح الدين انشغل رجالات الأسرة الأيوبية بالحروب الأهلية الداخلية، و هكذا فرطوا رويداً رويداً بجل مكاسب صلاح الدين بعد حطين، و استرد الفرنجة عدداً من مدن الساحل الشامي حرباً، أو تخاذلاً أو خيانة، و كان من بين ما استردوه مدينة بيروت، التي فرط بها واليها عزالدين سامة، و كان بالأصل من مماليك صلاح الدين، و عبر أحد الشعراء عن مشاعر الناس آنذاك تجاه ماكان يحدث فقال مخاطباً صاحب حصن تبنين عندما حاصره الفرنجة سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨ م، و قاومهم :

سلم الحصن ماعليك ملامة — لايلام الذي يروم السلامة

عطاء الحصون من غير حرب — سنة سنها ببيروت سامة

وآلت بيروت بعد ضياعهابوقت قصير إلى حكم الأسرة الإيبلينية، و استطاعت هذه الأسرة بحكمها لبيروت أن تجمع ثروة كبيرة و بالتالي أن تشغل دوراً عظيماً في تاريخ الفرنجة في كل من مملكة عكا و مملكة قبرص،و ظهر هذا الدور أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لكنه اتضح تماماً أثناء الحملة الصليبية السادسة، ففي هذه الحملة لم تقم معارك بين السلطان الكامل محمد بن العادل و بين الامبراطور فردريك الثاني، فقد تسلم هذا الامبراطور القدس من الكامل عن طريق المفاوضات، و لأن الكامل استولت عليه الرغبة بالتفرغ لقتال أخوانه في الشام و أفراد بيته و الصراعات التي تمت أثناء وجود فردريك الثاني في المشرق كانت بينه و بين الايبلينين، و هكذا استمرت و تحولت إلى حروب فرنجية داخلية بعد عودته إلى إيطاليا .

و غاب الأيوبيون عن استغلال هذه الصراعات و الحروب لأنهم انشغلوا هم أيضاًبشؤونهم الداخلية، و هذه صورة مفجعة دوّن أخبارها بالتفصيل من الجانب الفرنجي فيليب دي نوفار، الذي نقدم تاريخه الآن، و ما دونه فيليب هو الأهم، وهو الذي يؤخذ عليه ليس انحيازه للبيت الإيبليني فحسب، بل الشعر الغث الذي نظمه و أودعه في ثنايا صفحات كتابه، لكن مع ذلك هذا الكتاب بشعره وثيقةثمينة تصور واقع الفرنجة في المشرق في النصف الأول من القرن الثالث عشر، و تفيدنا أن كل من الحملة الخامسة و السادسة كان الألمان هم الذين أسهموا فيهما أكثر من سواهم، لكن بالوقت نفسه كان دور البابوية معادلاً، إن لم نقل متفوقاً على الدور الألماني، و كان للصراع بين البابوية و الامبراطورية أبعد الآثار على مصير الحملتين.

و فيما الصراعات الداخلية في الشام شاغلة للقوى كلها، كان المغول قد أسسوا امبراطوريتهم المترامية الأطراف، و استولوا على واحة خوارزم، و أزالوا أسرتها الحاكمة، و دفعوا بجلال الدين منكبرتي سلطان خوارزم

مع فلول جيوشه نحو الجزيرة الفراتية و أعالي بلاد الشام .

و تورط الخوارزمية بالصراعات الأيوبية، الأيوبية، و ساعدوا الصالح أيوب على استرداد القدس من الصليبين، و من ثم الوصول إلى عرش السلطنة في القاهرة، مما أثار مايعرف بالحملة الصليبية السابعة، و تزامنت أحداث هذه الحملة مع تدمير قوى الخوارزمية، و بالتالي انفساح المجال للمغول للتقدم من العراق نحو الجزيرة و بلاد الشام، و لقد ورد بعض أخبار هذا في بعض المصادر العربية المتقدمة و سنرى المزيد حوله في غير العربية حول الحملة السابعة و ماتلاها مع عدد من النصوص الجغرافية الهامة.

من اللّه أستمد العون، و أستلهم الرشاد، و أطلب التوفيق، و له جل و علا الحمد الدائم و الشكر، و الصلاة و السلام على نبينا المصطفى و على آله و صحبه و سلم.

سهيل زكار

دمشق ١٩ — شعبان ١٤١٩ / ٨ — كانون الأول ١٩٩٨

مدخل

١— إن أخبار أعمال الحرب « Gestes des chiprois » و حوليات أمادي هما أساس نص هذا التاريخ

لايوجد — بقدر ما نعلم — في هذه الأيام مخطوط يحتوي على النص الأصيل لتاريخ فيليب دي نوفار ، و النص الذي نقدمه اليوم قام بالأساس على ما صنفه بحرص شديد ، و أعّده شارل كوهلر من خلال مصدرين رئيسيين كان كتاب فيليب قد دمج فيهما، و هما « أخبار أعمال الحرب » و «حوليات أمادي »، و جاء عمل كوهلر عملاً علمياً دقيقاً جداً، و لاشك أن النص المصنف ، هو أقرب ما يمكن إلى نص فيليب الأصلي، و سيظل كذلك حتى يجري اكتشاف مخطوط المؤلف نفسه .

و كان كتاب «أخبار أعمال الحرب » ، والذي هو المصدر الرئيس لتاريخ فيليب ، هو حولية كتبت بالفرنسية القديمة ، في قبرص في القرن الرابع عشر ، و هو متوفر في مخطوط واحد تاريخه ١٣٤٣، و قد نسخ في سيرينا Cerines من قبل جون لى ميج Miege ، و كان سجيناً لدى عموري دي ميار Mimars ، قسطلان قلعة سيرينا ، القلعة التي استخدمت آنذاك ـ كما الحال اليوم ـ سجناً حكومياً ، و تم اكتشاف هذا المخطوط في سنة ١٨٨٢ من قبل م . كارلو بيرين Perrin في بيدمونت ، و ما برح في الملك الخاص لأسرته ، و قد اتخذت عنه نسخة تحت إشراف م . بيرين و أرسلت الى الكونت بول رينت Riant ، الذي كان مؤرخاً واسع الشهرة في ميدان تاريخ اللاتين في الشرق ، و قد أودع هذه النسخة في المكتبة الوطنية حيث تحمل الرقم «٦٦٨٠ ـ مخطوطات فرنسية حديثة التملك »، و اعتماداً على هذه النسخة أعّد غاستون رينود Raynaud طبعته المحققة التي نشرها في عام ١٨٨٧ تحت رعاية

جمعية الشرق اللاتيني، و قد تـولى م . بيرين تصحيح تجارب هذه الطبعة اعتماداً على النسخة الأصيلة التـي بحوزته، و جرى فيما بعـد إعداد طبعة ثانية للنص اعتماداً على نسخة رينيت من قبـل الكونت لويس دي ماس لاتري ، بغية إلحاق هذا النص بنصـوص مجموع روشيل :«تواريخ الحروب الصليبية » المنشـور من قبـل «أكاديميـة النقوش و الآداب الجميلـة »، و ظهرت هذه الطبعة عام ١٩٠٦ في المجلد الثـاني من «الوثائق الأرمنية »، و بما أن الكـونت دي مـا س لاتـري قد تـوفي قبـل نشر هذا المجلـد ، عهد بإكمال عملـه إلى غاستون الباريسي، ثم عهد بـه فيما بعد إلى شارل كوهلـر، و قد حمل النـص المنشور مقـدمة كتبهـا كوهلـر، و عانـت هذه الطبعة من الإقحـامات الثقيلة، و لأن النص كان مبسطـاً ، فقد أقحمت فيه كلمات كثيرة في أماكـن عديدة بهدف توضيح معانيـه، و قد أدى هذا الى تغيير النص بعـض الشيء، كما جرى توحيد لفـظ الكلمات، و مع أن الترجمة الحاليـة عادت مـراراً إلى هـذه الطبعة ،لقـد اعتمـد نص أخبـار الأعمال ـ باستثنـاء نص فيليب الذي صنعـه كوهلر فيما بعد ـ على طبعة رينود .

وكتاب « أخبار أعمال الحرب » هـو تاريخ لمملكة قبرص مـن الأزمان المبكرة حتـى سنة ١٣٠٩، و قـد جرى.تصنيفـه في حوالي سنـة ١٣٢٥ ، مـن قبـل مصنـف غير معـروف تـمّ التعـرف عليـه على أنـه جيرارد دي مونتريـال ، وجرى تقسيـم هذا المصنف إلى ثـلاثة كتـب هي : «تـاريخ الأرض المقدسة » و « تاريخ فيليب دي نوفار » و« تاريخ داوية صور » ، وذلـك مجاراة لرينـود فهو الـذي أطلـق هذه الأسماء عليهـم ، و «تاريـخ الأرض المقدسـة»، هو سلسلة من الحوليـات ،التي تقصت تاريـخ العالم مـن الخليقـة حتـى سنـة ١٢١٨، و قـد فقـدت الأوراق الأولى مـن المخطـوط،وعلى هـذا تبـدأ الحوليـات فعليـاً بسنـة ١١٣٢، ولقـد ورد في الفقرة ٨١ أنـه جرى في الفقـرات المتقدمـة عرض تـاريخ العـالم من آدم

حتى فردريك الثاني ، مما يعني أن الأجزاء المتقدمة كانت تحتوي على عرض مختصر لتاريخ العالم ، أما بالنسبة لقسم ١١٣٢ حتى سنة ١٢١٨، فهو كله مجرد حوليات مختصرة، مع تفاصيل أطول أحياناً لبعض الأحداث المحلية الهامة ، و يتفق غاستون الباريسي و شارل كوهلر بالاعتقاد على أن الفقرات من ٨٢ حتى ٩١ قد أقحمت في تاريخ الأرض المقدسة بعدما انتزعت من السيرة الذاتية المفقودة لفيليب دي نوفار، ولسوف تتوفر هذه الفقرات في الملحق الأول في آخر هذا المجلد .

و الكتاب الثاني من تاريخ «أخبار الأعمال » هو بشكل أساسي تاريخ فيليب دي نوفار ، و قد شكل هذا القاعدة بالنسبة لنص كوهلر، و كان مصنف «أخبار الأعمال » قد ضمنه فقرات من مصادر أخرى ، ولاسيما من تاريخ هرقل (أي تكملة تاريخ وليم الصوري) ومن كتاب « حوليات الأرض المقدسة » ، و قام كوهلر بمقارنة دقيقة بين نصوص «الأعمال» و «هرقل » و «الحوليات» و أخرج أثناء إعادة بنائه للنص الأصلي لفيليب جميع ما أقحم به وضمنه .

و الكتاب الثالث في « الأعمال » أي «تاريخ داوية صور » هو تكملة لتاريخ قبرص و سورية من ١٢٤٣ حتى ١٣٠٩، و الصفحات الأخيرة من المخطوط هي مفقودة أيضاً ، و من الممكن الإفتراض أن الكتاب بصيغته الأصلية لم يتجاوز بالتاريخ أبعد من عام ١٣٢٤، وهي سنة وفاة هنري الثاني ،فمع هذه السنة أنهى فلوريو بوسترون Florio Bustron ـ الذي استخدم «الأعمال » مصدراً له ـــ الجزء الثاني من تاريخه ، و هذا بلا شك أفضل مصدر عن هذه الحقبة من تاريخ اللاتين في الشرق، وصحيح أنه أدنى مكانة من كتاب فيليب دي نوفار إلا أنه يمتلك بالفعل مكانة معيارية تظهر أن المصنف كان جيد المعلومات و قد تملك فهماً و تقديراً تاريخياً له قيمته .

والكتاب الهام الثاني المبني إلى أبعد الحدود على تاريخ فيليب هو «

حوليات فرانسيسكـو أمادي » وهذا الكتاب تاريخ بنـدقي لقبرص ، منذ أيام الخليفـة عمر حتى اعتلاء الملـك جون الثاني للعـرش في قبرص سنة ١٤٣٢ ، وقد كتـب قبل سنـة ١٤٨٩ ، ويستدل مـن محتويـاته أنـه كان ملكاً لعالم بنـدقي و لغوي هو فـرانسيسكو أمادي ، الذي ربما كـان ـ أو ربما لم يكن ـ هو المصنف ، مع أنه يعـزى إليه بشكل عام ، ويلاحظ أنه بالنسبة لحوادث السنوات مـن ١٢١٨ حتى ١٢٤٣ ، في هذا الكتاب أنها تـرجمة حرة لكتـاب تـاريخ فيليـب إلى لغة البنـدقيـة ، مع بعـض أعمال الاختصار والضبط و التحسين في أجزاء مختلفة ، وعلى افتراض أن أمادي هو الـذي كتب الحوليات ،مـن الواضح أنه كـان أمامه النسخـة الأصلية مـن «تاريـخ فيليب » أو نسخـة مـن « الأعمال » ليس فيهـا النقول مـن «هرقل » ،ويلاحظ أنه في كل مـرة نسخ فيها كتاب الأعمال عن «هرقل»، إمتلـك أمادي قـراءة مختلفة ، ففـي الوقـت الـذي لا يوجـد فيه أي مـن شعر «الأعمال » لدى أمادي ، نجد في حوليـات البندقي دوبيت ليس في محتويات «الأعمال »،وهي تتحدث عن الأحـوال المتأخرة لـ «فيلنغزز Fi-langers »، وقد أقحمت في وسـط الرواية،وفي الوقت الـذي لم يكن فيه كوهلر شاعـراً بالثقة تماماً بأن هذه الفقرة هي خـاتمة فيليب حتى ينشرها في مكانها المفترض،وارتضى بـأن يضعها في الحاشية،أخذت زمـام المبادرة وأعطيـت نفسي الحريـة في إعـادتها إلى خاتمة التـاريـخ ،ولقـد استخـدم كـوهلـر أمـادي لضبـط نـص «الأعمال »،وفي كـل منـاسبـة رددت «الأعمال»كلمات هـرقل حـرفياً،اعتمـد كـوهلر على نـص أمادي في بنـائه لنـص فيليب الافتراضي،واعتمـدت هذه الترجمة على نـص كـوهلر،بـدون أدنى ملاحظات،إلاّعنـدمااقتضى الحال اضافة بعض المعلـومات الجديرة بالاضـافة،فضلاً عـن هذا توليـت جمع جميع الفقرات المنقـولة عن هـرقل وهي التي أخرجها كوهلـر من نص«الأعمال»،وأثبتها في الملحق الثاني لهذا المجلد.

وبالإضافة لكتاب«الأعمال»وأمادي،هناك عدةكتب أخرى استقت بعض معلوماتها من تاريخ فيليب،وقد استخدمها كوهلر كلها،من ذلك «حوليات أخبار قبرص » تصنيف فلوريوبوسترون Florio Bustron وهوقبرصي صار ايطالياً،وجد في القرن السادس عشر،وقد أسس هذا الكتاب إما مباشرة على تاريخ فيليب أو على «الأعمال»،وقداستقى ماريو سانوتو في كتابه«كتاب الأسرار»المكتوب سنة ١٣٠٧ــ ١٣٢١،بعض المعلومات من فيليب،لكنها معلومات ضئيلة،وإطار معالجتها ضيق،ولها قيمة قليلة،ولادور لها في عمليةبناء النص .

ولقد جرى اعتماد تاريخ فيليب دي نوفار من قبل كل كاتب عالج تاريخ قبرص خلال القرن الثالث عشر،وجاء هذا الاعتماد إما من خلال«الأعمال»وأمادي وبوسترون أو من خلال سانوتو،فلقد اعتمد على واحد من هذه التواريخ كل من :لوردانو Lordano ،وجوانا -Ju ana ،ورينهارد Reinhard، وماس لاتري،ولوهر -Loh er ،ومولرMuller ،وروهرخت Rohricht ،ولقد استخدم مولر وروهرخت جميع هذه التواريخ،وفقط ايتين Etienne دي لوزغنان،الذي كتب في القرن السادس عشر،يبدو أنه لم يعرف فيليب،ومن الظاهر أنه استقى معلوماته واعتمد في تحصيلها على ميراث أسرته مع معلوماته الشخصية،ومن بين الكتاب الذين كتبوا حول فيليب الثاني نجد أن كل من وينكلمان Winkelmann وكانتورووز Kantorowiez قد استخدما الأعمال ،واعتمد كل من كنغتون Kington وهولارد ـ بريهولزHuillard-Breholles على هرقل،وعرفا فيليب من خلال سانوتو فقط .

وعلى هذا من الممكن أن يعد تاريخ فيليب المصدر الأول للحقبة الأعظم أهمية وخطورة في تاريخ قبرص،وكذلك بالنسبة لميدان أعمال فردريك الثاني الذي لانعرف عنه سوى القليل،ويقدم هذا التاريخ قصة

حـرب رواها فـارس شارك بها،وهـي حرب لم تكـن من النـوع الذي هـزّ أركان العـالم،بل كانـت من الحروب الإقطاعيـة العادية،وتـزداد أهمية لأن فردريك الثاني كـان من بين الشخصيات التي تورطت بها،هـذا ولا يوجد سوى القليل من المصادر التي تعطـي صورة أوضح عن الحضارة المتميزة للدويلات الصليبية و توابعها الإقطاعية ،مما أعطاه فيليب في تاريخه،ففي هذا التـاريخ صـور الإجراءات القـانونيـة ،والسياسـات المتقلبة،والفـردية المتصلبـة ،ولقدأعطتنـا الـدويلات الصليبـة الـلاتينية فـرصـة لدراسـات ممتعـةلـلإقطـاع تحت ضـوء المجهـر،وصحيـح أن الصـور صغيرة ،لكنهـا كـاملة،ذلـك أنـه من غير الممكـن أن يحصـل الإنسـان على صورة دولـة إقطاعية خـالصة أفضل مما توفـره دولة القدس اللاتينية،ثـم أنه لايمكن لإنسان أن يـرى القدس أفضل من رؤيتهـا من خلال تاريـخ فيليب دي نوفار .

٢ـــفيليب دي نوفار :الرجل والمصنف

بـالنسبةلـلايطـالي من القـرن السادس عشر،كـان المثـل الأعلى لرجـل النهضـة هــو«الـرجــل العـالمي»الــذي جمع في شخـص واحــد سمات العالم،والمحارب،والسياسي،والخطيب ،و الـرياضي،والفنان،والأديب ،ولقد عدّ كل من لورانزو الفـاخر،وألبيرتي،وليوناردو،أفضل النماذج لهذا الإنسان المثـالي،فهكذا نظـر إليهـم مـن قبل أهـل عصرهـم والـذين جاءوا مـن بعدهم،وقام جميـع الأقل منزلة بشرية بإدعـاء الإنتماء إليهم وإلى الحضارة التي أنتجتهم ،ونـادراً ما عزيت أية إشارة تمجيـد إلى الأيام الأبكر ،وإلى الثقافة التي تقدم وجودهـا على عصرهم مباشرة ،أي عصر التنوير،والمعني بهذا العصر الأبكـر الــذي أطلـق عليـه الإنسـانيــون ظلماً اسـم العصر «القوطي»ومـع هذا هناك كاتـب من كتاب القرن السـادس عشر،كان من بين نماذج الإنسـانيين ،هو فلـوريـو بوستـورن،وهـو إيطالي قبرصي،كتـب تاريخاً عـن بلاده ،وقد استخـدم اصطلاح«الـرجل العالمي»وأطلقـه إطراءً

على فيليب دي نوفار،الذي كتب في قبرص في القرن الثالث عشر، ولاشك أن هناك عنصراً من التفاخر الفروسي لدى صاحبنا القبرصي في ما وسم به نوفار، مع شيء من المغالاة الأمر الذي غالباً ما أخذبه انسانيو النهضة، لكن مع هذا أن يقوم عالم من عصر النهضة باطلاق هذه السمة على كاتب من القرن الثالث عشر، هي حقيقة جديرة بالملاحظة، ويزيد من أهميتها أن فيليبَ دي نوفار كان بكل وضوح خصماً للرجل الذي كان حقاً هو «الرجل العالمي» للقرن الثالث عشر، أي الامبراطور فردريك الثاني«Stupos Mundi » .

وفيما يتعلق بفليب دي نوفار، القليل من المعلومات هو المتوفر عنه، وذلك باستثناء ما حدثنا به شخصيا عن نفسه، وظل لمدة طويلة معروفاً على أنه فقط كاتب إحدى الرسائل القانونية، التي كونت «أطروحة القدس»، وفقط احتل في منتصف القرن الماضي مكانة كمؤرخ وشاعر من خلال إكتشاف ثم نشر تاريخه وكتابه «Quatre Ages de homme » .

وكان فيليب قد ولد في حوالي أواخر القرن الثاني عشر، ولعل ذلك كان حوالي سنة ١١٩٥، في مدينة نوفار في لومباردي، ومضى إلى الشرق في سن مبكرة، وكان ذلك سنة ١٢١٨، وكان غلاماً في خدمة بيتر شابي، الذي كان فارساً قبرصياً، ولقد كان بين حاشيته أثناء حصار دمياط، وفي أثناء وجود الفرنجة في دمياط انتقل من خدمة شابي إلى خدمة رالف صاحب طبرية، الذي كان قانونياً شهيراً، ومنه تعلم علم القانون، الاختصاص الذي نال منه فيما بعده وبسببه شهرته، وبهذا الصدد قال فيليب نفسه:

«وحدث أنني كنت لدى الحصار الأول لدمياط مع السير بيتر شابي، وقد تناول السير رالف صاحب طبرية الغداء معه، وبعد الفراغ من الطعام جعلني السير بيتر أقرأ لهما من الرومانسي، وقال السير رالف

بأنني أقرأ بشكل جيد، ومرض السير رالف فيما بعد، فقام السير بيتر بناء على طلب السير رالف، بإرسالي إليه لأقرأ له، وهكذا أمضيت هناك ثلاثة أشهر أو أكثر، وكنت منزعجاً جداً، بالذي توجب عليّ أن أسرّبه كثيراً، ونام السير رالف قليلاً وبشكل سيء، وعندما كنت أقرأ عليه بقدر ما أحب، أخبرني بأشياء كثيرة تتعلق بمملكة القدس، وبالاستخدامات وبالأحجام، وقال: ينبغي أن أتذكر كل هذه الأشياء، وتقبلت أنا، الذي خفت كثيراً من طباعه، كل شيء، وكنت بعد هذا بصحبة مولاي الأسن في بيروت حتى موته، ولقد أخبرني بأشياء كثيرة بكياسته وذلك بناء على طلبي، لأنه لم يقدم قط على الكلام طواعية مثلما فعل السير رالف، وتعرفت بعد هذا معرفة جيدة على مولاي صاحب صيدا، وكان ذلك في بيروت، وفي عكا، وفي قبرص، وأخبرني بأشياء كثيرة عن طواعية بلطفه المعتاد، وبعد هؤلاء الرجال العظماء والحكماء، أمضيت وقتاً طويلاً في المحكمة مع السير وليم فيزكونت والسير أرنيس Arneis والسير وليم دي رايفت Rivet الأصغر، الذي كان محامي استئناف عظيم، وتعرفت في مملكة القدس بشكل جيد على السير نيقولا أنتيوم Anti-aume، والسير فيليب بيسديون Baisdion، الذي كان محامي استئناف عظيم في داخل المحكمة وخارجها».

وانتقل فيليب من خدمة رالف صاحب طبرية إلى خدمة جون أوف إيبلين صاحب بيروت، واستقر في قبرص حيث تزوج، ولابد أن الزواج قد قام قبل عام ١٢٢٦، ذلك أن بالين ابن فيليب كان قد جُعل فارساً في سنة ١٢٤٣، وكان بالين دي ايبلين عرابه، هذا وكان فيليب هو الأول من أسرته الذي استقر في الشرق، وما لبث فيليب أن حصل على مركز له مكانة هامة، حيث أصبح واحداً من أهم مستشاري جون دي إبيلين وابنه بالين، ومن أتباعهما الاقطاعيين، ذلك أن فيليب استحوذ على اقطاع منهما.

والسنوات مابين ١٢٢٩ إلى ١٢٥٣ هم الأكثر أهمية في حياة فيليب وبالنسبة للجزء الأعظم من هذه الحقبة يزودنا تاريخه برواية كاملة، وكان أول بروز له في سنة ١٢٢٩، عندما حاول وكلاء الامبراطور الخمسة في قبرص اغتياله لأنه رفض قبول حكمهم وتمنع عن أداء القسم ليعترف بوكالتهم، وكان في هذه الأونة متملكاً لاقطاعية، وكان قد نال سمعة جيدة في محكمة قبرص، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالايبلينيين، وكان عندما نجا من وكلاء الامبراطور، التجأ إلى مشفى القديس يوحنا في نيقوسيا، حيث بعث من هناك إلى مولاه بالين دي إيبلين يطلب مساعدته، وشارك فيليب في معركة نيقوسيا، التي قاتل فيها الإيبلينيون في سبيل انقاذه وانقاذ السيدات النبيلات اللائي حوصرن معه، وقاد مجموعة من الجنود ضد وكلاء الامبراطور، وأسهم في تحقيق النصر، (١٤ تموز ١٢٢٩)، كما وقدم فيليب مساعدته أيضاً أثناء حصار ديودامور Dieudamor وكنتارا Kantara، وقد جرح أثناء العمليات حول ديو دامور.

وعندما خطط القبارصة في سنة ١٢٣٢ لرفع دعوى لدى البلاطات الغربية ضد الامبراطور، كان فيليب هو الذي سيحمل دعواهم، وقد منع من الذهاب فقط بسبب استسلام الحامية الامبراطورية، وهي حادثة جعلت الدعوى غير ضرورية، وكان فيليب حاضراً مع جون دي إيبلين لدى التفريج عن بيروت في سنة ١٢٣٢، وذهب مع بالين دي إيبلين إلى طرابلس في سفارة لدى بوهيموند لجذب ذلك الأمير للدخول في الحلف القبرصي، والتحق فيليب بعد هذا بالكتلة الأساسية للقوات القبرصية وذلك بعد معركة قلعة إيمبرت Imbert ، ثم ذهب مع هذه القوات إلى قبرص حيث شارك في مباحثات استسلام قلعة فيها غوستا وقلعة كنتارا، وقد شارك في معركة أغريدي Agridi، وكان واحداً من خمسة رافقوا بالين دي إيبلين في هجومه الخطير على طرف الرابية.

وبعـد معركـة نيقـوسيـا وفي أثناء حصـار سيرينـا منـح فيليب حكـم نيقوسيا وعهد إليه بالاشراف على الأسرى الـذين حجزوا هناك، وكان هو مع أرنيس Arneis صاحـب جبلة قـد أعدّا شروط استسـلام سيرينا في سنـة ١٢٣٣، وأخبار السنـوات الثـلاثة التـاليـة غير متـوفرة في روايـة فيليب، لكنـه عاود الظهـور في سنة ١٢٣٦ قـرب فراش مـوت جون دي إيبلين صاحـب بيروت، وكان حـاملاً للصليب أمـام مولاه وهـو يموت، وكانـت قمة أعمال حياتـه عندما استطـاع في عام ١٢٤٣ اقناع صـاحبي بيروت وتبنين والمحكمة العليا للقـدس لتأجيل هجومهـم على صور حتى يصـل الملك كـونراد إلى السـن القانـوني، وإقـامة أليـس صاحبـة قبرص حـاكمة لمملكـة القـدس، وكوفيء فيليـب مكـافأةجيـدة مـن قبل الملكـة الممتنة، التي سددت عنـه جميع ديونه، التي وصلت إلى مبلـغ ألف مارك من الفضة، ومنحته اقطاعاً يدر عليه مبلغ ألف قطعة ذهبية في العام من موارد عكا، وإثر هذا أسهم فيليب في حصـار صور، وعمل بمثابة الحاكم الملكي في تجهيـز الاسطول، وكـان الوكيـل الذي عهـد إليه بـالعمل على ابرام شروط استسلام قلعة صور.

وهذه الاشـارات جميعاً مستخرجـة من تـاريخ فيليب، ويعتقـد بعض النقاد أنه بـالغ في إبراز أهمية دوره في هذه الحوادث، هذا ولايـوجد سبب للتشكيك في صحـة هذه المعلومات، ذلـك أن ما من واحد مـن المصادر الأخرى عزت أياً من الأعمال التي عـزاها فيليب إلى نفسه إلى إنسان آخر، فمن المؤكـد أن فيليب دي نـوفار كـان خلال حيـاة الملك هنـري الأول، ملك قبرص واحـداً من المستشارين الـدائميين للملك، فقد ظهـر اسمه على عدد كبير مـن الوثـائق على أنه كـان واحداً مـن أتباع هنـري، وبعد وفاة الملك هنري في عام ١٢٥٣، كان فيليب مع غي دي إيبلين وروبرت دي مونتغيو سكارد Montgeuiscard بين الذين أشرفـوا على تنفيذ وصية الملـك المتوفى، وهذا واضـح من خلال رسـالة بابـوية تاريخهـا عام

١٢٥٥، جاء فيها تهديد بالحرمان الكنسي للمشرفين على تنفيذ الوصية إذا لم يسددوا العشر المحدد للكنيسة بموجب شروط الوصية، وجاء آخر ظهور لفيليب في وثائق كان هو الشاهد بها على ثلاث منح إلى فرسان التيوتون، قدمها جون دي إيبلين صاحب بيروت، وكان جون ابن مولى فيليب المتقدم ورفيقه، والمقصود هنا هو بالين دي إيبلين، ووردت إشارة إليه في عام ١٢٦٤ في جدل قانوني أمام المحكمة العليا في عكا، على أنه « يعدّ أفضل محامي استئناف في هذا الجانب من البحر»، وبعيد هذا بأمد وجيز، لربما في عام ١٢٦٥، عندما صار في السبعين من عمره كتب الـ «Quatre ages de L'homme »، وبالنسبة لتاريخ وفاته هو أمر غير مقرر، حيث لم ترد إشارات إليه بعد عام ١٢٦٤، ولعله مات بعد هذا التاريخ، ففي سنة ١٢٦٩ ظهر ابنه بمثابة شاهد على وثيقة لهيوج الثالث، ولعله استحوذ في هذا التاريخ على اقطاعات والده التي نالها من التاج.

ورست شهرة فيليب دي نوفار بين معاصريه ورجال بلاده على براعته كمحامي استئناف في المحكمة، وعلى الترتيب الذي صنفه حول الإجراءات القانونية الـ « Livre de forme de plait » أو باسمه الآخر الذي عرف به وهو الـ «Livre a un sien ami »، وهو من أهم الأعمال التي شكلت «اطروحة القدس»، وفي الوقت الذي جاء فيه كتاب فيليب على أنه ليس دراسة في شؤون العدالة، ولايرقى إلى المستوى العظيم لكتاب تلميذه جون دي إيبلين صاحب يافا، الذي تم في سنة ١٣٦٩ تبني كتابه: «Assies de La houte cour » على انه القانون الأساسي لمملكة قبرص، مع هذا من الواضح أن كتاب فيليب كتاب عملي لعرض القوانين وللإجراءات التي اعتمدت في محاكم القدس وقبرص، ولابد من أن تأثير نوفار على إيبلين كان كبيراً، وفي الوقت الذي ليس من الواضح القدر الذي نهله إيبلين من كتاب نوفار، ليس هناك

من شك أنه تعلـم القانون منه، وبفضل تعليم فيليـب له، امتلك إيبلين حبه لعلم القانـون، ويقف نوفار بمثابة حلقـة وصل بين «قوانين الضريح المقدس» القديمة، التي عادت للملكة اللاتينية في القدس، التي لابد أنه قد تعلمهـا من رالف صاحـب طبرية، والقوانين القبرصية الجديـدة التي وضعهـا إيبلين، وتختلف قـوانين إيبلين في كثير مـن الحالات عن قـوانين مـاوراء البحار، وتظهـر المقارنـة فيما بين القوانين المبكـرة المعروفـة باسـم «القوانين الملكية» وبين كتـاب نوفار، وكذلك كتـاب إيبلين التطور الذي ألم بقانـون القدس، وأن هذا التطور لم يلـم بمحتوى القانون فقـط بل ألم بطرائق مقـاربة القـانون، وتعـدّ «القوانين الملكية» أقـدم مجموعـة قانـونية وصلتنا مـن قوانين مـاوراء البحار، حيـث يعود تـاريخها إلى أواخـر القرن الثـاني عشر، وهي تحتـوي على مجرد بيانـات قانـونية فعليـة، والذي تـولاه نـوفار هـو تأكيـد ما هـو قانـوني، كما عرض كيـف ينبغي التماس ذلـك، وكتب إيبلين رسـالة في علـم القانـون، وسعى جـاهداً لتـأكيد الأسبـاب والمبادىء الـراسية خلف القوانين بطـريقة جديـرة بأحسن علوم العـدالة والقضاء.

ويتألف كتاب نـوفار من ثلاثة أقسام: في القسـم الأول عرض لأحكام الإجراءات العـامة التي استخدمـت في محاكم ماوراء البحـار، وفي القسم الثـاني نقـاش للأنماط الخاصـة مـن أعمال العـدالة، لاسيما التقـديـرات، والنقاط القـانونية المتعلقـة بكل قضية، وآراء كبـار رجال العدالـة حولها، أمـا في القسم الأخير فبحـث في السمات والإحالات المطلـوبة للمختـص المحترف للقانون، والكتاب هو مرشـد للمحامين ودليل من أجل الممارسة الفعلية للقانـون، حيث يمكن لمحامي الاستئناف أن يتعلـم طرائق تجنب الهفوات أمـام المحكمة مـع مذاهب الخداع المستخـدمة، ولايـذكر نـوفار أراءه الشخصيـة حول القـوانين، ولا أفكاره حـول الاجـراءات، بل أقنـع نفسـه بنقل آراء الآخـرين، ولم يقـم بأيـة محاولـة لاستخراج أيـة جوانـب

علمية من القوانين أو فلسفة تشريعية، فقد ترك هذا ليتولى صنعه تلميذه الأعظم كفاءة والأكثر شهرة، ولهذه فإن كتاب نوفار— بسبب طبيعته— لم يمتلك قط لا الاحترام نفسه ولامدى التأثير الذي امتلكه كتاب إيبلين، زد على هذا إن ظهور كتاب إيبلين بعد أمد وجيز من كتاب نوفار، حرم هذا الكتاب من المكانة التي كان ربما سيحظى بها ويتمتع بها، ومع أن الأجيال التالية لم تعط قيمة فعلية لكتابة: «Livre de forme de plaut» لقد استمرت سمعة فيليب دي نوفار حية على أنه كان واحداً من أعظم الشخصيات في تاريخ القانون الإقطاعي.

لكن نشاطات فيليب الأدبية لم تقتصر أبداً على ميادين القانون، ولم تنحصر بها مطلقاً، فقد أتيح لفيليب عندما بات في سن متقدمة أن يمتلك الفرصة ليقوم باطلالة على حياته الطويلة والمليئة بالأعمال، وليتذكر حماقات حياته، ولقد أسف لبعض الحماقات، ونتيجة لهذا كتب اطروحته الفلسفة والأخلاقية التي حملت عنوان:

«Les quatre Ages de L'homme».

وقسم فيليب في هذا الكتاب حياة الانسان إلى أربع مراحل، في كل واحدة منها عشرين سنة، ومنح لكل حقبة سماتها، ففي الحقبة الأولى الطفولة ثم الشباب حيث ينبغي أن يتعلم الانسان من الأسن منه، والحقبة الثانية هي حقبة شباب، وهذه الحقبة بالنسبة لفيليب هي الأخطر لكل من الرجل والمرأة، فالشاب مندفع ونشيط، وسنين الشباب هي سنين الحب، والذنب، والحماقة، وأعمال العنف المتهورة والتمرد، ويعيش الانسان في المرحلة الثالثة في عمره الوسيط من الأربعين حتى الستين، وصور فيليب هذا العمر على أنه عمر الانجازات الحقيقية، فبعدما تعلم الانسان أثناء طفولته، وتعب من حماقات واندفاع الشباب، أصبح جاهزاً لقطف الثمار حتى أقصى قدراته، وهو العصر الأعظم في حياة الانسان، وفيه يجد خيرة فضائله من: حكمة، وإخلاص، وسماحة، وأشياء أخرى،

أما بالنسبة للمـرأة فالأمر على عكس الرجل، فـالعصر الوسيط يمكن أن يكون أكثر حماقـة من عصر الشباب، لأن عدداً كبيراً مـن ا لنساء يسعين في سنـوات نضجهن للحصـول على استحسان الشبـاب، ويسعين لايجاد شبـاب زائف، والحقبة الـرابعة مـن عمر الانسـان هي الشيخـوخة، وقـد منحت لـلانسان حتـى يتملك الـوقت مـادام حياً ليتـذكر ألطـاف الرب نحوه، ولسـداد الديـون إلى خالقه، ففـي سنوات نشاطـه كان ميـالاً نحو نسيان ربه، ونحـو الاستغراق بالأشياء الـدنيوية، التي تـدفعه نحو إهمال روحه، ويمكن للانسـان أن يمتلك في سن الشيخوخة الوقـت للاستغفار مـن حماقاتـه الماضية ومـن ذنوبـه، وأن يعد نفسـه لمواجهة الموت، فلقـد أعطي الانسـان هذا السكـون الأخير، والحزن، والوحدانيـة، عندمـا يمكنه أن يتطلع إلى مـا وراء القبر، إلى الحياة القـادمة، وختم فيليـب كتابـه هذا ببحث حـول فضائل التسـامح، والمساعـدة، والشجاعـة، والشرف، وهي سمات مطلوبة ومرغوب بها وبوجودهـا في الإنسان، وهذا الكتاب نوع من أنـواع كتابـات الشيوخ عنـدمـا يصبحون متـدينين بعمق، وأخـلاقيين في أواخر أيامهم، وهـو خلو تماما من الاشراقات، ومن طعـم الفكاهة، وهو ما نجده متوفر هنا وهناك في تاريخ فيليب، وهذا الكتاب هو عمل رجل قانـوني بات شيخـاً مسناً، رجل كـان في سنوات شبـابه يـدرب المحامين الشباب ويعلمهـم كيف يرافعون أمـام سدة المحكمة العليا للملكـة، أما الآن ففـي سنـوات الشيخـوخـة قـد أراد أن يـوجـه الشبـاب ويعلمهـم الوسـائل التي يحضرون بها مـذكراتهم للمـرافعة أمـام سدة محكمـة مملكة السماء.

وفيما يتعلق بكتابـات فيليب الأخرى، بقي عنها النـص المترجم التالي، وقـد ورد في كتاب «الأجيـال الأربعة»، فهنـا وصف فيليـب بنفسه هـذا الكتاب حسبما كتب بالأصل:

«لقد كتب فيليب دي نوفار، الذي كتـب هذا الكتاب، كتابين آخرين،

وقد كتب في جزء من الكتاب الأول ما يتعلق بنفسه، فهناك تحدث عن البلد الذي جاء منه، وبين لماذا وكيف جاء عبر البحر، وكيف قاد نفسه بنعمة من الرب لمدة طويلة، وجاء إثر هذا عدة تراتيل وأغان هو نفسه قد نظمها حول الحماقات الكبيرة لهذا العالم التي ندعوها باسم الحب، وهناك أيضاً الأشعار التي نظمها حول الحروب الكبيرة التي وقعت في أيامه، فيما بين الامبراطور فردريك، وصاحب بيروت، مولاي جون دي إيبلين الشيخ، كما قدم رواية رائعة جداً عن هذه الحرب نفسها من بدايتها حتى نهايتها، وأودع هناك كلمات وأفاعيل المؤتمرات الكبيرة والمعارك والحصارات، مرتبة منظمة، لأن فيليب كان موجوداً خلالهم جميعاً، ويوجد هناك بالإضافة إلى ذلك أغاني وتراتيل لسيدتنا وللقديسين، التي نظم الكثير منها في شيخوخته، وكتب هذا الكتاب بغية حفظ هذه الاشعار وأخبار أعمال الشجاعة لهؤلاء السادة الجيدين، ولكي تبقى أطول مدة في ذاكرة الذين انحدروا منهم ومن الأصدقاء الآخرين، وفي ذاكرة جميع الذين سوف يسمعونهم».

وتبعاً لما أورده هنا، كان التاريخ على هذا قسماً من كتاب كبير تضمن مايلي: (١) سيرة ذاتية؛ (٢) أشعاراً في الحب؛(٣) أشعاراً حول الحرب، (٤) تاريخ الحرب، و (٥) أشعاراً دينية، ومن هذه الأشعار فقدت أشعار الحب و أشعار الدين كليا، أما التاريخ و معظم أشعار الحرب فقد حفظت في أخبار أعمال الحرب، و لعل جزءاً صغيراً من السيرة الذاتية قد دمج في القسم الأول من « الأخبار » .

و يشكل غياب أي نص أصيل مشكلة تاريخ تصنيف « التاريخ » و يجعل ذلك صعباً جداً، وكان بول رختر Richter ، و هو أول من حاول حل مشكلة تاريخ الكتاب، قد توصل إلى محصلة إلى أنه قد كتب على قسمين، فقد كتب القسم الأول قبل ١٢٤٧، و كتب الثاني بعد ١٢٥٨، و تقوم هذه النظرية على فكرة أن فيليب كتب أولاً رواية

مستقلة حول الأحداث المبكرة، ثم إنـه بعدما اطلع على « هرقل » و على « حـوليـات الارض المقـدسـة »، أعـاد النظـر بماكتبـه و نقحـه وأكملـه بتضمينه مواداً استقـاها من هذه المصادر، و أشار غـاستون الباريسي إلى أن فيليب لربماكتـب التاريخ كله في وقـت واحد ، ثم أعاد النظـر فيه و نقحه فيما بعد، وضمنه الاشارات الواردة حـول الأحداث المتأخرة ، الأمر الذي دفع رختر إلى القـول بأن الأجزاء الأخيرة قد كتبت في زمـن متأخر، وأظهر غاستـون الباريسي أن النقول من « هرقل » و مـن «الحوليات» قد أضيفت مـن قبل مصنـف « الأعمال » و ليس مـن قبل فيليـب نفسه، و ذلك بسبـب أن هذه النقـول غير موجـودة في أمادي ، و قـادت أبحاث كوهلر صاحبهـا إلى المحصلات نفسها التي كان غاستـون الباريسي قد وصـل إليهـا ، و كـان رأيهما الأخير هو أن التـاريـخ قـد كتـب فيما بين ١٢٤٣و ١٢٤٧ ، و نقح فيما بعد، و لعل ذلـك كان بعد سنة ١٢٥٤، لا بل حتى بعد سنة ١٢٥٨ .

و بما أن التـاريـخ يحتـوي على أخبـار أحـداث وقعـت خـلال عـام ١٢٤٣، من البـداهة بمكان أنـه كتب بعد هـذا التاريخ ، لكـن بما أنه أسقط كل إشـارة إلى كل من تولية بالين دي إيبلين لـوكلاء الامبراطور في ١٢٤٦ — ١٢٤٧، أو موته في سنة ١٢٤٧، لابد أنـه قد كتب قبل وقوع هذه الأحداث ، و قد كـان بالين أقرب أصدقاء فيليب إليـه ، ثم إنه كان مولاه المبـاشر، و على هذا مستبعد عدم إقـدام فيليب على ذكر مثـل هذه الأحداث الهامة في حيـاته، هذا من جهـة و من جهة أخرى كـان فيليب قـد أتى عـرضاً على ذكـر عدد مـن الألقـاب و الوظـائف التي شغلهـا أعضاء في البيـت الإيبليني، لكن فقط الألقـاب والوظائف التي شغلـوها بعد ١٢٤٧، وجاءت الاشارات إلى جون دي ايبلين الأصغـر ،عندما غدا في حقبة متـأخره، صاحـب يافا و هو اللقـب الذي نالـه للمرة الأولى في سنة ١٢٤٧، و أشير إلى غي بمثابة قسطلان لقبرص، وإلى بلدوين بمثابة

مفوض للجيش في قبرص، و لقد شغل هـذان هاتين الوظيفتين فقط بعد عام ١٢٤٧، ووردت إشارة إلى جون دي إيبلين صـاحب أرسوف على أنه قسطلان القدس، وهو قد أصبح كـذلك في عام ١٢٥١ فقط، كما وتسلم عدة مـرات منصب معـاون قاضي المملكـة، فقد تملـك هذا المنصـب في ١٢٤٧ - ١٢٤٨، و ١٢٤٩، و ١٢٥٤ و ١٢٥٦ - ١٢٥٨، وقد كتبـت هذه الإشارات بقصد الرفع من شأن مختلف شخصيات الإيبلينيين، وهي ليست جزءاً مـن التاريخ أو متعلقة به، ويستخلص مـن هذا بينة على أن فيليـب قد أعـاد النظـر في عمله في وقـت مـا بعـد سنة ١٢٥٤ أو سنـة ١٢٥٨، ونقح روايته، لكن ليـس عن طريق إضافة مـواد جديدة تتحدث عن أحـداث جديدة بـل مجرد تعريف بـالشخصيات التي ورد ذكـرها في تـاريخه بألقـابها الأخيرة فقط، وعلى هـذا كتـب النص الأصيـل قبل سنـة ١٢٤٧، أي بعيد عـدة سنوات تلـت آخر الأحـداث التي ورد ذكـرها في آخره .

٣ — تقويم لتاريخ فيليب دي نوفار

من غير الممكـن عدّ كتـاب « تاريـخ الحرب بين الامبراطور فـردريك الثاني وجون دي إيبلين» قطعـة عالية المكانـة في الأدب التأريخي، فهو لا يحتوي على أي فلسفـة معمقة للتاريـخ، ولا حتى على أية أحكـام مسبقة في محاولة لتقرير أسبـاب الأحداث، ووصف فيليب نفسه عمله بقـوله إنه مجرد رواية حـول الأسباب الحقيقـة للحرب :« و كذلـك حول الـرجال و الأفاعيل العظيمة »، لكنه عرض الأسبـاب من خلال وجهة نظر منحازة، و تتعلـق قيمة الكتـاب و أهميتـه بسماتـه أنه روايـة واحـد مـن الغولـف Guelph السوريين، و لأنـه يحتوي على روايـة صحيحة حـول الأحداث التي وقعـت، يضاف إلى هـذا إن الكتاب يعبر عـن موقـف فيليب ضـد الحزب الامبراطوري في الشرق، مع إطـراء للبيت الايبليني الذي أكـد أنه « لايوجد بيت أعظـم منه في كل العالم المسيحي» و فوق هـذا كله كتاب

سيرة تـرجـم فيهـا فيليـب لـوا حـــد مـن كبـار الأبطـال الاقطـاعيين، و هوصاحب بيروت العجوز .

وكتب فيليـب دي نوفار مـن منطلق فـردي مدهش، و فقـط المسائل التي لها عـلاقة مبـاشرة بموضـوعه المختـار من الحرب بين الامبراطـور و الإيبلينيين وجدت مكاناً لها على صفحاته، فهناك قضايا و أحداثاً رئيسية مثل صليبيـةثيبوت أوف شامبين ورتشـاد أوف كورنوول، التـي وقعت في الإطار الزمنـي لتاريخه قد حذفـت كلياً وأسقطت من روايـة فيليب، و في السنوات التي لم يكن فيهـا من شيءيؤثر بوقـائع الحرب، لم يتحدث فيها فيليـب عـن شـيء أبداً، و هكـذا نجـد سنوات ١٢٣٤ — ١٢٣٥ و ١٢٣٧ — ١٢٤٠، لم تـدون، و ذكـرت سنة ١٢٣٦ فقـط بسبـب مـوت صاحب بيروت، زيادة على هـذا لم يقل فيليب شيئاً عن أمور كـانت قد حدثت أو لم تكـن قد حدثت بعد، في الـزمن الذي كتب فيـه، من ذلك النقد البـابوي لـلإيبلينيين، و جهود الكـرسي المقدس في سبيـل الحصول على سلم مـوافق لـلامبراطور، فهذا مـا أسقط، و مثـل هذا أسقـط أيضاً خبر السلم الذي تحقق، مع تقبل القبارصـة في إطار الحظوة البابوية، و لم يكن لهذه الأحـداث من آثار على النتيجة النهـائية، و لقد مـرّ بهم فيليب مـرور الكـرام، ربما لشعـوره أنـه لم يكـن فيهـم فـائدة للكنيسـة، و مـن الأفضـل نسيانهم، و لعـل مـن أفضل الأمثلـة عن عـدم تقـدير فيليـب للمسـائل ذات العــلاقـة، يمكـن إيجاده في روايـة فيليـــب عـن حملات فردريك في سورية، و معاهدة يافا لعام ١٢٢٩، و كانت بعض الروايات عـن أعمال الامبراطور في سـورية مـن الضروري إيـرادها لـربط أحـداث قبرص مـع بعضهـا بعضـاً، وهـي الأحــداث التي وقعـت قبـل الحملـة الصليبية و كذلك ما حدث بعدها، و هكذا روى أخبار الحملة الصليبية في فقـرة صغيرة واحـــدة،كما أن روايتـه عـن معـــاهـدة يـــافـا فقصيرة و غيركاملة، لكنه لم ينتقدها على أنها عمـل غير مسيحي كما فعل البطريرك

جيرولد Gerold، ثم إن الشروط التي أتى على ذكرها و تعدادها فكانت فقط ماله أعظم الفوائد بالنسبة لمملكة سورية .

و لم يكن هجوم فيليب، موجه ضد فردريك شخصيا ، فالفصل الوحيد في كتاب «الأعمال» الذي فيه حملات افتراء وقذف بحق الامبراطور — الفصل ١٠٢ — ليس من صنع فيليب، بل مقحم جرى إقحامه من قبل واحد من المصادر الغربية، فليس فردريك بل برلياس Barlias و فيلنغر Filanger هما الأشرار في تاريخ فيليب، و رسمت صورة فيلنغر على أنه لم يكن منطقيا، و كان طاغية خارقاً للقانون، لكن صوت فيليب ليس أكثر ارتفاعاً في نقد وكيل الامبراطور هذا من صوت صاحب كتاب «هرقل»، و يبدو أن فردريك نفسه قد لاحظ أخطاء وكيله، فتولى سجنه لدى عودته من سورية، وكان برلياس — رينارد Rinard الشعر — شريراً حقا، فقد كان يدين بالكثير للإيبلينيين، فقد استقبل من قبلهم و نال حظوتهم ، و قد تظاهر خداعاً بحبهم و صداقتهم، لكنه تولى خيانتهم في كل مناسبة بشكل شرير جداً، و لم تعبأ مؤامرات برلياس و خساسته مع رفاقه بشرف و شجاعة الإيبلينيين .

و في هذا المقام يتوجب علينا أن نلاحظ أن عداء فيليب نحو برلياس، قد قاده نحو تفسير ابتعد به عن طريق الحقيقة المطلقة، فالحزب الامبراطوري في قبرص قد تكوّن ليس من أدنياء منحطين كلهم، بل من سادة من خيرة أسر ما وراء البحر، فبرلياس نفسه قد جاء من أسرة قديمة لها قرابات جيدة، و كانت أسر:بيسان وجبلة، و بورسليت Porcelets، ودي ريفيت Rivet وشينارات Chenartجميعاً أسراً نبيلة لها سمعتها الطيبة، و ضم الحزب الامبراطوري في سورية أعظم القادة لذلك الحين أمثال : بالين صاحب صيدا، و يودس دي مونتبليارد Eudes Demontbeliard، وغارنييرالألماني، و أسراً أخرى، كثير منها أنفسها كانت من أقرباء أسرة إيبلين، وقد أيدت هذه المجموعة نيابة فردريك

عن الملك كونراد، غير أنها ارتبطت بـالإيبلينيين عندما دفعتهم نحو هذا الأعمال اللاقـانونيـة للوكيـل الامبراطوري رتشـارد فيلنغر، و بـوهيمونـد صاحـب أنطاكيـة، و أعظم أمير محلي في بلاد مـا وراء البحار بعـد ملك القـدس نفسـه ، كـان مـؤيداً امبراطـوريـاً، ولم يتعـاون قـط مـع الحزب القبرصي، و تولى فيليـب عرض الجانـب الإيبليني مـن مجمل الصـورة، و بالنسبة لوجهة النظر الامبراطوريـة كان الإيبلينيون و أعوانهم فئة متمردة، كـانت تسعـى لـلاحتفاظ بسلطـة غير شرعيـة على مملكة قبرص، محاولـة التستر خلف شرعيـة مغلوطـة و امتيازات فـردية، وتمردهـم ضد مـولاهم الشرعي و سلطانهم واضـح تمام الوضوح في بينات معللـة وردت في ثنايا الاشارات إلى الشؤون الشرقية في تاريخ رتشـادر أوف سان جرمانو ولدى مؤرخين آخرين .

و بصرف النظر عـن سمات رسالة فيليب الغـولفية Guelph وكذلك روايتة التـاريخية، إن كتـابه أشبه بـالملاحم، أو بـالحري هو ملحمـة حول بطل عظيـم،هو جون دي إيبلين العجـوز، صاحب بيروت، فلقـد أضفى فيليب عليـه جميع الفضائل، فبـات سيداً حقيقيـاً، مما يدفـع الانسان الى التفكير بـأن فيليب رأى وهـو في سنـه المتقدم، في مـولاه السـالف المثـل الأعلى لجميع الفضائل، ومنـه استقى الفضائل التي أثنى عليهـا في كتابه الـ «Quatre ages » ، ذلـك أن السمات التـي تجلـت في كـل مـن أحداث حياة جون دي إيبلين هي : الشجـاعة، و الشرف ، و الأمانة، و التقـوى، و كبـح الإنفعـالات، و العـدالـة، والعفـو، واللطـف، وإذا ماأزحنـا جانبـا حتى ظـاهرة عبـادة البطل عنـد فيليب، يقـف صاحـب بيروت بارزاً و كـأنه صنـع من جبلّـة بطوليـة ،وكان في كلماتـه دوما — حسبما روى فيليـب ـ تـوازن رفيع مـن المرونة،والقـوة، وقد انتهـى جوابـه المنطقي لفردريك في ليماسول بـالعبارة الرنانة التالية :«وتأكـد أنه بالنسبة للخوف مـن الموت أو السجن أنا لـن أفعل شيئـاً سوى ما سيطلبـه قرار

المحكمة الجيد و المخلص مني أن أفعله»، و عندما أراد الإيبليني أن يعبر بشكل فعّال و دقيق عن عدم ثقته بالإمبراطو ر وبوعوده، لم يلجأ إلى النقد المباشر لخصمه، بل عبر عن فكرته بقوة أعظم بضربه المثل بالوعل الذي ليس لديه قلب، وهناك تشابه عظيم بين كثير من نصوص رواية فيليب و سمات الأفراد الذين تولى وصفهم في كتابه عن حياة جون أوف إيبلين و بين ما ورد في كتاب جوانفيل عن حياة القديس لويس، فقد مثل كل من الملك الفرنسي و اللورد القبرصي أسمى أشكال تطور الشخصية الإقطاعية، فكلاهما كانا سيدان لطيفان قد حظيا على كثير من حب و إخلاص شعبيهما، و كان كل منهما مستقيماً و متديناً و منطقياً، وقد حظيا بمن يترجم لكل واحد منهما في رجلي عمل أعجبا بهما و كتبا عن حياتيهما بغية أن تعرف الأجيال المقبلة سمات الرجلين اللذين افتخرا في دعوتيهما موليهما.

و لم يكن كتاب فيليب أقل قراءة و متعة من كتاب جوانفيل، لابل يمكن القول إنه تفوق في إحدى النقاط على منافسه،لأن فيليب امتلك حساً مبطناً وجافاً بالفكاهة، تغلغل خلال روايته، و الشاهد الأكثر وضوحاً هو المشهد في محكمة نيقوسيا عندما جرى اعتقال فيليب من قبل وكلاء الإمبراطور ، فقال : إنه لايمكنه الاتفاق مع اقتراح صاحب جبلة في أن يقتل،«وأن والده السير برتراند قد تكلم مراراً بحكمة أكثر»، وهناك أيضاً لمسات أخرى كثيرة ، هي أقل وضوحاً، لكن ليست أقل بروح الفكاهة، من ذلك الإشارة إلى «الخروف ذي الأذنين الطويلتين» ، الذي أكله المحاصرون في ديودامور، ووصف سمات مختلف الشخصيات في قصائده عن الـ Branche العائد لـ «رينارد»

وبالنسبة لهذه القصائد لاتوجد حاجة للحديث عنها هنا،ذلك أنها تستحق دراسة خاصة،وقد عدّت هذه القصائد في بعض الأوقات قصائد رائعة،ونظر إليها في بعض أوقات أخرى على أنها سيئة

الـوزن،وهـي في كثير مـن الأحيـان واضحـة،وفي بعضهـا ــ كما الحال في القصيدة الأولى ــ غامضـة بشكل يـائس،وهذه القصـائد هامـة كوثـائق تـاريخيـة،لأنها تظهـر ردات فعـل فيليب المبـاشرة نحـو الأحـداث لـدى وقوعها، و ينبغي أن يـلاحظ أنه بالنسبة لقضية سجـن بالين في ليماسول، أزعـج مـرور الوقـت ذكـريـات فيليـب بشـأن مصاعـب هـذا السجـن ووحشيته،ولم يزلها .

وعلى هذا يعدّ كتـاب فيليب كتاباً منحـاز التوجه،لكنه مـع هذا مترفع فوق مستوى التـوجه الإنحيازي بسبب دقته وصحته في عـرضه للحقائق، ولتركيـزه على السمات الحسنة لـدى بطله ، فلقـد رغـب فيليب أن يبقـي لمستقبل الأيـام حياة صديقـه القديـم، ومولاه، مع ذكـر الأعمال العظيمة لحزبـه، وهو في الحقيقـة حين سعى لتخليـد ذكـرى نجاحـات الآخريـن تمكن من تخليد نفسه .

٤ــ صليبية فردريك الثاني و الحرب ضد الإيبلينيين

وفيما يتعلق بتـاريخ فيليب دي نوفـار إنه يقدم رواية عظيمـة الإنحياز المسبق ضـد أهداف وسيـاسات فـردريك الثـاني في الشرق ، وهي تـروي أخبـار الأحداث في الصراع ضـده فقط مـن وجهة نظـر الذيـن كانـوا في حـالة حـرب ضـده ، ولهذا إن تقديـم عـرض مختصر لصليبيـة فردريـك وللصراع الذي نجم عنها، لائق تماماً بهذا المدخـل، وسيكون هذا العرض أفضـل صـورة للأحـداث يمكـن الحصـول عليهـا ، فلقد كتـب فيليـب بطريقة مقنعة إلى حد أنه إذا لم يكن القارىء حذراً، سيجد نفسه مشاركاً فيليب في أحكامـه المسبقة، وداعماً للاتجاه المعادي لـلإمبراطور، و منحازاً إليـه تمام الإنحيـاز، ولهذا ولكي نصحـح فيليـب، ومـع الرغبـة «لإعطـاء الشيطان ما يستحقه» جاء إدخال العرض التاريخي الموجز هنا :

أ ــبدايات الحملة الصليبية، ١٢١٥ ـ ١٢٢٨

في ٢٥ـ تموز ١٢١٥، وفي الكنيسة الكاتدرائية في آخن، حمل فردريك الثاني الصليب، وكرس نفسه لصالح قضية الحرب المقدسة ضد المسلمين، وجاء هذا إثر تسلمه لتاج المملكة الألمانية من يدي سيغفرايد Siegfried رئيس أساقفة مينز، وحرض أتباعه على أن يكونوا مثله فيكرسوا أنفسهم في سبيل إنقاذ الأماكن المقدسة، ولقد كان هذا استعراضاً احتفالياً رائعاً، فقد رفع الهوهنزتوفني ثانية راية الصليب التي حملها كونراد الثالث وفردريك بربروسا، وجدد أمجاد شارلمان، وأمجاد ذلك السيف الذي هو سلاح المسيحية ، والذي رؤيت أسطورته الشعبية في الحملة الصليبية الأولى، وهو الذي تولى تطويبه بشكل مهيب من قبل فردريك الأول في هذه الكنيسة نفسها، وتوفر لدى البابا انوسنت الثالث السبب ليبتهج تجاه روح مولاه، ولأن يشعر أنه سيحقق بوساطة فردريك الثاني هذا (الذي سماه والداه أولاً باسم قسطنطين) الوصول إلى النتائج التي أخفقت كل من الحملة الصليبية الثالثة والحملة الصليبية الرابعة في تحقيقها .

وغادرت الحملة الصليبية الخامسة في ١٢١٧ متجهة إلى الشرق حسبما كان مخططاً لها، لكن الملك الشاب لكل من ألمانيا و صقلية لم يكن بين أفرادها، واستولى الصليبيون على دمياط، وتقدموا فوق مياه النيل ، فواجهوا هزيمة ساحقة عند المنصورة ، و تركوا خلفهم عدداً كبيراً من حشدهم ميتاً أو أسيراً في مصر، ثم عادوا إلى الوطن، و تسللوا إليه و هم مدمرين تماماً، و كان فردريك ما يزال يؤخر مغادرته، و تقبل البابا هونوريوس الثالث ــ الذي خلف انوسنت على العرش البابوي في سنة ١٢١٦ـ تسويغات فردريك ، ومنحه موافقات متكررة على التأخير من سنة ١٢١٧ حتى سنة ١٢٢٢، ورفع قادة الحملة الصليبية الخامسة، التي كانت سيئة المصير، أصواتهم عالياً في توجيه اللوم إلى فردريك لتوانيه في تقديم الدعم لهم، و أمر البابا بعقد مجمع عام ينعقد في فيرينتينو -Fe

rentino في آذار سنة ١٢٢٣، حيث تقرر مناقشة خطط صليبية جديدة فيه، و كان بين الذين حضروا هذا المجمع الكاردينال بيلاغوس، الذي كان النائب البابوي الذي تولى قيادة الحملة الخامسة، و الذي يعود إليه بالفعل سبب الإخفاق المأساوي لتلك الحملة، و حضر كذلك الملك جون بريين صاحب القدس، ورالف بطريرك القدس ،وهيرمان فون سالزا Salza ، المقدم الأعلى لفرسان التيوتون،مع مقدمي كل من فرسان الداوية وفرسان مشفى القديس يوحنا،وقد اجتمع هؤلاء مع البابا هونوريوس والملك فردريك،وتم التوافق في هذا المجمع أنه يتوجب عدم القيام بأية محاولة عمليات عسكرية لمدة سنتين، كما تم ضمان مصالح فردريك الشخصية في مصير المملكة السورية،على أساس الاتفاق،ومن ثم إقدامه على الزواج من ايزابل دي بريين ابنة الملك جون و الوارثة لعرش القدس من خلال أمها ، وأعد فردريك خططاً معلنة من أجل مغادرته في العامين المقبلين،لكنه في عام ١٢٢٥،عندما كان عليه المغادرة وجد نفسه مرة ثانية غير قادر على المغادرة،وطلب من البابا منحه فسحة للتأخير مرة أخرى حتى سنة ١٢٢٧،ومنحه البابا المتورط ذلك،وبدلاً من أن يقود فردريك جيشه الى الشرق، قام في آب ١٢٢٥ بإرسال أسطول مكون من أربعة عشر غليوناً الى عكا،وحمل هذا الأسطول جيمس أسقف باتي،الذي كان يعمل بمثابة وكيل له لكي يتولى خطبة الأميرة ايزابيل، وجرى الزواج في كنيسة الصليب المقدس في عكا،وبعد مراسم الزواج حملت الملكة الشابة إلى صور،حيث جرى تتويجها في الكاتدرائية بشكل مهيب ملكة على القدس، وذلك بحضور رالف،بطريرك القدس،وسمعان رئيس أساقفة صور،ويودس دي مونتبليارد الذي كان قسطلان المملكة ونائبها،وبالين صاحب صيدا،ووولتر صاحب قيسارية،وجون دي ايبلين صاحب بيروت، وعددكبير آخر، واستمرت الاحتفالات والأعياد بعد التتويج هناك لمدة خمسة عشر يوماً في مدينة صور،ثم توجه معها من هناك نحو الغرب

بمثابة حرس شرف:جيمس دي فيتري،أسقف عكا،وبالين صاحب صيدا،ويودس دي مونتبليارد،وسمعان رئيس أساقفة صور،ودانيال دي تيراموند،وعددكبير آخر من لوردات سورية،وقد نزلوافي برنديزي في شهر تشرين الأول وفي ٩ـ تشرين الثاني تزوجت الملكة ايزابيل من فردريك شخصياً.

وما أن جرى انجاز الزواج حتى بادر فردريك إلى طلب تاج القدس من ختنه الملك جون مؤكداً على أن ايزابيل ملكة بموجب حقها الشرعي، وأن زواجها قد أنهى بشكل آلي نيابة جون عنها، واحتج جون ولكن بما أنه كان حصل شخصياً على عرش القدس بزواجه من الملكة،لذلك لم يكن بإمكانه إبداء مقاومة شديدة، ومع هذا أصر على أنه كان من بين شروط اتفاق الزواج أن يحتفظ بتاجه طيلة حياته، لكن فردريك رفض هذا، وتجاهل إلتماس جون الذي رفعه إلى البابا،وجعل نفسه يتوج ملكاً للقدس،وقام البارونات السوريون الذين رافقوا ايزابل إلى ايطاليا بالإعتراف فوراً بفردريك ملكاً عليهم، وقدموا الولاء له، وقام الامبراطور على الفور بإرسال أسقف ملفيMelfi إلى الشرق ليضمن الحصول على ولاء البارونات في سورية، وذهب معه الكونت بيرناردو جنتايل أوف ناردو Berardo Gentile of nardo ،والكونت ستيفن أوف كوترون Cotron ، وقوة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، لتكون شحنة في البلاد باسم الامبراطور، ويودس دي مونتبليارد،القسطلان الذي شغل وظيفة النائب أثناء غياب الملك جون وكان سوف يتابع العمل في الوكالة حتى قدوم الملك شخصيا الى سورية .

ومع أن البابا رفض الاعتراف بفردريك ملكا على القدس، واستمر في إضفاء ذلك اللقب على جون دي بريين، نجد أن بارونات القدس قد بادروا بالفعل بقبول فردريك ملكاً بحكم كونه زوجاً للملكة مريم،ثم

بعد موتها،نـائباً لابنتيهما ايزابل،لكـن بزواجها وبتتويجهـا في صور صارت ايـزابل ملكـة بنفسها للقـدس،وتبعـاً لهذا لقد حملـت اللقب الملكـي الى زوجها، وإذا ما التزم فردريك بقانـون المملكة الذي قضى بوجوب ظهور الحاكم في حدود سنة ويـوم بعد وراثته المملكة ليطالب بميراثـه،لن يكون هناك اعتراض قانوني عليه كملك للقدس.

وتمت اعـدادات كبيرة للحملـة الصليبيـة التي تقـرر اقـلاعهـا في آب ١٢٢٧، ووصلت الجيـوش من ألمانيـا إلى برنديـزي تحت قيادة اللنغـريف لـــويـــس أوف ثـــورنجيـــا Thuringia ،والـــدوق هنـــري أوف ليمبيرغLemburg،وجـاء أربعون ألفـاً من الانكليـز تحت قيادة أسقـف إكسيترExeter وأسقـــف ونشستر ، وهـــو بيتردي روشي Roches المشهور،وتجمعت الحشود الصليبيـة من لومبارديا ومن أبـوليا،ومن صقلية ومـــن أقـــاصي ألمانيـــا في ذلـــك الميـنـاء الحار وغير الصحـــي،في حّـــر الصيف،وجرى إرسال الكـونت توماس أوف أسيرا Acerraأمام القوات ليعمل في سورية نائباً للامبراطور حتى وصوله شخصياً.

ومـع أن فـردريـك قـد أعلـن فيما بعـد، أنـه تـولى الإيفـاء بجميـع الـواجبـات والتعهـدات التـي قطعهـا على نفسـه فيما يتعلـق بـالحملـة الصليبية،وجـد الحشد الـذي وصل الى برنـديزي أن الأوضـاع غير مهيأة، وأن العـدد الكـافي مـن السفـن لحمـل هـذا الحشـد الهائل لم يجهـز،وأن الامـدادات سيئـة الاعـداد، وأن الأحـوال الصحيـة في المعسكـر كـانـت تعيسة، وكـانت مـوارد المؤن والإقامـة غير كافيـة، وفي حر صيـف أبوليـا سقط المحاربـون الشماليون ضحايا للطـاعون ومالبث فتـك المرض وقيام عدد من الوحدات بالتخلي عن الجيش أن أنقص العدد كثيراً.

وتم أخيراً في الثامـن من أيلول لعام ١٢٢٧،اقلاع الامبراطـور،وبذلك بدأت الحملـة الصليبية بالفعـل،لكن الطاعون الـذي كان قد دمـر عدداً كبيراً من الجيش لم يوفـر أحداً حتى أن صاحب الجلالة الامبراطـورية قد

أرغمتــه أوضــاعــه الصحيــة السيئــة على العــودة الى مينــاء أوترانتو Otranto،وذلك بناء على نصيحة فون سالزا وجيرولد، البطريرك الجديد للقدس، وفي أوترانتو مات لويس أوف ثورنجيا،وبعث فردريك على معظم سفن الأسطول بثمانمائة من الفرسان وبعشرة آلاف من الرجّالة، وذلك تحت قيادة دوق ليمبورغ، وأجل البطريرك جيرولد موعد مغادرته حتى تتحسن صحته.

لكن البابا هونوريوس الثالث المهادن لم يعد مستحوذاً على عرش بطرس، فقد توفي في ١٨ ـ آذار ١٢٢٧، وخلفه الكاردينال أوغولينو Ugolino أوف أوستيا، وكان رجلاً عجوزاً، لكنه تمتع بنشاط مدهش،وقد تبنى اسم غريغوري التاسع،ولتصوره نفسه على أنه غريغوري سابع آخر، دعا إلى عقد مؤتمر آخر حول مسألة الإمبراطور المرتد، ثم ما أن سمع البابا العجوز بعودة فردريك حتى أصدر بحقه حرماناً كنسياً، وسوغ عمله هذا بشروط اليمين الذي أقسمه فردريك في سان جرمانو.

وتوفر بالفعل بعض التسويغ في عمل غريغوري، في ضوء سجل أعمال التأجيل المتكررة لفردريك، لكن الذي لم يعرفه البابا هذه المرة هو أن فردريك كان مخلصاً بالفعل في خططه للمغادرة إلى سورية، وأن الظروف التي تجددت جعلت الإبحار في عام ١٢٢٧ مرغوباً فيه من وجهة نظر الإمبراطور بشكل خاص.

وكان الوضع السياسي منذ عام ١٢٢٥ متأزماً وحساساً، فقد انشغل الأميران الأيوبيان: الملك الكامل محمد صاحب مصر، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق، في حرب أخويه من أجل السيطرة على فلسطين، وحاول منذ ١٢٢٥، المعظم الإطاحة بخصمه، وقام الكامل بالشروع بأعمال انتقامية من المعظم، فتحالف المعظم مع سلطان خوارزم، و بناء عليه انطلق الكامل يبحث عن حليف يوازن الحلف الذي تشكل ضده،

فكان أن بعث في سنة ١٢٢٦ سفارة إلى فردريك يسأله الإتحاد معه ضد دمشق، وعرض مقابل ذلك وثمناً لمساعدته : القدس وعدة مدن فلسطينية كانت بيد المعظم، وصار إذا ما توجهت صليبية فردريك ضد دمشق، فإن التحالف عرض على فردريك منافع كثيرة، وبناء عليه دخل فردريك في مباحثات مع الملك المصري، وجرى تبادل الرسائل وتطور العمل تطوراً كبيراً عندما شرع فردريك في عام ١٢٢٧ بالإقلاع، لكنه أرغم على العودة، وعلى هذا يمكن القول إن التأخير كان مزعجاً بالنسبة للامبراطور مثلما كان بالنسبة للبابا، ذلك أن فردريك كان بالفعل راغباً بالذهاب إلى فلسطين لاسترداد أراضي مملكته هناك، ولم يعبأ فردريك بانتقادات ولوم البابا الساخط ، الذي أعلن أنه لن يتمكن من الذهاب في حملته الصليبية حتى يرفع عنه الحرمان الكنسي، فلقد تابع فردريك بكل هدوء تنفيذ خططه من أجل المغادرة إلى الشرق، وعرض أن يقوم بتنفيذ أية عقوبة يمكن للبابا أن ينزلها به،لأنه أخفق بالمغادرة بالتاريخ الموعود، وبين أنه قد تولى تنفيذ جميع الشروط التي قطعها على نفسه بالنسبة للحملة الصليبية، وأن مرضه لم يكن بيده، وأن المصاعب في برنديزي لم يكن هو سببها، وكانت فوق طاقته، وتجاهل غريغوري شكواه وحاول جاهداً وضع كل عائق في طريقه، واخترع تهماً مزيفة ومثيرة للسخرية ضد فردريك، من ذلك أنه قد دس السم للندغريف لويس، وابتعد تماماً عن موضوع الحملة الصليبية لدى انتقاده لسياسات الامبراطور نحو الدول البابوية ونحو أسقفية صقلية،ودافع فردريك عن نفسه، وأبقى المناقشة حول المسألة القائمة،أي قضية الحملة الصليبية، وتابع القيام باستعداداته من أجل مغادرته للقيام بها،وبينما كان فردريك يحتفل بعيد الفصح في باري، جاءته رسالة من توماس أسيرا، الذي كان نائبه في سورية، أخبره فيها بأن السلطان المعظم صاحب دمشق، قد توفي، وأرسل الامبراطور بناء على ذلك، على الفور قوة مؤلفة من خمسمائة فارس نحو الشرق ، تحت قيادة رتشارد فيلنغر Filanger ، الذي كان

وأعيقت الامبراطورة ايزابل وسط هذه الاستعدادات بطفل، وولدت في ٢٥ ـ نيسان ١٢٢٨ في أندريا بصبي ذكر منح اسم كونراد،وكانت معاناة الولادة قاسية جداً بالنسبة للامبراطورة ابنة السابعة عشرة، ولقد توفيت بعد عشرة أيام من ولادتها، تاركة كونراد وريثاً لعرشها في القدس، وهكذا انتزع اللقب من فردريك ، قبل أن يشرع بسفره نحو مملكته في القدس، وعندما أقلع أخيراً في ٢٨ حزيران، كان ادعاءه القانوني الوحيد بعرش المملكة الشرقية متمثلاً بوضعه كوكيل لابنه الرضيع، وزيادة على هذا لقد أبحر على الرغم من الحظر البابوي، الذي منع تحت التهديد بالحرمان الكنسي وعدم المصالحة مع الكنيسة، إذا ما قام بالحملة الصليبية.

ب ـ الحملة الصليبية: حزيران ١٢٢٨ ـ أيار١٢٢٩ .

عندما أبحر الامبراطور، وهو في لجة الحظر البابوي، من برنديزي في ١٢٢٨ ، وشرع بحملته الصليبية التي تأخرت كثيراً، كانت قوته صغيرة، تألفت من أربعين مركباً فقط، فقد كان الجزء الأعظم من جيشه قد تقدم أمامه، لكن وإن أخذنا ذلك بعين التقدير كانت الحملة الصليبية الامبراطورية أقل عظمة مما خطط له بالأصل، وبعد ابحار دام أربعة وعشرين يوماً،اجتاز فيها الأسطول الامبراطوري سواحل كورفو، وسيفالونيا، والمورة، و كريت، وصل يوم ٢١ تموز إلى ميناء ليماسول في قبرص، حيث التقى بتوماس أوف أسيرا وفيلنغر ، وبالين صاحب صيدا، وبعض من أعيان نبلاء المملكة ، وكان يحكم مملكة قبرص آنذاك الملك هنري الأول، وكان صغيراً، وقد ناب عنه جون دي إيبلين صاحب بيروت، حيث كان يعمل وكيلاً يتولى إدارة المملكة، وكان فردريك يعدّ قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧، وكان قد اعترف بالتابعية للامبراطورية، ولهذا قرر فردريك الضغط من أجل حقه

بالسيادة على الجزيرة، وقد شجعه على ذلك: عموري برلياس ومجموعة من البارونات المضادين للايبلينيين ، الذين كانوا قد خرجوا لاستقبال الامبراطور قرب المورة، وقد بينوا له القيمة في الرجال، والمال، والامدادات التي سيؤمنها تملكه لقبرص لحملاته في القارة، وكانت القضية القائمة قضية قانونية، لأنه بموجب القانون الإمبراطوري كان يحق لفردريك بحكم سيادته، توجيه الملك الصغير وريث المملكة لأنه كان تابعاً امبراطورياً، لكن بموجب قانون قبرص كانت نيابة الملك بيد أليس أم هنري، وهي أقرب أقرباء الملك الطفل، وكانت المحكمة العليا لقبرص قد عينت فيليب دي ايبلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس، أثناء قصور وريثها، وعندما تولى فيليب مسؤوليات حكم المملكة، قام البارونات بناء عليه بتأدية يمين الطاعة لحكمه حتى يصل هنري الى السن الشرعي، وطالما أن الملكة أليس كانت تتلقى موارد المملكة، فالحكومة مسندة إلى الإيبليني، ولعله بسبب الخوف من الامبراطور بادعاء حق الإشراف على توجيه الملك القاصر، قام الايبليني في سنة ١٢٢٥ بتتويج هنري، وكان هذا عندما سرت أخبار خطط الحملة الصليبية الامبراطورية في قبرص، وتوفي فيليب دي ايبلين في عام ١٢٢٧، وانتقلت إدارة المملكة على الفور - بموافقة من المحكمة العليا - إلى أخيه جون صاحب بيروت ، وأدى النزاع فيما بين الايبلينيين وبرلياس إلى قيام حزب معارض قوي للإيبلينيين، بعدما حاول برلياس تأمين وكالة الملك من خلال الملكة أليس، التي رفضت محاولتها وأحبطت من قبل المحكمة، وكان الحزب المعارض يأمل بأن الإمبراطور سوف يؤكد حقوقه، وينتزع من الإيبلينيين الوكالة لنفسه.

و عندما طلب فردريك من الإيبليني أن يسلمه الملك و حكومة المملكة، استجاب صاحب بيروت إلى المطالب الامبراطورية فيما يتعلق بالملك، معترفاً بسيادة الامبراطور على الملك، لكنه رفض الاستجابة فيما

يتعلق بـالوكالـة، التي استحوذ عليها بمـوجب سلطات المحكمـة العليا، التي هو مسؤول أمـامها فقط، فالملكة أليس قد كانـت نائبة الملك، و لها حق التمتع بالموارد، و هو ـ أي الإيبليني ــ له حق الحكومة فقط ، الذي منح إليه مـن قبل المحكمة، و هو على استعداد لتقديـم حساب لمحكمة نيقوسيـا حول جميع ما قـام به، و قام فـردريك عن عمد بتعقيـدالقضية، بأن طلـب بالإضـافة إلى ماتقـدم تسليمه مدينـة بيروت، بحكم أنـه كان ملكاً للقدس و الإيبليني متملك لها كإقطـاعية من إقطاعيات القدس، ومن الضروري من أجل تـوضيح الأمور، أن نميز بعناية مسـألة العلاقتين اللتـان قامتـا بين فـردريك و الإيبلينـي : فبما أن فـردريـك كان يمتلـك السيـادة على ملـك قبرص، فقـد كـان بـإمكـانـه أن يطلـب الـولاء مـن الإيبليني لأنه كان مـن الاقطاعيين القبارصه، و هذا ماقـدمه له الإيبليني عن طـواعية، لكـن فردريـك ادعى النيابـة عن الملـك هنري، التـي هي بموجـب القانـون القبرصي كانت تعـود إلى الملكة أليـس، و قد أصرعلى الاعتراف بحقوقه كنائب، الأمر الذي رفض الإيبليني الاعتراف به، و لقد رأى فردريـك أن حكم الإيبليني قـد توقف بـالضرورة عندما وصـل هو، لأنـه هو النـائب القـانـوني،و طالـب بـالإعتراف بحقـوقه، و بـات مـن المتوجـب على الإيبليني تقـديم حسـاب له عـن السنوات التـي أمضاهـا بالوكالة، و من جهة ثانيـة عدّ نفسه الوكيل الإداري للملكة أليس، التي هـي النـائب الشرعي، وهـو مسـؤول أمـام المحكمـة العليا التـي منحتـه السلطات حتـى بلوغ الملك السـن القانونيـة، و بالمحصلة كـان هو على استعداد لأن يسلـم فردريك شخص الملـك الطفل القاصر، لأنـه امتلك حق السيادة عليـه، لكنه رفض تقديم أي حسـاب إلاّ إلى المحكمة العليا في نيقوسيـا، و كانـت العلاقـة الثانيـة بين فردريـك كملك للقـدس و الإيبليني كصـاحب لبيروت، و هنا أبـدى الإيبليني استعداده لتقـديم الولاء لفـردريك كملـك للقدس، و أن يخدمه مقـابل اقطـاعه في بيروت الذي هو مستحوذ عليـه منه، و طلب فردريك التسليم الفـوري للاقطاع

حيث ادعى أنـه يعود إلى الأمـلاك الملكيـة، و كان الاقطـاع قد جـرى منحـه إلى الإيبليني مـن قبل الملـك عمـوري الثاني و الملكـة ايزابـل، و بموجب قوانين القدس كان التابـع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة القسرية للملـك، وواضح في القـوانين تمام الوضـوح أن التابـع يمكن أن يحرم مـن إقطاعـه فقـط بموجـب قرار مـن المحكمـة العليا للقـدس، و تعلقت المسألة هنا بجميع امتيـازات الحقوق التي تمتع بها ملك القدس، و كان فردريك يحاول أن يفـرض امتيازات و أن يمارس أموراً لم يسمع بها فيما وراء البحار، و كـان الإيبليني مصراً على التمسك بحقـوقه كإقطـاعي حسبما هي مضمونـة في شرعة المملكة، و على هذا كـان الصراع أكبر منه صراعاً بين فردريك و بين صاحب بيروت، فلقـد كان صراعاً أساسياً بين نظامين متعارضين: أولهما مـن جانب القانون الرومـاني و الامتيازات، ومن الجانب المقـابل القـانون الاقطـاعي مـع حقوق الأفـراد، و كانـت قوانين الدول الصليبيـة قد تأسسـت في القرن الثـاني عشر على قواعد إقطـاعية صرفـه، و كـانت الحقـوق الفـردية في جميـع الأحوال محميـة، و لم تعـرف قـوانين القدس أي شيء حـول الامتيـازات، و لم تكـن فيها مجمـوعـات القوانين الرومانيـة أو مؤثراتها، فلقد كان بإمكان فـردريك الثاني أن يكون صاحـب صقلية بلامنازع و الامبراطـور الشرعي لألمانيا، غير أنـه كان في القدس ملكـاً اقطاعيـاً، خاضعاً للقـانون، وغير قـادر على فعل أي شيء بدون موافقـة المحكمة العليا، التي كانـت مكونة من إقطـاعيي المملكة، والتي امتلكت السيادة في جميع الأشياء.

ولقـد روى فيليـب دي نـوفـار أفضل تفـاصيـل أخبـار هـذا الصراع، وأعطـى الإيبلينـي رهـائن مقـابــل ظهـوره في كـل مـن محكمتـي قبرص والقدس، وتـراجع إلى نيقـوسيا، وعندمـا لحقه فـردريك إلى هنـاك، رفض صاحـب بيروت القتال ضد الرجـل الذي كان مولاه، وانسحـب متراجعاً إلى ديو دامور، متخليـا بذلك عن نيقـوسيا لأعدائه، ولو امتلـك فردريك

المزيد من الوقت لأمكن القتال من أجل المسألة، ولوجدت حلاً كليا في صيف ١٢٢٨، لكنه تسلم رسالة أخبرته عن العصيان الذي كان البابا يثيره في إيطاليا ضده، وكان قلقاً لإكمال صليبيته ومن ثم العودة إلى الغرب، ونتيجة لهذا أبرمت معاهدة، وبموجبها جرى إعادة الرهائن الإيبلينية الى قلاع المملكة، وهم البينات البديهية للحكم، وتم تسليمهم إلى يدي إقطاعي تابع للملك هنري كان قد جرى اختياره من قبل الامبراطور، وقد احتفظ هذا بهم باسم الملك، ووعد الإيبليني بمرافقة فردريك في صليبيته، وغادر فردريك قبرص في الثالث من إيلول، بعدما أمضى ثلاثة وأربعين يوما في قبرص، وتوجه فردريك إلى سورية، وأخذ الملك هنري معه.

وبعدما أبحر مروراً بالبترون، وببيروت، وبصيدا وبصور، وصل الامبراطور إلى عكا، حيث جرى استقباله بحماس كبير من قبل السكان، مع أن رجال الدين رفضوا منحه قبلة السلام، حتى يتصالح مع الكنيسة، وعاشت هذه الصداقة مع السكان لمدة قصيرة فقط، فبعد أيام قليلة من وصول الاسطول الامبراطوري، وصل بعض الرهبان الفرنسيسكان إلى عكا وهم يحملون رسائل من البابا ضد فردريك، وهي تأمر جميع المسيحيين الطيبين بالابتعاد عنه وبتجنبه، بما أنه محروم كنسيا ولم يتب، وأرسل الامبراطور الكونت هنري صاحب مالطا ورئيس أساقفة باري إلى روما ليعرضا قضيته أمام البابا غريغوري، وليسعيا لضمان السلام حتى تتمكن الحملة الصليبية من المضي دونما إعاقة، غير أنهما وجدا البابا العجوز متصلباً في رفضه في قبول الاعتذار الامبراطوري.

وفي الوقت نفسه أعاد فردريك من عكا المباحثات مع السلطان الكامل، الذي كان معسكراً في نابلس، وكان توماس أوف أسيرا، وبالين صاحب صيدا هما الرسولان الامبراطوريان، وعاد الشيخ فخر الدين رسولاً من السلطان إلى الامبراطور، وكان فردريك راغباً بشدة في إتمام

التحالف على أساس الشروط التي تقدم بها الكامل في ١٢٢٦، لكن السلطان لم تكن لديه الرغبة الآن في تقديم التنازلات الكبيرة، طالما أن المعظم كان الآن ميتاً، وقد زال الخطر من دمشق، لأنه بعد وفاة المعظم غزا السلطان المصري فلسطين واستولى لصالحه على القدس ونابلس، وبات أقل رغبة في إعطاء فردريك مدناً هي الآن في يده وليس كما كان من قبل— عندما تنازل عنهن— في أيدي منافسه، وكان قد تمكن في آب من عام ١٢٢٨ من نيل معاهدة من الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة، وأخوه أيضاً، اقتسما بموجبها ممتلكات الملك المعظم، وبذلك حرما كليا الملك الناصر داود، وهو ابن المعظم ووريثه، وعلى هذا كان وضع الكامل قد تمتن كثيراً، وباتت حاجته للتحالف مع فردريك ضئيلة، وكان فردريك من الجانب الآخر، بحاجة كبرى إلى السلطان، لأنه مع القوة الصغيرة التي كانت تحت تصرفه، لم يكن ليأمل بالاستيلاء على أي شيء بقوة السلاح، وكان عليه أن يعتمد على طيب نوايا السلطان نحوه، وعلى إمكانية تأمين أي شيء من خلال المفاوضات في سبيل الوفاء بالشروط التي جرى عرضها من قبل،وازداد وضع فردريك ضعفاً بمعرفة السلطان بالصراع فيما بين الامبراطور والبابا، ولإنعدام الوحدة داخل المعسكر المسيحي، وأكثر من هذا لقد كتب غريغوري مباشرة إلى السلطان يطلب منه أن لايقدم أية تنازلات إلى فردريك، لهذا كان ما تمكنت الحملة الصليبية من تحقيقه قد جاء بالدرجة الأولى محصلة للإحترام المتبادل الذي قام بين الامبراطور والسلطان، وبفضل الصداقة التي بذل فخر الدين جهوده في سبيل إقامتها، وتأسيسها فيما بين الحاكمين المتشابهين بالعقلية.

وانتقل الكامل من نابلس إلى غزة ولحقه فردريك باتجاه الجنوب، حيث زحف إلى يافا في تشرين الثاني لعام ١٢٢٨، ونتيجة لإصدار البطريرك جيرولد حرماناً كنسياً ضد الامبراطور، رفض مقدما الاسبتارية

والداوية الزحف تحت الراية الامبراطورية، لكنهما قاما بعمل تسوية، بأن زحفا على بعد مسيرة يوم واحد من جيش فردريك وأعلنا أنهما كانا لايخدمان في جيش الامبراطور بل في جيش المسيح، وشكل الجيش الصليبي وإن كان صغيراً شيئاً من الرعب بالنسبة للملك الكامل، وصحيح أن الصليبيين كان عددهم صغيراً بالفعل، ولايمكنهم تشكيل خطر حقيقي على مصر، لقد امتلكوا من القوة ما فيه الكفاية لأن يجعلوا السلطان غير قادر على تجاهلهم، وأيضاً غير قادر على متابعة حروبه في سورية حيث كان يتولى تقليص حجم ممتلكات الدمشقيين، وقد أمل الكامل— لبعض الوقت— بأن يعجز فردريك عن البقاء في فلسطين، وأنه سوف يرغم على العودة إلى الغرب دون أن يتمكن من إنجاز ما أراد إنجازه في إعادة الاستيلاء على القدس، وصحيح أنه قدر تقديراً صائباً رغبة الامبراطور في العودة إلى ايطاليا، هو لم يقم تقديراً كافياً لإصرار فردريك على ان يحمل معه بعض النتائج القيمة لحملته، حتى لايظهر بمظهر المخفق في أعين العالم المسيحي، وقد التجأ كل من فردريك وغريغوري إلى الرأي العام، وكان على فردريك العودة مع ثمار للنصر كيفما كان قد تم الحصول عليها، ونتيجة لهذا بينما سعى الكامل إلى إطالة أمد المفاوضات، تمسك فردريك بإصراره على تسليمه القدس والبلدات الفلسطينية الأخرى، وكان موقفه لبعض الوقت خطيراً، فقد أخرت العواصف الاسطول الذي كان يحمل الميرة، ولم يستطع الوصول إلى يافا لبعض الوقت الذي مضى بعد وصول الجيش، وعانى الناس من نقص الميرة والإمدادات، وأصبح الامبراطور يائساً، لكن الحظ ابتسم له أخيراً، فقد قام الملك الناصر داود— الأمير الدمشقي المخلوع— بغزو سورية بغية إعادة الاستيلاء على ممتلكات أبيه التي كان عماه يحاربان في سبيلها، وقد حوصر في دمشق من قبل الأشرف، وبات الآن هناك خطر يواجه الكامل فإما أن يتمكن الناصر داود من استرداد أراضيه ، أو أن يقرر الأشرف احتلال أكثر من حصته، وصار الآن على الكامل حتى

يحافظ على مكتسباته في سورية أن يبذل غاية جهده حتى يتحرر من الانشغال بالحملة الصليبية، وذلك لكي يتدخل بشكل فعال في الحرب السورية، ونتيجة لهذا كان فخر الدين قادراً على إعداد معاهدة تسلم بموجبها فردريك أكثر مما كان يتوقعه، ويمكنه ضمانة،، مما أعطاه القدرة على العودة إلى الوطن وهو جالب إليه« سلام مع مجد»، ويروى بأن الامبراطور قد قال لفخر الدين: «لولا أن أخاف من انكسار جاهي في عيون الفرنجة، ما كلفت السلطان شيئاً من ذلك»، في حين دافع الكامل عن المعاهدة بقوله: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الاسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»، وفي الوقت الذي انتقدت فيه المعاهدة من كلا الطرفين، توفرت لدى المسلمين أرضية أفضل للشكوى والنقد.

وكانت معاهدة يافا هذه التي أبرمت أخيراً في ١٨— شباط لعام ١٢٢٩ عبارة عن اتفاقية شخصية بين السلطان والامبراطور، وقد أعدت بشكل سري، فما من واحد من الأعيان السوريين استشير لدى إعدادها، وقد غضبوا حيال إبرامها، وقد رست تماماً واعتمدت على النوايا الطيبة لكل من السلطان والامبراطور من أجل فرضها وتطبيقها، وقد عقدت من أجل خاطر فردريك شخصياً، وليس لصالح مملكة القدس، أو الكنيسة المسيحية، فقد كانت هذه غاضبة حسبما مثلها رجال الدين، وكانت المواد الاساسية للمعاهدة كما يلي:

١— يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.

٢— تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحرية في ممارسة شعائرهم هناك دونما إعاقة.

٣— للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديانتهم.

٤— يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.

٥— يمتلك المسلمون محكمتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.

٦— وعد الامبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان، وأن لايساعد أحداً ضده.

٧— سوف يمنع الامبراطور أي واحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان، ويعيق أي إنسان قد يقترح فعل ذلك.

٨— تعهد الامبراطور شخصيًا بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للهدنة.

٩— تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع : صافيتا، والمرقب والكرك (قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاسبتارية) كما هي، حسبما كانت (أي هي غير مشمولة بالمعاهدة)، وينبغي على الامبراطور أن يمنع أي من رعاياه: من سوريين وآخرين، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان.

١٠— ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الامبراطور.

١١— ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الامبراطور.

١٢— ينبغي إعادة تبنين مع أراضيها وقراها.

١٣— ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.

١٤— ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.

١٥— يسمح بإعادة بناء أسوار القدس، ويافا، وقيسارية والقرين

(قلعة فرسان التيوتون) من قبل المسيحيين (ذكر المقريزي أن مدينة القدس لم تحصن).

١٦— لايسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.

١٧— سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حمله دمياط.

١٨— مدة الهدنة عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يوما.

ومع أن المعاهدة قد حققت لفرنجة سورية أكثر مما حققته أية حملة صليبية أخرى منذ الحملة الأولى، ومع أنها لاقت القبول من قبل السواد الأعظم من الجيش الصليبي، ومن شعب البلاد، كانت غير مقبولة لدى البطريرك جيرولد مع رجال الدين، وانتقدت المعاهدة بتسويغ أعظم من قبل المسلمين، الذين شعروا بأن السلطان كان مسرفاً جداً بكرمه، ورفض الناصر داود بشكل خاص القبول بأداة تصرف بموجها عمه وأعطى مدناً، شعر بأنها تعود إليه شرعاً، واستغلت هذه الحقيقة من البطريرك جيرولد، الذي ألح على رفض داود واتخذ منه حجة للمعارضة من الجانب المسيحي، كما وعارض البطريرك المعاهدة بشكل رئيسي لأنها سمحت للمسلمين بالعبادة في القدس، وجعلت الامبراطور يتعهد بعدم السماح لأي صليبي بغزو مصر، وهذه الفقرة رأها رجال الدين وعدّوها على أنها أكثر الفقرات لامسيحية.

ولم يؤثر رفض البطريرك والناصر داود لقبول المعاهدة أي شيء على الاطلاق، وذلك فيما يتعلق بفردريك والكامل، وكان الامبراطور الآن قلقاً جداً— أما والمعاهدة قد أبرمت— لكي ينهي أعماله ويعود إلى الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع

الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع المعاهدة— تتويجه لنفسه بشكل مهيب ملكاً على القدس، وكان ذلك في كنيسة الضريح المقدس، ورفض عدد كبير من البارونات إتباع الامبراطور إلى القدس، وكان ذلك بناء على أوامر من البطريرك، وعادوا إلى عكا، مع أن الصليبيين من الغرب، وفرسان التيوتون وعدد كبير من البارونات المحليين قد رافقوه، وبما أن الامبراطور كان ما يزال محروماً فقد جرى احتفال التتويج بدون موافقة البابوية، مع أن رئيس أساقفة كابواCapua وبالرمو وكذلك عدد كبير من رجال الدين الأدنى مرتبة كانوا بين الحضور، ووضع وقتذاك تاج القدس فوق المذبح في الكنيسة، ومن على المذبح تناوله الامبراطور نفسه، ووضعه على رأسه، ثم تكلم فون سالزا باسم الامبراطور، وتوجه إلى الشعب مؤكداً له أن رغبته العظيمة هي التصالح مع البابا وإقامة سلام معه، وسوغ مواقفه بالنسبة للتهم التي صدرت ضده.

ثم مالبث الاحتفال أن تحول إلى حزن، فبعد التتويج بأمد وجيز قام رئيس أساقفة قيسارية، بناء على أوامر من البطريرك، فوضع الكنيسة والأماكن المقدسة في المدينة تحت الحرمان، وكانت هذه بالحقيقة ضربة مؤلمة للحجاج الذين ارتحلوا إلى المدينة المقدسة، فهم قد حرموا الآن من المنافع الروحية التي توفرت هناك، لابل أكثر من هذا، لقد باتوا عرضة للعقوبة لوجودهم هناك، وبعد ما قام فردريك بكل سرعة ببعض الترتيبات الدفاعية عن المدينة المحرومة، انسحب منها، وزحف عائداً إلى يافا، ثم قام في ٢٥— آذار، أي بعد اسبوع واحد تماما مضى على تتويجه بالعودة إلى عكا.

وأمضى الامبراطور شهر نيسان في عكا، حيث كان لديه عدداً من القضايا عليه ايجاد حل لها قبل أن يغادر البلاد، وتصدر هذه القضايا من

حيث الأهمية ما كان ضد البطريرك وضد الداوية، الذين اتهمهم بأنهم حاولوا قتله بوساطة كمين نصبوه له بناء على طلب من البابا، وقد حاصر لمدة خمسة أيام البطريرك والداوية في بيوتهم في عكا، حيث نصب آلات الحرب، وقاد عمليات حصار نظامية ضدهم، ورد البطريرك على هذا بفرض حرمان لاهوتي على الذين تولوا مساعدة الامبراطور، ووقفوا ضده وضد الداوية، وبشر الرهبان بمضمون هذا المرسوم، وعليهم نزل غضب الامبراطور، الذي أمر بجرهم من فوق منابرهم، وضربهم في شوارع المدينة، مثل اللصوص العموميين، وقام الامبراطور بالوقت نفسه بربط الفرسان التيوتون والبيازنة به أكثر، وجعلهم متعلقين به شخصيا عن طريق عدد من مراسيم المنح الكريمة التي صدرت في عكا في نيسان عام ١٢٢٩، وباع بالوقت نفسه وكالة قبرص إلى عموري برلياس ومعه رفاقه الأربعة، وعين بالين صاحب صيدا، وغارنيير الألماني وكيلين له في سورية، وقد أنهى ترتيباته بكل سرعة، ذلك أنه كان قلقا جداً ومتعجلاً للعودة إلى إيطاليا، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة جون دي بريين يقوم بغزو أبوليا وكابوا، وأقلع الامبراطور يريد الوطن في الاول من أيار، على ظهر اسطول، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبه للتو من الغرب.

وتركت مغادرة فردريك لعكا الأوضاع في سورية والمشاكل فيها دونما حلول، حيث مابرح البطريرك مع رجال الدين يرفضون القبول بمعاهدته مع مصر، وكان الداوية معادين للامبراطور بشكل علني، ولم تعرض قضية الايبليني للمحاكمة في المحكمة العليا، وهكذا بقيت دونما حسم، وكان وكلاء فردريك في قبرص يسعون جاهدين من أجل تدمير ثروة الإيبلينيين وقوتهم في الجزيرة، وكانت الحملة الصليبية قد انتهت، لكن مؤثراتها على الدول اللاتينية لما وراء البحار لم يكن الشعور بها قد بدأ تماما.

ج— الحرب الامبراطورية الايبلينية حتى طرد الإمبراطوريين من قبرص، ١٢٢٩— ١٢٣٣.

كان الزمان الـذي جاء مباشرة إثر عودة فردريـك من الحملة الصليبية مـوائماً جداً لسعـد الامبراطـور ولصالـح قضيتـه، فقـد تمكن في الغـرب بنجاح مـن طرد الجيـوش البابـوية من المملكـة الايطاليـة، ومن ثـم نقل الحرب إلى داخل الـدول البابويـة، وفي تلك الأثنـاء تمكن بالين صـاحب صيـدا، الذي كـان وكيلـه، من إحبـاط محاولة قـام بها بعـض البداة مـن المسلمين لـلاستيـلاء على القدس، وضمـن القبـول بمعـاهـدة يافـا مـن سلطان دمشق، وجـرت مصادرة ممتلكات الداويـة في صقلية، وأرغموا في الشرق على التخلي عن مطـالبهم نحوصيـدا وصور، وكـان الحزب المعادي للإمبراطور قد اتخذ وضع الهجوم بعـد وقت قصير من مغادرة الامبراطور، لكـن محاولته لخلـع الامبراطـور من عـرش القـدس قـد أخفقت، وأعلـن بـارونـات المحكمـة العليـا عـن أنفسهـم أنهم تـابعين للملـك كـونـراد ولفردريك والـده، وتركزت المحاولـة حول شخصية أليس صـاحبة قبرص التي كانـت ابنة ايزابل صـاحبة القدس وهنري دي شـامبين، فقد مثلت أمام المحكمة تطالب بعرش القـدس، على أساس أنها أقرب أقرباء الملكة ايزابل المتوفاة، وقد أقرت بـأن كونراد كان ملكاً شرعياً، لكنها أصرت على أنه لم يـأت للمطالبة بميراثه في مـدة سنة ويوم بعـد تسلمه لهذا الميراث، وعلى هذا لقـد فقد جميع حقـوقه بـه، وعليه انتقل الميراث إليهـا،ولم ينكر البارونات بأن القـوانين تتطلب وجوب قدوم كونراد إلى سـورية للمطالبة بعرشـه، لكنهم رفضوا القبـول بادعاءات أليس، وعـوضاً عن ذلـك بعثوا بسفارة إلى فردريك تتألـف من جون بيليول Bailleul، وغيوفري لى تور، للطلب بـوجوب قـدوم كونـراد إلى عكا في أقـرب وقت ممكـن، وغادرت السفارة عكا مع نهاية عام ١٢٢٩، ووصلت إلى فردريك في فوغيا Fog-gia في أيـار لعـام ١٢٣٠، ووعد الامبراطـور السفـارة بـدون لبس بـأنـه

سوف يرسل كونراد في أقرب وقت ممكن ،لكن فوق ذلك لم تحصل منه على أي شيء، وتابع في الوقت نفسه وكلاء الامبراطور حكمهم للمملكة، وعلى العموم زادت حكمتهم في إدارتهم من شعبية الحكومة الامبراطورية.

لكن إذا كان الوكلاء الامبراطوريون قد حكموا بعقلانية ، ونالوا الشعبية في سورية، على عكسهم تماما كان حكم البارونات الخمسة الذين ضمنوا الوكالة في قبرص من الامبراطور، ففي مسعاهم لتأمين المبالغ الضرورية لدفعها ثمناً لوكالتهم، فرضوا ضرائب ثقيلة على البلاد كلها، وسلبوا بشكل خاص ممتلكات الإيبلينيين وأصدقائهم، حيث أملوا بإبعادهم نهائياً عن قبرص، وحدث في حزيران ١٢٢٩، أن جون صاحب بيروت عاد من سورية إلى قبرص، وأثار البلاد ضد الوكلاء، وحدثت معركة قرب نيقوسيا في ١٤— تموز، هزم فيها الإيبليني مع مؤيديه برلياس ورفاقه، وأرغمهم على الالتجاء إلى القلاع الشمالية: في ديودامور، وكنتارا، وسيرينا، وبعد أمد وجيز استولى الايبليني على كنتارا وسيرينا، ثم ألقى الحصار على الوكلاء في ديودامور، ومن تموز ١٢٢٩ حتى ما بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، أبقى صاحب بيروت وأولاده الوكلاء تحت الحصار هناك، وأخيراً استسلموا وتخلوا عن شخص الملك هنري وعن القلاع، وتنازلوا عن كل ادعاء لهم بالوكالة، وهذه الحرب هي التي حدثنا عنها فيليب دي نوفار بالتفصيل، وهي التي فيها تناول بالهجاء رينارد.

وفي الوقت نفسه تابع فردريك بنجاح حملاته ضد الجيوش البابوية إلى حد أن الكرسي المقدس بات جاهزاً للسلام، ووصل الصراع إلى النهاية في تموز ١٢٣٠، بسلام سان جرمانو، وهدأت المشاكل الإيطالية، وجرى استقبال فردريك ثانية في الكنيسة بمثابة « الابن العزيز في المسيح»، وذلك من قبل البابا العجوز، وألغي الحرمان الكنسي، وصدرت الاوامر

إلى بطريرك القدس بسحب الحظر الذي فرضه، وأن يقبل معاهدة يافا، وفي الوقت الذي أضعف فيه هذا السحب للتأييد البابوي الحزب المضاد للامبراطور كثيراً جداً،لكنه لم ينه مقاومته ولم يحطمها، وتابع البطريرك والداوية مع الإيبلينيين مقاومتهم للوكلاء الامبراطوريين، وفي شباط عام ١٢٣١، كتب البابا إلى الداوية يطلب منهم الخضوع، لأن الامبراطور قد تشكى ضدهم في أنهم يقاومون أوامر وكلائه، ويثيرون الحرب ضد شروط الهدنة مع مصر، وأعدّ الامبراطور في الوقت نفسه حملة لإرسالها إلى سورية، حتى تقيم حكمه هناك في البلاد بشكل راسخ، ولتتولى القضاء على العصيان، وأمر وكلاءه بمصادرة أراضي القادة : جون صاحب بيروت، وولدي أخيه صاحبي: يافا وقيسارية، وصاحب طبرية .

ووضع الجيش الذي أرسله الامبراطور إلى سورية تحت إمرة رتشارد فيلنغر، الذي كان المارشال الامبراطوري،وقد أرسل على دفعتين، وتألفت الدفعة الأولى من ثمان عشرة سفينة تحت إمرة أسقف ملفي Melfi، وقد وصلت إلى رأس غافاتا Gavata قرب ليماسول في أيلول ١٢٣١، وكان الملك هنري في كيتي Kiti(تشيتي Chiti قرب لارنكا) مع صاحب بيروت، وإليه إلى هناك جاء أسقف ملفي، وهو جون دي بيليول، الذي كان سفير المحكمة العليا إلى فردريك، وكذلك أيمون الألماني حفيد الوكيل غارنيير الألماني، وقد طلبا باسم الامبراطور من الملك هنري أن يقوم بطرد جون دي إيبلين من مملكته ومعه أقاربه، وعلى هذا رد الملك بلسان وليم فيزكونت بأنه لا يستطيع طرد الإيبليني لأنه تابعه، وهو على هذا يستحق حمايته، أما فيما يتعلق بأقاربه، فإنه ـ أي الملك هنري ـ حفيد للإيبليني، وبالتالي لايمكنه نفي جميع الإيبلينيين من ممالكه، ومع هذا الرفض غادر السفيران الامبراطوريان، وبما أنهما كانا غير قادرين على إرساء أسطولهما في قبرص، لوجود قوة كبيرة جداً كان قد حشدها هناك صاحب بيروت، وعسكر بها عند ليماسول، فقد أبحرا

باتجاه بيروت، حيث استوليا على البلدة وشرعا في حصار القلعة، وعندما وصل فيلنغر مع الخمس عشرة سفينة المتبقية من الأسطول، اتجه مباشرة إلى بيروت، ووقعت القلعة الآن تحت الحصار الشديد، ثم إنه ترك شطراً من قواته تحت قيادة أخيه لوثير لمتابعة حصار قلعة بيروت، وتوجه هو إلى صور، التي استسلمت له، ثم ترك أخاه الآخر واسمه هنري، مسؤولاً عن القيادة هناك، ثم تابع زحفه إلى عكا، حيث تولى جمع المحكمة العليا، وقدم مراسيم من الامبراطور تعينه بموجبها وكيلاً على جميع مملكة القدس .

وتم قبول مراسيم اعتماد فيلنغر وتعيينه من قبل بارونات المحكمة العليا من دون سؤال،وبدأ المارشال حكمه في القدس بالالتفات نحو موضوع استسلام بيروت، وكانت هذه حركة سيئة الفأل، لأن الاستيلاء على بيروت كان معناه إلغاء لأحكام القانون الأكثر رعاية، أي قانون القدس حيث قضى أن لايعد إقطاع التابع غير شرعي إلا بموجب قرار المحكمة العليا، ولايجوز لإرادة سيد واحد إعلان اتخاذ مثل هذا الإجراء، وعندما بات واضحاً للبارونات أن فيلنغر ليست لديه نية في عرض القضية عليهم، أدركوا على الفور مدى المخاطر على حرياتهم التي سوف يمثلها حكم الوكيل، وكان بالين صاحب صيدا، وهو الوكيل السالف، وقائد الحزب الامبراطوري في سورية، وهو المتحدث باسم البارونات في الطلب من المارشال إخضاع القضية لقرار المحكمة، والالتزام بقوانين البلاد، وطلب فيلنغر إعطاءه الوقت ليتشاور مع القادة الآخرين من حزبه الذين كانوا في بيروت، وعاد إلى الحصار، وأرسلت إليه وفادة إلى هناك، وذلك حسبما طلب، وذلك حتى يسلم جوابه على مطالب البارونات، لكن المارشال رفض التخلي عن أي مطلب، مدعياً أنه كان يطيع أوامر الامبراطور، واقترح أنهم إذا أرادوا عرض قضيتهم واستئنافها يتوجب عليهم إرسال ممثلين عنهم إلى الامبراطور نفسه، وهو

بلطفه لاشك سوف يعطيهم العدل، ومن أجل حمل هذه الدعوى ذهب بالين صاحب صيدا،ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني في شتاء عام ١٢٣١ إلى إيطاليا حيث كانوا جميعاً حضوراً في كانون الأول يشهدون إصدار فردريك لمرسوم في رافينا .

وكان جون دي إيبلين في الوقت نفسه يحشد القوات للتفريج عن القلعة المحاصرة، وضمان عون ملك قبرص، وقد بدل هذا سمة الحرب إلى حد ما، لأن دخول مملكة قبرص غيّر ما كان ثورة بارونات في صراع شبه محلي، وقام بارونات عكا وسكانها، وقد تحرروا من التأثير المعيق لكل من بالين ويودس، ونظموا أنفسهم داخل «كيمونة متعاهدة» وقد منحوا مقدميتها لجون دي إيبلين، وعهدوا بأنفسهم بالوقوف إلى جانبه، وفي كانون ثاني ١٢٣١، اجتمع جيش الإيبليني مع جيش القبارصة في فيماغوستا، وعبروا في الربيع التالي إلى سورية للتفريج عن بيروت، ونزلت القوات في ميناء القسطلان قرب في طرابلس ومن ثم زحفت باتجاه الجنوب، وتخلى برلياس وأعوانه عن الجانب الامبراطوري، وبادروا مسرعين لتقوية القوات التي كانت في بيروت وكانت تتولى حصار القلعة، وزحف الإيبليني والملك هنري على بيروت، واتخذا مكاناً لهما خارج المدينة، حيث أرسلا من هناك المساعدة إلى الذين كانوا في داخل القلعة،وعندما بات الإيبليني قانعاً بأن القلعة تلقت ما يكفيها من نجدات، وليس هناك من خطر مباشر عليها يهددها بالسقوط، قام بتقسيم قواته إلى قسمين، فأرسل قسماً تحت قيادة ابنه الأكبر بالين إلى طرابلس في محاولة مخفقة لكسب أمير طرابلس ـ أنطاكية إلى جانبهم، بينما قاد هو نفسه المتبقي من الجيش وذهب إلى عكا، وتلقى هناك في نيسان ١٢٣١ قسم«الكومونة»، واستولى على الأسطول الامبراطوري الذي كان راسياً في الميناء، واستهدف فيلنغر في الوقت نفسه إحداث البلبلة بإرسال بر لياس وبعضاً من رجاله إلى قبرص، حيث عاثوا فساداً في

البلاد التي تركها الإيبليني بدون حماية، واستولوا على قلاع الجزيرة، وفقط قلعتا: ديودامور وبـوفافينتو Buffavento صمدتا ضدهـم، ولكي يقوم بعمل انتقـامي خطـط الإيبليني لمهـاجمة القاعـدة الإمبراطوريـة في صور، وهكذا اضطر فيلنغـر مرغماً لسحب قواته من حصـار بيروت وذلك بغية تحصين المدينـة، وزحف القبـارصة شمالاً مـن عكـا حتى قلعـة ايمبرت، حيـث حدث بعـض التـأخير سببـه بطريـرك أنطـاكيـة ، الذي اجتـذب الإيبليني للعودة إلى عكـا، مع وعود بالمصـالحة حيث ادعى بأنـه يمتلك السلطـة لتـأمين ذلـك وبحثـه، وتـرك القبـارصـة معسكـرهـم نهبـاً للفوضـى،وفوجئوا وهـم على حين غرة حينما تعرضـوا ليلة ٣ ـ ٤ مـايس إلى هجوم مفـاجىء جاء مـن صور، وهـرب القبارصة بشكـل سيء جداً، ونجا الملـك هنري بعـدما أصيـب بالـرعب، وتشتـت معظم الفـرسان في المنطقة المحيطة، وتشجـع فيلنغر بهذا النصر والنجاح في المعركـة، وبعث على الفور بقواته الرئيسية إلى قبرص لانجاز احتلال الجزيرة بالكامل .

وعندمـا سمع الإيبلينـي بالمعـركة المأسـاوية، بـادر بالتـوجه إلى قلعـة إيمبرت، حيـث تولى جمع قـواته الممـزقة، وقـام «بتراجع استراتيجـي» إلى عكا، وأبـرم هناك اتفاقـاً مع الجنويين الذيـن زودوه ورجاله بـالسفن، كما حصل القبـارصة على مزيـد من الإمدادات، فسلـح رجاله للقيـام بهجوم معاكـس على قبرص، وعبر إلى هناك إلى فيماغـوستا، وكـان ذلك في نهايـة مايس، واستـولى على فيماغوستا على حين غرة، بـوساطة هجوم مفـاجىء، ثم سارع القبارصة بـالزحف نحو نيقوسيا بحثاً عن الأعـداء، الذين كانوا مشغـولين بحصـار ديودامـور، وانتقـم هنـاك أغـريديـة قبرص لأنفسهـم ولهزيمة قلعة إيمبرت ، وأنزلوا هزيمـة ساحقة برجال الحزب الامبراطوري وأرغموهـم على الدخول إلى قلعة سيرينـا، واحتاج إعادة احتـلال الجزيرة من الإيبلينـي عدة أيـام فقط، واستقبلـه السكان القبـارصة مـع رجالـه استقبـال المحرريـن، مـع أن رجـال الحزب الامبراطوري امتلكـوا بعـض

المتعاطفين في الجزيرة، وترك فيلنغر فيليب شنارت Chenart وولتر دي أكوفيفا Acquaviva مسؤولين عن القيادة في سيرينا التي كانت تحت الحصار الشديد من قبل القبارصة، وتوجه ينشد المساعدة في أرمينيا، وأنطاكية وطرابلس، ولم ينجح فيلنغر في ضمان النجدات، وخشي من أن تستهلك الحامية الكبيرة في سيرينا المؤن الموجودة في المدينة مما يسبب سقوطها السريع، لهذا انسحب ومعه برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وبعدما توقف في صور ليتفقد حاميته هناك، ذهب إلى أبوليا ليطلب العون من الامبراطور، وفي الوقت نفسه شدد القبارصة الحصار على سيرينا، التي قطعت الأمل من وصول أية نجدات، فاستسلمت وفق شروط مشرفة في ربيع سنة ١٢٣٣، ويشكل هذا التفريج عن بيروت وإعادة احتلال قبرص الحلقات الأساسية الثانية من الحوادث التي جاءت في تاريخ فيليب دي نوفار.

وفي الوقت الذي كان فيه فيلنغر يسعى بدون نجاح كبير، لضمان السيطرة الإمبراطورية على سورية بقوة السلاح وكذلك على قبرص، كان البابا يسعى لأن يزيل واحداً من أسباب التمزق على الأقل، ولم يتوقف، في الوقت نفسه، البطريرك جيرولد الذي كان بطريرك القدس، عن معارضة مطامح الامبراطور، ومع أنه لم يقم بأي عمل معلن في مقاومة وكيل الامبراطور، لقد قدم المساعدة المعنوية للحزب الإيبليني، واحتج فردريك بشكل جدي على هذا، وقام غريغوري الذي كان مايزال راغباً بشدة في الحفاظ على الصلح والسلام مع الامبراطور، بالكتابة إلى جيرولد يطلب منه تقديم الطاعة إلى الامبراطور التي هي واجبه، وأن يتوقف عن مساعدة الذين تمردوا عليه، لكن البطريرك لم يستجب تمام الاستجابة، وهكذا لم يتوصل الامبراطور إلى الشعور بالرضى، وبناء عليه كتب البابا ثانية في تموز إلى البطريرك جيرولد يأمره بالقدوم على الفور إلى روما، جالباً معه من يمثل كل من الداوية

والاسبتاريـة، حتى يمكنهـم إيجاد حل للقضـايا التـي تثير الاضطراب في القدس،وعنـدما بدا جيرولـد متردداًبشأن الذهـاب، كتب غريغـوري إليه من جديد في ٢٦ ــ تموز، حيث انتزع منه وظيفته كنائب للبـابا ما لم يقدم إلى رومـا في العبـور المقبـل، وأضفي المنصـب الشرعـي في سـوريـة على ألبيرت بطريـرك أنطاكية الـذي كان منحازاً لفـردريك، وقد وجهـت إلية التعليمات بـالتشـاور مع مقـدمـي منظمات الفـرسان في سبيـل استعـادة السلام، وإعادة العصاة إلى حظيرة الطاعة .

وصحيح أن ألبيرت كان مـن قبل يسعى في سبيل إعـادة السلام قبل معـركـة قصر إيمبرت، بـدا الآن غير قـادر على تـأمين أي حـل لقضيـة الساعة آنـذاك، وهكذا باشر فردريك بنفسه العمـل في سبيل الحل، فلقد اعتقد أن بإمكانه نيل رضا بارونـات سورية بتقديمه لبعض التنازلات لهم فيما يتعلق بقضية الـوكيل، وقد بعث برسائل على يـد أسقف صيدا،مخولاً تعيين وكيل جديـد في عكا، ورشح لهذاالمنصب واحـداً اسمه فيليب دي مو غاستلMaugastel ، وكان صديقـاً قريب الصلة مـن فيلنغر الذي كان مـرفوضاً كلياً لـدى معظم البارونـات، ومع أن بالين صاحـب صيدا ويـودس دي مونتبليـارد آثرا هـذا الاقتراح، وسعيا في سبيـل تأمين قبـول فعلي من قبل المحكمة العليا في عكا، لقد كانت المعارضة قوية جداً، وقد قادها اللورد الشـاب لقيسارية، مع مؤيديْ الإيبلينيين، وبـدأ شعب عكا بالشغـب، مما عطل اجتماع المحكمة وجعـل أسقف صيدا مـع إثنين من الـوكـلاء السالفين يفـرون طلبـاً للسـلامـة، وقـوبلت محاولـة الامبراطـور بالتصـالح بـرفض حـاد، ونال حـزب الإيبلينيين نصراً نوعيـاً، إلى حد أن المحكمة العليا قد أعلنت أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد هما الوكيلين الصحيحين للملك كونراد، وكانـت النظرية التي رست وراء هذا الاجراء هي أنهما قـد انتخبا من قبل المحكمة إثر وفـاة الملكة إيزابل، وزيادة على هذاقـد جرى تعيينهما من قبل فردريـك شخصياً في المحكمة

العليا، وأن الذي إتخذ إجراءاً في المحكمة يمكن نقضه هناك فقط، ثم إن التعيين بوساطة الرسائل غير مقبول، وسيبقى التعيين القديم قائماً حتى يأتي كونراد شخصياً، ويعين وكلاء جدد، وكان هذا الإجراء عظيم القيمة بالنسبة للإيبلينيين ذلك أنه فصل بالين ويودس عن فيلنغر وحزب الامبراطور في صور، وربط مصالحهما جزئياً مع ثوار القبارصة ، وترسخ وضع جون دي إيبلين في منصبه مقدماً لـ «كومونة» عكا.

ومع نهاية سنة ١٢٣٣كان وضع أعوان الحزب الامبراطوري في سورية سيئاً جداً، وجاء هذا محصلة لطرد قواتهم طرداً تاماً من قبرص، ولأن عكا أعلنت الثورة وانتظمت داخل«كومونة» ثورية، وبسبب أن المعتدلين الذين أيدوا بالأصل الجانب الامبراطوري قد باتوا غرباء عن الحامية الامبراطورية وخضعوا لحزب الثوار، وكذلك بسبب رفض التسوية التي عرضها الامبراطور، يضاف إلى ذلك النقص المتزايد في الموارد المادية، وحافظت حامية صور على إخلاصها للامبراطور،وبقي ولاته يحكمون في القدس وفي عسقلان، لكن مع هذا لئن لم تكن القوات الامبراطورية قد طردت نهائياً من سورية، لقد كان من الضروري إقامة سلام ما في الحال.

د — *الصراع مع صور، ١٢٣٤ ـ ١٢٤٣*

ومع أن آفاق المستقبل للامبراطوريين كانت في أدنى حدودها مع بداية سنة ١٢٣٤، لم يكن كل شيء قد ضاع إذا كان أمكن إقامة سلام دائم، وعمل ألبيرت بطريرك أنطاكية بنشاط ومعه هيرمان فون سالزا، الذي أعيد إلى سورية لمساعدة النائب البابوي، في تأمين معاهدة سلام مقبولة من الحزب المعتدل، الذي بقي مخلصاً للملك كونراد لكنه معادٍ لفيلنغر، وقد ضم هذا الحزب أكثرية بارونات المحكمة العليا، ونتيجة لذلك تم في أوائل سنة ١٢٣٤ إقامة سلام مبدئي بين يودس دي مونتبليارد والبارونات وسكان عكا من جانب، وفون سالزا والنائب البابوي من الجانب الآخر، وقد أرسل مشروع هذا السلام إلى البابا وإلى

الامبراطور للموافقة عليه، ووافق غريغوري في ٢٢ ـ آذار ـ لعام ١٢٣٤، وفي آب التالي بعث فردريك مع البابا رئيس الأساقفة تيري صاحب رافينا بمثابة نائب خاص ليتولى إبرام الاتفاق في سورية، وأرسل البابا في الوقت نفسه رسالة إلى جون دي إيبلين يأمره فيها بإيقاف عصيانه ضد الامبراطور، وقد طلب منه إقامة سلام على الفور، لكن الإيبليني ما كان ليهزم بمجرد أمر بابوي، ونجد في هذا المجال وفي مجالات أخرى تشابهاً مدهشاً فيها بين الإيبليني والقديس لويس صاحب فرنسا، ففي الوقت الذي كانا فيه متدينين شخصياً بعمق، لم يسمح أي منهما للكنيسة بأن تملي عليه ماهو مضاد لما أملاه عليه ضميره وحسن تدبره .

ونتيجة لهذا مرت السنة وانتهت دون قبول الحزب الثائر للسلام، وفي تموز عام ١٢٣٥ كتب البابا غريغوري ثانية الى الإيبليني طالباً منه الخضوع، وقال البابا بأن الإيبليني كان يضلل الناس في عكا ويبعدهم عن خضوعهم الحقيقي للامبراطور، وأنه كان يخطط لخيانة أعظم بالهجوم على صور، وهذا ما ينبغي له عدم القيام به بل يتوجب عليه الخضوع للامبراطور، وأن يقيم سلاماً يحترم حقوق فردريك، وفي الوقت نفسه أرسلت رسائل إلى عكا تأمرهم بعدم مسايرة الإيبليني في خيانته، وإلى الداوية تطلب منهم مساعدة فيلنغر ضد الإيبليني والثوار الذين كانوا يخططون لمهاجمة صور، هذا ولم يكن غريغوري راغباً في اتخاذ إجراءات قاسية جداً ضد عكا، وعندما وضع رئيس الأساقفة تيري المدينة تحت الحرمان الكنسي في محاولة منه لفرض الطاعة، ألغى البابا الحرمان، على أساس أن أهالي عكا كانوا محاطين بعدد من العقائد الأصولية، وهكذا من الممكن خسارتهم خسارة أبدية بالنسبة للكنيسة الرومانية في حالة فصلهم وإبعادهم عن جماعتهم بهذه الوسيلة، ومعنى هذا أن المسيحيين اللاتين فيما وراء البحار قد يجدون ولاءً جديداً في إحدى العقائد الأكثر لطفاً، وشرقية أقل مركزية، غير مثيرة دوماً لقسوة البابا نحو أخطاء

الكاثوليك السوريين، ووضع غريغوري بالوقت نفسه عدداً من الحلول، فكر بأنها ستكون موائمة كقاعدة لسلام دائم : وبموجب ذلك كان سيعترف بكل من فردريك وكونراد على أنهما الحاكمين الشرعيين للقدس، وبالتالي سيمتلكان جميع السلطات التي امتلكاها قبل بداية الحرب، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع، وفرض الضرائب، وغير ذلك، وقد توجب عليهما إطاعة القوانين والعادات القديمة للمملكة،كما توجب حل«كومونة» عكا، وتهديم برج ناقوسها، وإلغاء مجالسها ومجامعها التي انتخبت بعد العصيان وحلها، كما ينبغي إعادة فيلنغر إلى وظيفته كوكيل حتى بداية أول آذار المقبل، ففي ذلك الوقت ينبغي تعيين وكيل جديد، وسبب ذلك أن فيلنغر قد تعرض للتشكيك به بشكل غير عادل من قبل أهل عكا، وينبغي في الوقت نفسه إبرام إتفاق سلام مع الملك هنري ملك قبرص، وتكفل البابا بتأمين أخذ قبرص بالشروط المقترحة والموافقة عليها، وقوبل هذا البرنامج بشيء من المعارضة من قبل ممثلي الامبراطور، أي بيرو ديلا فيجنا والأسقف المنتخب لباتيPatte ، لكن غريغوري تابع العمل حول محاولة السلام متخذاً هذا البرنامج بمثابة قاعدة، وقامت المحكمة العليا في عكا، بناء على اقتراح فون سالزا، بإرسال رسولين هما هنري صاحب الناصرة،وفيليب دي تروي، وكانا كلاهما من فرسان عكا، إلى البابوية، مع تعليمات بعقدمعاهدة، وفي شباط ١٢٣٦، كان البابا قادراً على أن يكتب إلى فردريك ، بأن السلام قد تأسس على الخطوط العامة لاقتراحاته، وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الخطة الأصيلة، التي قضت ببقاء فيلنغر في وظيفته كوكيل حتى الأول من أيلول، لكن في تلك الآونة نفسها يتوجب تعيين واحد من الأتباع السوريين للامبراطور، كان قد اختاره يودس دي مونتبليارد، ليقوم بواجبات وأعمال الوكيل حتى انقضاء مدة تعيين فيلنغر، وينبغي أن يقوم فيلنغر في أيلول بالتخلي عن الوكالة ومن ثم إسنادها إلى بوهيموند صاحب أنطاكية،

الذي سوف يتولى جميع الحقوق الملكيـة باستثناء الإشراف على قلعة صور، التي توجـب وضعها تحت حراسة فـرسان التيوتون، وإذا حـدث ورفض بوهيمـوند هذا الشرف، ينبغـي منحه إلى مـونتبليارد، وأيضاً إذا مـا رفض هذا، ينبغي تعيين واحـد من الأتباع الإقطاعيين، ولسوف يتـم العفو تماماً عن جميع الثوار ومسامحتهم، بـاستثناء الإيبلينيين : جون صاحب بيروت، وأولاده، وأولاد أخيه وهما: جـون صاحب يافـا، وجون صاحب قيسـارية، فهؤلاء كـانوا سوف يمنحون العفـو والمسامحة داخل مملكة القـدس، لكن بدون ضمان سـلامتهم في مكان آخر، وإذا مـا رفعت أية دعاوى ضـدهم فالمتوجب معالجتها في المحكمة العليا للقدس، لكن البابا كان قد تصرف من دون استشارة البارونات السوريين، وهكـذا عندما حملت هذه الشروط المتعلقة بـالسلام إلى المحكمـة العليا في عكا بـوساطة الـرسولين اللـذين أرسلا لمناقشة المعـاهدة، شعر بارونات المحكمة بالغضـب الشديد، حتى كادوا أن يبطشـوا بالرسـولين التعيسين، اللذيـن اتهموهما بالخيـانة، وأنهما تصرفا على عكـس مالـديهما من تعليمات، ورفضت المعـاهدة رفضـاً كلياً، ووافقت محكمـة عكا على إرسـال سفير عام مشترك مـع ملك قبرص إلى البابا، ليشرح لـه أسباب معارضتهم للسلام، ووقـع الاختيار على الفارس غيوفري لى تـور للقيام بهذه المهمة الدقيقة، وقد وصـل إلى جنوى في ربيع ١٢٣٧، وقد وجـد البابا في فـايتربو Viterbo حيث قـدم إليه الـرسائل المرسلـة من ملـك قبرص ومن المحكمـة العليـا في عكا وهـي التي كـان يحملهـا، ولقد وجـد البـابا راغبـاً تمام الرغبـة في استقبـاله والإصغـاء إلى شكاويهم، وكان سبـب ذلك أن المشاكل كـانت تفجرت من جـديد بين البابا والامبراطور، ولم يعد غريغوري مهتماً بشـأن مصالحة فردريك وتقوية وضعه، وبـالنتيجة حـرر غريغـوري بكل سرور البـارونات المحتجين مـن المعاهدة، ووعدهم بدعم الكنيسة في الدفاع عن حرياتهم .

وحدث في أثناء سير هـذه المباحثات أن فقد البارونات قـائدهم الذي

كان قد تولى قيادتهم بحكمة في أثناء معارضتهم للامبراطور ووكيله، فقد مات جون دي إيبلين صاحب بيروت العجوز في عام ١٢٣٦، وبدا أن روح الحزب الذي أسسه قد ماتت إلى حد كبير بموته، وفي الغرب كان فردريك مهتماً اهتماماً كبيراً في أن يحاول جاداً استرداد سلطاته في سورية، وقد رضي خلفاء صاحب بيروت بالحفاظ على هدنة مع الوكيل الامبراطوري في صور من سنة ١٢٣٧ حتى سنة ١٢٤١ ، وترك إخفاق خطة السلام البابوية بالطبع المسائل تماماً كما كانت قبل اقتراح المخطط، وتابع فيلنغر حكمه في صور بوصفه الوكيل الامبراطوري، وبالإضافة إلى هذا، حكم يودس دي مونتبليارد ـ على كل حال ـ في عكا بمثابة وكيل لكونراد، وذلك بتأييد المحكمة العليا، وما من واحد من الوكيلين اعترف بالآخر، وادعى كل واحد منهما بأنه الوكيل الحقيقي لكونراد، فقد عمل يودس تحت سلطان تعيين قديم جاء من المحكمة العليا، وعمل فيلنغر في الوقت نفسه في ظل شرعية تعيينه من فردريك، الذي كان هو نفسه الوكيل لكونراد، وبما أن دي مونتبليارد لم يحاول اتخاذ أي إجراء ضد الإيبلينيين، تم قبول حكومة عكا من قبل البارونات الثوار .

وكانت الحوادث الأعظم في تاريخ سورية في هذه الآونة هي التي تعلقت بصليبيتي كل من ثيبوت أوف شامبين، ورتشارد أوف كورنوول، وطلب فردريك من الصليبيين تأجيل هجومهم حتى انتهاء موعد هدنته مع مصر، وعرض أن يتولى قيادتهم بنفسه إذا ما قاموا بإنتظاره، واعترض البابا على التأخير المقترح، وغادر الصليبيون بدون تأييد الامبراطور، مع أنه عرض بكرم تزويدهم بكميات كبيرة من الميرة والأطعمة، وكانت دمشق ومصر مرة جديدة تتحاربان، وفلسطين تعاني من ثم من الصراع بين القوتين الأعظم، وجرى احتلال القدس لوقت قصير من قبل المسلمين، وأرغمت الحامية الصليبية على الفرار، وكان الداويةيتباحثون مع دمشق من أجل التحالف، والإسبتارية مع مصر، وقرر الصليبيون

تحت إمرة ثيبوت الهجوم على مصر، وزحفوا جنوباً حتى تنزل بهم هزيمة ساحقة على أيدي المصريين قرب غزة في تشرين الثاني لعام ١٢٣٩ ، وحدث إثر هذا، أنه تحت ضغط كل من الداوية والاسبتارية قبل الصليبيون المضطربة أوضاعهم بتحالف الداوية مع دمشق، وبتحالف الاسبتارية مع مصر، وعندما وصل رتشارد أوف كورنوول، أعلن عن حياده وتابع زحفه حتى يتولى تحصين يافا وعسقلان، المدينتان اللتان حولها إلى حكم وولتر بنينباي Pennenpie، وكان والي فردريك على القدس، ثم إنه جدد المعاهدة مع مصر وانسحب،وكانت هذه الصليبية عملياً بلا نتائج، مع أن الكونت رتشارد الذي كان صديقاً قريباً من الامبراطور، زاد من تحسين السمعة الامبراطورية ومتن وضعها في المشرق، وتابع فردريك في الوقت نفسه إرسال الامدادات والمساعدات إلى فيلنغر في صور، وذلك بغية المحافظة على سلطته هناك، وتم في سنة ١٢٤١، تأمين إعتراف بالطاعة من قبل : بالين دي إيبلين صاحب بيروت، وفيليب دي مونتفورت صاحب تبنين، وجون دي إيبلين صاحب أرسوف، وغيوفري دي ايسترين Estrainge صاحب حيفا، وكان هؤلاء قادة الحزب الإيبليني القديم، وقد جاء خضوعهم من خلال وساطة الكونت رتشارد، وقد وافق هؤلاء على الخضوع لحكم فردريك إذا وافق هذا الامبراطور على تعيين الايرل سيمون دي مونتفورت أوف ليستر وكيلاً له في المملكة حتى يصل كونراد إلى السن، ومن ثم يقدم لتسلم مملكته، وكان من المفيد توقع ماكان يمكن أن يكون التأثير على تاريخ كل من انكلترا والقدس لو قام الامبراطور بهذا التعيين .

وجاء العمل التالي في الصراع بين الامبراطور والبارونات متمركزاً حول محاولة فيلنغر المخفقة في الحصول على السيطرة على عكا، الأمر الذي دفع بالإيبلينيين بالشروع بأعمال ا نتقامية ضد صور، وشجعت خططهم من قبل مارسيليو جورجيو Marsiglio georgio ، الذي كان الوكيل

البندقي الجديدالتعيين، الذي كان متشوقاً لاسترداد بعض الممتلكات المحددة التي عادت لبني قومه في صور، والتي صودرت هناك من قبل الوكيل الامبراطوري، وكان بالين صاحب بيروت وفيليب دي مونتفورت قد وضعا خططهما للزحف ضد صور، مما يعني تجديد العصيان ضد الامبراطور، عندما اقترح عليهما فيليب دي نوفار خطته، التي يمكنهما بموجبها الحصول بشكل قانوني على صور وبدون إعلان العصيان على حاكمها القانوني، فقد بين أنه في ٢٥ نيسان ١٢٤٣ يكون الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبذلك تنتهي وكالة فردريك عن ابنه بشكل آلي، ومع انتهاء وكالة فردريك تنتهي بداهة سلطة فيلنغر، ونتيجة لهذا إذا ما انتظر البارونات حتى ما بعد ٢٥ ـ نيسان، فإن فيلنغر يصبح بدون وضع شرعي في صور، ويمكن وقتها للبارونات طرده بشكل شرعي كامل وبدون ضرر، وبدت هذه النصيحة جيدة بالنسبة لقادة الحزب وقد قبلوها جميعاً، ولكي يكون وضعهم أكثر ضماناً جلبت أليس القبرصية، التي طالبت بالعرش في سنة ١٢٢٩ بحكم كونها أقرب الورثاء الموجودين في البلادوقد أحضرت ثانية هذه المرة واقترحت لتكون وكيلة، وجاءت إدعاءاتها هذه المرة ليس للمطالبة بالعرش نفسه بل بالوكالة حتى يقدم كونراد شخصياً، ويستحوذ مباشرة على مملكته، وتولى فيليب دي نوفار عرض مطالبها على المحكمة العليا، وقد جرى قبول هذه المطالب، وكان أول عمل قامت به الوكيلة الطلب بأن يجري استسلام مدينة صور وقلعتها إليها، المطلب الذي رفض بالطبع من قبل الحامية العسكرية الامبراطورية التي كانت هناك تحت إمرة لوثير فيلنغر آنذاك لغياب أخيه رتشارد الذي كان قد أبحر إلى الغرب للتشاور مع الامبراطور، وقام بعض سكان مدينة صور بإجراء مفاوضات سرية من أجل تسليم المدينة، وإثر هذا زحفت قوات بارونية ضدها، واستولت عليها بالقوة، وتراجع لوثير فيلنغر والحامية إلى القلعة، وحوصروا هناك من قبل الإيبلينيين المنتصرين ومعهم أنصارهم، وجاء الآن دور رتشارد

فيلنغر، فهو لم يعـرف أخبار الحوادث التي وقعت ، وأبحـر إلى ميناء صور دونما انتباه،وهناك ألقـي القبض عليه من قبل أعضاء حـزب البارونات ، ولم يستطع البارونـات تأمين استسلام القلعة مقابل حيـاة المارشال، لكن مـع هذانجـح فيليب دي نـوفار بضمان استسـلام القلعة وإطـلاق سراح الأسرى، ومع سقوط صور حقق حزب البـارونات انتصاراً كاملاً في شمال فلسطين، وبذلك بات الحكم الامبراطوري منتهياً بالفعل .

هـ ـ خاتمة ١٢٤٣ ـ ١٢٤٧ .

وأنهى فيليب دي نـوفار تاريخه مـع سقوط صـور، ذلك أنه مـع إزاحة الحاميـة العسكـريـة الامبراطـوريـة مـن تلـك المدينـة، وصـل الصراع الامبراطـوري ــ الإيبلينـي إلى نهايتـه، واستمـرت الحاميـات العسكـريـة الامبراطورية بـالاستيلاء، على القدس وعلى عسقلان في الجنـوب لمدة عام آخـر، ففي عـام ١٢٤٤ جـرى الاستيلاء على القـدس مـن قبل القـوات الخوارزميـة التركية، وتـولى تـوماس أسيرا، الـوكيـل الامبراطوري الجديـد، الذي بعث به فردريك في عام ١٢٤٢ ليحل محل فيلنغر، إعطاء عسقلان إلى الاسبتارية ليتولوا حراستها، وجرى استدعاء رتشارد فيلنغر إلى إيطاليا على الفـور إثر سقـوط صـور، وتعـرض هناك لـلإهـانـة والسجن بسبـب إخفاقه، ونجا أخوه لوثير من الانتقـام الامبراطوري بالفرار إلى انطاكية في عام ١٢٤٧ ، وحلل البابـا انوسنت الرابعه الملك هنـري ملك قبرص من يمينه إلى الامبراطور ووضعه مع مملكته تحت حماية الكرسي المقدس، كما لم يتمكـن أسيرا ، الذي كـان الوكيـل الجديـد من المحـافظة على نفسـه في سورية لمدة طويلـة، وهرب أيضاً في عام ١٢٤٨ إلى أنطاكية ــ طرابلس، وقـد طلب البـابـا طـرده من هنـاك، واستمـرت أليـس بالحكـم على أنها صاحبـة القدس وذلك حتى مـوتها في سنة ١٢٤٦ ، ووقتها خلفهـا ابنها هنري الأول صـاحـب قبرص، لكنه لم يتمكـن من نيل اللقـب الملكي في القدس، لأن الملك كونـراد كان ما يزال هو الملك الشرعـي، وكان الملك

القبرصي هو سيد القدس فقط حتى يأتي الملك كونراد، ويحصل على عرشه ومملكته، والذي حدث أنه فقط مع زوال حكم أسرة هوهنزتوفن إثر وفاة كونرادين في سنة ١٢٦٨، وقتها استطاع هيوج الثالث ملك قبرص أن يضيف إلى لقبه، وهو ملك قبرص، لقب ملك القدس، عاداً نفسه«الملك اللاتيني الثاني عشر للقدس، وملك قبرص» .

وكان تاريخ مملكة القدس من عام ١٢٤٧، عند الانتهاء الفعلي الكامل للحكم الامبراطوري، وإلى فقدان المملكة لصالح المصريين، تاريخاً عاصفاً بما فيه الكفاية، فقد وقف الداوية ضد الاسبتارية، وقاتل البنادقة الجنويين، وادعى شارل دي أنجو حقه بالعرش وذلك ضد دعاوى بيت لوزغنان، وتحارب المصريون والمغول من أجل الاستحواذ على سورية، ولقد تورطت الدول اللاتينية في صراعهم هذا، ووسط هذه الفوضى والاضطراب الشديد تفككت أوصال المملكة ببطىء، وسقطت مدينة تلو الأخرى في أيدي المسلمين، وفقط في الأيام اليائسة الأخيرة في عكا سنة ١٢٩١ ، نسي الفرقاء داخل المملكة صراعاتهم وعداواتهم المتبادلة وكراهيتهم لبعضهم بعضاً، واتحدوا، وعبثاً حاولوا ببطولة إنقاذ المتبقي من المملكة، ولكن جاء متأخراً جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر لئن كانت المملكة التي كان الإيبلينيون مع حلفاتهم قد قاتلوا في سبيلها بكل عناد في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر قد زالت قبل نهاية القرن، فإن المؤسسات الدستورية التي قاتلوا من أجل الحفاظ عليها قد استمرت بالبقاء في قبرص لمدة قرنين إضافيين، وظلت حقوق الأفراد والحد من سلطات التاج حجر الأساس في المؤسسات السلطوية في قبرص طيلة استمرار حكم أسرة لوزغنان، زد على هذا توجب على البارونات الفلسطينيين الرضى بالأسى لدى معرفتهم بمصير عدوهم القديم، حيث كان هذا المصير أسوأ بكثير من مصيرهم، فقد أنهى فردريك حياته وسط مشاكل

الحرب الأهلية وتحت الحرمان البابوي، أما فخار مملكته في صقلية فقد جرى الاستيلاء عليها من قبل الفرنسي شارل دي أنجو، وغدت الامبراطورية الألمانية فريسة للمتنازعين، وليست أفضل حالاً من الذين إنهاروا في القدس، وتهاوت الواجهة الجبارة لأسرة هوهنز توفن وسقطت حتى قبل سقوط المملكة الشرقية الصغيرة التي كانت قائمة على سواحل البحر المتوسط .

وهكذا كانت الخاتمة خاتمة محزنة، ولعل القارىء يشعر في هذه الأيام بالسرور لأن السيد فيليب دي نوفار لم يعش ليرى الأوقات الشريرة التي هوت فيها البلاد التي عاش فيها، فقد انتهى تاريخه مع إشارة لنصر، وكما هي الحالة في الرومانسيات الحقيقية ينال جميع الأبطال الجوائز، لكن الأشرار يتعرضون للمذلة والعقوبة، فلقد كتب فيليب تاريخ حرب رائعة فيها انتصارات، كما تحدث عن انتصار القانون، والفضيلة، والتقوى، على الخيانة والجريمة والاغتصاب للسلطة، ولكم كان محزناً لو أن الرجل العجوز قد رأى النهاية المفجعة لجميع جهوده، ولو أنه أرغم على إدراك أن الصراع الذي خاضه مع أبناء عصره باسم الحرية قد أضعف دولتهم وجلب إليها السقوط ضحية حقيقية لتمزقهم الداخلي ولصراعاتهم، ولاشك أن نصر الإيبلينيين الذي أرخ له فيليب قد حفظ الحريات العائدة لمملكة القدس، لكن من المؤكد أنه أسهم في الخسارة النهائية للمملكة نفسها (*) .

---

* ـ هذا صحيح لو عزونا أسباب سقوط عكا إلى أسباب داخلية محضة، لكنها سقطت نتيجة لما تمتعت به السلطنة المملوكية من إمكانات متفوقة .

تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك وبين جون دي إ يبلين صاحب بيروت

هنا يبدأ التاريخ مع الرواية الصحيحة حول الحرب التي وقعت بين الامبراطور فردريك والسيد جون دي إيبلين، صاحب بيروت

١(٩٧) : ومن أجل فهم أحسن ومعرفة كيف وقعت هذه الحرب،وكيف بدأت وتوالت، وكيف حدث أن بعضاً من القبارصة التحقوا بالامبراطور، بينما التحق الجزء الأكبر بصاحب بيروت، سيقوم فيليب دي نوفار الذي أسهم في جميع الأعمال والاجتماعات، والذي غالباً ما كان محبوباً من قبل الناس الجيدين لروايته الصدق، ومكروهاً من قبل الأشرار للسبب نفسه، سيقوم بإخباركم بالصدق حولها، وسيحدثكم أيضاً عن الرجال وعن الأفعال العظيمة .

٢(٩٨) : ولقد حدث، بإرادة من ربنا، أن هيوج (١) الملك الطيب لقبرص، الذي كان شجاعاً جداً، قد ذهب إلى الحج في طرطوس(٢)، ومن هناك قصد طرابلس(٣)، حيث كان مريضاً،ثم أنه انتقل من هذا العالم في عام ١٢١٨ وكان ذلك في اليوم العاشر من كانون الثاني، وقد دفن في مشفى القديس يوحنا(٤)، وكانت الملكة أليس (٥)زوجته ماتزال شابة، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد(٦) : ولد ذكر وابنتين، وكان عمر الذكر تسعة أشهر فقط(٧)، وكان اسمه هنري، وقد عرف باسم الملك هنري غراس(٨) Gras، وكانت الملكة أليس المتقدمة الذكر ابنة أخت (٩) مولاي جون صاحب بيروت(١٠)، وكذلك للسيد فيليب دي إيبلين أخيه (١١) .

٣ : وقدم جميع أتباع الملك الولاء للملكة بمثابة وكيلة، وسأل جميع

الأتباع وطلبوا من السيد فيليب دي إيبلين، أن يكون وكيل قبرص ليتولى حكم البلاد، وأن يستحوذ على البلاط والأمر على الناس(١٢)، وكان الملك هيوج نفسه قد تمنى هذا وأمر به عند موته، وتسلم السير فيليب الوكالة، وقد نال منها الكثير من المتاعب والحزن، في حين استحوذت الملكة أليس على الموارد التي أنفقتها حسبما أرادت(١٣)، وحكم السير فيليب البلاد بشكل جيد وبسلام، وبكثير من الجودة والشرف والاخلاص والإنفراج، وكان مولاي صاحب بيروت قوياً جداً في سورية، وقد قدم وقت كل حاجة المشورة الجيدة والعون العظيم لشؤون قبرص .

٤(١١٠) : وحالما صار هنري الصغير ـ ابن الملك المتقدم الذكر، ملك قبرص ـ كبيراً ما فيه الكفاية (١٤)، توّجه خالاه مع الإقطاعيين الآخرين وسط احتفال عظيم، وتولى ذلك يوستوريو Eustorgue رئيس أساقفة نيقوسيا(١٥)، وهيأ كل ما هو لائق لتتولى الكنيسة القيام به أثناء التتويج(١٦)، وكان الامبراطور فردريك غاضباً جداً، تجاه هذين العملين، عندما سمع بهما، وأعني بذلك الوكالة والتتويج، لأن الملك هنري توجب أن يكون تابعاً إقطاعياً له(١٧)، وقد قال بأن الوكالة له، وأنه ينبغي أن يكون ـ بموجب إجراءات ألمانيا ـ وكيل قبرص حتى يصبح الملك في الخامسة عشرة من عمره(١٨)، وبعث الامبراطور عدة مرات إلى الملكة أليس، ملكة قبرص، أن تدعه يتولى وكالة قبرص بنعمة، فذلك سوف يرضيه(١٩)، وقد غضب أكثر نحو التتويج،وقال،لقد توجب أن لا يتسلم الملك هنري التاج إلآمنه، وأرسل في خلال ذلك رسائل مرضية جداً إلى الأخوين : مولاي صاحب بيروت، والوكيل السير فيليب، ودعاها دوماً برسائله بالخالين، لأنهما كانا خالين للملكة إيزابل ملكة سورية، التي كانت زوجته (٢٠) .

٥(١١١) وكان في هذه الأثناء بعض الرجال الشباب في قبرص، وكان اسم أولهم السير عموري برلياس(٢١)، واسم الثاني عموري صاحب

بيسان(٢٢ - ٢٣)، وكان هذان أبناء عم من بيت واحد،وكان اسم الثالث السير جوفيان(٢٤) Gauvian، وكان الرابع هو السير وليم دي ريفت(٢٥)، وكان هذان ينتميان إلى بيت واحد، وكان اسم الخامس السير هيوج صاحب جبلة(٢٦)، وقد انتسب إلى بيت آخر، وكان قريباً لأبناء مولاي صاحب بيروت من خلال أمهم، وقد اتفق هؤلاء الخمسة، وتآمروا ضد البيت الإيبليني، مع أنهم عاشوا في حظوة ذلك البيت وتسلموا منه كثيراً من الممتلكات وكثيراً من الحب، لاسيما من مولاي صاحب بيروت أكثر من أي إنسان آخر، وقد امتلأوا بالتكبر، الذي غالباً ما صدر عن الثراء والدعة، وبما أن كثيراً من الناس لايمكنهم تحمل الرخاء، فقد قادهم ذلك إلى ما قالوه وإلى مافعلوه، وتوفرت دوماً الأسباب، وعن هؤلاء سوف تسمع فيما يلي :

٦(١١٢) وحدث أن مولاي صاحب بيروت جعل من ولديه الكبيرين فارسين في قبرص(٢٧)، وكان أولهما السير بالين، الذي غدا فيمابعد قسطلان قبرص وصاحب بيروت(٢٨)، وكان الثاني هو السير بلدوين، الذي أصبح كافل مملكة قبرص(٢٩)، وفي أثناء تكريس الفارسين كانت هناك حفلة عظيمة وطويلة كانت هي الأعظم والأطول مما قام به أي إنسان في هذا الجانب من البحر، أو عرفه، وكان هناك كثير من العطايا والانفاق والمبارزات، وجرى إعادة إخراج(٣٠) مغامرات بريتاني والمائدة المستديرة، كما كانت هناك عدة أشكال من الألعاب .

٧(١١٣) :وفي أحد الأيام بعد تكريس الفرسان، كانوا يلعبون لعبة اسمها Barbadaye (٣١)، وقد حدث آنذاك أن قام فارس توسكاني اسمه تورينول(٣٢) Toringuel وكان من حاشية بيت السير فيليب الوكيل، بطعن السير عموري برلياس كما يفعل الانسان أثناء الألعاب، وقد قيل بأن السير عموري قد غضب وقال بأنه فعل ذلك بشكل شرير وعنيف جداً، ولهذا توقفوا عن اللعب، وكمن في اليوم التالي للفارس هو

وقـواته. وهـاجموه بشكل وحشي حتى أنهم جـرحوه وبـات مهدداً بخطـر الموت، وكـان لهذا السير فيليـب غـاضبـاً جـداً، وأراد مقـاتلـة(السير عموري)، ووقف جميع حلفائه إلى جـانب السير عموري، غير أن القضية لم تـؤثـر شيئـاً على قوة السير فيليـب ــ الـوكيل ــ فقـد تـدخل مـولاي صاحب بيروت ــ أخوه ـ فيما بينهم، وفصـل فيما بينهم بالقوة، وأمـر ابنه السير بالين بأن يأخذ السير عموري من هناك إلى حيث أراد .

٨(١١٤) : ولم يمض وقت طـويل حتى غادر السير عموري بـرلياس قبرص ومضى إلى طـرابلـس، وبقي هنـاك كـل الشتـاء، وذهب مـولاي صاحـب بيروت من قبرص إلى بيروت وأمر بـالبحث عن السير عمـوري بـرليـاس في أيـام عيـد الفصح، ثـم حملـه إلى قبرص وأحضره فجأة أمـام أخيه، حيث كان الأخير لايعرف شيئاً عن ذلك، وقال (مولاي صاحب بيروت) لأخيه بأنـه يرغب منـه مسامحة السير عموري بكل وسيلـة وبكل طريقـة، وقال إنه إذا لم يفعل ذلك هـو لن يكلمه أبداً، ولن يـراه مطلقاً، وأنـه سـوف يقبل مصـالحة مشـابهة للتـي هي معـروضـة مـن قبل السير عموري(٣٣)، وقبل الوكيل بالمصـالحة فقد ذهـب (٣٤) بعيداً، واستحوذ السير عموري على بـراعة كبيرة، وكـان مؤيـداً لكل واحد مـن اللوردات، وكان رفيقاً وثيـق الصلة بالسير بالين وأظهر نحـوه محبة كبيرة، وحدث في هذه السنة(١٢٢٥) أو بعيد ذلك بقليل، أن الملكة أليس ملكة قبرص قد غضبت مـن خـالها ومن الإقطـاعيين الآخـريـن، وذهبت إلى طـرابلـس، وبدون رضـا أو موافقة خـالها والاقطاعيين تزوجت هنـاك من بوهيمـوند ابن أمير أنطاكية(٣٥)، وأعلن جميع الذيـن كانوا في قبرص وخاصة السير عموري برليـاس أنه إذا صار الأمير وكيلاً لقبرص واستحـوذ على السلطة هناك سيكون معنى ذلك موت مولاهم الصغير ودماره .

٩(١١٥) : وتخلى السير فيليب دي إيبلين بعـد هذا بـأمد وجيـز عن الوكالة،وذلك على الرغم من عـدم رضا جميع أهل البلاد، وأرسلت الملكة

أليس التي كانت في طرابلس رسالة أمرت بموجبها بأن يكون عموري برلياس الوكيل إلى أن تتمكن من القدوم إلى قبرص، وقبل السير عموري بذلك من دون موافقة أي إنسان في قبرص(٣٦)، لأنهم نظروا إليه نظرة إزدراء كبيرة، واجتمعوا في المحكمة وقال السير فيليب دي إيبلين بأنه يرى في هذا التعيين إهانة كبيرة بالنسبة إليه ورعونة قصوى في أن يمنح السير عموري وأن يتقبل السيادة عليه وعلى الرجال الطيبين الآخرين في قبرص، وأنه ليس هو الرجل الذي يفعل ذلك، لأن ذلك معاكس لما قاله هو نفسه عندما تزوجت الملكة أليس من الأمير، وقام السير أنسيو Anceau دي بري وقال : إن السير عموري برلياس في كل ما قاله وفعله فيما يتعلق بهذا الأمر هو قد عمل بمثابة خائن، ولو أنه كان حاضراً هناك لقال هذا بوضوح أكبر ولبرهن عليه(٣٧) .

١٠ : وكان السير أنسيودي بري هذا ابنا لابن خال ألماني لمولاي صاحب بيروت ولأخيه (٣٨) أيضاً، وكان رجلاً شاباً، وقوياً وذا بأس، قوي البنية والعظام ونشيطاً وشديداً، جاهزاً للقيام بأي عمل ولإنجازه، وأديباً نحو رفيقه وعدوه، وكريماً بقدر ما استطاع، وأشقراً وجميلاً، وله بشرة متوردة، وأنف عريض، مع وجه مهيب مرعب يشبه النمر(٣٩)، وأحبه الأخوان حباً جماً، وهو بالفعل قد استحق ذلك، وكان معلوماً أنه كان في الحرب الأعظم تقديراً بعد الأخوين وأولادهما واللورد الشاب الطيب صاحب قيسارية الذي كان ابن أختهما(٤٠)، وعندما سمع السير عموري برلياس بشكل متواتر أن ما قيل بحقه كان قاسياً جداً ، غادر قبرص وذهب إلى طرابلس، حيث قرر الانتظار هناك حتى قدوم الامبراطور، الذي جرى الحديث حوله من يوم إلى يوم، وكانت مقاصده أنه بعون الامبراطور سوف يكون قادراً على إخضاع البيت الإيبليني .

١١(١١٧) وكان قد حدث قبل بعض الوقت أن تشاجر السير جوفيان Gauvain مع فارس اسمه السير وليم دي لى تور، وأصيب

وليم المذكور بجراحة في الليل هو وواحد من أبناء عمه، وقد قيل بأن هذا قد اقترف من قبل السير جوفيان وأهل بيته، وعوفي الفارس من جراحاته، وجاء إلى المحكمة ومثل أمام الوكيل واتهم السير جوفيان بالخيانة، ودافع (السير جوفيان) عن نفسه، وقدما تعهدتاهما من أجل القتال، وأنشبا القتال وأقاما السلام على ميدان العراك، وكان السلام مغضباً ومذلاً للسير جوفيان، وقد كبر عليه أن يقوم هذا الفارس بتوجيه التهمة إليه، وبدا له أن (السير وليم) ما كان ليقدم على اتهامه ويتجرأ على ذلك لولا أنه حصل على تأييد الإيبلينيين، وكان (السير جوفيان) حتى بدون هذا الحادث على صلات متنافرة معهم، ولم يكن قريباً منهم كما كان من قبل، ولقد امتلك بعض العذر، وعلى كل حال لمعرفة السير جوفيان بالاخلاص العظيم المتوفر فيهم تجرأ على دخول الميدان ، والقيام هناك بالدفاع عن نفسه .

١٢ ـ وبعدما ترك(السير جوفيان) الميدان قال بأنه لم يفهم اتفاقيات السلام التي عقدت عندما كان في الميدان، وأنه لن يتمسك بالعهود التي قطعها آل بيته، ثم أنه ذهب إلى الداوية وتوجه من هناك إلى عكا، ومن عكا عبر البحر إلى الامبراطور ، وقد خدم الامبراطور لبعض الوقت، وبما أنه كان يعرف الكثير عن الطيور، فقد حظي بمكانة عالية في ذلك البلاط(٤١)، وكان الامبراطور على وشك المغادرة لأن الكنيسة قد أمرته أن ينفذ تعهداته التي قطعها على نفسه للذهاب إلى سورية(٤٢)، وتوجه إلى الميناء(٤٣), ووصلت السفن، وبات العبور جاهزاً تماماً، وأجل الامبراطور جوازه حتى عبور آخر، وذلك حسب ما يرضيه(٤٤)، غيرأنه أرسل بعضاً من رجاله في سفن عبر البحر(٤٥)، وهكذا عاد السير جوفيان عبر البحر إلى قبرص .

١٣(١٢٢) : ومع هذه الأخبار الساخنة التي انتشرت وأفادت بأن الامبراطور قادم، وقبل معرفة أنه أخّر عبوره ، ارتأى السير عموري

بـرلياس، الـذي كان في طـرابلس بأنـه سيذهب إلى قبرص إلى المحكمـة ليسوغ نفسـه ويدافع عنها ضـد السير آنسيودي بري وضـد ما قالـه عنه، واعتقد أنه سوف يمنح فرصة أربعين يـوماً قبل القيام بالمبارزة وذلك بعد تقديم عهـوده وضمـاناته(٤٦)، وأنـه في أثناء ذلك سيكون الامبراطـور قد جاء وأنه سـوف يربح قضيته، وذهب السير عمـوري المذكور إلى قبرص، وتوجـه على الفور إلى المحكمـة، وعرض الكـذب الذي قـاله عنـه السير أنسيو، وتقدم بطلب الدفاع عن نفسه وبضمـاناته وتعهداته، وتسلم الملك التعهدات وجرى تحديـد يوم المبارزة، وأمر بها بعد مـوافقة المحكمة، وفي خلال أربعين يـوماً وصلـت السفن العائدة لـلامبراطور، وكما تحدثنـا من قبل،عُرف أنه لـن يأتي بعد، ثم سعى البطريرك جيرولد، بطـريرك القدس (٤٧) ومعه الكثير من النـاس إلى إقرار مصالحة بدلاً مـن المبارزة، لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلـك، لأن السير أنسيو لم يرغب في عقـد أي اتفاق، أو القبول بأية اقتراحات للتصالح .

١٤ ـــ وقـامت المعركـة ، وفيها خسر السير عموري خسـارة قبيحة، ففـي الصـــدام الأول كسر السير أنسيـو رمحه، واستبقـى السير عمـــوري الذي كـان ماكـراً جداً، رمحه الـذي كان مصنـوعاً من أحسـن الفولاذ في العـالم، وقد أمسكـه مـن وسطه، وانـدفع ليطعـن بـه ثلاث طعنـات على واجهة خوذة السير أنسيو، وقـد حطم في كل مرة الواجهة وطعنه بـالوجه، ولدى الطعنة الثالثـة أزاح السير آنسيو جانباً سيفه وتركـه من يده، وذلك بعدماسـدد به ضربات عظيمة على خوذة السير عمـوري، وأمسك الرمح من سنانه المعـدني بيده التي كان ممسكاً بها السيف، وهكـذا انتزع الرمح بالقوة من قبضة السير عموري، فقد كان السير آنسيو قوياً جداً، وجذب الـرمح بشـدة، وفقـد السير عموري الـرمح الـذي كـان ممسكـاً بوسطـه، وعنـدما جـذبـه السير آنسيو جـذبـه بعنف كبير حتى أنـه ألقى بـالسير عموري أرضاً، وكان هذا لابسـاً درعاً ثقيلة جداً، ولهذا سقط سقطة كبيرة

على الأرض وجرح جراحة قاسية، وقد قام بقدر ما استطاع وهرب عبر الحواجز نحو المكان الذي كان فيه مولاي صاحب بيروت، ووراء الحواجز ١٥. :وكان قد درب حصانه بشكل جيد جداً حتى أنه لحق به إلى كل مكان، وركض هو نفسه وتبعه فرسه، وأمسك سيفه ووضع نفسه فيما بين الحواجز والفرس، وقام السير آنسيو بكل سرعة بإعادة وضع خوذته، وتناول بقية رمحه، وكان السير عموري قد ازداد ألمه وبات مرهقاً نتيجة لما بذله من جهود، ولم يكن هناك أمامه أدنى سبيل حتى يتمكن من امتطاء فرسه ثانية، لأنه كان مثقلاً بدروعه، وكان فارساً صغيراً، وكان الحصان ضخماً وطويلاً ونشيطاً، ثم وضح لمولاي صاحب بيروت وللذين كانوا هناك أن السير عموري لن يستطيع التحمل أكثر، وقد ضغط عليه السير آنسيو عن قرب، ولولا أنه أبعد عن هناك لكان سيترجل لأنه كان مصراً على ذبحه، ودخل مولاي صاحب بيروت إلى الميدان هو وصاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص(٤٨)، ولم يرغبا بالسماح بالمزيد، وتوفر لديهما هناك بعض الفرسان الذين حجزوا السير آنسيو بالقوة بإمساكهم بمقود حصانه،كما أنهم كانوا قد أمسكوا حصان السير عموري الذي كان مرهقاً إلى حد أنه عجز عن التحرك، ومن ثم تحدثوا عن المصالحة(٤٩) .

١٦ : ووقع هذا اليوم السير فيليب دي إيبلين، وهوأخو مولاي بيروت،مريضاً، وقد أصيب بداء مميت، وقد أخبره أخوه صاحب بيروت بأوضاع المتبارزين، ورغب ـ وهو الذي كان يشعر بالموت ــ بإقامة السلام بأي سبيل من السبل، وبعث إلى السير آنسيو ورجاه وتمنى عليه، وضغط بوساطة مولاي صاحب بيروت حتى قبل وأبرم الصلح، وأقيم السلام، وتبين أن المصالحة كانت مذلة للسير عموري، لأنه توجب عليه أن يدفع نصف فدية ودفعات قاسية وحادة، ولكنه مقابل ذلك أنقذ حياته، وغادر السير عموري الميدان هو والسير جوفيان، وبقية الخمسة

الآخـريـن، وهـم : السير عمـوري صـاحـب بيسـان، والسير وليـم دي ريفيت، والسير هيو صاحب جبلـة، وبعثوا بشكاوى كثيرة إلى الامبراطور ضد بيت الإيبلينيين، وقالوا عنه كثيراً من الأشياء الشريرة والزائفة(٥٠) .

١٧(١٢٣) : وفي هـذه السنـة نفسهـا، وهي سنـة ١٢٢٧ تـوفي السير فيليب دي إيبلين، وكان رجلاً جيداً ونبيـلاً، وأخاً لمولاي صاحب بيروت، وحدثت وفاتـه في قبرص بسبب الداء الذي أصيب به، وكـان هناك حزن عظيم عليه، وشكل مـوته خسارة عظيمة لأصدقـائه وللبلاد، وكان الحزن عليه عظيماً، وعظيماً توجب أن يكون(٥١) .

١٨(١٢٦) : عبر في سنة(١٢٢٩)(٥٢) الامبراطـور فردريـك البحر للقدوم إلى سـورية وذلك بناء على أمر البـابا غريغـوري(٥٣)، وقد وصل أولاً إلى جزيرة قبرص إلى مـدينة ليماسول(٥٤)، وكان معـه سبعين سفينة وغليون، وسفـن نقل الأسلحة وبقية أنـواع السفن، وكان الشطـر الأعظم من جيشه وأهل بيتـه وحاشيته ومارشـاله وخيوله قـد وصلت من قبل إلى عكـا(٥٥)، وأخــذ السير عمـوري والسير جـوفيـان مـع مجمـوعـة مـن أصدقائهما وحاشيتهما سفينة ومراكب مسلحـة وتوجهوا لمقابلة الامبراطور، وأبحروا بعيـداً حتى سواحـل بيزنطة(٥٦)، ومـا إن التقوا به حتـى وجهوا التهم إلى مولاي صاحب بيروت بأنـه لم يعاملهم بشكل صحيح، وأشاروا عليه بـأسوأ الآراء التي يمكنهم فعلهـا ضده و ضـد ورثته وضـد أسرته، وقـد روي بأنهم أخبروا الامبراطـور أنـه إذا مـا تمكـن من الاستيـلاء على قبرص، سيكون بـإمكانه تـزويد سوريـة بجميع الضروريات التـي سوف يحتاجهـا هو وآل بيتـه، وفضلاً عن ذلـك سوف يحصل من تلـك الجزيرة على ألف فارس .

١٩ : واحتفل بهم الامبراطـور احتفـالاً عظيماً، وقدم لهم وعـوداً كبيرة، وأوضح قائلاً أنه مصدق لهم، وبموجب ذلـك كانوا فعلاً مسرورين، وقد وصلوا معـه إلى قبرص،ومع هذا بعث الامبراطـور برسائل لطيفـة جداً إلى

مولاي صاحب بيروت، الذي كان آنذاك في نيقوسيا، يرجوه فيها ويطلب منه بمثابة خال عزيز عليه،أن يأتي للتشاور معه وأن يجلب معه الملك الشاب، وكذلك أولاده الثلاثة وجميع أصدقائه(٥٧)، ثم أرسل إليه رسالة أخرى كانت أشبه بنبوءة بنعمة ربنا، لأنه بعث إليه يقول: إنه هو وأولاده وأصدقائه سوف ينالون الثروة والشرف بقدومه، وهكذا كانوا، والحمدللرب، لكن ليس حسب رغباته، واستقبل رسول الامبراطور استقبالاً جيداً في نيقوسيا، وكان هناك سرور عظيم لدى قدومه .

٢٠ : وجمع مولاي صاحب بيروت رفاقه وطلب منهم إبداء الرأي حول الملك الشاب وحوله شخصياً، وأعلنوا جميعاً بصوت واحد أنه لاهو ولا أولاده ينبغي وضعهم تحت سلطان الامبراطور، كما لايصح ولايجوز لهم ارسال مولاهم الملك إلى هناك، لأن الأفاعيل الشريرة للامبراطور باتت معروفة جداً، وقال مراراً وأرسل تكراراً كلمات ورسائل طيبة، وأتبع ذلك بأفاعيل مرعبة جداً وظالمة، ولهذا أشاروا بأن عليه أن يعتذر بطريقة ما، وقالوا في الوقت ذاته إن جميع أصدقائه وكل قواهم في قبرص كانت تجهز نفسها بسرعة كبيرة، وهؤلاء على استعداد للحاق به إلى سورية في خدمة الرب، وأنهم سوف يخدمونه في سورية بمثابة مولاهم :«وأن هذا كله قد أبدع من قبل أخيك السير فيليب عندما كان حياً»، وكان هذا اجتماعاً جيداً وقراراً حسناً بالنسبة له، لأنه كان هناك في سورية الداوية والاسبتارية مع رجال جيدين آخرين راغبين بالازدهار والسلام، ثم إن الامبراطور لن يكون قادراً على فرض مشيئته على كل شيء .

٢١ : ورد مولاي صاحب بيروت على هذه المشورة قائلاً : بأنهم أشاروا بإخلاص وبحب، غير أنه يفضل أن يؤسر أو يقتل وأن يعاني مما خبأه الرب له، على أن يوافق بأن يكون أي إنسان غير قادر على القول أنه من خلاله ومن خلال أسرته أومن خلال الشعب على هذا الجانب

من البحر، قد جرى تأخير أو إعاقة خدمة الرب في الاستيلاء على مملكة القدس وقبرص(٥٨)،ذلك أنه لايرغب في أن يقترف ذنباً نحو ربنا، كما أنه لايرغب أن يقول الناس في العالم كله :«جاء امبراطور روما عبر البحر مع قوة عظيمة، وكان من الممكن له أن يستولي على كل شيء، لكن صاحب بيروت مع آخرين غير مخلصين من رجال ما وراء البحار أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، ولهذا السبب ثاروا ضد الامبراطور ،ولم يرغبوا في استرداد الأرض المقدسة» .

٢٢(١٢٧) : ولهذه الأسباب التي عرضت أعلاه، ذهب صاحب بيروت إلى الامبراطور ومعه جميع أولاده وكل أصدقائه وقوات قبرص كلها من فرسان وسيرجندية وأخذوا معهم مولاهم الصغير ــ الملك هنري ــ إلى الامبراطور، ووضعوا أنفسهم كلياً تحت سلطانه(٥٩)، وقد استقبلهم باحتفاء عظيم، مع مظاهر من السرور عظيمة، وبدا أن أعداءهم قد خاب ظنهم، وسألهم الامبراطور على الفور إسداء معروف له، بالقيام بخلع الثياب السوداء التي كانوا ومايزالون يرتدونها بسبب موت السير فيليب دي إيبلين، أخوهم، ذلك أنه قال بأن بهجتهم بقدومه ينبغي أن تكون بالنسبة لهم أكبر من الحزن على صديقهم وأخيهم، الذي هو الآن ميت، مع أنه كان أعظم الناس نبلاً وشجاعة، وقبلوا تمام القبول هذا الأمر، وشكروه باخلاص، وعرضوا عليه أجسادهم كلها مع قلوبهم وجميع ما يملكون، ووضعوها تحت تصرفه، وقيد أوامره، وشكرهم الامبراطور لهذا بسرور كبير، وقال بأنه سوف يجيزهم جوائز كبيرة وثرية .

٢٣ : وأرسل الآن إليهم ثياباً أرجوانية بدلاً من الملابس السوداء، وبعث إلى آخرين بجواهر، وسألهم راجياً بلسانه أن يتناولوا طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقد أعدوا ملابسهم بكل سرعة في الصباح التالي، وظهروا جميعاً أمام الامبراطور وقد ارتدوا الملابس الأرجوانية، وقام في الليلة التي تقدمت بفتح باب في جدار الغرفة التي قادت إلى الحديقة،

وكان ذلك بشكل سري ، وكان ذلك البيت الذي أقام فيه بيتاً رائعاً،قد بناه اللورد فيليب دي إيبلين في ليماسول،وأدخل الامبراطور من خلال هذا الباب الخلفي بشكل سري أثناء الليل ثلاثة آلاف رجل مسلح أو أكثر من السير جندية، ورماة القسي العقارة والبحارة، فلقد كان هناك تقريباً جميع رجاله المحاربين الذين كانوا في أسطوله، وقد وزعهم على الغرف والإسطبلات، وأغلقت جميع الأبواب عليهم حتى ساعة الطعام، حيث نصبت الموائد وصب الماء .

٢٤ : وجلس الامبراطور وإلى جانبه صاحب بيروت والعجوز صاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص، وجلس إلى مائدة أخرى طويلة في المكان الأول : ملك قبرص، مع ملك سالونيك(٦٠)، والمركيز حامل الرمح(٦١)، وبقية بارونات ألمانيا والمملكة(٦٢)، وأمر بجلوس جميع فرسان قبرص بشكل يستطيع فيه مولاي صاحب بيروت سماعه عندما يتكلم، ورتب أن يقف ولدي مولاي صاحب بيروت أمامه لخدمته، يحمل أحدهما الكأس ويحمل الآخر الطشت، في حين يقوم الشاب صاحب قيسارية مع السير آنسيودي بري بتقطيع اللحوم أمامه، وتوجب على الأربعة إرتداء أزر Tunics وقمصان ضيقة من الرقبة حتى الوسط فوق أرديتهم. فهذا ـ حسبما قيل ـ كان قانون الامبراطورية وعرفها، وقد خدموه بإرادة طيبة وبنبل، وفعلوا ذلك مرات عدة وقدموا أطعمة متنوعة .

٢٥ : وفي دور الطعام الأخير خرج الرجال المسلحون من أماكنهم التي كانوا قد تمركزوا فيها، واستولوا على القصر وعلى الغرف وعلى البلاط الكبير وعلى الباب الرئيسي وبقية الأبواب ....(٦٣)، وكان هناك رجال مسلحين بشكل جيد في القصر حيث كان الامبراطور، وكان هناك عدد كبير أمامه يمسكون بالأسلحة بأيديهم، بعضهم ممسك بمقابض سيوفهم وبعضهم بالخناجر، ولاحظ القبارصة ما يجري، لكنهم لم يتفوهوا ولا

بكلمة واحدة، وبذلوا غاية جهدهم لإعطاء مظهر الاسترخاء، والتفت الامبراطور نحو صاحب بيروت وخاطبه بصوت مرتفع قائلاً : أود يا سير جون أن أطلب منك أمرين اثنين، إنك سوف تفعلهما عن طواعية وبشكل لائق إن كنت تعرف ما هو المعقول»، وقد ردّ عيه قائلاً :« قل ما يسرك ولسوف أفعل عن طواعية ما سأراه صحيحاً، أو ما يراه الناس الشرفاء مناسباً» .

٢٦ : وقال الامبراطور :«عليك أن تفعل واحداً من اثنين : إما أن تسلمني مدينة بيروت، لأنك متملك لها بدون حق، أو أن تسلمني كل ما يتعلق بوكالة قبرص والحكم فيها مع جميع ما ربحته وحصلت عليه منذ وفاة الملك هيوج، أي موارد عشر سنوات، لأن هذا كله حق لي بموجب التطبيقات الألمانية (٦٤)»، ورد عليه صاحب بيروت قائلاً:« أعتقد يا سيدي أنك تهزأ بي وتستخف، ومن المؤكد بالنسبة لي أن بعض الرجال الأشرار الذين يكرهونني قد اقترحوا عليك هذا المطلب، ولهذا السبب تقدمت به، ولكن ـ وفقاً لإرادة الرب ـ إنك سيد جيد وعاقل، وإنك تعرف دوماً المدى الذي كنا قادرين به على خدمتك، ولسوف نفعل ذلك عن طواعية،وبذلك إنك سوف لن تصدقهم»، ثم وضع الامبراطور يده على رأسه وقال: «بحق هذا الرأس الذي لبس التاج مراراً، إنني سوف أنفذ إرادتي في هذين الأمرين اللذين طلبتهما منك أو إنك سوف تعتقل وتجعل سجيناً» .

٢٧ : ثم انتصب صاحب بيروت واقفاً وقال بصوت مرتفع وبحضور آمر :« إنني استحوذت على بيروت ومستحوذ عليها بحكم إنها إقطاع لي، لأن مولاتي الملكة إيزابل(٦٥)كانت أختي من خلال أمي، وابنة للملك عموري(٦٦)، وبذلك كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، وقد قامت هي ومولاها الملك عموري(٦٧) بإعطائي بيروت مقابل وظيفة القسطلان، وكانت بيروت عندما استردها المسيحيون مهدمة

لـذلك رفضها الـداوية والاسبتارية وجميع بـارونات سورية(٦٨)،وقـد قمت بتحصينها والمحافظة عليها بـوساطة مساعدات المسيحيين وبفضل عملي، ولقد استخـدمت وأنفقت هناك كـل ما حصلت عليه مـن موارد في قبرص، وإذا كنت تـرى أنني متملك لها بشكل غير شرعـي فسوف أزودك بالبراهين وأتولى مباشرة عرض المسألـة على المحكمة التابعة لمملكة القدس، أمـا فيما يتعلق بها طلبتـه مني بشأن مـوارد وكالـة قبرص والحكم هناك، إنني لم أحصل قـط على أية موارد، وكذلك لم يحصل أخـي عندما كـان وكيلاً، وذلك بـاستثناء مشـاكل ومتـاعب حكومـة المملكة، والـذي حصل على الموارد هـي الملكـة أليس ــ ابنـة أختي ــ وقـد تصرفت بهذه الموارد حسب مشيئتهـا، أما فيما يتعلق باستحـواذ الوكالـة قانونيـاً حسب تطبيقاتنـا، إذا ما طلبت مني البرهنـة على هذا الحق، فإننـي سوف أزودك بـالبراهين وفقاً لتطبيقـاتنا، وبـوساطـة محكمة مملكـة قبرص، وتأكد أنـه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن إنا لن نفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار المحكمة الجيد والمخلص مني أن أفعله(٦٩)» .

٢٨ : وغضـب الامبراطــور غضبــاً عظيماً ، وأقسـم ، وتهدده وقــال أخيراً:« لقد كنـت قد سمعت مـن قبل عندمـا حكي لي عبر البحـر منذ وقت طويـل مضى بأن كلما تك هي حلـوة جداً، وأنك من أكثـر الناس حكمـة، وبـارع في جملك، لكننـي سـوف أريك أن مهـارتـك وبـراعتك وكلماتك لن تفيد شيئـاً أمام قوتي»، وقد ردّ عليه صـاحب بيروت بطريقة نالت الاعجـاب العظيم من قبل جميع الـذين كانـوا هناك، وخاف رفـاقه خوفاً عظيماً .

٢٩ : وكـان رده كما يلي:« لقـد سمعت يـا مـولاي منـذ وقـت طـويل مضـى ذكـر كلماتي الأديبـة، وسمعـت أنـا كثيراً ومنـذ وقـت مضى عـن أفـاعيلك، وعنـدمـا فكـرت بالقـدوم إلى هنـا، حـذرني جميع مستشـاري بصـوت واحد مـن الأشيـاء التي تتـولى القيام بها، ومـن الأسـوأ، لكن لم

أرغب في أن أصدقهم جميعاً، ولايمكن القول إنني لم أخف منك كثيراً،ومع ذلك قدمت وأنا متيقظ وحذر، وما زلت على استعداد لأن أتلقى منك السجن أو الموت، على أن أرضى بأن يتمكن أحد من القول أي شيء سيء حولنا، أو يكون هناك ضرر بالنسبة لحاجة ربنا والاستيلاء على الأرض المقدسة، أو أن تعاق خدماتك من خلالي أو من خلال أسرتي، أو من خلال الذين في البلاد حيثما كنت، أو أن تصل الأخبار إلى العالم المسيحي، فيقولون: ألم تعرف؟ لقد ذهب إمبراطور روما عبر البحر، وكان سوف يتمكن من الاستيلاء على كل شيء لولا ما فعله الإيبلينيون، أولئك الخونة فيما وراء البحار الذين أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، لأنهم ثاروا ولم يرغبوا باتباع الامبراطور، ولهذا السبب فقد كل شيء، وهذا كله تماماً الذي رويته لكم قد قلته لمستشاري عندما تركت نيقوسيا لآتي إليكم، وقد جئت مستعداً تماماً لمعاناة كل ما يمكن أن يأتي، في سبيل حب مولانا يسوع المسيح الذي عانى من الآلام ومن الموت من أجلنا، وهو الذي سوف يخلصنا من الموت أو السجن، فأنا أشكره من أجل ذلك، وبه سأظل مرتبطاً دوماً»، وبهذا توقف عن الكلام وأجلس نفسه .

٣٠(١٢٨) : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً وتغير لونه مراراً ، وكرر الناس النظر نحو صاحب بيروت، وكانت كلمات التهديد كثيرة، وتدخل رجال الدين والرجال الجيدين الآخرين للمصالحة بينهما، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل زحزحة صاحب بيروت عما قاله وعما قرر فعله، وصنع الامبراطور عدة طلبات غريبة وأعمال تهديد، وتم الاتفاق بالنهاية، حسبما كان صاحب بيروت قد عرض، وليس أكثر من ذلك أمكن للقوة تحقيقه : وجوب أن يسلم إلى الامبراطور عشرين من أعظم أعيان إقطاعيي قبرص، الذين تعهدوا بأجسادهم وبمقتنياتهم وبممتلكاتهم بأن صاحب بيروت سوف يخدمه، ولسوف يذهب إلى

محكمة مملكة القـدس،ويقدم هناك براهينه، وفقط عندمـا سوف يظهر في المحكمة سوف يجري تحرير الرهائن وإطلاق سراحهم .

٣١ : وطلـب الامبراطــور منــه ولــديــه : السير بــالين والسير بلدوين(٧٠)، وكل ما قـاله لم يرتض به مولاي، ولـذلك وافق بالقوة على أن يأخـذهما الامبراطـور، ثم قـال الامبراطـور مخاطبـاً صـاحب بيروت :« إنني أعرف تمام المعرفة أن بالين هـو الأثير إلى قلبك، وبناء عليه إنني ما دمت مستحوذاً عليه أنا مستحوذ عليك»، وأمـر الامبراطور باستدعائهما، وقـدمـا على الفـور، وأخــذ أبـوهما بيمين كـل واحـد منهما وسلمهما إلى الامبراطور قـائلاً :« إنني أعهد بهما إليك، وأدعهما بـذمة الرب وبـذمتك بوساطـة هذا الميثاق : أنني حالما أقدم إلى محكمة مملكـة القدس مستعداً للبرهنة على حقوقي، سـوف يحرران ويطلق سراحهما، وأنك سوف تحتفظ بهما وتحرسهما بشرف، وأنك سـوف لن تسبب الضرر لهما أو تعـرضهما لأي أذى بـالرضـا أو بـالغضب»، وهنـا قـال الامبراطـور : « وإنني أتسلمهما بذمـة إيمان الرب وإيماني، ولسـوف يثريـان بوساطتـي ويتشرفان، إذا أراد الـرب»، وبهذا غـادر الامبراطور(٧١)، وأمـر بـوضعهما في داخل أقفـاص خشبيـة (٧٢) واسعة وبشكـل بالـغ الوحشيـة، وكـان هناك صليـب من الحديـد قـد ربطا إليـه، ولـذلك لم يكـن بإمكـانهما تحريك لأيـديهما ولا أرجلهما، وفي أثناء الليل ربط بقية الرجال بالحديد معهم(٧٣) .

٣٢(١٢٩) : وما أن غادر صاحـب بيروت المكان، حتى ذهب أعداؤه إلى الامبراطـور وقالـوا لـه :« ما الـذي فعلتـه يـا مولاي؟ سـوف يـذهب صـاحب بيروت ويشحن القـلاع ضدك، ولسـوف يثير البلاد كلهـا، ولن يتمنع عـن ذلك بسبـب أولاده، ذلك أن معظـم النـاس يحبـونـه وسـوف يتبعونـه، وأفضل نصيحة هي أن تبعث خلفـه على الفور، وأن ترسـل إليه رسالـة لطيفة، وأن تقـول له أنـه إذا ما فعـل ما تطلبـه سوف تعيـد إليه ولديـه، وما أن يأتي تلقي القبض عليـه، فالذي يمتلك الشجـاعة يمتلك

قطيعه، وبهذه الوسيلة تصبح صاحب قبرص وما من أحد سواك»، وأمر الامبراطور، الذي فعل الكثير من الشرور صدوراً عن إرادته الذاتية ودونما تشجيع، باستدعائه وجلبه، لكن صاحب بيروت كان متيقظاً ومحروساً بشكل جيد من قبل الذين يثق بهم، والذين كانوا معه في اجتماع التشاور، وكان معسكراً خارج المدينة في خيام، وكان هو ورفاقه معهم خيول وسلاح، ولم يكن لدى الامبراطور خيول في المدينة، لكنه امتلك السيطرة على داخل المدينة بفضل العدد الكبير من الرجالة الذي كان لديه .

٣٣ : وعقد صاحب بيروت اجتماعاً وقال إنه يرغب بشحن القلاع وحراسة البلاد لصالح حقوق ورثة الملك هيوج، في حال حدث حادث سوء للملك الذي أخذه الامبراطور وهو متحفظ عليه، ثم إن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت ومعه السير آنسيو دي بري ــ وكان هذان شجاعان جداً ونشيطان ــ قالا له :« لاتفعل هذا يا مولاي، بل اذهب إلى الامبراطور وخذنا معك، ولسوف يخفي كل واحد منا مدية في سوطه، وما أن نمثل أمامه حتى نقتله، وسيكون رجالنا على ظهور خيولهم أمام الباب مسلحين بشكل جيد، وعندما سيكون الامبراطور ميتاً، ما من أحد سوف يتحرك ، وبذلك سوف ننقذ أولاد عمنا»، وغضب صاحب بيروت غضباً شديداً ، وهددهما بالضرب و بالقتل إذا ما تكلما حول ذلك ثانية، وقال إن هذا سوف يعدّ عملاً غير شريف إلى الأبد، ولسوف يصرخ المسيحيون في كل مكان :«لقد قتل هؤلاء الخونة فيما وراء البحار مولاهم»، ثم استطرد يقول معللاً:« إنه إذا ما مات وبقينا نحن أحياء وأنقذنا،سيصبح حقنا باطلاً، ولن يتم مطلقاً تصديق الحق والأخذ به، وهو الآن مولانا(٧٤)، ومهما عمل سوف نحافظ على إخلاصنا وشرفنا» .

٣٤(١٣٠) وعندهاغادر صاحب بيروت عند حلول المساء، وكانت

الضجـة كبيرة في معسكـره لدى مغـادرتـه، وسمع الامبراطـور الضجـة، وخـاف من ذلـك خـوفـاً عظيماً، ولهذا تخلى عن المنـزل الـذي كـان فيـه، وذهب إلى بـرج الاسبتارية الـذي كان حصيناً، وقـريباً من سفنـه، ووضع هناك الرهائن في السجن، وذهب صاحب بيروت مباشرة من ليماسول إلى نيقوسيا، واحتلهـا مع الذين رغبوا باللحاق بـه، وشحن بشكل كبير قلعة عرفت باسـم ديودامور(٧٥)، وإليها بعث بالأولاد والنسـاء العائدين إليه وإلى رفـاقـه، وبقي هـو ورجـالـه المسلحين في مـدينـة نيقـوسيـا، وبعث الامبراطـور إلى سـوريـة يطلب جيشـه مـع خيـول وكثير مـن المرتـزقـة (٧٦)للقـدوم إلى قبرص، وجاء الأمير العجـوز صاحـب أنطاكيـة(٧٧)، وصاحب جبلة(٧٨)، وصاحب صيـدا(٧٩)، وعددكبير آخر من الرجال، جـاءوا إلى الامبراطور ووصلـوه في ليماسـول، وفي الـوقت الـذي كان فيـه هنـاك، كان السير عمـوري برليـاس وجماعته معسكـرين في البيت الـذي كان سجنـاً للرهـائن، ويحكى أنه أسـاء إليهم كثيراً وألحق بهم الكثير من الأذى .

٣٥(١٣١) : وعندما تلقى الامبراطور فـردريك ما يكفي من نجدات، ركب وزحـف مبـاشرة إلى نيقـوسيا(٨٠)، وأشـار المستشـارون التـابعـون لصـاحب بيروت عليـه أن بإمكانـه التصـدي له ومنـازلته، لكـن رجالـه الجيدين قالوا إنه لن يفعل ذلك، لأنه لن يقاتل بمشيئة الرب ضد مولاه، وهو لم يرغب قط بالقتال ضـده إذا ما أمكنه تجنب ذلك، لأن من عادته البقاء دوماً مستقيماً نحوه عن طواعيـة، ولقد قام بهذا العمل وهو آسف، ومادام قد بدأ ذلك فلسوف ينهيه، وأعطاه مـولانا نعماً فائضة من المشاعر والحكمة والشجـاعة والشرف، وأظهـر نحوه حبـه أكثر مـن أي إنسان في أيـامه، أومثيلـه في الثروة، وقـام الإيبليني بتسليم نيقـوسيا إلى الامبراطـور وذهب إلى ديـودامـور، التي كـان قـد شحنها، ولم يتجـرأ الامبراطـور على اللحاق به، بل بقي لوقت طويل في نيقوسيا مع عدد كبير من الرجال.

٣٦(١٣٢) واقترب الشتاء وتلقى الامبراطور أخباراً من بلاده بأن البابا غريغوري والملك جون صاحب القدس كانا يشنان الحرب ضده في أبوليا(٨١)، ولهذا كان خائفاً جداً ،وبادر إلى الإسراع للذهاب إلى سورية، ليعقد هدنة مع المسلمين حتى يمكنه العودةإلى بلاده، ولهذا السبب سارع إلى عرض التصالح مع صاحب بيروت، وهكذا جرت المباحثات وتقدمت بوساطة رجال الدين وآخرين بغية الوصول إلى اتفاقية، وكانت المحصلة أن أقسم الامبراطور وجميع باروناته لصاحب بيروت أنه سوف يبعث إليه على الفور ولديه سالمين وصحيحين في الجسد والأطراف، ولسوف يحتفظ بالسلام معه، ولن يلحق الأذى به أو بشعبه ولن يغرمهم، إذا لم يكن ذلك بموجب أمر صادر عن المحكمتين، كما أنه لن يحمل في نفسه أي حقد تجاه هذه الأمور التي انقضت، ولسوف يمكن الملك هنري شخصياً من تسلم القلاع والمملكة، وبما أن الملك ما يزال طفلاً، فإنه سوف يعين واحداً من أتباعه(هنري) ليتولى حراسة القلاع والمملكة حتى يصل الملك إلى السن التي تؤهله للحكم .

٣٧ : وأقسم صاحب بيروت ورجاله أنهم سوف يسلمون قلعة ديودامور بناء على أوامر ملك قبرص المتقدم الذكر، وأنهم سوف يذهبون مع الامبراطور وسوف يخدمونه طيلة الوقت الذي سيبقى فيه في سورية على حسابهم الشخصي، وهو لن يتحمل أي أذى نحوه أو نحو مؤيديه فيما يتعلق بجميع الأشياء التي مضت، وأصر الامبراطور على وجوب اعترافهم بأن الوكالة عائدة إليه، المطلب الذي ردوا عليه بعدم الموافقة، حتى لو فقدوا رؤوسهم، لأنه فيما يتعلق بالوكالة، فهم قد كانوا رجال الملكة أليس، لكنهم لن يترددوا في إقسام يمين الولاء إلى الامبراطور لأنه المولى الرئيسي لمولاهم الملك هنري، وإنهم سوف يقسمون هذا القسم نفسه بموجب الميثاق التالي : إذا كان قد تقرر في الامتيازات التي وردت في المواثيق التي أقيمت فيما بين والد الامبراطور والملك(عموري) هنري،

بأنه يتـوجب على رجال الملك إقسام يمين الولاء، فـإنهم سوف يتمسكون بأداء القسـم، لكن إذا كـان هـذا لم يـرد بين الامتيـازات، فـوقتهـا ينبغي تحليلهـم مـن أداء ذلك (٨٢)، وتعهــد الـداويــة والاسبتــارية وجميـع البارونات والأعيـان من كلا الجانبين بالحفاظ شخصيـاً على هذا السلام، وسلمت قلعة ديودامور وبقيـة الحصون الأخرى في قبرص إلى الملك، وقام هـذا بناء على أوامـر الامبراطـور وخوفـاً منـه بتسليمهم جميعـاً إلى رجالـه الذين كانوا من حزب الامبراطور (٨٣).

٣٨ (١٣٣): وذهب الامبراطور فـردريك وأتباعه فوراً إلى فيما غـوستا، لـلاقلاع مـن هناك (٨٤)، وقـدم إليـه إلى هنـاك اسطولـه من ليماسـول، وأرسل مـن هناك إلى صـاحب بيروت ولديـه، اللـذان عانيـا طويـلاً من السجن على اليـابسة وفي داخل السفن في البحـر، وكانا في حـالة مـزرية جـداً، حتى كـان مـن المؤلم النظـر إليهما، ومع ذلـك استقبل الامبراطـور السيـد بالين في بيتـه وعـرض عليه وأعطـاه كثيراً، وهو الـذي كـان شابـاً عظيم الشجاعة وفـارساً، ونشيطاً وكريماً، وبارعاً، ومقبـولاً جداً لدى جميع الناس الـذين كانـوا على هذا الجانب من البحـر، قام بخدمـة الامبراطور عن طـواعيـة وبأدب إلى حـد أنـه كان مسروراً منـه، وكـان الابن الآخـر لمولاي صاحـب بيروت اسمه جـون (٨٥)، وكان سيـداً، وقد احتفظ بـه الامبراطور طيلة وجوده في سورية، وقال بأنه سوف يعطيه فوغيا Foggia التي هي في أبوليا، ولهذا السبب عرف باسم جون أوف فوغيا(٨٦).

٣٩ (١٣٤): وأقلع الامبراطـور مع اسطـوله من فيماغـوستا في إحـدى الأمسيـات عند حلـول الظلام (٨٧)، وهـرب منـه في تلك الليلة نفسهـا أمير أنطـاكية العجـوز، وتـركه على ظهـر سفينـة حـربية حيـث وصل إلى إحدى قلاعه التـي عرفت باسم نفين (٨٨) Nefin، ثم إنه قـدم الشكر للرب على أنـه نجا مـن الامبراطور، لأنـه كان قـد قدم إلى قبرص بعـدما عقد صـاحب بيروت السلم معه (٨٩)، وكـان الامبراطور قـد طلب من

الأمير بأن يأمر جميع أتباعه في أنطاكية وطرابلس أن يقسموا يمين الولاء له، مثلما فعل الذين كانوا في قبرص، وقد عدّ الأمير هذا كأنه قد مات وسلب ميراثه، ولهذا تظاهر بالمرض والوجع وكان دوماً يصرخ « آه— آه— آه— آه»، وقد فعل ذلك بشكل مؤثر حتى تمكن من المغادرة حسبما سمعت، لكنه ما أن وصل إلى نفين حتى تعافى.

٤٠ (١٣٥): ووصل الامبراطور في سنة ١٢٢٩ (١٢٢٨) إلى سورية مع اسطوله كله ووصل الملك معه، وجميع قبارصته معه، وتوجه صاحب بيروت إلى بيروت، حيث استقبل هناك بسرور عظيم، لأنه ما من أمير قد أحبه رجاله مثلما أحبوه، وقد بقي هناك لمدة يوم واحد، ثم لحق على الفور بالامبراطور، والتقى به في صور، واستقبل الامبراطور استقبالاً جيداً في سورية، وقدم له الجميع الولاء، وغادر مدينة صور ومضى إلى مدينة عكا، وقد استقبل هناك بترحاب كبير (٩٠)، ودخل اسطوله الذي تألف من سبعين غليونا وسفينة إلى ميناء عكا، واتخذ هو لنفسه مقراً في القلعة، ثم أمر بجمع الأتباع الاقطاعيين وطلب منهم أداء يمين الولاء له (٩١) بمثابة الوكيل، لأنه كان لديه ولداً صغيراً اسمه كونراد، وهذا كان الوريث الشرعي لمملكة القدس من خلال أمه التي كانت متوفاه، وترك الامبراطور وجميع رجال سورية عكا، وذهبوا إلى يافا (٩٢)، وعقدوا هناك اتفاق هدنة مع الكامل (٩٣)، الذي كان سلطان القاهرة ودمشق (٩٤)، وكان مستولياً على القدس، وعلى جميع البلاد، وبموجب هذه الاتفاقية كان سيسلم القدس والناصرة واللد إلى الامبراطور (٩٥) .

٤١(١٣٦): وفي وسط هذه الأحداث، في هذه السنة نفسها (١٢٢٩) بعث الامبراطور بالكونت ستيفن صاحب البترون (٩٦) إلى قبرص ومعه اللومبارديين الآخرين، ليتولى الاستيلاء على جميع الحصون وعلى موارد التاج ليتولى استخدامها، وقد قال بأنه الوكيل، وأن تلك كانت حقوقه، وكان القبارصة خائفين جداً وكذلك نساؤهم وأطفالهم وقد وضعوا

أنفسهم تحت رعـاية رجـال الـدين حيثما استطـاعوا، وهـرب بعضهـم إلى خـارج قبرص، وخـاصـة السير جـون دي إيبلين (٩٧) — الـذي أصبح فيما بعد صاحباً ليـافا، وقد كان في ذلك الوقت طفـلاً— وقد هرب ومعه أختـه مع آخريـن من الاسر النبيلـة، وحدث ذلـك في قلب الشتاء، وقـد واجهوا أحـوالاً جويـة صعبة حتى أنهم نجـوا بصعوبة كبيرة مـن الغرق، وقد وصلوا بعـون الرب أخيراً إلى طرطوس، واستـولى الامبراطور الآن على قبرص، وكان القبارصـة في جيشه في غاية الانزعاج، ولـو وافقهم صاحب بيروت لتجمعوا واختطفوا الملك الشاب هنري ولتخلوا عن الامبراطور.

٤٢ (١٣٧): وبات الامبراطـور مكروهاً من قبل جميع النـاس في عكا، وكان مبغوضاً بشكل خاص من قبـل الداوية (٩٨)، وكان هناك في ذلك الـوقت مقدم الـداويـة الأكثر شجـاعة، الأخ بيتر دي مـونتاغيـو (٩٩)، الذي كان باسلاً جـداً ونبيلاً، وعظيم الإقدام، وحكيماً (١٠٠) أيضاً كان مقدم فرسـان التيوتون (١٠١)، ولم يكن شعب السهـل (١٠٢)ميالاً نحو الامبراطـور، وقـد اقترف الامبراطـور أعمالاً كثيرة بـدت شريـرة، واحتفـظ ببعض الغلايين مستنفـرة تحت السلاح ومجاذيفها في أماكنهـا، وفعل ذلك حتى في الشتـاء، وقد قـال بعض الناس بـأنه رغب في القـاء القبض على صـاحـب بيروت، وعلى أولاده، وعلى السير آنسيـو دي بـري، وعلى بقيـة رفاقـه، وعلى مقدم الداويـة وعلى أناس آخريـن، وأنه كان ينـوي إرسالهم إلى أبوليا، وقـالوا بأنه رغب في احدى المناسبـات بقتلهم أثناء اجتماع دعا إليه وجمعهـم فيه، لكنهم أصبحـوا مدركين لنوايـاه، وجاءوا بقـوة عظيمة لذلك لم يتجـرأ أن يحاول قتلهم، ومهما يكن من أمـر، لقد عقد هـدنة مع المسلمين، حسبما رغب، وذهب إلى القدس (١٠٣)، وتوجه من هناك إلى عكا، ولم يتخل صاحـب بيروت عنه، مع أنه كان هناك مـن نصحه مراراً بالتخلي عنه، لكنه لم يرغب بفعل ذلك.

٤٣ (١٣٨): وجمع الامبراطور رجاله في عكا، وأمر باحتشاد جميع أهل

عكا، وكان هناك عـدد كبير من البيازنة، الذين كانوا مـؤيدين له وميالين كثيراً إليه، وهنـاك خطب فيهم وأبلغهم بما رغـب به، واشتكى في خطـابه كثيراً من الداوية.

وقـام بمحـاصرة بيت الـداويـة (١٠٤)، وتضرر بيت الـداويـة أضراراً كبيرة، لأن الدير كـان كله بالخارج، غير أن كثيراً من الناس تقـاطروا عليه بحـراً وبراً، وإنني لا أعـرف كم دام الحصـار، لكنه غـادره بوضع شريـر جـداً (١٠٥)، وأعـد الامبراطـور العـدة بشكل سري لعبـوره، ودخـل إلى غليونه في اليوم الأول من شهر أيـار عند الفجر، دون أن يعرف ذلك أحد من النـاس، وحين دخـل إلى الغليـون كان ذلـك أمـام شـارع الجزارين، وحـدث هناك أن الجزاريـن والمسنين من أهل ذلـك الشارع الـذين كـان وضعهم سيء جـداً، أنهم ركضـوا إلى جـانبه ورمـوه بـالفضـلات وبقطع اللحم بشكل مهين جداً.

٤٤: وسمع صـاحـب بيروت والسير يودس دي مـونتبليـارد (١٠٦)، ضجة الكـلام حول هذا، فبـادرا مسرعين، وأبعدا الناس بـالضربات، أي الناس الذين كـانوا يرمون هذه الأشياء عليه، وصرخـا إليه من جانب البر حيث كـانا إلى حيث كان في الغليـون بأنهما يدعـانه في رعايـة الرب، ورد الامبراطور بصوت منخفـض جداً بأنه لايعرف هل هـذا سيكون جيداً أم سيئاً، وقال بأنـه تارك في مكانه وكيلاً صـاحب صيدا (١٠٧)، وغارنيير الألماني (١٠٨)، وكـان الامبراطـور قد جهـز قلعـة صـور بشكل جيـد، وأعطـاها إلى صـاحب صيدا ليتـولى إمـرتها، وجعل الأمور تظهـر أنه قـد وضع ثقـة عظيمـة بـه، وقـد اصطحـب الامبراطـور الملك هنـري ملـك قبرص معه.

٤٥ (١٣٩): وهكـذا غـادر الامبراطـور عكـا، مكـروهـا، وملعـونـا، ومـــرزولاً، ووصل إلى قبرص، وحـل في ليماســول، ونصـب هنـاك الملـك المتقدم الذكر، أي الملـك هنري، وأعطاه زوجة واحدة من قريبـاته، كانت

ابنة المركيز أوف مونتفرات (١٠٩)، وعقد هناك اتفاقات نهائية مع الوكلاء الخمسة ، الذين سمعت بأسمائهم من قبل، والذين كانوا من حزبه، وقد باعهم وكالة قبرص والبلاد بمبلغ عشرة آلاف مارك، وذلك حتى يصل ملك قبرص المتقدم الذكر إلى سن الرشد (١١٠)، وجعلهم يقسمون أنهم لن يمكنوا صاحب بيروت والمتحزبين معه من العود ة إلى قبرص، وأمرهم بوجوب طردهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، وقد قبلوا بهذا عن طواعية من الامبراطور، وبناء عليه حوّل إليهم مرتزقة وألمان، وفلمنكيين، ولومبادر توجب عليهم أن يدفعوا لهم، كما التمسوا أيضاً اكتراء بعض المرتزقة من عكا ومن أماكن أخرى، وقام بعض الرجال الذين كانوا من رجال الملك بالالتحاق بهم ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، بحكم وجود الملك هنري مع الوكلاء، ولأنهم أنفسهم رغبوا بالعودة إلى بيوتهم، لكن القلاع لم تستسلم إليهم إلى أن يدفعوا المال، وسافر الامبراطور فردريك عبر البحر وترك في مكانه رجالاً لتسلم المال وليسلموهم القلاع (١١١).

٤٦ (١٤٠): وكان فيليب دي نوفار وقتذاك في قبرص يقوم بأشغاله الخاصة (١١٢)، وأمره الوكلاء الخمسة بشكل سري، وذلك بعد ما بحثوا عنه في أثناء الليل ورجوه وطلبوا منه بكل مظاهر الصداقة، أن يسعى لإقامة سلام بينهم وبين صاحب بيروت، وقالوا بأن التسوية التي صنعوها مع الامبراطور كانت فقط من أجل استسلام الملك والبلاد وتخليصهم من يديه، وأنهم ما أن يتسلموا القلاع حتى سيفعلوا كل ما يرغب به صاحب بيروت (١١٣).

واتفق فيليب دي نوفار مع الوكلاء الخمسة أنه سوف يقوم بكل سرور بهذه المهمة، وذلك لمعرفته بحكمة مولاه وعفوه، واشترط عليهم أن يقسموا له على الإنجيل المقدس، أنه إذا لم يتمكن من عقد السلام، سوف يأخذونه هو وآل بيته وجميع مقتنياته بأمن وسلام إلى بيروت أو إلى

عكا، وناضل فيليب دي نوفار في سبيل السلام ووجد في مولاه كل ما رغب به.

٤٧: وفرض الوكلاء الخمسة الضرائب على فقراء الناس في قبرص وسرقوهم كثيراً حتى تمكنوا من دفع المال وتسلم القلاع (١١٤)، وكان لديهم في ذلك الحين عدد كبير من الرجال، حتى أنهم عدّوا أنفسهم أقوياء جداً (١١٥)، ومن ثم وافقوا وقادوهم بحماقة نحو مايلي:

لقد أصبحوا متعجرفين واعتقدوا أنهم سوف يستحوذون على البلاد ويدافعون عنها، ويتغلبون على مولاي صاحب بيروت وعلى حزبه، ومع هذا تابعوا الحديث بشكل سري عن السلام مع فيليب، ثم أمروا شعب البلاد بالاجتماع في بلاط الملك، وذهب واحد منهم شخصياً لإحضار فيليب ووضع يديه حول عنقه وترجاه أن يذهب إلى الملك، لأنهم رغبوا في عقد اجتماع خاص معه، وقد ذهب عن طواعية، لأنه وثق وثوقاً كبيراً بالقسم الذي أدوه إليه.

٤٨: وعندما دخل فيليب دي نوفار إلى بلاط الملك وجد الأبواب محروسة بكثافة من قبل رجال من أتباع بيوت الوكلاء الخمسة، وقد حفظوا الأبواب بشدة حيث لم يسمحوا لأحد بالجواز إلى الخارج، وكان فيليب خائفاً لكنه لم يظهر أدنى علامة على ذلك، وعندما اجتمع الجميع وقف واحد من الوكلاء، وكان واحداً خطيباً مفوهاً، واسمه وليم ريفت، وقد تكلم لمدة طويلة بكلمات جميلة، وقد قال بين أشياء بأن صاحب بيروت قد فقد بحماقة الملك والبلاد، وأنهم (أي الوكلاء) قد استردوا بعقلانية كلاهما الواحد ثم الآخر، وقد اشتروا الوكالة، ولهذا السبب إنهم يطلبون من شعب المكان أن يقسموا لهم على الاحترام، وأن يقفوا إلى جانبهم وأن يحافظوا عليهم بمثابة وكلاء لهم حتى يصل الملك إلى سن الرشد، وكان الملك في أيديهم وكان خائفاً جداً، وقد تكلم الملك بصوت منخفض، وغالباً مانظر نحو فيليب.

٤٩: وجلب على الفور الإنجيل المقدس إلى ذلك المكان، وقال السير عموري برلياس إلى فيليب دي نوفار «إذهب أنت أولا قبل الجميع وأقسم، ذلك أننا نرغب بشكل خاص أن تكون أنت الأول»، وانتصب فيليب قائماً وقال: «تحدث إلي ياسيد أولاً على انفراد ، أنت ورفاقك»، وقد ردوا عليه جميعاً وقال الخمسة: «بعون الرب، لن نفعل ذلك، لأنه يتوجب علينا أن نفعل كثيراً جداً، إذا ماتشاورنا مع كل واحد من هؤلاء الذين سوف يقسمون، وبذلك ما من شيء سوف ينجز، لكن أقسم ، ولسوف نصنع أشياء أكثر لك مماقدمه أولئك الذين خدمتهم حتى الآن، وأي واحد منا تريده سوف يعطيك إقطاعاً لك ولورثتك، ولسوف ندفع كل ديونك (١١٦)».

٥٠: ورد فيليب قائلاً: «إنني عظيم السرور، أنكم عرضتم علي هذا العطاء العظيم على مسامع هذا العدد الكبير من الناس، وتشريفكم لي دليل على تقديركم العظيم، وأنا أشكركم على ذلك وافر الشكر، لكنني غير قادر على فعل ما سألتموني أن أفعله، لأنني رجل تابع للملكة أليس بموجب وكالتها، وإذا ما وافقت وأقسمت على عدكم وكلاء، عندها أكون قد خرقت تعهداتي»، وعندها صرخوا بصوت واحد: «ليس لهذا السبب إنك ترفض، بل لأنك لاترغب في أن تكون ضد صاحب بيروت»، وقال فيليب: «إنني بمشيئة من الرب، لن أكون ضد صاحب بيروت، لأنني أحبه وأحب أولاده أكثر من أي جماعة أخرى في العالم»، وهنا قال هيوج صاحب جبلة: «هل سمعتم ماقاله؟ إنني أقترح أن نقوم بشنقه»، ورد فيليب على هذا بقوله إنه لايتفق مع ماقاله السير هيوج، وكان والده السير برتراند قد تكلم مرارا بشكل أكثر عقلانية، ثم إنهم صرخوا جميعاً، وقال واحد منهم: «خذوه» وقال آخر «اقتلوه الآن على الفور».

٥١— وازداد اضطراب فيليب نحو هذا وقلقه، ويئس من حياته،

وجثا أمام الملك وكرر على مسامعه العهد واليمين الذي قطعه الوكلاء الخمسة معه، وقدم ضماناته وعرض أن يتبارز —وفقا لقرار المحكمة— شخصياً ضد واحد من الخمسة، وذلك تماشياً مع ماادعاه، وقام عدد من أتباعهم، ممن كانوا فرساناً، بتقديم ضماناتهم ضد فيليب، لكنه رفضهم جميعاً بسبب ماقاله، وأصر طوال الوقت على طلب منازلة واحد من الخمسة، ذلك أنه قال بأنه كان من المؤكد معادلاً لهم، وأنه من السهل عليه البرهنة على ذلك، بكفالة عدد من الرجال الجيدين من بلاده الموجودين في قبرص وسورية، وقد أنكر كل واحد منهم ماقاله، لكن مامن واحد منهم عرض ضماناته للمبارزة، وبناء عليه اعتقلوه، ووضعوه تحت الحراسة في واحد من أماكن القصر، وتولى حراسته فرسان حملوا بأيديهم السيوف مجردة، وأعجب الناس كثيراً بماقاله فيليب وبمافعله، وأمر الوكلاء بإحضار قفص كبير، وأمروا بوضعه هناك، لحمله به إلى قلعة ديودامور، وفي الوقت نفسه حرسوه في القصر بشدة طوال الليل، وأدى بقية الناس اليمين للوكلاء.

٥٢— واجتمع الوكلاء الخمسة على انفراد وتشاوروا، وقالوا: «لقد طلب هذا الرجل المحاكمة في المحكمة، وإذا ماأخذناه بدون ذلك، سيكون ذلك خرقاً، لكن دعونا نطلب منه تقديم تعهدات وضمانات بمبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة بأنه سوف يمثل في اليوم التالي في المحكمة، بالشكل الذي هو عليه الآن، ودعونا نقول له إنه إذا ماأقسم هكذا فسوف يحاكم بالمحكمة، وعندما سوف يغادر من هنا دعونا نقتله بحكم أنه عدو خطير لنا، ولنفعل ذلك الليلة»، وهكذا بعدما أعدوا ماأرادوه، طلبوا التعهدات منه، ورد فيليب دي نوفار أنه لايحتاج إلى تعهد وضمانة، وبحكم كونه تابعاً اقطاعياً هو لايحتاج إلى تقديم أي شيء من هذا القبيل، ثم إن سمعته وصدقه واقطاعه ضمانة له، فأخبروه بأنهم سوف يؤمنون له حفظاً جيداً لسلامته، وعرضوا عليه أن يضمنوه

هم أنفسهم، غير أنه شكرهم، وتمنى أنهم سوف يقدمون مثل هذه الخدمة له عندما سيكون بحاجةإليها.

٥٣ (١٥١)— ومأأن غادرهم فيليب دي نوفار حتى توجه مباشرة إلى مقر الاسبتارية، واستطاع أن يتدبر في تلك الليلة نفسها جمع مائة وخمسين رجلاً مسلحاً، وقد وجد هناك نساء وأطفال الذين كانوا في سورية مع صاحب بيروت، ولولا أن فيليب قدم إلى هناك لقام الوكلاء الخمسة يدخول المكان في اليوم التالي، ولتولوا أسره(١١٧)، وهاجموا في تلك الليلة نفسها البيت الذي كان يقيم به من قبل واستولوا عليه، وقد وجدوا فراشه معمولاً، فطعنوا الغطاء برماح كثيرة وبسهام، وكان هناك رجلان يتوليان حراسة البيت، وقد قتل واحد منهما، وأصيب الثاني بجراحة بالغة.

٥٤ (١٤٢)— واستولى الوكلاء الخمسة في اليوم التالي على جميع اقطاعيات مولاي صاحب بيروت واقطاعيات رفاقه، وتدبر فيليب ضخ الماء من أحد الصهاريج وكان موجوداً داخل برج الاسبتارية، وبذلك تم صنع الكثير من الكعك، وشحن البرج بالمؤن وسلحه بأدوات الرمي، وعندما علم الوكلاء الخمسة بأن فيليب كان موجوداً هناك، حاصروا المكان وشددوا الحراسة من حوله ليلاً ونهاراً حتى لايتمكن من الخروج منه، ورغب فيليب دي نوفار بالإخبار بما يجري ولاسيما إعلام مولاي بالين دي إيبلين، الذي كان رفيقه، وعندما شرع بكتابة الرسائل، تولدت لديه الرغبة أن يكتبها شعراً، وبما أن السير عموري برلياس كان الأكثر شراً من البقية، فقد أشار إليه باسم رينارد، ولأنه في جميع قصص رينارد غريمبرت Grimbert ، هو الغرير، وهو ابن عمه فقد دعا عموري صاحب بيسان باسم غريمبرت، ولأن السير هيوج صاحب جبلة له فم ملوي، ويبدو دوماً وكأنه مكشر، فقد دعاه فيليب «القرد».

٥٥ (١٤٣)— وهاهو الكتاب شعراً، الذي أرسله السير فيليب دي

نوفـار، عندما كان محتجـزاً في مقر فرسان القـديس يوحنا في نيقـوسيا، إلى السير بالين دي إيبلين، الذي كان موجوداً في عكا:

أكثر من مائة ألف تحية يرسل إليك،

أيها السيد اللطيف والصديق، والذي هو الآن أخ جديد.

لسنا الآن بصدد الصليب الأبيض، فلدينا الكثير لنعمله

ذلك أنه قد لايتمكن أن يغني هذه السنة لساعات أو أن يقوم بالقداس كاملاً.

أيها الصديق اللطيف، أرضك الآن تمثل اسبانيا،

هناك خمسة وكلاء في جمع واحد فوق سهلها.

لقد أظهروا حباً عظيماً نحوي، وناضلوا في سبيل كسبي

إلى جانبهم، لكنني رفضتهم. بازدراء

وبغضب، وبدون محاكمة قانونية، بل بالقسر

ألقوا القبض علي، ورموني بالأغلال، ولزيادة آلامي

أبدوا نحوي تلك الليلة كل الأعمال الوحشية:

لقد حرسوا الأبواب بقوة، ومامن أحد أمكنه المرور خلال السلاسل.

وصاحب الوجه الحاد أقامهم هناك، وهو الذي كان متشوقاً

ليفدي بنفسه المملكة كلها.

نا لم أر تلك الليلة أي حيوان متوحش

مثل الذي أدخل رأسه إلى الحقل. وإذا حدث

- ٢٤٣٤ -

بمشيئة الرب، وزالت هذه المحنة من حوله
سيقيم عيداً كل سنة لجميع كبار القديسين

وهكذا وضعت خلال تلك الليلة في المحكمة:
الكلام الطيب والتماس العدالة لم يكسبني شيئاً
وعلى الرغم مماقلته، حكموني بلا حق ولاقانون
في داخل القفص أوثقني الخونة بشدة
ثم أرادوا قتلي خيانة أثناء الليل
لكنني أنذرت من قبل واحد، لم يعبأ أبداً بالذي لن يرضى، وقدم لي نصيحة مخلصة في محنتي.

إنني الآن متدثر برداء من أردية الاسبتارية
وإنني لواثق بالرب، في أنني سوف أخرج هذه السنة من هذا الضيق
وعارف أن بالين سوف يأتي بين بني قومنا
وآنسيو، صاحب الأنف المفلطح، أستدعيه هو الآخر

إن الذي وقف فيما بين الحواجز وبين حصانه
قد حاصرني، وضربني، في داخل مقر الاسبتارية بالقوة.

لو أن الرب ترك الشقي يقتل، لتوقف مصدر
الكثير من المآسي التي وقعت في قبرص

لو أنهم عوضاً عن ذلك اتفقوا مع آنسيو صاحب الأنف المفلطح
عندما رمى بنفسه من على ظهر حصانه فوق رأسه
لكان الجميع قد قال: «لك الشكر من الرب والمنة»
ومن ثم تفوهوا غناء بتبريكاته النهائية

★★★

بالين، لاتنس السجن والأغلال طويلاً
السرور قد يخفي ذلك، لكن الأمر معروفاً من قبل حشد كبير

لئن اعتقلوك، لاتأبه بذلك ولاتستح منه
لأن الذي أخذك، اعتقل ملكاً وكونتا سواء
غير أن الذي يزعجني و يؤلمني أنهم جميعا يقولون:
إن ذلك قد عمله، الذي هو عار بالنسبة للبشرية؛
ويظهر هذا كم هو يخشاك ويخاف من اسمك.

تذكر يابالين أنه قد حدث في أيامك
أن الذي دفع الفدية ليخرج من الميدان يحكمك الآن كعبد.

يتوجب عليك استدعاء مولاي صاحب نابلس
وخالك الطيب، فلعله سوف يفيدك كثيراً
بحق الرب ادع الفيليبين صاحبي نابلس ويبنى
وخال والدك، مولاي بلدوين اللطيف
الذي لم يحن رأسه لانسان حي، ولم يخفض ذقنه مطلقاً،
ولئن تخاذلت أمام خمسة من الأشرار وتوانيت
ليتولى الرب الذي عاقب قاين ودمره لذنبه
تدميرك ومعاقبتك، مالم تنتصر.
من أجل الرب، ضع حب شؤون عكا جانباً
أنت والسير بدغر، الذي ممجداً ارتدى ثوب النمر
من أجل ثعلب خسيس رماه المهر ولم يستطع ركوبه
والذي يتحرك هنا، حتى أن اللومبارد سايروا هذا الاتجاه....
وإذا كنت تحب النساء، فقد أرادا أسرهن
بوساطة الحصار، كل من رينارد وإلى جانبه غرمبيرت،
الذي نشر أمام مقر الاسبتارية علمهم عريضاً.
وقد راقبنا، طوال الليل، وهم مسلحون بنشابهم ورماحهم
ملاك الأراضي، والعدل قد حرمونا وأنكروه علينا
والسيدات وواحد لومباردي فقط في الداخل
وواحد جبان وآخر رعديد، كيف يمكنك التعايش مع هذا؟

لدى رؤيتهما، تذكرت، والرب هو مرشدي،

بقلب محترق غداً بعد عيد الفصح

فكل واحد جعل نفسه ملكاً، لكنه واحد بين أربعة

عفوك يارب، إنها لعبة الأطفال في الجري والاختباء

ملك في يوم، وفي الصباح التالي، كل واحد تجارته بائرة.

أنا بحاجة للضحك لدى رؤيتهم في الوكالة:

هيوج صاحب الفم المكشر، الذي تنكر لوالديه،

ووليم دي ريفت، الذي يرى في نفسه حكيماً

وريناردٍ، الذي امتلك الدهاء ليتخلص من المبارزة

وعموري وجوفيان اللذان من أصل مختلف

وإذا ماعرفتهم جميعاً، لن يكون أحد أكثر منك غضباً

وإذا ماغنيت أو نظمت حولهم، فهذا ليس عملاً ساخطاً:

إنني عندليب، وقد وضعوني داخل قفص

ينبغي ألا تلوموني إذا لم أضع بشكل جيد تماماً

الأوزان الشعرية، ولم أصقل كل بيت منه

وإذا كنت مسجوناً، إنهاء الأغنية هي غايتي

بشعر دوبيت أو على الأقل بشعر أبيات منفردة

٥٦ (١٤٤)— وتلقي هذا الشعر واستقبل في عكا ببهجة عظيمة، وصرخ الجميع: «دعونا نذهب على الفور لإنقاذ السيدات واللومباردي» (١١٨)، وأعدوا أنفسهم بكل سرعة، وكان هناك كثير من الرجال

الجيدين والسفن الممتازة، وقدم صاحب بيروت جميع التجهيزات للسفن وللسيرجندية، كما وجهز الفرسان وأعطى الجميع كل مايحتاجونه، وقد عبروا البحر ووصلوا إلى كاستري (١١٩) Castrie ، وقاوم الوكلاء الخمسة بشدة عملية الاستيلاء على الميناء، ومع هذا تم الاستيلاء عليه بالقوة، وتراجع الوكلاء الخمسة وعادوا إلى نيقوسيا، حيث كانوا واضعين الملك تحت الحراسة، وبعث صاحب بيروت والناس الذين معه برسائل لطيفة وودودة إلى الملك، لابل حتى الى الوكلاء الخمسة، قائلين بأنهم قدموا من خدمة الرب (١٢٠)، وأنهم يرغبون بالعودة إلى منازلهم واقطاعياتهم، وأنهم كانوا على استعداد لعمل كل من العمل الصحيح ولفرض حقوقهم، لكن الوكلاء الخمسة لم يتنازلوا بالرد.

٥٧ (١٤٥)— وركب صاحب بيروت وصحبه على تعبئة وزحفوا بصفوف متراصة حتى وصلوا إلى أمام نيقوسيا، وخرج الوكلاء الخمسة من المدينة وأخرجوا معهم شعب المدينة بالقوة، وكان معهم جميع التيركوبليه (١٢١) والمرتزقة، وهكذا تفوقوا عددياً بشكل كبير على قوات صاحب بيروت، ووضع رجال الدين أنفسهم بين الفريقين بغية المصالحة، لكن ذلك لم يفد، وقام قادة الأرتال بتقدير بعضهم بعضاً، واستطلعوا قواتهم من هذا الجانب ومن الجانب المقابل، ووضع كل منهم نفسه أمام الذين كرههم أكثر، وهكذا تقدموا جميعاً، وكانت المعركة هي الأسوأ والأشد قسوة بشكل مطلق مما وقع على هذا الجانب من البحر، وكان عدد الفرسان الذين سقطوا هم وخيولهم كبيراً وكذلك الناس الذين قتلوا، وجرت المعركة في أرض محروثة، وكانت هناك ريح غربية شديدة الهبوب، وكان الغبار كثيفاً حتى أن مامن شيء كان يمكن أن يرى، وقتل في هذه المعركة السير جوفيان العجوز صاحب قيسارية، الذي كان قسطلان قبرص، وابن ختن مولاي صاحب بيروت (١٢٢)، وقتل أيضاً السير جيرارد دي مونتاغيو، الذي كان ابن أخ لكل من مقدمي الاسبتارية

والداوية، ولـرئيس أساقفة قبرص يـوستوريو Eustorgue ، لأن حصانه تمدد فوق جسده لمدة طويلة(١٢٣).

٥٨— وقـام أولاد مـولاي صـاحـب بيروت في هـذه المعـركـة بـأعمال مـدهشـة في القتـال، وأنجـز فـوق الجميع السير بـالين روائع، وانتخـب الـوكلاء الخمسـة خمسة وعشريـن فارسـاً، كـانوا هم الأعظـم نشاطـاً بين رجالاتهم ليحـاولوا قتل مـولاي صاحـب بيروت، وشطر مولاي صـاحـب بيروت فم واحـد منهم، لأنه لم يكن لـديه واقية وجـه مثبتة على خـوذته، وبضربته لـه رماه أرضاً مقتولاً، وخـلال المبارزة نفسها سقط فـرس مولاي صـاحـب بيروت في الخنـدق، وارتدى الـوكـلاء الخمسـة قلانـس مذهبـة ضخمة فـوق خوذهم ليتميزوا بها، ومع هـذا قهروا وهزموا بمشيئـة الرب، ونجا جميع الوكلاء الخمسة، وفروا أولاً إلى عنـد هيوج صاحب جبلة الذي قاد قوات المؤخرة.

٥٩— وعنـدما كـانت الهزيمة قـائمـة وكذلك الفـرار لبعض الـوقت وانجلى الغبـار، و بينما كان السير بـالين دي ايبلين يقـوم بأعمال المطـاردة بعيداً، وجد مـولاي صاحب بيروت نفسه وحيداً في ميدان المعـركة، ومعه لست أدري كـم من النبالـة على أقدامهـم، و كان أمـامه في الميـدان من الأعداء مـا لايقل عن خمسة عشر فارسـاً، و كانوا هم الأفضـل و الذين نشطوا في القتـال، و عندما انجلى الغبار عـرفوه و عرفهم، و عنـدما رأى صاحب بيروت أنـه كان وحيداً، ترجل ودخل مـن خلال باب صغير إلى سـاحة حيث كـانت هنـاك كنيسة صغيرة، و ذهب سيرجنـديته معـه، و هكذا دافع عن نفسه بقـدر الإمكان و معه سيرجنديته، و طعنوا بـالرماح الذين اقتربوا من الخارج لتدمير الجدران وشق طريق نحو الداخل .

٦٠ : و قضى الـرب أن وصل و قتـذال السير أنسيـودي بري ممتطيـاً ظهر حصان كبير وقـوي، و كان مغطى بالحديد، و فـوق الحديد تجافيف جيـدة، ورمى بنفسـه عليهم، و أبـدى مهـارة كبيرة في استخدام السـلاح

حتى أنه كسر رمحه، وسيفه، لابل حتى خنجره قد انكسر، و تلقى ضربات هائله حتى لم يعد قادراً على استخدام يديه إلاّ بصعوبة بالغة، و بناء عليه وضع ذراعيه خلال المقود، و عندما جاء بعضهم ليهدم الجدار استخدم مهمازية و حال بينهم و بين هدم الجدار، و فعل أشياء عظيمة حتى أن مولاي صاحب بيروت صار صديقه الصدوق طيلة حياته، و حدث بمشيئة الرب أن السير باليَن ابنه الذي كان معه عدد كبير من الفرسان، عندما رأى أن والده ليس هناك، عاد إلى الميدان، حيث ما أن رأى خصومه راياته حتى تولاهم الرعب و هربوا نحو مدينة نيقوسيا، وقام السير بالين الذي جاء متقدماً على الجميع بمهاجمتهم بحماس و ضرب حامل رايتهم بشدة متناهية مما أدى به إلى السقوط إلى الأرض، وسقط حصانه معه أيضاً، و أُخذ كثير منهم أسرى و قتل أيضا العديد ، لكن عدداً كبيراً نجا لسقوط السير بالين .

٦١ : و اعتصم السير عموري برلياس ، و السير عموري صاحب بيسان و السير هيوج صاحب جبلة في قلعة ديودامور، في حين مضى السير جوفيان و رجاله إلى كنتارا (١٢٤) ، و أوقع فيليب دي نوفار الذي خرج من دار اسبتارية القديس يوحنا مع رجاله، فيهم أضراراً بالغة، و لاسيما بالذين كانوا في المدينة، و بعث الوكلاء الخمسة المتقدم ذكرهم أعلاه من يجلب هنري الملك الشاب ، قبل أن تبدأ المعركة، و قد حملوه بالقوة ووضعوه في قلعة ديودامور، و احتفظوا به هناك و أبقوه بمثابة سجين تحت الحراسة، ووقعت المعركة السالفة الذكر في مكان أمام نيقوسيا في يوم السبت في الرابع عشر من شهر تموز في سنة ١٢٢٩ (١٢٥).

٦٢ : و في اليوم التالي للمعركة حوصرت القلاع، و تولى مولاي صاحب بيروت حصار سيرينا(١٢٦)، و قام أولاده : السيربالين، و السيربلدوين، و السيرهيوج(١٢٧)، بحصار قلعة ديودامور، و حاصر

السيرآنسيودي بري قلعة كنتارا، التي كان فيها السير جوفيان، و عقد مولاي صاحب بيروت —الذي كان يحاصر سيرينا —معاهدة مع اللومبارد الذين كانت القلعة المذكورة بأيديهم، شرطت أنهم إذا لم يتلقوا نجدة خلال مدة محددة، سيقومون بتسليم القلعة له، و هو سيقوم بدوره بالدفع إليهم المال المستحق لهم عن كل من الماضي و الحاضر، و تولى فيليب دي نوفار إعداد هذا الصلح، و تسلم القلعة في الوقت المحدد لصالح مولاه، و اصطحب اللومبارد و قادهم إلى خارج قبرص .

٦٣(١٤٧): ثم نظم فيليب دي نوفار أغنية، و بعث بها إلى القسطلان في عكا، وجاء نظم هذه الأغنية كما يلي :

سوف أقول لكل العالم في أغنية

المتكبر و الأحمق، من درجة عالية جداً

و حيث مامن انسان قد سمع قط أو رأى

مثل و كلاءنا الخمسة الذين ازدروا القانون و الحق.

و قد تجاهلوا العدالة و الحفاظ عليها:

و قد سلبوا زملاءهم و مولاهم

من اقطاعياتهم الموروثة، ثم إنهم ابتهجوا

و لمنع ذلك جاءوا إلى قبرص ثانية

عندما بدون ذنب سلبوا تماما

أولئك الذين كانوا حجاجا قدموا عن طريق البحر

من سورية و من عكا إلى كاستري

-٢٤٤٢-

ثم بعثوا مباشرة إلى الملك رسالة لطيفة

أنهم قد جاءوا إليه ، على وفاق و اتفاق

عازمين على فعل الحق، و للحق محافظين

و لم يتنازل هؤلاء الوكلاء الخمسة للإصغاء.

دوماً جلب تكبرهم إليهم محنة محزنة

رجالنا على سهل نيقوسيا

يوم سبت نالوا النصر

و استردوا إقطاعياتهم، و بيوتهم و شرفهم ،بقوتهم

و هلك الخونة القذرين بحد السيف

و ابتغى بعضهم أي مأوى يحصل عليه في أي قلعة

★★★

و أسر بعضهم، وطورد بعضهم الآخر فوق السهل

و كان المقدم و قائد الهزيمة

هو الذي تولى قيادة قوات الساقة

حيث ما أن رأى المقدمة قد هوجمت، حتى على الفور هرب

على ظهر مهره الداكن الذي جرى به بقدر ما استطاع

فقد الحمقى في ذلك اليوم بسبب الخلاف و الخروج

- ٢٤٤٣ -

الأرض، و الشرف، و الأقرباء، و الرفاق الذي شاركوهم مصيرهم
و حمل هؤلاء و الساذجين وصمة العار معا:
و الأفضل لهم الآن أن يتحولوا إلى رهبان وسط عارهم و آلامهم

شاهدنا في ذلك اليوم سقوطاً مدمراً من ارتفاع شاهق
و لتدمير عجرفتهم المجنونة و باطلهم
هرب صاحب الوجه المشوه مجللاً بالعار
وآخرون كثر منحطين و فرسانا خونه
إلى داخل ديودامور وهناك تخفوا،
و احتجزوا هناك سجينا مولاهم الشرعي
احكم جيداً : أولا ينبغي شنقهم بحبل السجان و قتلهم؟
لقد اعتقلوه، و بذاته سجنوه

هؤلاء الأشرار الذين ينبغي تمزيقهم أثاروا
بعض رجال حمقى ليعتقدوا، بوساطة الخيانة
أن مولاي اقترف جريمة هائلة
بحصاره الملك و بازدرائه الحق .



تحول الرعاة الآن إلى ذئاب يزمجرون ويزأرون

ومادام خال الملك يحميه، إنه كله باطل

أن تأخذه من الحفظ لبيعه ثانية

امض أيتها الأغنية الموجعة وطيري كالسهم

واحملي حتى إلى سورية أخباراً مني

إلى القسطلان الذي يحبنا بإخلاص

وأخبريه أن عملنا يسير بشكل صحيح

الشكر لخالقنا وإلى ربنا

سوف يضحك كثيراً لدى رؤيته أن لينغير قد اعتقل

أنا مرسل إليك لسانه وأنفه لقطعهم قطعتين

٦٤(١٤٨) وذهب صاحب بيروت إلى حصار قلعة ديودامور، وعسكر عند نبع التنين، وكان أولاده فوق، أمام القلعة، وقامت القلعة في موقع حصين جداً، فوق أعلى الجبال، واحتاج حصارها كاملاً إلى عددٍ كبيرٍ من الرجال، لأنه كان بإمكان الانسان أن يخرج منها من أماكن كثيرة غير بابها، وكان في داخلها حامية كبيرة من الرجال على الخيول وعلى الأقدام، فقد هرب إليها معظم الذين نجوا من المعركة، ولقد حدث قتال شديد أمام الأسوار، وغالباً ما كان أمام الباب، ومع هذا كانت معاناتهم الشديدة من المجاعة، وهكذا أكلوا خيولهم، وبسبب أن الذين كانوا بالخارج شعروا بالأمان، تجول الفرسان ذهاباً وإياباً في البلاد حسبما رأوه مناسباً، ومن ذلك حدث أن صاحب بيروت ذهب إلى كنتارا لرؤية آلة حصار عظيمة Trebuclet(١٢٨)، كان السير آنسيودي بري قد أنشأها، وفي الوقت نفسه انتشر أولاده الثلاثة المتقدم ذكرهم أعلاه وتوزعوا في المنطقة، لهذا بقي عدد قليل من الفرسان يتولون الحصار، وأدرك الذين كانوا بالداخل هذا، وقاموا بإنقضاض عنيف تمكنوا به من

إنزال الهزيمة بالذين كانوا يحاصرونهم، واستولوا على معسكر الفرسان وعلى الأطعمة التي كانت فيه، ولو أن هذا لم يحدث لما استطاعوا الصبر كما فعلوا .

٦٥(١٤٩) :وكان السير بالين في نيقوسيا مع عدد قليل جداً من الفرسان، لأن الموسم كان شتاءً، وكان الفرسان في بلادهم، وكانوا متراخين يقومون بأعمال الرياضة، ولدى سماع السير بالين بالأخبار جاء، واسترد المعسكر، وتابع المطاردة حتى باب السور، وحطم رمحه على حديد باب السور، وكان معه عدد ضئيل من الرجال الأشداء لهذا كانت المعركة مدهشة، ولم يكن هناك تدمير في كل الحرب مثل الذي أحدثه القتال في ذلك اليوم، وكان هناك قتال شديد من على الجانبين، وقدم أبوه صاحب بيروت الذي كان قد ذهب لرؤية الآلة التي كانت قيد الإنشاء أمام كنتارا،وذلك لدى سماعه بالأخبار، وكذلك فعل أخواه، وقدما من حيث كانا، وجاء جميع شعب البلاد مسرعاً، ثم تمّ الاتفاق بوجوب بقاء السير بالين هناك لمدة شهر، ومعه مائة فارس، مع عدد مناسب من الجنود الرجالة، وتوجب أن يكون أخاه في الشهر التالي، وهو السير بلدوين الذي كان حكيماً جداً ونشيطاً، مع مائة فارس أيضاً، وأن يكون هناك في الشهر الثالث السير هيوج، الذي كان واحداً من أفضل الفرسان، وكان قوياً ومرضياً في جميع أنحاء العالم، وبما أنه تقرر وجوب وجود واحد من الأخوة هناك، كان بإمكان الآخرين الذهاب إلى حيث شاءوا، ولكن عليهم العودة كل منهم في شهره .

٦٦ : واستمر الحصار لمدة عام تقريباً (١٢٩) وفق هذه الطريقة، وكان هناك في كل يوم قتال واستخدام للسلاح، وكان فيليب دي نوفار قد أصيب بجراحة في إحدى المرات أمام باب السور، كما أصيب بجراحات خطيرة عديدة، من طعنات الرماح، ورمايات النشاب، والحجارة، وطعن في أحد الأيام بسنان رمح خرق تماماً خلال ذراعه،

ونفـذ في قميص سابغتـه وفي جسده، وبـذلك انكسر الـرمح على طرفـه، وبقي القسـم المكسـور مع السنـان في ذراعـه، وصرخ الـذيـن كـانـوا في الـداخل قـائلين:«مغنيكـم قـد مات، لقـد قتـل»، وأمسكـه أعـداؤه من وسطه، لكن مـولاه وقاه وأنقذه بنشـاط عظيم، ونظم في المساء مقطـوعتي دوبيت على شكل أغنيـة، وغناهما بصـوت مرتفع، وبـذلك عرف الـذين كانوا في القلعة وتيقنوا أنه لم يمت .

٦٧(١٥٠) وفيما يلي الشعـر الـذي نظمـه السير فيليب دي نـوفـار، عندما جرح أثناء الحصار أمام قلعة ديودامور :

لقد جرحت، لكن شفتاي لايمكن إغلاقهما بإحكام

حول السير رينارد وجماعته ـ

الذين من أجله انزلقوا وغرقوا بالعار

في داخل مالكروز Malcreuse، مأواه الأثير

لكن إذا كان الخوف من أجل نفسه قد أقنع رينارد

ما الذي فعله الإقطاعيون الآخرون التعساء ؟

والسيرجنديه؟ لماذا بيعوا ؟ ما هو ربحهم؟

مثل شياه جعلهم يبقون منتظرين

بالنسبة لرينارد يمكنه أن يجلب محناً خيانية

أكثر من غانئلون، الذي باع فرنسا خيانة وخساسة

لقد ملأ وكره ليقترف الدنس

مشبعاً بأمل أن يحكم البلاد وأن يضرب .

وعليهم صب هزواً كلمات سلام .

يااللعار،لخدمة خائن هكذا ضلوا !

في الخارج، لخدمته ذاقوا ألماً مبرحاً

في الداخل، بهلوانيتهم أوصلتهم إلى حبل المشنقة .

٦٨(١٥١) : وعانى الذين كانوا في قلعة ديودامور من المجاعة كثيراً(١٣٠)، حتى أنهم احتفلوا في عيد الفصح (١٣١)احتفالاً عظيماً على حمار ضئيل قد أمسكوه، وإلى هذا الحمار أشار فيليب دي نوفار في قصيدته عن رينارد، وقال بأنهم باركوا الحمل ذي الأذنين الكبيرتين وأكلوه في عيد الفصح، وهذا ما يمكن أن تجده فيها، وضغط السير آنسيو الذي كان يحاصر كنتارا على القلعة بشدة وعن قرب، حتى كان مذهلاً أن تصدق الذي فعله، ورمت الآلة التي كانت لديه هناك جميع الأسوار تقريباً، لكن الصخور كانت قوية جداً تعذر التسلق عليها وتجاوزها، وتحمل الذين كانوا في داخلها مصاعب جمة وخسائر كبيرة، حتى أنهم أ لقوا بأرديتهم وبأسلحتهم عندما هربوا خلال الطرقات ساعة مغادرتهم لميدان المعركة، ذلك أن ميدان المعركة كان على مسافة خمس عشرة مرحلة عن القلعة .

٦٩ : وحدث في إحدى الليالي أن ذهب فيليب دي نوفار مع السير آنسيو ليقوما بالحراسة، وسمعا حديث الذين كانوا داخل برج صغير مهدم، كان قد بقي من القلعة، وكان من دون ذلك هو على دراية بأوضاعهم، ولذلك نظم أغنية جاءت كما يلي :

حرست في الليلة الماضية حتى ظهور الصباح

بصعوبة قرب الأسوار، وحيداً، ومن دون أحد قريب

وسمعت من أعالي برج عويلهم واضحاً

أولئك الذين في كنتارا، امتلأوا حزناً وأسى

توجه واحد من الجماعة لآخر بالحديث

وقال :«وأسفي يا إلهي ما الذي سوف نفعل ؟

ليلعن الرب رينارد، لما اقترفه بحقنا من خيانة

ورسائل لاكستري المكتوبة الزائفة

التي وصلت إلينا قبل الفجر» .

« نحن فريسة الحزن وعميق الأسى»

هذا ما أجابه به الآخر، وأنا أسمع بشكل واضح :

«نحرس بالليل وفي النهار بدون توقف

نحن نتعب، مع قليل من الطعام، وثيابنا رثة، وزادنا قليل

نحن نعد لرامي الحجارة قذائفه للرمي

نصيبنا هو الألم، نحن نرمي، ونجر، وننجر :

إذا كنا سنظل نعاني من هذا القدر طويلاً

أتمنى أن يأخذك الموت هذه الليلة ويأخذني

قبل حلول الفجر» .

وسمعت آخر يقول:«يا رفاقي ويا آلي

سوف تنهمر من أجلنا كثيراً من الدموع المريرة

بعد قليل سنموت، أفراننا زلزلت ودمرت

تحت الضربات من قاذفات الحجارة والآلات

لقد دمروا أسوارنا، وأبراجنا، وبيوتنا أيضا .

- ٢٤٤٩ -

كيف سنحمي أنفسنا، إذا هاجمونا من جديد؟

وبات رجالنا وسلاحنا بندرة مأساوية

لن تعطنا الأسوار المزيد من الضمان

دعونا نهرب من هنا قبل الفجر» .

«الفرن والطاحون دمرا وزالا من الوجود

والبقاء هنا سيكون حماقة واضحة .

كامن لنا بقصد الخيانة والخداع

وكلاء ديودامور الذين جعلوا الصدق كذبا

لقد سرقوا بخيانة مطلية بالسواد

الملك، الذي أقسموا على تسليمنا

إياه، ثم جعلونا نقاتل في نيقوسيا

وكان ذلك موتاً لنا، ولهم أمان

آه، آمل أن لايروا الفجر مطلقاً »

«العون الموعود قدومه يوم عيد الفصح تأخر كثيراً،

ماأخشاه أننا تعطلنا، وفقدنا الأمل .

عندما رأينا الامبراطور للمرة الأولى، كان اليوم

يوم أسى، ينبغي أن نطلب النعمة، أو ندفع لذلك غالياً»

ثم تابع يقول :«هل يمكننا إيجادها، فهذا صحيح،

- ٢٤٥٠ -

لكن قليلاً من النعمة سوف يعطونا، إذا ما التمسناه

والأفضل بكثير هو أن نهرب إلى تركيا

لكن الحراس هناك يراقبون عن قرب

كل الليل حتى الفجر» .

عندما رأى جوفيان حالة رجاله بمثل هذه الحالة البائسة

تغيرت نواياه، ومن ثم بدل خططه

فخاطبهم وهو يتنهد قائلاً :«أيها السادة الأمائل، قد لا

أجد لنفسي رسولاً، من هنا

يتقدم بجرأة ويحمل رسالة ويتقدم بها

★★★

في سورية وقبرص مايزال هناك

من سوف يحزن لموتنا حزناً عظيماً جداً»

وعند هذا انبلج ضوء الفجر .

وعندما سمعت نواحهم بكل وضوح

عدت مسرعاً نحو سيرجنديتنا رسولاً

ومن ثم أخبرتهم، وأنا جزلان مسرورا

بأن الآلام والخلاف استبدا بكنتارا، بكل وضوح

وبما أن واحداً من قادتي سألني التبيان

★★★

هكذا توليت، قص أخبار التعاسة

التي سمعتها، عندما وقعت، وأعلنت عن نفسها بصوت مرتفع

ثم أشرق في كل مكان ضوء الفجر

٧٠(١٥٢) : وقد حدث في أثناء الحصار أن السيد الشاب صاحب قيسارية ـ الذي قتل ابنه في معركة الوكلاء الخمسة أمام نيقوسيا ـ قد وضع ومركز رجاله في المنطقة المجاورة فوق صخرة حادة كانت قريبة جداً من القلعة، وجعلهم يرمون من هناك خلال النهار وأثناء الليل، وكان لديه واحد من أبرع الرماة بالقوس العقارة، وكان قد أبصر السير جوفيان عندما كان يتجول في القلعة، وهكذا راقبه بشكل متواصل بكل تيقظ ونجح في قتله بوساطة نشابة، وكان ابن عمه السير وليم دي ريفت قد ذهب إلى أرمينيا طلباً للمساعدة، وقد توفي هناك، ثم أصبح قائدا كنتارا فيليب شينارت(١٣٢) Chenart الذي كان أخاً للسير جوفيان من خلال أمه، وكان شاباً متسرعاً وبلا خبرة، وأخفى الذين كانوا في الداخل خبر مقتل السير جوفيان، لكن رامي القوس العقارة كان متأكداً من قتله له .

٧١ : ولم يعد بإمكان الذين كانوا في القلعة التحمل أكثر، ولهذا أقاموا سلاماً، وافق عليه مولاي صاحب بيروت بترحيب من أجل ضمان سلامة الملك، ذلك أنه خشي أن يحمل في الليل إلى خارج القلعة ويودع في أحد الأماكن ومن ثم يرسل إلى أبوليا، وسلم الذين كانوا في الداخل أخيراً الملك، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت، وسلموا معه أخته والقلاع إليه، وأقسموا أنهم لن يقفوا ضده أو ضد أولاده، أو ضد الذين هم من حزبه بشكل مطلق ودائم، وأقسم (صاحب بيروت) وأولاده لجميع رجال حزبهم(لأن يأمر)(١٣٣)، بحفظ سلام مشرف معهم، وتم

الاتفـاق أيضاً على أن تقـوم أسرة السير جوفيـان بمغـادرة قبرص، بسبب أنـه قتل القسطـلان، لكن يتوجـب الاحتفاظ بـإقطاعيـاتهم(١٣٤)، وأن يرافقـوا بأمن وسـلام حتى مغادرتهم البـلاد، وأبرم هـذا السلام الـراهب الاسبتـاري الشجـاع الـذي اسمــه الـراهب وليـم دي تينـر Teneres (١٣٥)، وكـان وشيج الصـلات بمولاي صـاحب بيروت، وكـان السرور عظيماً عندمـا خرج والملك من القلعـة، وكانت البهجـة عارمة، وقـدمت هـدايـا كبيرة وأعطيـات، ولم يحضر السير آنسيـو، وفيليب دي نــوفـار، والفارس الذي هوجـم، وكان اسمه تورينول، ولم يرغبـوا أن يكونوا هناك، كما أنهم لم يتحدثـوا قط مع أعدائهم المتقـدم ذكرهم أعـلاه، لكنهم قبلوا السلام، نزولاً عند إرادة مولاهـم .

٧٢ ــ وبينما كان السـلام قيد الإعـداد ، أرسل فيليب ليسـافر، وكـان هكذا في ليماسول داخل سفينـة حيث توجب عليه الذهاب بمثـابة رسول إلى بلاد مـا وراء البحار، إلى البابـا وإلى ملك فرنسـا، وإلى ملك إنكلترا، وإلى ملوك إسبانيا الخمسة (١٣٦)، ليخبرهــم، ثم يكرر إخبارهم، وليقدم شكـوى ضد الشرور العظيمـة والآثام التـي اقترفها الامبراطـور فـردريك والناس الذين كـانوا في حاشيته في قبرص وفي سوريـة(١٣٧)، وما أن تمّ إبرام السلام حتـى رغب فيليب في صنع أغنية منظومـة تتعلق به، غير أن صاحب بيروت لم يـرغب بذلك، لكن بعد شيء مـن التردد أذن بحكاية واقعـة رينارد التـي ذكر بها أسماء عـدة وحـوش، وقد أشـار إلى صـاحب بيروت تحت اسم زنغـريـم Zengrim، وإلى أولاده بـاسـم ذئابـه، وإلى السير آنسيو دي بـري باسم الدب، وإلى نفســه باسم الـديك شانتيكلير Chanticleer، وإلى السير تورينـول باســم السنور تيمبرت Timbert، وجميع هؤلاء الوحـوش هم من حزب زنغريم في حكـايات رينارد، وأطلق على السير عموري(برلياس) اسم رينـارد ، وعلى السير عموري(صاحب بيسان) اسم غـرمبيرت الغرير، وعلى السير هيـو اسم القرد، ولقـد دعاهم

من قبـل على هذه الشـاكلة، كما تـذكرون، وهـؤلاء الـوحوش هم حـزب رينارد في حكايات حولهم أنفسهم .

٧٣ : وهـذه هي القصيـدة حول رينـارد وتبيـان كيف أن زنغـريم قـد هزمه :

ظل رينارد في حالة حرب لمدة طويلة جداً

أحرقت البلاد وأحدثت فيها الخراب

وقد قام بالكثير من المغامرات

جلبت له المرارة والآلام

ودنا رينارد مراراً من تلقي ضربة مميتة

عندما كمن له زنغريم الذئب وانتظره

وحاصره داخل مالكروز Malcreuse

وهو حصن قوي كان قيد استعمال رينارد

دون أن يكون لديه ما يأكله أو يملأ به الكأس

ووصل إلى حالة صعبة جداً

ولولا أن نبيلاً تولى المباحثات

لواجه رينارد منيته مع رفاقه

غير أن الرب الذي يرسل جميع التبريكات الطيبة

قضى بوجوب إنهاء هذا الصراع

وأن يتخلص رينارد من مآسيه وآلامه .

ومع هذا لم يكن متأكداً من السلام

وظل موسوماً بالضعف والمرض .
وكان رينارد، وغرمبيرت والقرد أيضاً
هناك، ولم يكن من جماعة أخرى أحد :
والذي أحصي مع رينارد في الداخل، مجرد ثلاثة
فقد تخلى عنه رفاقه بالسلاح
وعندما وضع السلم حداً لرعب الحرب
هذا بحق وبكل تأكيد يمكن للمرء
أن يسميه بأقذر أسماء الخيانة
مرة واحدة فقط عانى رينارد من مثل هذه الجرائم
بينما هو نفسه كذب أكثر من مائة مرة .
وجماعته الثلاثة الذين دونت أسماءهم هنا
لم يكونوا على وفاق بين بعضهم بعضاً ولا مع أحد،
بل عقد سلامهم مع زنغريم لوحده
ومع الذئاب الذين ينتمون فقط إليه ويعودون
وهؤلاء الذئاب، كما بينت لك
لم يحققوا كل ما أرادوا تحقيقه
وعندما أرغموا بالقوة على الوصول إلى نهاية
للصراع، رينارد لن يكون مطلقاً صديقهم .
لأنه عندما لعب دور المعالج، كان هو السبب

في وقوعهم في مصيدة بين فكي الذئب
وعندما رماهم في وكر الذئاب :
كانوا سيتألمون كثيراً، ما لم يدفع لذلك غاليا .
بالنسبة لهم أن ينشدوا التعويض لائق وصحيح
الرب يمقتهم لأنهم لم يحبوا انساناً قط!
ظل جالساً هناك مع مقاصد قتالية حادة،
لم يقم سلامه مع أي انسان .
مولاي الدب، و تيمبرت السنور أيضاً،
قد وعدا بضربه، و بإلقائه إلى الحضيض
و فوق هذا، السير شانتيكلير الديك
الذي هو على رقعة الشطرنج مثل الصخرة تماما،
مرارا مرّ خلال مملكته و اجتاز
و غنى بصوت مرتفع في أغانيه عن مصائد الذئب
و غنى بشعر منظوم لكل من أراد الإصغاء
و حكى كيف جرى قذف جراء الذئب
و أعاد السير شانتيكلير شحذ مهمازه
و لو أن أي بارون، هكذا أعلن
سيتجرأ بالهجوم على رينارد و الانقضاض عليه
هو— شانتيكلير — سوف يساعده، و يضرب بشده

رينارد الآن في البلاط، كما يمكنك أن ترى،

مبتهجاً، فخراً سوف ينال مع الاحترام .

و من زنغريم اقترب كثيراً :

و تطور به الحال حتى كاد أن يصبح ابن عمه

و قدم التحية لأبناء الذئب واحداً تلو الآخر

و عانق كل واحد منهم عندما التقاه .

و عمل رينارد أعمالاً كثيرة حتى يثير البلاط،

و كان يضحك متصنعا، و يؤدي حركات مبتذله

و كان لدى توليه رواية حكاياته، غالباً ما كان يسمي

و يعيد تكرار ذكر مجده و عاره :

و كانت كلماته مليئة بالحرب و صوت القتال :

و كان يهذبهم و يشذبهم، و يضيف جراحاً إلى الجراح .

و ألقى الدب عليه نظرة ثابته

و نظر إليه السير تيمبرت السنور شزرا

و تساءل ما الذي سيقترفه من جديد.

و على سؤاله أجابه شانتيكلير قائلا :«الآن سوف نرى

فيما إذا كان السير رينارد سيجعل منا أضاحي»!

و تنبه رينارد المرتجف لهذا كله و لاحظه،

و كان يخاف من الدب، الذي في أيام خلت

جعله يرتعد خوفاً، و يشعر بالويل.
و بتذكرة بسيطة تراه أخذ يرتعد خوفاً .
و من ثم بدأ يتشاور مع ابن عمه غرمبيرت،
و صرخ : «يابن عمي، الويل لي، إنني على أبواب الموت» !
وازداد ارتفاع ضغطه، و تحول لون وجهه إلى أصفر فاقع:
و كان مرضه المميت اسمه الرعب .
و طلب رينارد مع أهل بيته و ابتغى الراحة
و إلى جانبه و معه ذهب غرمبيرت الغرير
و ذهب أيضاً القرد، أعني السير كوينترو
و ذهب السير ريناردين النمر أيضاً
و إلى هناك قدم مالبرانش و بيرسيهي
و مثلهما هيرميلاين، زوجته النبيلة :
لقد جاء وا فرادى وجماعات و اندفعو إلى جانبه هائجين:
«أخبرنا ياسيدي، ما الذي حل بك الآن من ويلات»؟
و أجابهم قائلاً :«أنتم ترون حالي ، لذا لاتتوقفوا
و اذهبوا الآن و أحضروا لي الكاهن بدون تأخير»!
و عندما سمعت هذه المجموعة الخبيثة كلماته
اعتقدت بدون أدنى شك أنه يقول الحقيقة،
و أنه بشأن موته هو مرعوب تماما ،

و أن سيدهم الدنيوي سيكون ميتاً.

لكن هذا كله كان غشاً و خداعاً،

و على الانسان أن يحرس نفسه بعناية أعظم

ذلك أننا نفتقر بلا إرادة إلى ذلك الفن الذي يتقنه

و نحن نعلم، حتى يقلع كل ريشنا من جلدنا

بأن رينارد مخادع حتى بقلعه لريشه

فهو ماهر جداً بكل نوع من أنواع الغش والسرقة،

وهو يفكر ويمعن النظر بكل الشرور

ويبدع مؤامرة ذات خداع هائل،

لأنه بتظاهره بالاعتراف

سينال المغفرة، ويطلب المسامحة

من جميع الناس، بما أنه على وشك الموت

ومن الآخرين الذين يخشون العار أو الخطأ

لابل حتى من الدب الذي ألقاه أرضاًوداس عليه

والذي سدد إليه مايستحقه وبشكل عادل

أما بالنسبة لتيمبرت ولشانتيكلير أيضاً

نحن نريد أذاه عن قصد معلن، ونبغي سقوطه

وهو يعرف تمام المعرفة أنه مالم يستل سخيمة نفسيهما

طريقه في الحياة لن يكون سليما ولالينا

بل سيشتهي كثيراً الوقت والمكان

فعندما سيتمكن ثانية من الاستقرار،

سوف يعيد إشعال النار عن طواعية

وذلك عندما سيحصل على الوقت والمكان حسب رغبته .

وهكذا كان ما قاله:« أحضروا لي الكاهن»

كما وطلب إحضار جسد ربنا

وحضر المخلص الآن، لكن كما يمكنك أن ترى

كان السير رينارد معلماً متمرساً بكل أنواع الخداع

والتف صحبه من حوله تماما ودعموه

وشرع يتكلم حتى يجعل اعترافه بهيجاً :

«أيها المولى، إنني بحضورك المقدس أعترف ـ

فمنك يأتي كل نوع من أنواع الخير ـ

إنني أعترف، وأقول بأن زنغريم

لم أحبه قط، ولن أحبه مطلقاً

وعندما أديت اليمين منذ زمن مضى، الرب يعلم

إذا حدث وتفوقت وامتلكت السيادة

ليس بنيتي أن أقدم له معروفاً ثانية

ولن أضفي شيئاً من المعروف على أي من رفاقه

على أنني أكره بمرارة أبناءه الذئاب وأمقتهم

-٢٤٦٠-

وكذلك أسرته من أساساتها،

ولقد أبديت لهم هذا فيما تقدم من أيام

لكن أرجوك لاتستشرني هذه السنة.

فأنا واقع في بؤرة من الشر، وجلب ذلك لي العار،

وقد أخفقت بكل شيء آخر، وأعلن عن توبتي

سيدي الآن زنغريم، الذي سيكون

الرعب والأسف هما مصيري .

وها هنا الآن أيها السادة سيادتي :

وهنا في الحقيقة إخفاق خداعي وسقوطه .

ومعه أولاده الذئاب الصغار في الأمام وفي الخلف .

ويبدو كأنما لم أعرفهم أنا قط .

وبما أنني منذ الآن لن أستطيع إيذاءهم أكثر

من أجل الرب، أتخلى وأغادر، لأن قواي الآن لاشيء

وشيء واحد لدي، يعطيني راحة كبرى

هو أنهم سوف يحافظون على سلمهم معي بشكل جيد

لكن هل لدي الوقت والمكان وفقاً لرغبتي،

فقد أحرقت نفسي معهم بنار ملتهبة

وأنا بالنسبة لكثيرين قد اقترفت آثاما بغيضة

ومع هذا إنني لم أفلح بآثامي كلها وأحقق رغبتي

ويبقى الرب الذي يعرف قلبي وتفكيري الباطني،
يمكن أن يغفرلي الآثام التي اقترفتها .
بحق الرب، ضربني مولاي الدب ورماني أرضاً
وترك على ظهري العار والشنار مشهوران .
ولئن كنت قد اقترفت بحق تيمبرت كثيراً من الأذى
هو اقترف أولاً بحقي كثيراً من الشرور
ولو جاء شانتكلير إلى هنا بناء على أمرك :
وبحق الرب، لقد سار راكباً خلال أرضي كما يريد :
ولأن أكون متصالحاً معه، سأكون مبتهجاً،
لأن كل ما أعطاه لي كان مجرد آلام كبيرة
إنني أسامحهم، دعهم الآن يتولون مسامحتي
بهاتين اليدين اللتان صفقتا هنا كما ترى .
وإذا لم يكن لدي قوة غير ما سلف وأعطيتنيه
بناء عليه لن أستطيع إثارة الحرب عليهم أكثر
ومع هذا لئن لم أستطع إمساكهم بأية حيلة
لقد جعلتهم يعرفونها برضا من كل قلبي»
وبسرعة أرسلوا رسالة إلى الديك، يقولون فيها
بوجوب قدومه لتقديم المسامحة على الفور .
ورد الديك قائلاً :«باسم الرب، دعوه يعرف

- ٢٤٦٢ -

أنه إذا مات، فهو معفى من كل لوم
وعلى كل حال، إنني أعرف جيداً علته
فهي لاشيء سوى خداع دنيء، وشرور .
ولو أن مولاي زنغريم حكيماً،
لتعامل معه بالطريقة نفسها والخداع
فقد اعتاد البازيار الاغريقي مع النسر أنه :
إذا ما أطعمه مباشرة وبدون تمييز
سوف يغدو متكبراً ومتعجرفاً مع الجميع،
دعه أولاً يقدم إجابة للنداء .
ويؤلمني كثيراً أنه بسلوكه الشرير
قد نجا عشرات المرات من المصيدة .
أشياء غريبة أثناء عيد الفصح بناء على أوامره
قد اقترفت، عندما تجرأ وبارك وقدس
ومن ثم التهم الحمل ذي الأذنين الطويلتين .
وعلى هذا ليس هناك خطر، ولاسبب للخوف
والآن إذا لم نراقبه ونرصده بأعين حذره
سوف يغشنا ثانية بخداعه»
ولم يتمكن المراسل أن يجعله يقول أكثر،
وهكذا عاد إلى رينارد بدون تأخير

وحكى له كلمة كلمة

الجواب، والرأي الذي سمعه .

وبناء عليه قال رينارد للشماس :

«إنني سأموت الليلة، أو عند انبلاج الفجر .

وإذا ما تمكنت من النجاة من هذا الانهيار،

يمكنني تحقيق الراحة والهدوء .

لقد سومحت وسوف أسامح الجميع، الرب يعرف

الوقت الذي سوف أبعث فيه من هذه البقعة .

حللني يا سيدي، أرجوك باسم الرب،

لقد أذنبت كثيراً من الذنوب، يا لعاري

حتى لو أنني عشت مائة سنة

لن أستطيع إلقائهم جميعاً في أذنيك»

وأعطاه الراهب التحليل الآن والغفران

لكن ذلك كان على شرط فقط

أن يأتي إليه إذا ما عاد صحيحاً .

وأجابه قائلاً :«سأفعل، وسأذهب إلى آخر أيضاً

هو الذي سوف يتألم كثيراً عندما سيسمع،

لقد وعدت، ولسوف أذهب، وأقول كلمة» .

وبناء عليه تنازل الراهب وأعطاه الغفران

- ٢٤٦٤ -

وحصل على ذلك في ساعة مرض

وغادر يسوع، وبقي رينارد حيث هو

مليئاً بالخداع وبفن الشر .

فللشيطان في داخله جزء جبار :

وفيه شرور عظيمة تحت جلده،

لقد كان وسيكون، مادام حياً

خائناً غارقاً في مفاسد دنسة

حتى تذهب روحه الدنيئة والتعيسة .

٧٤ (١٥٤) : بعد عقد المصالحة أعطى صاحب بيروت الجيد وأولاده كثيراً من الحاجيات الجيدة، والتشريفات العظيمة، ومبالغ كبيرة، إلى أعدائهم، وأعطوهم خيولاً وملابساً، وأسلحة، وهدايا أخرى، وطلبوا صحبتهم وقد ارتدوا الملابس نفسها، ومتعوا نفوسهم مع بعضهم، ولم يبقوا في نفوسهم شيئاً مما كان، غير أن أعداءهم اهتموا برغباتهم المجنونة واعتنوا بها، وما لبثوا أن أظهروا ما في نفوسهم حالما كانوا قادرين على ذلك، وكان فيليب قد توقع بشكل جيد وصوّر في قصيدته عن رينارد ما حدث فيما بعد، وتعمد عموري برلياس بقصد شديد وبذل جهوداً كبيرة لأن يكون بصحبة صاحب بيروت وأولاده وللمشاركة باحتفالاتهم، ودعا السير بالين بأخيه، وغالباً ما تحدث عن المعركة التي وقعت وعن الحصار، ولهذا لم يوثق به، لأنه أن يتذكر الانسان عاره بشكل كبير في ذلك دناءة وانحطاط .

٧٥ : وفي أحد الأيام كان الحضور في البلاط كثيفاً، وكان السير عموري برلياس وصحبه كلهم هناك بين الحضور ، وكان آخر من دخل إلى البلاط معاً السير آنسيو دي بري وفيليب دي نوفار، وتورينول، ونظر

السير عموري متمعناً وعن قرب، فوجدهم يتشاورون مع بعضهم، ولذلك استبد به خوف عظيم، وبناء عليه قال بأنه مريض جداً، وأنه يحتضر، وبناء عليه خرج من البلاط هو ورجاله، وتوجه إلى بيته، واعترف هناك فوراً وتناول القداس قائلاً إنه قد سامح جميع الناس، وبوده أن يطلب رحمة الرجال الثلاثة المذكورة أسماؤهم أعلاه، لأنه يخاف منهم خوفاً عظيماً، لأنهم لم يكونوا حضوراً أثناء المصالحة، ولم يقسموا على قبول المصالحة حتى الآن، وقد بعث برجال دين إليهم يلتمسون منهم القدوم إليه، وهم لم يرغبوا بالذهاب، لكنهم ردوا عليه أنه إذا ما مات سوف يكون مسامحاً من قبلهم، وقد حدث هذا قبل نظم القصيدة المذكورة من قبل، ولهذا السبب ذكر فيليب هذه القضية في القصيدة .

٧٦ (١٥٦) : وأرسل السير عموري وحزبه رسالة إلى الامبراطور - كما قيل - حدثوه فيها عما وقع، وبعثوا بأعذار كثيرة بشأن المصالحة التي صنعت، وبعثوا إليه يخبروه أنهم ما يزالون يتملكون لإقطاعاتهم، وفي حوزتهم جزء كبير من البلاد، وأنه إذا ما أرسل إليهم قوة صغيرة سوف يتولون ثانية إخضاع أولئك الذين كانوا هم أعداءه وأعداءهم، وقد قيل بأنهم راسلوه مراراً، وقد وجدوا في النهاية الذي نشدوه (١٣٨) .

٧٧ (١٥٨) : وحدث ذلك في سنة ١٢٣١ أنه عندما تصالح الامبراطور فردريك مع الكنيسة واسترد جميع ما فقده من أبوليا (١٣٩)، أن قام هذا الامبراطور، أي فردريك ، الذي كره سورية(١٤٠) وقبرص كراهية كبيرة، فأرسل إلى قبرص وسورية جيشاً كبيراً من باروناته من أبوليا وصقلية، مع جميع الذين كرههم كراهية كبيرة وخاف منهم، وقد قيل توفر في هذا الجيش ستمائة فارس بدون نقص، ومائة من السادة الخيالة، وسبعمائة من الجنود الرجالة، وثلاثة آلاف من البحارة المسلحين، وأسطول كبير وجيد من السفن، وسفن النقل، وكذلك اثنين وثلاثين من الغلايين، وكان قائد هذا الجيش هو رتشار فيلنغر، الذي كان مارشال

الامبراطورية(١٤١)، وسمع مولاي صاحب بيروت بهذه الأخبار، وكان آنذاك في عكا (١٤٢)، وقد سمع بقدوم هؤلاء الرجال من رجال سفن الاسبتارية والتيوتون التي قدمت إلى عكا(١٤٣)، فبادر لدى سماعه بذلك فجمع قدر ما استطاع من الناس، وأخذ معه شطراً كبيراً من حاميته العسكرية، الأمر الذي أسف له فيما بعد .

٧٨ : وقدم إلى قبرص، واستدعى على الفور جميع الناس إلى حمل السلاح، وقد قدموا إلى ليماسول، وكان أول القادمين ابنه السير بالين ومعه قواته(١٤٤)، وفي الساعة التي وصلوا فيها، وصل أسطول اللومبارد إلى قبرص إلى رأس غافاتا Gafata ، القائم قرب ليماسول(١٤٥)، وكان الملك هنري الشاب ملك قبرص ومولاي صاحب بيروت على الطريق، وعندما سمعا بالأخبار بادرا مسرعين إلى هناك، ولهذا عقرت خيول كثيرة، ومع ذلك عندما قدما مسرعين جداً، وعندما احتشدوا مع بعضهم، كان هناك عدد كبير من الناس على الخيول وعلى الأقدام، وقد انتظموا بصف رائع، وتوفر هناك من الأصدقاء ومن الأعداء حوالي الخمسمائة فارس، وكان هناك أيضاً أعداد كبيرة من السادة الخيالة والتوركبلية .

٧٩ : وخاف اللومبارد منهم، ولم يتجرأوا على النزول، ولأن الشاطىء كان مدافعاً عنه بشكل جيد لم يتمكنوا من السيطرة لاعلى الأرض ولا على الماء، وجرى تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين(١٤٦)، وحافظ مولاي صاحب بيروت دوماً على الاستقامة أمامهم، وتكلم بتواضع كبير، حتى أن رفاقه غضبوا من ذلك، وتشاور اللومبارد والسير عموري برلياس مراراً فيما بينهم، وكان ذلك في أثناء الليل، وكان ذلك معروفاً بشكل جيد، وكان من الممكن إخضاعه للاستجواب بسبب ذلك لو توفرت الرغبة بذلك، لكن السيد النبيل لم يسمح بذلك، وقال من الممكن أنه كان يتحدث خيراً، أوأنه كان يتحدث شراً، وأنه رغب

باقتراف الشر، فإنه لن يفعل ذلك حتى يتضح تماماً أنه حنث بيمينه وخرق المصالحة، لأنه(أي الإيبليني) إذا ما أراد اتخاذ إجراء بناء على معطيات هي كلمات فقط،فسيقال بأنه حنث بيمينه، لأنه هنالك فرق كبير بين الكلام وبين الأفاعيل، ولم يستطيعوا زعزعته عن قراره، ولهذا تقرر بالفعل وجوب قتل(برلياس) في خيمته في الليل أثناء وجوده في فراشه، وخشي صاحب بيروت من هذا الأمر، ولهذا أخذه إلى بيته ليقيم، وأمر بحراسته هناك بشكل جيد .

٨٠ (١٥٩): وعرف اللومبارد أنهم لن يتمكنوا من النزول إلى اليابسة بسلام، لهذا انتظروا وقتاً مناسباً(١٤٧)، وغادروا من هناك خلال الليل وذهبوا مباشرة إلى بيروت، وأخذوا المدينة على حين غرة، واستسلم الأسقف إليهم، وكأنه كاهن جبان(١٤٨)، وحاصروا القلعة(١٤٩)، وشددوا الحصار عليها عن قرب، ووجدوها تفتقر إلى الرجال، لأن صاحب بيروت لم يتخذ حذره تجاه هذا، وحمل الجزء الأكبر من الحامية العسكرية إلى قبرص، وقد عرف اللومبارد بهذا عندما كانوا في قبرص، ولهذا السبب قرروا الذهاب إلى بيروت، وكانت القلعة مزودة باللحوم بشكل جيد، وبالخمور وبالسلاح،لكن عدد الرجال فيها كان قليلاً، وكان لدى اللومبارد العديد من الجنود والمهندسين، والخشب الصالح للبناء والحديد والرصاص، وكل ما هو ضروري لصناعة الآلات الحربية، ولهذا صنعوا من الآلات ما هو كبير وما هو صغير، وهاجمت هذه الآلات القلعة بشدة .

٨١ : وكان معهم خائن اسمه دنس، وكان قائداً عسكرياً لدى صاحب بيروت، وسيداً لكل القلعة، ويعرف تمام المعرفة نقاط الضعف عند الناس، وقد بين لهم كيف يمركزون الآلات حيث يكون هناك ضرراً أعظم، وقد نال بالنهاية جزاءًوافياً، حيث علق من رقبته وشنق بمثابة خائن، وأطبق المحاصرون على القلعة، لأن المدافعين عنها كانوا قلة، وتمّ

الاستيلاء على خندق القلعة، الذي كان واحداً من أجمل الخنادق في العالم، وأقاموا عند قاعدة الخندق شارعاً مغطى تماماً مع برج عظيم من الخشب، ولغموا القلعة في كثير من الأماكن، وبنى اللومبارد خارج القلعة في مكان يدعى كوفور Chaufor قلعة من الحجارة، فوقها قلعة من الخشب كانت أعلى من القلعة وقد كشفتها كلها، وسببت أضراراً عظيمة للذين كانوا في الداخل، وهذه الخطة نفسها جرى إرسالها من قبرص، مع نصيحة بوجوب أن يفعلوا ذلك، لأن الخائن الذي بعثها كان يعرف أن صاحب بيروت كان يخشى كثيراً من هذا المكان المرتفع(١٥٠).

٨٢ (١٦٠) : ووصلت الأخبار إلى قبرص، بأن القلعة تحت الحصار، وأن الشتاء كان قاسياً، وجاء صاحب بيروت إلى البلاط، ومثل أمام الملك هنري الشاب، الذي كان مولاه وكان بالوقت نفسه ابن أخته، وامتلأ البلاط بعدد كبير من الناس، من أصدقاء وأعداء، ونهض ووقف على قدميه ـ كان من عادته أثناء الجلوس وضع ساقيه على بعضهما ـ ولأنه كان يعرف ما الذي عليه فعله، فقد تكلم بصوت مرتفع، وتوجه نحو هدفه بقوله :« سيدي، إنني لم أحاول قط أن أمتن عليك من أجل خدمات أسرتي نحو أبيك ونحوك، والآن لابد أنني الآن محتاج لأن أفعل ذلك، ولسوف أقارن نفسي ـــ مع أنني قد لا أكون جديراً بذلك ـــ مع وليم أوف أورانج، الذي عندما أحتاج إلى نجدة حفيده في كانديا -Can dia، امتن على مولاه الملك لويس من أجل الخدمات التي قدمها له» . (١٥١)

٨٣ : « ويمكنني أن أقول، ولدي الكثير من الضمانات من أجل ذلك والشواهد أنه بوساطتي وبوساطة أسرتي صار والدك سيداً وتملك البلاد، ولولا أننا أيدناه لكان قد حرم من الميراث أو مات، وعندما نزل به قضاء الله، كان عمرك تسعة أشهر فقط، وقد رعيناك، أنت وبلادك ـ شكراً للرب ـــ حتى هذا اليوم، ولم نتخل عنك أبداً عن طواعية، ولم

نتركك لوحدك لأن دوق النمسا أراد حرمانك من ميراثك(١٥٢)، وكنت مرتين في وضع سيء أو أسوأ، ولو رغبنا أن نتخلى عنك وعن مملكة قبرص، وعن مملكة سورية لأمر الامبراطور بإعطائنا ملكية بيروت بسلام» .

٨٤ : « والذي حدث الآن أن اللومبارد قد استولوا على مدينتي، وهم يحاصرون قلعتي ويطوقونها عن قرب، وهي مهددة بالفقدان، وبذلك نكون أنفسنا وجميع رجالنا السوريين قد جردنا من أملاكنا، وبناء عليه أتوسل إليك، فأستحلفك بالرب وبشرفك، ومن أجل خدماتنا الكبرى، ولأننا من دم واحد، وقد تغذينا من أرض أم واحدة، وأرجو منك أن تأتي معنا، كما ألتمس الشيء نفسه من الآخرين الذين هم هنا بين الحضور، بحكم أنهم أخواني وأصدقائي المقربين، وأتمنى أن تقوموا شخصياً مع قواتكم بالذهاب معي للتفريج عن قلعتي»، وهنا توقف صاحب بيروت عن الكلام، وجثا وكأنه يريد أن يقبل قدمي الملك، فانتصب الملك واقفاً على قدميه، وجثا الآخرون جميعاً، وقال الملك، وقال الآخرون كلهم أنهم يوافقون عن طواعية، وأنهم يضعون أجسادهم وما يملكون تحت تصرفه وفي خدمته(١٥٣)، وشكرهم صاحب بيروت كثيراً، ثم انتصب واقفاً هو وجميع الآخرين على أقدامهم، لأنهم كانوا ما يزالون جاثين على أقدامهم .

كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا إلى فيماغوستا للعبور إلى سورية

٨٥ (١٦١) : وتمت الرحلة بدون إبطاء، وحدث هذا في حوالي موعد عيد الميلاد (١٢٣١)، وبسرعة وصلوا إلى ميناء فيماغوستا، وكانت الأحوال الجوية سيئة جداً، وقاسية إلى أبعد الحدود، حتى أنهم اجتازوا سهل فيماغوستا بكل صعوبة وفقدوا أشياء كثيرة على الطريق، ومكثوا مدة طويلة في الميناء بسبب سوء الأحوال الجوية، وانطلقوا أخيراً

لـدى انتهـاء مـوسم الاضطـراب، ومع مـوعـد تحول القمـر(١٥٤)، ولم يدعـوا ولاقائداً واحـداً في قبرص، وتكلم النـاس حول هـذا كثيراً، وأعلم فيليب دي نوفـار صاحب بيروت بذلـك، وقال له هناك كـلام كثير حول هذا، وقد ردّ عليه بقوله :« إذا لم أبـدأ الآن، أعرف تماماً أن القلعة ستفقد وسيتبع ذلك خسـارة البلاد كلهـا، ولئن منحني الـرب نعمة العبـور، كل شيء سوف يتم استرداده، وسيكـون هناك مجد عظيم، وإذا قـدر الرب أن أمـوت، ليكن ذلك على الطـريق، لأنني أفضـل أن أموت قبل أن أعـرف خسارتي، وليـس بعد ذلك، وأفضـل ذلك دوماً ــ بقضاء الـرب ورضاه ـ على أن يحدث في أيامي فقدان لأرضي أو لبلاد مولاي» .

٨٦ :« ويلـومني بعضهم لعـدم تركي قـائداً واحداً في قبرص، سـوف أخبرك لماذا(١٥٥)، ربما قد أتـرك الشخص الذي يمكن أن يـربح كل شيء حيث نحن الآن ذاهبـون، ولقد حدث مـراراً، أنه برجل نبيـل واحد قد نيل كل شيء، وبفقدان رجـل نبيل واحد تم خسران كل شيء، ونحن ذاهبون وفق طـريقة، وإلى مكان يقتضي أن يكون كل واحـد منا على ظهر السفن، وإذا مـا انتصرنـا، لـن تحتاج قبرص إلى قـادة، وإذا مـا خسرنـا، سينتهي كل شيء معنـا، والقائد الذي سيكون في قبرص، سيصمـد هناك لـوقت قصير، ولسـوف يهلك بعـد ذلك، لأننـي لا أعرف مكـانـاً في كل العـالم المسيحي يمكنـه أن يجد فيه مـلاذاً، ولهذا السبب لا أرغب ببقـاء واحـد من أسرتي أو ممن يحمـل اسم إيبلين، وإذا ما انتصرنـا فكل واحـد سينال نصيبـه في المجد والمرابـح، وإذا ما خسرنـا سوف نمـوت جميعاً في سبيل الرب، وفي سبيل حقوقنا في أملاكنـا، فهنا ولد معظم أقربائي، وهنا سوف يموتون» .

٨٧ : وأصغى فيليـب دي نوفـار جيـداً، وبـرغبة لهذا التعليـل، وتركـه وابتعد عنه وكرر كـل ما سمعه لكثير من الناس الذين كـانوا ينتظرونه في الخارج، وبناء عليـه قال كل واحد وردد بأعلى صـوته :«ما قالـه صواب،

هذا الرجل النبيـل، دعونا نذهب في سبيل الرب»، وحـاول الأعداء الذين سميتهم من قبل(١٥٦)، وهم الـذين كانوا معهم تحت غطـاء المصالحة والحب، وسعـوا جاهـدين بـوسـاطـة الخداع تسبيب التـأخير، وفكـروا بالاعتصـام في قلعة كـاستري Castrie التي عـادت ملكيتهـا للداويـة، وغـالبـاً مـا روي هـذا لصـاحـب بيروت، وأشير بضرورة إلقـاء القبـض عليهم، لكنـه لم يـرغب قـط في أن يفعل ذلك، وقـال دومـاً بأنـه يـرغب بـالانتظار حتى تظهـر شرورهم وتبـات معـروفة وواضحـة، ووقتها سـوف يقدم مولانا العون للحق .

كيف عبر القبارصة البحر بأمن وسلام ووصلوا إلى ميناء القسطلان في طرابلس

٨٨ (١٦٢) وغادر الجميع معـاً أثناء الليل، ما بين أصدقـاء وأعداء، وكانت الأحـوال الجوية سيئة والأمطار غـزيرة، فهذا ما قضـاه الرب، وقد ساقتهـم الأحوال الجوية إلى مينـاء القسطلان في طرابلـس(١٥٧)، وقد وصلوا إلى ذلك الميناء بأمن وسلام وهرب من هناك الأعداء الذين ذكرت أسماؤهم من قبل مع حـاشيتهم، وكان تعدادهم ثمانين فارسـاً، وقد ذهبوا لـلانضمام إلى الحزب الآخـر، أي إلى بيروت لـلإلتحاق بـاللـومبـارديين (١٥٨)، وعبر معظم الجيـش عن استيـائه، وانـزعج بعض النـاس كثيراً، وخاف عـدد كبير من الشعب بسبب ذلك، وأقام مـولاي صاحب بيروت احتفـالاً كبيراً مظهـراً رضاه بـالـذي حـدث، وقال بـأنه الآن يشعـر هـو بالأمان وبـأن رجال شعبه قد تخلصوا من الخونـة وتحرروا منهم، وبين أنه يفضل أن يواجههم بـالقتال، وأن يجدهم أمامه لاخلفه، لأنـه كان ينتظر طوال الـوقت الذي تبعـوه فيه، أن يقومـوا بضربه مـا بين كتفيه، والآن بما أنهم غدروا تجاه مولاهـم، وبما أنهم تخلوا عنه في الميدان، وكـانوا حانثين للعهود نحـوه ونحو رجـاله، لم يعـودوا هم القـوم الذين كـانوا بـالضرورة يخشاهم، ولهذا فإنـه يرى في هذا العمل مربحاً كبيراً لـه، وخسارة عظيمة

للحزب الآخر .

٨٩ : وانطلق الآن صاحب بيروت وجماعته عبر البر وأسطولهم عبر البحر، ووصلوا في اليوم الأول إلى البترون، وتلقوا هناك أضراراً بالغة لحقت بسفنهم،لأن الميناء كان سيئاً، وقد دفعتهم الأحوال المناخية السيئة وجرفتهم، ولهذا غرقت غالبية سفنهم أو جنحت، وكانت البقية في حالة سيئة جداً، ومع هذا انطلق الناس من هناك، وركبوا وساقوا وسط الأمطار والأحوال الجوية السيئة، وساروا خلال شعاب منزلقة خطيرة، وعلى حواف وديان فائضة بالمياه على أطرافها، وعبروا ممر الكفار، وبممر نهر الكلب (١٥٩)، الذي كان خطيراً جداً حتى يمكن عبوره، وهكذا ناضلوا حتى وصلوا بالقوة والحكمة إلى نهر بيروت، وعبر الذين كانوا في قلعة بيروت عن سرور عظيم وأضاءوا إضاءات كبيرة عندما رأوهم، وكانوا بحاجة كبيرة للنجدة، لأن القلعة كانت قد لغمت إلى حد أنها أخذت تتساقط إلى قطع، وسببت لهم قلعة كوفور أضراراً هائلة (١٦٠).

٩٠ (١٦٣) : وانتشرت الأخبار في أرجاء سورية بأن صاحب بيروت قد جاء للتفريج عن قلعته، وما أن سمع بهذا ابن أخته صاحب قيسارية الشاب، وكان وقتذاك في عكا، حتى وعد بمنح إقطاعيات،وقدم أعطيات كريمة، فحشد جيشاً بقدر ما استطاع، وقدم مسرعاً لتقديم العون إلى خاله وإلى أولاد خاله(١٦١)، وجاء بطريرك القدس، وكذلك مقدما الداوية والاسبتارية، وصاحب صيدا، وقسطلان المملكة للتوسط للمصالحة (١٦٢)، ولدى المرور من أمام صور كان هناك اشتباك فيما بين صاحب قيسارية والحامية العسكرية للمدينة، ذلك أن صاحب صيدا كان قد سلم صور إلى اللومبارد بناء على أوامر من الامبراطور (١٦٣)، ودفعهم صاحب قيسارية حتى أدخلهم إلى قلب أبواب المدينة، ونظر إلى قدومه بسرورعظيم من قبل الجيش، وأن هذا القدوم مفيد جداً، وتحدث اللوردات الخمسة المتقدم ذكرهم عن السلام،

لكـن ذلك لم يتحقـق(١٦٤)، واستمـرت الأحـوال الجويـة السيئـة لمدة طـويلـة، وكـان في المعسكر عـوز عظيـم لـلأطعمـة وللشعير، لهذا أكلت الخيـول كلها تقـريبـاً القصب فقط، وتـوفر القليـل من الخيـام ، ذلك أن معظمها قـد فقد في الأسطـول الذي تحطم أمـام البترون، وكان اللـومبارد يشعرون بالراحة والاطمئنان، وتـوفر لديهم الكثير من الأطعمة والحاجيات مع بيوت مريحة داخل المدينة .

٩١ (١٦٤): وخرج اللـومبارد في صباح أحد الأيـام باكراً، وتقـدموا على شكل صفوف قتـالية، وزحفوا حتى طـرف النهر، الذي كان عـريضاً جداً هنـاك، ولولا أنـه كان عـريضاً إلى هـذا الحد ما كانـوا ليخرجـوا من المدينة على هـذا الشكل، ومكثوا طـوال النهار هنـاك على هذه الشـاكلة، وذلك حتـى حلول الظـلام، حيث أرغمـوا على العودة، وتحسنت أحـوال المناخ، ومال نحـو الهدوء، وانخفضت مياه النهر، وبنـاء عليه عبر جيش الملك هنـري وجيـش صـاحب بيروت النهـر، وزحفـوا حتى وقفـوا أمـام مـدينـة بيروت، على شكـل صفـوف معبأة، وقـد انتشروا حتـى الخنـدق، وجرى هجـوم ضعيف أقلع به الـذين كانوا في المدينـة، لكنهم ردوا بكل عنف وصـدوا عائديـن إلى داخل المدينة، ورتـب الذيـن كانـوا في داخل المدينـة أنفسهم أمام الحصـار، وتقـاسموا مهـام الدفـاع، وتمركز الأعـداء الذيـن تخلوا عن الملـك وعن مولاي صـاحب بيروت، والتحقـوا بالحزب الآخر ـ أي اللومبارد ـ في أحد جـوانب المدينة حيث كان هناك برج كبير، ولهذا السبب غالباً ما دعي هذا البرج فيما بعـد باسم«برج الخونة»، وذلك صدوراً عن خيانة أولئك الذين تخلوا عن مولاهم في ميدان المعركة .

٩٢ : واتخذ اللـومبـارد احتيـاطات للحـراسـة كبيرة مـن جـانب البر، وكذلك مـن جانب البحر، حتى لايتمكـن أحد من الدخـول إلى القلعة، وأعـدوا غـلايينهـم، وربطـوهـم بسلسلـة عظيمـة من الحديـد، وصفـوهم بشكل جيـد جميعاً من حـول القلعة في داخـل البحر، وتـركوا ممـراً واحداً

ضيقاً يمكنهم الـدخول منه والخروج، وفتش صاحـب بيروت في كل ليلة عن رجـال تحت السلاح، أمكنه أن يـرسلهم سباحة إلى القلعـة، وغطس بعضهـم تحت الغـلايين، وسبحـوا عـراة حتى دخلـوا إلى القلعـة حيـث وجدوا هناك اللبـاس والسلاح والطعام بكميات عظيمة، فالحاجـة توفرت في داخلها إلى الـرجال فقط للقتال وإلى القـادة، وكان عدد الـذين عبروا إلى القلعة ليـس كافياً حتى يتمكنـوا من الدفـاع عن القلعة، وبنـاء عليه أعد صاحب بيروت خطة في أن يقوم أحـد المراكب خلال الليل بالعبور، ووضع في داخلـه واحداً مـن أولاده، الذي كـان يدعى السير جـون أوف فـوغيـا، وذلـك للسبب الـذي سمعتـه مـن قبل، وقـد أصبـح فيما بعـد صاحـب أرسوف(١٦٥)، وقسطـلان مملكة القـدس، وكان وكيـلاً عدة مرات(١٦٦)، وكان حكيماً ولائقاً، وكان مع جـون هذا مائة من الرجال المسلحين، وفـرسـاناً وسيرجنـديـة، وسـادة، وكـانوا جميعـاً مـن آل البيت الإيبليني وأتباعه.

٩٣ : وغضب ابنـه الأكبر بـالين غضباً شـديـداً، لأنـه كان أسـن من أخوانه، ووجه النقـد لأبيه لأنه لم يدعه يذهب، وقـال بأنه الوريث (ولي العهـد) وهناك سبـب عظيم بـالنسبة لـه لأن يـذهب هـو وليس الآخـر، وغالباً ما عـرض السير بلدوين نفسه وكذلك فعل جميع الآخـرين، وكانوا غضاباً جداً لأنه لم يرغب بارسـالهم، وقد رد عليهم بأنه يحتاجهم أكثر في الخارج وليس في الـداخل ، لأنـه كـان ينتظر المعـركة مـن يوم إلى يـوم، وهكـذا جعلهم يهدأون، ومـا أن علم الأتبـاع الآخـرون في الجيش بخطـة العبور حتى بادروا إلى هنـاك متسابقين، وكانوا من الكثـرة بمكان إلى حد أن المركب طفـا بصعوبـة، وأمر صـاحب بيروت هؤلاء جميعـاً بالمغـادرة، وشكـرهم شكـراً عظيماً، وكان أفـراد أسرته والغـربـاء مرعـوبين جـداً من العبـور بين الغلايين والـدخول إلى القلعـة، ومن ثـم تولي الـدفاع عنهـا، ووضـح في هـذه القضية مثلما وضـح في قضايـا أخـرى أن ما من إنسـان

أحب شعبه مثلما فعلوا، وكان المركب مليئاً بالناس حتى أن الماء وصل إلى حوافه، وعندما وصلوا إلى مدخل الطريق الضيق الذي ذهب اللومبارد من خلاله إلى غلايينهم، لاحظهم الذين كانوا في الغلايين وعرفوهم، فأصدروا صرخات مدوية، ووجهوا نحوهم رمايات كثيرة .

٩٤ : وبفضل الرب اجتازوا الممر، ونجوا من الغلايين، ووصلوا إلى صخرة تحت القلعة، ونجوا من الغلايين، ولم يعرف الذين كانوا في القلعة شيئاً عن قدومهم، ورموا عليهم بالحراب، وأمطروهم بالنشاب، لذلك عانوا كثيراً، لكنهم في النهاية عرفوهم واستقبلوهم بفرح عظيم، مع أنوار هائلة، وكانوا عندما صدرت الأصوات العالية من الغلايين وقت عبورهم من بينها، ألقى صاحب بيروت بنفسه على الأرض على شكل صليب باتجاه الشرق، وصرخ : رحمة يارب، وعندما رأى الأنوار على القلعة، وشارات دخولهم، قدم بتواضع شكره للرب، وفعل جميع الذين كانوا في الجيش مثلما فعل، وبعدما دخل ابن صاحب بيروت إلى القلعة ومعه عدد كبير من الرجال الجيدين، شرعوا بالدفاع عن أنفسهم بفعالية أعظم، وحفروا ممرات لغم مضادة للغامي العدو وأعادوا الاستيلاء على الخندق بالقوة، وأحرقوا الشارع الذي صنعه اللومبارد وغطوا به الخندق، وبعد هذا قام الذين كانوا في القلعة بأعمال انقضاض شجاعة، وربحوا أشياء كثيرة من الذين كانوا بالخارج، وأحرقوا عدة آلات حصار .

٩٥ (١٦٥): ثم تيقن صاحب بيروت وعرف أن قلعته باتت في وضع دفاعي جيد، لكنه لم يكن قادراً مع الرجال الذين كانوا بصحبته على رفع الحصار، وإنزال الهزيمة بأعدائه، الذين كانوا متفوقين عشرة لواحد، ولم يكن يخشى عددهم، وكان راغباً في قتالهم، غير أنهم كانوا داخل المدينة التي كانت محصنة بشكل جيد ولها أسوار ممتازة، وكانت لديهم السيادة على البحر، لذلك فكر في قرارة نفسه بالذهاب إلى عكا

ومن ثـم تأمين عدد كبير مـن الجنود الـرجالـة مع أسطـول كبير، حيث لم يكن لديه أسطـول، كذلك بعث بابنه السير بـالين إلى طرابلس مع الملك الشاب هنري، وفـوضه تماماً للترتيب لـزواج وعقده فيما بين أخت الملك وابن الأمير(١٦٧)، وبـإعطائه إقطـاعيات كبيرة في قبرص وقت الـزواج، وذلك في سبيل أن يقوم الأمير بمساعدتهم بفـرسان وبسفن وبرجال تحت السلاح، وكان الحديث حـول هذا الزواج قد بدأ منـذ زمن طويل مضى، وهكذا نفذ مـا فكر به، لكنه جعل الـذين في القلعة يعرفـون بذلك حتى لايضطـربوا لـذهـابه، وأنـه يمكن أن يعـود في أقـرب وقت ويجلب معـه خلاصهـم، وأجابوه بـأن عليه الاحتياط أثنـاء ذهابـه باسم الـرب وليكن مطمئناً أنهم سوف يـدافعون عن أنفسهم بشكل جيد بعون مـولانا وعون أنفسهم، وهكذا فعلوا .

٩٦ (١٦٦): وعنـدما غـادر مولاي صـاحب بيروت، وترك الحصـار، انطلق ابنـه السير بالين إلى طـرابلس، وذهب معـه السير وليم فيزكـونت(١٦٨)، الـذي كـان رجـلاً عـاقـلاً، وبنـاء على الـرأي الشخصي لمولاي صـاحب بيروت، كان هـو الـذي بدأ المبـاحثات مـن أجل هذا الـزواج، وكان قـدولد في طـرابلس، وفيليب دي نوفـار، الذي لم يفارق قـط(بالين) ذهب إلى هنـاك، كما فعل آخـرون كثر، وكانـت العوائق التـي اجتازوهـا والممـرات الصعبة كثيرة، وكـذلك عبروا كثيراً من الأنهار العـريضة، وقـد مروا أمـام جبلة، التـي عادت بملكيتهـا إلى الحزب الآخر، وزحف الجنـود طـوال الليل خـلال الجبـال، ومـع هذا فبفضـل الـرب شقـوا طـريقهم، ووصلـوا إلى طرابلـس، حيث عسكـروا خـارج المدينة في بيـت الداويـة، الذي دعي بـاسم مونتكـوكو Montquocu، واحتفى بهم أمير طرابلس وأولاده كثيراً، وكان ذلـك في البدايـة، وتباحثـوا في كل يوم حـول الشروط وحول مواثيق الزواج، وأيضاً حول المساعدة التي طلبها صاحب بيروت .

٩٧ (١٦٧): وبـات معـروفـاً في ذلك الحين في طـرابلـس أن جيش

القبارصة قدغادر بيروت، حيث توفر عدد كبير من الناس قد اعتقدوا بأن كل شيء قد ضاع، وهكذا بردت حرارة مباحثات الزواج بشكل ملحوظ غير أنها استمرت، وركب السير بالين في أحد الأيام ومعه جماعته وساروا نحو «تلة الحجاج»(١٦٩)، لمقابلة الذين كانوا يتولون أعمال الإعداد للزواج، ولدى عودتهم وجدوا باب مونتكوكو Mont-quocu مغلقاً في وجوههم، وقال رجال الداوية لهم بأن سبب هذا تجنب التعرض للاهانة من قبل الناس المؤيدين للامبراطور، وبعث السير بالين رسالة طلب فيها المأوى في بيت فرسان الاسبتارية، وكذلك من البوليو Beaulieu الذين كانوا رهباناً سسترشانيين(١٧٠)، وأيضاً من الذين شغلوا تلة الحجاج، التي عادت ملكيتها إلى أسقف بيت لحم، وقد ردّت كل فئة من هؤلاء مثلما جاء ردّ الداوية، وكان في طرابلس فارساً شغل وظيفة نائب أسقف طرابلس آنذاك، وقد تولى إسكانهم في حظيرة للأبقار عادت ملكيتها لكنيسة الأسقف المذكور، وكانت تعرف باسم مخزن الأسقف، وكانت قائمة خارج باب طرابلس، وجرى إعداد البيت للسير بالين وتنظيفه وفرشه بقدر الممكن .

٩٨ : وحدث الآن أن مقدم اللومبارد، كان يعرف تماماً سبب وجود السير بالين أمام طرابلس، فصنع رسائل مزيفة كأنها مرسلة من الامبراطور، وكتبت هذه الرسائل في صور على رقّ إسلامي، وقد ختمت بختم الامبراطورالذي كان لديه، وجاء في هذه الرسائل بعد تقديم أعلى أنواع التحيات، أنه يرجو من أمير طرابلس وأولاده بحكم كونهم أقرباء أعزاء، ورجالاً مخلصين، أن لايمنحوا الملجأ إلى أعدائه وأن لايقدموا أية قوة أو أي عون، وبعث الأمير وأولاده هذه الرسائل إلى فيليب دي نوفار، مع مذكرة أخرى مكتوبة جاء فيها كلمات قالت في تراكيبها:« الأناس الطيبون لايميلون إلى الشر»، وجاء في نهاية هذه المذكرة ملاحظة فيها رجاء لفيليب دي نوفار أن يري هذه الرسائل إلى السير بالين ورجاله،

وأن يبين عذرهم، وكـان قد حدث أن قام أمير طـرابلس فيما مضى بمنح إقطاع إلى فيليب المذكور، وقد منحه إياه بمبـادرة منه وكرم، ذلك أنه كان كريماً مع كل إنسان، وقد أحبه فيليب وقـدر عالياً مبادرته نحوه، غير أنه لم يرغب بـالاحتفاظ بالاقطاع، ولا الخدمة من أجلـه، ولم يكن لهذا معجباً بما طلب منـه، ومع هذا قـرأ الرسـائل لمولاه وأخبره بجميع هـذه الأشياء، وقـام بدون معـرفة مـولاه بنظم مقطوعـة بسيطة وبعـث بها إلى الأمير هي التالية :

أيها الناس الأشرار الموسومون بالجبن

أنا لن أقبل به، مهما كان الثمن

وأن يقول الناس لا، عندما يتحدثون عنكم ...

٩٩ (١٦٨): وعـانى السير بالين وصحبـه في مخزن أسقف طـرابلس مـن كثير من الآلام والحزن، والأذى، ولم يكـن بـإمكـانهم المغـادرة، لأن الطـريق قـد أغلق أمـامهم وكـان محروسـاً بشكل جيـد من كـل من البر والبحر، ولهذا كـان أن بعث إلى سلطان دمشق(١٧١) يطلب منحـه مع رفاقه أماناً ومساعدة حتـى يتمكنوا من المرور خلال بلاد الكفار، ومن ثم يـذهب إلى عكا، ومنحـه السلطان مـا طلبه بترحـاب، لكن الأمـور التي وقعـت فيها بعـد جعلت ذلـك غير محتـاج إليـه، وكـان السير بـرتـرانـد بـورسليت زوج والـدة السير عموري(١٧٢) مـع مجمـوعة مـن الرجـال العائدين للسير هيوج صـاحب جبلة موجودين في بلاد طـرابلس، وغالباً مـا اعتـادوا على السير وهم على ظهـور خيـولهم حول مقـر السير بـالين ورفاقـه، وكانوا آنـذاك يشيرون بأصابعهم إشـارات تهديد(١٧٣)، ذلك أنهم كانـوا ينتظرون من يوم إلى يـوم وصول غلايين اللومبـارد، وأملوا أنهم سوف يتمكنون وقتها من أسر السير بـالين ورجاله، وقتلهم في ذلك المقر، وهكذا عانى السير بالين وصحبه من هذا التهديد.

١٠٠ (١٦٩) : وحدث أنه عندما قام جيش القبارصة بمغادرة بيروت، أن أعلن اللومبارد بأن جيش قبرص قد فرّ، وبناء عليه بعثوا إلى قبرص السير عموري برلياس، والسير عموري صاحب بيسان، والسير هيوج صاحب جبلة ورجالهم، والكونت رتشارد الذي كان من اللومبارد، وقد استولى هؤلاء على جزيرة قبرص فيما عدا قلعة ديودامور، حيث اعتصم أخوات الملك وشعب البلاد، وبعد هذا استولوا على سيرينا، وقبل أن تسقط سيرينا كان السير بالين دي إيبلين قد أعد بشكل سري جداً، أن يقوم الجنويون، الذين قدموا إلى طرابلس في مركبين طويلين، بالالتحاق بخدمته وأن يصبحوا من رجاله، وقد أعطاهم إقطاعيات، وعقدوا معه ميثاقاً بأنهم سوف ينقلونه إلى قبرص، ووافقوا على أنه إذا ما استطاع المغادرة سوف يتمكن من غلبة الذين كانوا في قبرص وإخضاعهم، وعلم أمير طرابلس بالأمر، فاعتقل الرجال والسفينتين بالقوة، ومنع مغادرتهم (١٧٤).

١٠١ (١٧٠): ولسوف تسمع الآن أخبار مولاي صاحب بيروت، الذي كان قد ذهب إلى عكا، وقد تولى عرض الأمور، وأظهر منطقاً عظيماً إلى شعب البلاد، الذي خاف من تسلط اللومبارد، وأن ذلك سوف يجلب الدمار إليهم، وبناء عليه جعلوه مقدم«كومونة»عكا (١٧٥) والتحق الجنويةعن طواعية ورغبة به، ودفعهم إلى هذا حبهم الشخصي له، ولأن الامبراطور فردريك كان قد بعث بأوامر إلى سورية قضت بوجوب اعتقالهم شخصياً مع بضائعهم(١٧٦)، وبذل صاحب بيروت جهوداً عظيمة حتى تمكن من تأمين أسطول كبير(١٧٧)، ووصلت أخبار هذا إلى اللومبارد، فبادروا إلى إحراق آلاتهم وتخلوا عن حصار بيروت، وهربوا مجللين بالعار، من هناك، إلى صور .

١٠٢ (١٧١) : وعندما باتت هذه الأخبار معروفة في طرابلس، وجد السير بالين المزيد من الأصدقاء، وحصل على أمان العبور، وبناء

عليه سافر من هناك وتوجه إلى بيروت، فوجد المكان قد تعرض لتخريب كبير،ولهذا حزن وشعر بأسف عظيم، لكنه استقبل ببهجة عارمة وبتحيات حارة، وانتظر هناك أوامر مولاي صاحب بيروت، أي أوامر أبيه .

١٠٣ (١٧٢): وأقلع الملك هنري وصاحب بيروت وجميع جيش القبارصة من عكا باتجاه قلعة ايمبرت(١٧٨)، وقد سمعوا بأخبار التفريج عن بيروت، ولذلك أقاموا هناك وانتظروا للتشاورحول ما ينبغي أن يفعلوه(١٧٩)، ووصل إليهم في اليوم التالي بطريرك أنطاكية الخائن، الذي كان من اللومبارد(١٨٠)، وكان قد اجتاز بمدينة صور، وتحادث هناك مطولاً مع اللومبارد، وجعل من المفهوم من قبل الملك هنري وكذلك من قبل صاحب بيروت، أنه يمتلك صلاحية كاملة وتفويضاً من قبل اللومبارد، لإقامة صلح فيما بينهم، وأن الصلح الذي يعد له سيكون لتمجيد الملك وصاحب بيروت والقبارصة والسوريين ، ويتماشى مع رغباتهم، وقام الرجال النبلاء، الذين لم يرفضوا قط مصالحة معقولة، وهم الذين أقاموا المصالحة من قبل عن طواعية في وقت امتلكوا فيه التفوق، لقد قام هؤلاء باتباع البطريرك إلى عكا، وقد تشاوروا معه وتناقشوا، كما لحق به بعض خيرة رجال الجيش وأفضلهم، وكان جزء كبير من الجيش مايزال في عكا، ولم ينطلق بعد للالتحاق بالذين تقدموهم، وكان الأسطول مايزال بالميناء بسبب الأخبار التي سمعوها عندما وردت من بيروت .

١٠٤ (١٧٣) : وكان الملك هنري قد بقي في قلعة ايمبرت داخل معسكره مع عدد قليل من الرجال، ومع هذا كان معه الأولاد الثلاثة لمولاي صاحب بيروت أي: السير بلدوين، والسير هيوج، والسير غي، الذي صار فيما بعد قسطلان قبرص(١٨١)، وكان غي هذا رجلاً نبيلاً وشجاعاً، كما كان هناك السير جون دي إيبلين، الذي غدا فيما بعد

كـونت يافـا، وكان وقتهـا فارسـاً جديـداً، له مـن العمر سبع عشرة سنـة فقط، وكان هنـاك أيضاً السير آنسيو، الذي كان قـائداً للجيش في مكان مـولاي صـاحب بيروت، وكـانـوا معسكـريـن بشكل سيء، واحـد هنـا، وواحـد هنـا، دون أن يخشوا أحـداً، وفي الحقيقـة كـانوا قـد قـالـوا بأنهم ذاهبون للاستيلاء على صور .

١٠٥ : وتجسس اللـومبارد الذين كـانوا في صور عليهـم، وعلموا أنهم كانوا معسكريـن بشكل سيء، وأنهم كانوا يتكونون من حفنـة من الرجال فقط، ولهذا انطلقـوا من صور وقت حلـول الظلام، وجلبـوا معهم شعب صـور بالقـوة، وكانـت الأحوال الجويـة جيدة في البحـر، وقد جـاءوا على ظهـر اثنين وعشرين من الغـلايين، ونزلـوا عنـد قلعة إيمبرت، وهـاجموا جيش القبـارصة خلال الليـل ووجدوهم نيـاماً وغير مسلحين (١٨٢)، وكان بعض الـرجال قد أخبروا السير آنسيو بـأن اللومبارد كانـوا قادمين، لكنه لم يصـدقهم، كما أنه لم يتنـازل بنشر الخبر، ولهذا يستحق لـوماً كبيراً، ولم يكن هنـاك رجال مثلهم فـوجئوا فـدافعوا عن أنفسهـم أحسن منهم، فقـد قـام أولاد مـولاي صاحـب بيروت: السير بلـدوين، والسير هيـوج، والسير غي بـأعمال قتـاليـة إعجازيـة، وقـد جـرح السير بلـدوين هنـاك جراحة خطيرة، وكذلـك ابن أخته السير جون، الذي كان شابـاً، فقد قام هناك بـأفاعيل جلبت لـه شهرة عظيمة طـوال حياته كلهـا، وأظهر السير آنسيو شجـاعة رائعة، ومـرد ذلك إلى الشجاعة التي تـوفرت لديـه، ولأنه كان القـائد، ولأنه عدّ نفسه مجرمـاً، لأنه سمع بالأخبـار، ولم يقم بنشرها، ونجا الملك وهـو عريان تماماً تقـريباً، وقد وضع على ظهر فـرس، وهرب من هناك إلى عكا (١٨٣).

١٠٦ : ولم يخسر القبـارصة طـوال الليـل معسكرهـم، وقاتلـوا خـلال الليل كلـه، وكان بعـض القبارصـة يقـاتلون على الأقـدام، وبعضهم على ظهور الخيل لكن بدون سرج، وحمل بعضهم دروعـاً، وكان بعضهم الآخر

عراة، وكـان هناك عدد كبير منهم بـدون سلاح تماماً، وكـان بعضهم على ظهور خيـول بدون مقـاود، وبعضهم بلا رمـاح، وآخرون بلاسيـوف، ومع هذا وجهـوا ضربات عنيفـة للومبارد وقتلـوا عدداً كبيراً منهم، وعنـد بزوغ فجرالنهار نزل الذين كانوا في الغـلايين، وأظهر ضوء النهار كم كان عدد القبـارصة قليـلاً، وهكذا تمّ الاستيـلاء على المعسكر، ومـن ثم نهبه كلـه، وكانت هنـاك خسارة كاملة لجميع الخيـول، باستثناء الخيول التـي كانت مـركوبـة، فهـذه نجت، وقد أسروا أربعـة وعشرين فـارسـاً، وقتلوا عـدداً صغيراً، وكـان عـدد الجرحى كبيراً، وجـرى الاستيـلاء على المعسكـر كلـه وعلى غالبية الأسلحـة، ووقف فرسان القبارصة الـذين دافعوا عن أنفسهم بشكـل جيـد، على رابيـة صغيرة تبعـد حـوالي رميـة سهم زنبـورك عـن المعسكر، ورآهم اللومبارد بكل وضوح، غير أنهم لم يقتربوا منهم .

١٠٧ (١٧٥) : ووصل الملك هنـري إلى عكا، ولدى سماع صـاحب بيروت للأصوات خرج ومعه الذين رغبـوا باتباعه(١٨٤)، وهـم يشعرون بالحزن وبالألم، وكـان أول عمل قاموا به هو استقبـال الملك، حيث شكر صاحب بيروت الرب على وصـوله، ثم تقدموا لاستقبال الـرجال الآخرين الـذين كـانوا فـارين، وعنـدما رآه(صـاحب بيروت) هـؤلاء، تخلـوا عن الطريق(١٨٥)، وبـدأ واحد من السيرجنديـة يقول بأنـه سيذهب ليرى فيما إذاكان أحداً من أولاد مولاه بين الفـارين، واعترض عليه مولاه قائلاً :« لاتفعل ذلك، سنجدهم كيفما كـان الحال، فهم لن يتجرأوا على الفرار بعيـداً، وهم لن يأتـوا إلى المكان الـذي من الممكن أن أكـون به»، وبعـد مسافة قصيرة إلتقى (صـاحب بيروت) بواحد من سيرجنديتـه القدامى الـذي كان هـارباً: وبكـى هذا الـرجل وقـال له:« لقـد تم فقـدان جميع أولادك الرائعين، وهم الآن موتى»، وقال الرجل النبيل مجيباً له:«وماذا في ذلك، أيها الجبان الدنيء؟ وهكذا ينبغي أن يمـوت الفرسان وهم يدافعون عن أجسـادهم وشرفهم»، ومضـى في طريقـه إلى الأمام مسرعـاً، وعندمـا

وصل إلى قلعة إيمبرت رأى الذين كانوا وقوفاً فوق الرابية، وما أن رآه هؤلاء حتى نخزوا خيولهم وساروا خلف اللومبارد الذين كانوا وقتذاك ينسحبون .

١٠٨ ـ وما أن رأى اللومبارد الذين كانوا قادمين من عكا حتى شرعوا بالفرار، وعبروا مسرعين الشعب الجبلي لممر البوليان(١٨٦)، وهناك وجد صاحب بيروت رجاله، الذين انقضوا على كافة قوات اللومبارد، ولقد رأى وأدرك أن ذلك القتال وتلك المطاردة، لن تحققا شيئاً، لأن أعداءه كانوا قد دخلوا بالممر ولديهم كثير من الرماة ورماة القسي العقارة، ولهذا استدعى رجاله، وحمد الرب كثيراً أنه وجدهم أحياء، وأنهم تصرفوا بشكل جيد ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً جيداً، ووجد هناك جميع أصدقائه الأعزاء باستثناء ابنه السير هيوج، وقد وجده في بيت عسكري قديم كان في القلعة، ذلك أن فرسه كان قد قتل قرب ذلك البيت، وكان قد دخل هو وفارس آخر كان رفيقه إلى قلب هذا البيت، وحصناه بالحجارة حتى سمعا أصوات المنقذين، وكان من المعتقد أنه قد قتل أو أسر، ولذلك كان السرور عظيماً عندما وجد هناك .

١٠٩ (١٧٦) : وذهب اللومبارد إلى صور مع غنائم عظيمة، لأن الذين كانوا في الغلايين والذين كانوا على الأرض قد حملوا كل ما وجدوه، ولأنهم أخذوا أشياء تفوق الحصر ـ معظم الخيول،والأسلحة ،والتجهيزات التي عادت إلى القبارصة ـ بات موقفهم المضي في حملتهم، وأن أعداءهم لن يستطيعوا التعافي في قبرص، كما لن يتمكنوا من العبور إليها إلاّ بعد وقت طويل، ولهذا رتبوا القيام بشطر قواتهم، فقد تركوا حامية في مدينة صور، وعبروا على الفور إلى قبرص مع قوات كبيرة للاستيلاء على الجزيرة وقد أعانهم على ذلك أحوال مناخية موائمة فوق سطح البحر، وقد حدث هذا في سنة ١٢٣٢ (١٨٧) .

١١٠ (١٧٧): وما أن بات اللومبارد في قبرص حتى استسلمت

قلعة كنتارا إليهم، وقـد حدث من قبل استسلام برج ميناء فيماغوستا إلى السير عموري صاحب بيسان، وإلى السير هيـوج صاحب جبلة، وكذلك استسلام قلعـة سيرينا إليهـم، وهكذا لم يبق من جميـع قلاع قبرص تـابعاً لصاحـب بيروت أو للملك هنري، غير قلعـة ديودامور فقـط، فإلى ذلك المكـان كـان قـد تـوجـه كـل من أختـي الملك(١٨٨)، والسير أرنيـس صاحب جبلـة(١٨٩)، الذي كان في ذلك الـوقت وكيل الخازن (١٩٠) Secrete، وكـان هناك أيضـاً فيليب دي كافـران(١٩١) Caffran، الذي كان القسطلان، والتجأ إلى المكان نفسه عدد صغير من الفرسان،و سيدات و فتيات، و كلهن تجمعهن هناك قبل أن يمتلكن الوقت لتجهيز أنفسهن، و كـان مع الجميع أناس من بقيـة الشعب الذيـن امتلكوا زاداً قليلاً من الطعام، والأشياء الأخرى التي احتاجوها.(١٩٢)

١١١: غير أن معظم سيدات و فتيات و أطفال قبرص قد أخذوا على حين غرة،و لم يكونـوا بالتالي قادرين على الذهاب إلى ديـودامور، و هكذا التجأوا إلى الكنـائس و بيوت الـدين الأخرى، و كـانت هنـاك كثرة كثيرة قد التجأت إلى الجبـال، و هناك اختبأت أو في الكهوف، و ارتـدت هذه السيـدات ثياب الـراعيات، و أولادهن ثيـاب أولاد الـرعيان، و تـوجهت هذه النسـاء نحو العمل على قطف سنـابل القمح التي توفـرت هناك، و على هـذه السنـابل عـاشـوا هن وأولادهـن وسط شقـاء عظيـم من المؤلم روايته، و التجـأت اشيف دي مونتبليـارد(١٩٣)، التي كانـت و قتذاك زوجة السير بالين دي إيبلين ابن مـولاي صاحب بيروت، التجأت هي و أولادها إلى مقـر الاسبتاريـة، و عندمـا سمعت بأن اللـومبارد قـد وصلوا تملكها خـوف عظيم، فارتدت ثيـاب واحد من صغار الـرهبان، و تخلت عن أولادها و اقطاعها، و صعدت إلى قلعة عـرفت باسم بوفافينتو، و قد استقبلـت هنـاك مـن قبـل فـارس عجـوز اسمـه غيـونـارت دي كـونشي(١٩٤)، الـذي كـان مقيماً هنـاك لصـالح الملـك، و قـد زودت

نفسها، و هكذا شحنت بوفافينتو بالأطعمة، و كانت القلعة قبل ذلك لاتمتلك شيئاً.

١١٢: و قدم اللومبارد مسرعين إلى نيقوسيا، و قد اقترفوا هناك كل الآثام و المفاسد و الشرور التي عرفوها و كانوا قادرين على اقترافها، و اقتحموا الكنائس و بيت الدواية مع بيت الاسبتارية، و جميع البيوت الدينية، و سحبوا و جروا إلى الخارج السيدات و الأطفال الذين تعلقوا بالمذابح و بالكهنة الذين كانوا ينشدون القداسات، وحدث في تلك الأثناء أنهم قاموا في أحد الأماكن فانتزعوا من يدي الكاهن جسد ربنا، و رموا بالقربان المقدس على الأرض، وقد وضعوا السيدات و الأطفال في عربات و على ظهور الحمير بشكل مهين جداً، و بعثوا بالجميع إلى سيرينا للسجن هناك، والتقطوا بالخطا طيف الذين رفضوا الذهاب على الفور، و كان اللومبارد قد استولوا على سيرينا، و جلبوا إلى هناك كميات كبيرة من المؤن، ذلك أنهم أرسلوا بغلايينهم و بمراكبهم إلى ذلك المكان كل ما وجدوه على طول سواحل قبرص.

١١٣(١٧٩): و توجه اللومبارد مع الخونة الآخرين لحصار ديودامور، و قد طوقوها و ضغطوا عليها عن قرب، ذلك أنهم عرفوا أن الذين كانوا فيها كانوا مزودين بقليل من المؤن، وقد بعثوا إلى الحصار، و الضغط على القلعة بلا هوادة، أكثر الناس عداء لكل من الملك و صاحب بيروت، و هكذا بعثوا بها لا أعرف عدده من طواقم رماة القسي العقارة، و حانثي الأيمان و الخونة الذين فروا من جيش القبارصة و قصدوا جبلة، عندما مرّ جيش القبارصة أمامها، و هو على طريقه للتفريج عن بيروت.(١٩٥)

١١٤(١٨١): و أكمل الآن الملك هنري السنة الخامسة عشرة من عمره،(١٩٦) و بات قادراً على التصرف حسب رغباته بحكم كونه سيداً قد وصل إلى السن القانونية، ووعد بناء عليه بمنح عدة اقطاعيات للذين كانوا معه، ووعد الجنويين بإعطائهم امتيازات إعفاء و محكمة في

مملكة قبرص(١٩٧)، إذا ما استمروا بصحبته فقط حتى يصل إلى قبرص، و مثل صاحب بيروت، الذي كان آنذاك مقدم «كومونه» عكا، حسبما أوردنا خبر ذلك من قبل، أمام البطريرك جيرولد، بطريرك القدس، و كان ذلك بحضور الملك هنري و عدد كبير من الرجال الذين كانوا هناك وتشكى للبطريرك، الذي كان أيضاً النائب البابوي،(١٩٨) بسبب الأضرار التي ألحقها اللومبارد بالملك و به شخصياً، فيما يتعلق بالمسألة التي رويت أخبارها أعلاه، وكان من بين المسائل التي تولى عرضها هو أنه ذكّر الناس وأخبرهم كيف أن اللومبارد كانوا قد استولوا على اسطول الملك بأجمعة، عندما جاء الملك من قبرص، لأن الملك كان قد أرسل السفن التي نجت من البترون إلى قبرص، فهولاء قد استولوا على هذا الاسطول، و على جميع السفن التي بقيت، و استولوا كذلك على مملكة قبرص، لابل أكثر من هذا لقد حاصروا أختي الملك في إحدى القلاع، و يرغب الملك بالذهاب للتفريج عنهما، لكنه لايمتلك اسطولاً يلبي حاجته، و هناك الاسطول الذي قدم به اللومبارد ، و هو موجود في ميناء عكا، و لهذا فإنه يطلب من البطريرك، بحكم كونه النائب البابوي، أن يأمر بالترخيص له بأخذ سفن الاسطول الراسية في ميناء عكا، لأن أصحابها من المحرومين كنسياً، ومن الذين هاجموا قلاع المسيحيين، والذين انتزعوا من الملك اسطوله و مملكته.

١١٥: ورد عليه البطريرك الطيب بأنه لايرغب بالتدخل بمسائل الحرب و السلام، لكنه قال بأنه رأى في احدى المناسبات في بلاده عندما كان صيادون يصطادون فرائسهم، وكانت الحيوانات كثيرة، كانوا يجلبون كلاب صيدهم، ويشيرون بأيديهم، ويقولون لهم: « اذهبوا وخذوها»، و عندها ركض الفرسان و السيرجندية و البوليان(١٩٩) الذين كانوا في الميناء، نحو البوارج و السفن الصغيرة التي وجدوها في الميناء، ثم

قصـدوا سفن الاسطـول،واستولـوا بالقـوة على ثـلاث عشرة سفينة منهـا، بمشيئة الرب، أمـا السفن الأخرى وما بقي من سفن الأسطـول فقد هرب الجميع إلى صـور(٢٠٠)، و جنـد الملـك هنـري و صـاحب بيروت أكبر عدد من النـاس قدروا على تجنيده(٢٠١)، و لهذا أقدم صاحـب قيسارية الشاب على بيـع جزء من بـلاده في قيسارية، وكـذلك فعل مـولاي جون دي إيبلين، الذي صار فيها بعد كونت يافا، حيث باع قرية كبيرة امتلكها و كـانت في عكا(٢٠٢)، وأقـرضوا المال إلى الملـك، وقام عـدد كبير من بوليان الميناء بتجهيزأنفسهـم بسرعة و انطلقوا(٢٠٣)، هذا و لست أدري كم عـدد السفـن المسلحـة التي امتلكـوهـا، هـذا وقـد أعطـاهـم الملك اقطاعيات مقابل الخدمات التي قدموها له في البحر .

١١٦ (١٨٢) : وأقلعوا من عكـا للقيام برحلتهم(٢٠٤)، وقـد مروا أمـام صور بسفنهـم، وخرجـت سفن اللـومبارد التـي قدمـت من قبرص لمحـاربتهم، وأطلقت أشرعتهـا للريـح، لكنها لم تتجـرأ على الاقتراب من الجيش، ومـع ذلك ظلت هـذه السفن تتابـع إبحارهـا بالاتجاه المعـاكس للريح، وظلت تترصد الفرصـة لإلحاق الضرر بهم، ووصل جيش القبارصة إلى أمام صيـدا، وإلى هناك جاء السير بـالين الذي قدم من طـرابلس إلى بيروت مع الجماعـة التي سمينـاها أعـلاه(٢٠٥)، كما ووصل إلى هنـاك أخوه السير جون صاحـب فوغيا ومعه أيضاً جماعته التي سمينـاها أعلاه، وهي التي كانـت معه في قلعة بيروت، و...صاحب صيـدا(٢٠٦)، وقد أعطاهم الملك هنري ملك قبرص كثيراً من الإقطاعيات.

١١٧ (١٨٣): وأبحر القبـارصة من ميناء صيـدا، أمام تيار الـرياح، ووصلوا إلى قبرص، ونزلـوا في لى غري(٢٠٧) Gree، وإقتربت في تلك اللحظة غـلايين اللومبارد منهم وكـانت تجري بالاتجاه المعاكـس للريح، وبعثوا أثنـاء الليل إلى البحر من يتجسس لمعـرفة مكان جيش اللـومبارد، وقـد علمـوا بشكـل مـؤكـد أن الجيـش مـع جميع قـواتهم مـوجـودة في

فيماغوستا، وأن غلايينهم راسية في الميناء .

١١٨ (١٨٤) : وزحف جيش القبارصة إلى أمام فيماغوستا، وكان اللومبارد في المدينة ولديهم أعداد هائلة من الرجال، وذلك من الفرسان والرجالة سواء، وكان لديهم الكثير من الخيول والسلاح مما كانوا قد استولوا عليه في قلعة إيمبرت مع ما كانوا وجدوه في قبرص، وكان معهم الخونة الذين تخلوا عن الملك عند ميناء القسطلان، وذلك حسبما روينا من قبل في هذا التاريخ، كما كان معهم رجال آخرين حصلوا عليهم من طرابلس وأرمينيا، وتوركبليه جنّدوهم من قبرص، وبناء عليه كان من المقدر بشكل صحيح أنه كان لديهم ألفي فارس في جيشهم، وكان لدى الملك هنري وصاحب بيروت مائتين وثلاثة وثلاثين فارساً .

١١٩ (١٨٥) : وعندما وصل جيش الملك هنري إلى أمام فيماغوستا، ابتعد قليلاً عن اليابسة، وراقب صاحب بيروت الأوضاع فرأى أن الساحل كان مشحوناً بشكل جيد بالرجال ضده، وكانوا جميعاً مسلحين، وأنه إذا ما حاول النزول إلى اليابسة سوف يتعرض إلى مخاطر شديدة، ولاحظ وجود جزيرة أمام اليابسة حيث كانت هناك مخاضة يمكن للإنسان أن يجتازها إلى اليابسة عندما تكون المياه في أدنى درجات انخفاضها من جانب اليابسة، وذلك عندما يكون البحر هادئاً، ونزل جيش القبارصة في هذا الجانب مع خسائر فادحة بسبب الصخور التي كانت هناك، وبادروا على الفور مسرعين نحو رأس الجزيرة المقابل لليابسة، حيث توفرت المخاضة، ومركزوا هناك عدداً من الرجال المسلحين ليتولوا حراسة المخاضة حتى يكونوا جميعاً قد غادروا السفن، وتهيأوا تماماً.

١٢٠ : وأطلق رجال الامبراطور الجروخ باتجاه ذلك المكان، وقدموا كل ما استطاعوه من مقاومة،واستخدموا القسي العقارة، وكان هناك الكثير من رمايات الحراب والنشاب من على الطرفين، ومع ذلك رسا القبارصة

ونزلوا إلى اليابسة صغيراً وكبيراً وفق مـا أرادوا، وكان بإمكانهم مع خيولهم المعسكـرة على الجزيـرة، وقـد تـولوا الحراسـة طـوال الليـل بشكل جيـد، وركـزوا اهتمامهم على المخـاضة التـي يتـوجب عبـورها إلى أرض الجزيـرة القبرصية، وأرسلـوا بعد منتصف الليل بوارج ومـراكب صغيرة مسلحة إلى المينـاء، وبادروا مـن هناك مسرعين إلى واحـد مـن أماكـن المدينة، وكـان الجيشان عظيماً، ثـم ألقى اللومبـارد النار بجميـع سفنهم التي كـانت في الميناء، وتخلوا عن المدينـة وهجروها، وامتطوا خيولهم ومضـوا إلى نيقوسيا، وبادر جيـش الملك بالـزحف مسرعـاً، واستولى على مـدينة فيماغـوستا في أثناء الليل .

١٢١ (١٨٦) : وقـام في الصبـاح التـالي الملـك وقبـارصتـه بتسليـح أنفسهـم، وإعـداد خيولهم، وامتطـوها وعبروا المخـاضة إلى أرض الجزيـرة وهم على تعبئـة، وكانـوا يتوقعون مـواجهة مقـاومة أثنـاء عبور المخـاضة، لكنهم لم يـواجهـوا أي شيء مـن هـذا النوع، وهكـذا وصلـوا إلى مـدينـة فيماغـوستا، وأقـامـوا هنـاك لمدة يومين أو ثـلاثـة ليريحوا أنفسهم، وكـان اللومبـارد قد تـركوا برج البحـر مشحونـاً بالـرجال، وتعامـل الملك معهم ومنح القادة إقطـاعات، وبذلـك سلموا إليه بـرج ميناء فيماغوستـا، وقدم إليهم إلى هناك ثـلاثة رجال قدمـوا أنفسهم إلى الملك، وكانوا هـم الذين يتولون حراسـة كنتارا لصالح اللومبارد، وقد أعطـاهـم الملك الذي طلبوه، وبـا لمقابل سلمـوا إليـه كنتارا مع بـوفـافينتو(٢٠٨)، وسـامح صـاحب بيروت وأولاده واحـداً منهم، اسمـه همفـري دي مونيـاري Monaigre، وكان قـد سبب لهم شروراً كثيرة، وكـان الذي تـدبر استرداد كنتـارا وبرج فيماغوستا وأعدّ لذلك هو فيليب دي نوفار.

١٢٢ : وبقي ملك قبرص ثلاثة أيـام(٢٠٩) في فيماغوستا، عالج في أثنائهـا الأمور مـع قائد الجنويين(٢١٠)، الـذي كان اسمـه السير وليم دي لي أورت Ort، وكان هو بالوقت نفسه قنصل الجنويين، ورجلاً ثرياً (

٢١١)، وقد منحه الملك كل الذي أراده وطلبه: فهو قد منح إلى الجنويين في جميع أرجاء قبرص امتيازات إعفاءات ومحكمة، باستثناء النظر في ثلاثة أمور قضائية تعلقت بالقتل، والاغتصاب الجنسي والخيانة (٢١٢)، وأعطاهم داراً في نيقوسيا، ومحكمة ذات صلاحيات بحرية(٢١٣)، وقلعة اسمها دسبويير(٢١٤) Dspoire وضمنوا تعهداتهم للملك بيمين أقسموه، وكذلك فعل الملك لهم، وتعلقت هذه التعهدات بالعون، وشروط التحالف (٢١٥)، هذا وكان ما منحهم الملك هنري إياه له استمرارية دائمة وكان ذلك عن طواعية ورغبةمنه ومن مولاي صاحب بيروت، وصعد الجنويون ثانية إلى ظهور سفنهم، وذهبوا إلى ليماسول، وكانوا هناك عندما علموا بأخبار المجد الذي منحه ربنا فيما بعد إلى ملك قبرص وإلى رجاله، وعندما علموا بهذا ذهبوا إلى جنوى، وكانت سفن اللومبارد طوال هذا الوقت في مياه قبرص وكانت مدركة لما كان يحدث، غير أنها لم تتجرأ قط على لمس السفن .

١٢٣ : وعندما باتت سفن(الجنويين) في أعالي البحار، جاءت سفن اللومبارد إلى سيرينا، التي كانت ما تزال بأيدي اللومبارد (٢١٦)، وكان جيش اللومبارد عندما غادر فيماغوستا قد أحرق الحظائر والمخازن والسهل كله، وقد سبب هذا أضراراً بالغة، لأن معظم الحبوب كانت في المخازن، وقد حطموا جميع المطاحن في لى كويتري Quetrie (٢١٧)لابل إنهم دمروا حتى المطاحن اليدويةفي نيقوسيا، وذلك بقدر ما استطاعوا، ولدى سماع القبارصة بهذه الأخبار شعروا باطمئنان عظيم، وقالوا إنه لمن الواضح تماماً لو أنهم خططوا للاستمرار باحتلال البلاد لما فعلوا ذلك، وقد منح ربنا نعمة لامثيل لها للقبارصة، ذلك أنهم كانوا قليلين جداً بعددهم من الرجال إلى حد أنه بدا بالنسبة لهم أنهم ما أن يلقون اللومبارد سوف يهزمون من قبلهم لامحالة .

١٢٤ (١٨٧) : وغادر الملك هنري وصاحب بيروت ومعه قومه

فيماغوستا ، ووصلوا خلال عدة أيام إلى نيقوسيا بعد ما لحقت الأضرار الكبيرة بتجهيزاتهم وبمعداتهم، وبعدما تبقى معهم عدد قليل من الرجال، وتخلى اللومبارد عن المدينة، وعسكروا في الوادي فيما بين جبلين عاليين على الطريق إلى سيرينا، وكان موقع معسكرهم جيداً وحصيناً إلى حد أن ما من واحد كان قادراً على الوصول إليهم إلاّ عبر طريق ضيق فوق جبل عظيم، وكان الممر هناك مدافعاً عنه بشكل ممتاز، كما أنه لم يكن بإمكان القبارصة التفريج عن قلعة ديودامور ونجدتها إلاّ عبر هذا الطريق نفسه، وامتلك اللومبارد كل ما احتاجوه في جانب سيرينا، في حين كان المتبقي من أغذية في قلعة ديودامور يكفي ليومين فقط .

١٢٥ (١٨٨) : ودخل الملك هنري وصاحب بيروت مع رجالهم إلى نيقوسيا حيث وجدوا القليل مما كانوا بحاجة إليه، وكان هناك نقص شديد بالخبز، وكان صاحب بيروت قلقاً جداً لأن رجاله قد تشتتوا بشكل أحمق وعسكروا في أرجاء المدينة، وخاف من أن يقوم أتباع اللومبارد بمهاجمة رجاله أثناء الليل، لذلك قام في وقت العشاء باستنفار الجميع وقال بأن اللومبارد في طريقهم إليهم، وبناء عليه خرج الجميع ووقفوا خارج نيقوسيا (٢١٨)، وما أن أصبح الرجال خارج المدينة وقد تعبأوا واصطفوا للقتال، حتى أعلن لهم صاحب بيروت بأن اللومبارد قد تراجعوا وذهبوا، ثم قام باسم الملك بمنع كل واحد من الجيش من دخول المدينة، وقد اختار أفراد الجيش بقعة خارج المدينة(٢١٩)، حيث توفرت حدائق على أحد الجوانب وخندق صغير، وعسكروا هناك تلك الليلة، وتحرزوا كثيراً بالحراسة، وأقاموا مراكز رصد وإنذار جيدة، ذلك أنهم تذكروا بشكل جيد قلعة إيمبرت .

١٢٦ (١٨٩) : وفي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم ثلاثاء (٢٢٠)، انطلق القبارصة، ووافق هذا اليوم مرور أكثر من خمسة أسابيع على وقوع حوادث قلعة إيمبرت، واقترح الملك وصاحب بيروت مع

مستشاريهم وجوب ذهابهم إلى السهل الواقع دون معسكر أعدائهم، فإذا ما انحدر اللومبارد نحوهم، فتلك كانت رغبة القبارصة بإنشاب القتال، وإذا لم يفعلوا فإنهم سوف يعسكرون في قلعة اسمها أغريدي، قائمة قرب مكان واقع عند سفح الجبل، فمن هناك يمكنهم أن يبعثوا خلال الليل التطمينات والمعونة إلى الذين في ديودامور بواسطة رجال يسيرون على الأقدام عبر ممر ضيق ومنزلق قائم فوق القلعة، وتنفيذاً لهذا الاقتراح زحف القبارصة حتى وقفوا فيما بين اللومبارد وأغريدي(٢٢١)، وما أن رأى اللومبارد من الأعلى كيف أن القبارصة كان عددهم قليل، وكيف أن تجهيزاتهم كانت فقيرة حتى استخفوا بهم، ورأوا أنه من العار تجنب الإقتتال معهم، وصرخوا جميعاً بصوت واحد: « عليهم، عليهم، دعونا نذهب ونأسرهم» .

١٢٧ : ثم ترجل صاحب بيروت، وجثا على ركبتيه، وحمد ربنا، أن الأعداء انحدروا نحو الاقتتال، لأنه كان يعرف كما قال بأن ذلك معناه سيكون تحرير(شعبه)، وأن ذلك خير ما يمكن أن يحدث لهم، وقد صلى بخشوع وطلب من ربنا أن يمنح في ذلك اليوم المجد والنصر إلى الملك وإلى حزبه، وقد نذر في تلك الساعة بشكل سري ـ الأمر الذي نفذه فيما بعد ـــ أن ينتسب إلى واحد من البيوت الدينية، وقام بتعبئة صفوف قواته بشكل مبدع، وكان ابنه السير بالين دي إيبلين قد قاد دوماً في هذه الحرب الصف الأول من القوات، وقد جعله في هذه المرة يأتي ويقف أمامه ، وطلب منه أن يقسم على إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة، ذلك أنه كان تحت الحرمان الكنسي بسبب زواجه، وقد ردّ عليه أن ليس بإمكانه الاستجابة لهذا الطلب، ورد عليه الرجل النبيل وقال:« بالين لدي ثقة وإعتماد على الإيمان بالرب أكثر من الاعتماد على فروسيتك والثقة بها، وبما أنك على غير استعداد للاستجابة لطلبي، اترك الصف، لأنه إرضاء للرب، سوف لن يكون رجلاً محروماً قائداً لقواتنا»، فهذا ما كان قد قاله

وهذا ما جرى تنفيذه .

١٢٨ : وأقام قـائداً للصف الأول من القوات السير هيـو ابنه، وجعل السير آنسيـو دي بـري قـائداً للصف الثـاني بعـده، والسير بلـدوين دي إيبلين قـائداً للصف الثالـث، وصاحب قيسـاريـة الشاب قـائداً للصف الرابع، وهو صف ساقة الجيش،ذلك أنه لم يمتلك صفوفاً أكثر(٢٢٢).

وكـان في صف السـاقـة هـذا الملـك، وصـاحب بيروت، وابـن أختـه الشاب السيرجـون وعدداً كبيراً آخر ممـن رغبوا في أن يكونـوا في الصف الأول، وأمـر صـاحب بيروت ابنـه السيربـالين أن يكـون معـه في سـاقـة الجيش، وقال له:«باسم الـرب»، غير أنه فعل عكس ذلك، حيث تخلص من مكانه، وذهب إلى الصف الأول حيـث كان أخاه السير هيوج والسير آنسيو، فقـدم لهما النصيحة، وأراهما الـذي عرف أنه مفيـد ونافع، ثـم إنه تـركهما ووضـع نفسـه أمـامهما على الطـرف، وكـان معـه عـدد قليل مـن الرجـال، لأنه كـان آنذاك خمسة مـن الفرسـان فقط هم الذيـن يتكلمون معه، فقد أقسـم الآخرون جميعاً على احترام أوامر الكنيسة المقـدسة، ومن أولئك الخمسـة كـان فيليـب دي نوفـار واحـداً منهم، وكـان الآخـر هـو ريمـونـد دي لى فليس Flace، فهـذان كـانـا مـن أتبـاعـه، وقـد تسلما إقطـاعهما منه، وكـان بيتر دي مونتـوليف Montolif هـو الثالث، وكـان مدفوعاً له ومعطى أشياءً مـن قبله، وكان الاثنان المتبقيان هما روبرت دي مومني Maumeni، ويودس دي لى فيرتي Fierte، وكان هو الذي رباه وجعله فارساً (٢٢٣).

١٢٩ (١٩٠): وعنـدمـا اقتربت مقـدمـة قـوات أول مجمـوعـة مـن اللـومبارد مـن كتلة مـولاي صـاحب بيروت والملك، انـدفع السير بـالين نحـو بقعة خطـرة جداً، مشكلـة من صخـور وحجارة، ومضى إلى قتـال الآخرين فوق في وسط الممر، وقد أعـاقهم كثيراً، وقام بأعمال قتالية رائعة، إلى حد أن مـا من إنسـان كان قـادراً على دخول هـذا الممر أو مغـادرته

وجـوازه، وصبر كثيراً وتحمل إلى درجة أن جميـع الذين رأوه يشهـدون أنهم عاجـزين عن التصـديق أن رجـلاً واحداً قـد استطاع قط أن يفعـل مثل هذه الأفاعيل، وكثيراً مـا ضغط عليه بعدد كبير من الرمـاح، حتى أنه ما من واحد صـدق أن بإمكانه النجـاة مطلقاً، ورآه الذين كـانوا في الأسفل مع الملك وعرفـوه وميزوه تماماً من خلال سلاحـه، وصرخ كل واحد منهم إلى مولاي صـاحب بيروت قائلاً: «آه يـامولاي، دعنا نعـاون السير بالين، لأننا نـرى أنه سـوف يقتل فـوق في الأعلى»، وأجابهم (صـاحب بيروت) بقولـه:« دعوه لوحـده، الرب سوف يعينـه، فهذا يرضيـه، ولسوف نمتطي خيولنـا، ونمضي مباشرة إليـه، ذلك أننا إذا مـا انحرفنـا جانبـاً يمكن أن نخسر كل شيء، وكان القتـال شديداً على كـل جانب في تلك السـاعة، واستمر طويلاً، وسقط وقتذاك العديد .

١٣٠ : وقـاد الكونت ولتر مينبـو(٢٢٤) Manepeau الـرتل الأول من قـوات اللومبـارد، وقد قـاتل بقسـوة متناهيـة، وصمد لجميع صفـوف الملك، وانقـض عليهم بشـدة وحدة ومـر من خـلالهم وتجاوزهم بعيـداً، لكـن دون إحـداث أضرار كبيرة، وأراد بعض الـذيـن كـانـوا في صفـوف الملك مهاجمتـه، لكن صاحب بيروت منعهم بحكمة، وحظـر أن يقوم أي واحد من الالتفات إلى طرف ما، أو الانحـراف إليه، ووجوب متابعة حملة الفرسـان، لأن الفرسـان يحملون بالعـادة باتجاه مباشر، وتخلى عـن القتال، وانحرف نحـو الرتل الـرابع الكـونت ولتر والسير جو فـري دي موسي(٢٢٥) Mosie، ابن متسلم العدالـة، وكان معهما جميع قواتهما(٢٢٦)، وقـد هـربـا من هنـاك حتى كـاستريـا(٢٢٧)، دون القيـام بأيـة أعمال أخرى، وكان الكـونت بيرارد دي مينوبي(٢٢٨) Menope، الذي قاد الرتـل الثاني فارسـاً مجرباً وتحت إمرتـه مقاتلين جيدين، وقـد حمل بشكل فعـال جداً، وضعضع الـرتل الأول مـن قوات القبـارصة، لكـن عساكـر السير بلـدوين سـاعدوهـم بثبات وتصرف الكـونـت بلدويـن بشجاعـة

وحكمة، وقام بأعمال قتالية عظيمة .

١٣١ : وجارى السير آنسيو دي بري الكونت بيرارد، وأمسكه من خوذته، وحرفه نحو اليسار، ولقد كان قوياً جداً ولديه حصان ممتاز، ولذلك اقتلع الكونت بالقوة من على سرج حصانه، ورماه أرضاً، وصاح«اقتل، اقتل»، ثم وصل وقتها إلى ذلك المكان ما بين الخمسين إلى الستين من السيرجندية، وهم يسيرون على أقدامهم، وكان هؤلاء قد بعثهم القبارصة من قبل إلى أغريدي لإقامة المعسكر، وقد قطعوا رأس الكونت بيرارد، ومعه رؤوس سبعة عشر فارساً من حاشيته وآل بيته، كانوا قد ترجلوا لإقامته، وسرت كلمة«اقتل، اقتل» بين صفوف الجيش، وصرخ الجميع«اقتل، اقتل» .

١٣٤ : وكان في هذه المعركة فارس بين اللومبارد، قيل بأنه كان ألمانياً، وكان مغطى هو وفرسه بمعدن مذهب، وقد قام بعدة حملات، ونفذ أفاعيل قتالية عديدة، وكان قوياً جداً ونشيطاً، لذلك لم يستطع أحد قهره وإسقاطه، لكن في النهاية قتل حصانه، وألقى المقاتلون الرجالة أنفسهم عليه وقتلوه، وكان عدد كبير من فرسان القبارصة قد عبروا في حملاتهم عن بسالتهم، وكان عدد الرجال كبيراً بين اللومبارد الذين خاضوا منازلات مريرة، وكانوا بالفعل رجالاً عظماء، وعلى جميع الأحوال قام الرب بمعجزات عظيمة، لأنه قتل من بين صفوف القبارصة فارس واحد فقط، كان قد ولد في لومباردي ونشأ في قبرص وفيها رسم فارساً، وظل كلامه كلاماً لومباردياً، حتى أنه لم يكن بإمكانه أن ينادي الملك بكلمة Vaillance، بل صرخ Baillance، ولهذا السبب قتل، حيث ظن أنه من اللومبارد(٢٢٩) .

١٣٣ (١٩٥): ومنح الرب مجداً عظيماً وأظهر نعمة كبيرة إلى الملك هنري وإلى صاحب بيروت وإلى حزبهم، حيث تمكنوا في ساعة واحدة من النهار من إلحاق الهزيمة بأعدائهم الأقوياء وساقوهم بعيداً

وطردوهم، وقد فرجوا عن ديودامـور التي كانت محاصرة، وقاموا بمحاصرة سيرينـا التي التجأ إليهـا اللومبـارد، وهرب السير جنـدية الـذين كانـوا يحاصرون ديودامـور لصالح اللومبـارد، وفروا من هنـاك، لكنهم لم يتجرأوا على الفـرار باتجاه سيرينـا خشيـة من القبـارصـة، الـذين كـانوا يتـولـون حصارهـا، ولهذا تشتتوا بإتجاه بليسي Plassie (٢٣٠) ومن ثم انعطفـوا بـاتجاه نيقـوسيا، ولم يتجـرأوا على دخـولها في النهـار، بل أرادوا دخـولها في الليل على أمل العثور على ملاجىء في بيوت الرهبانيات الدينية .

١٣٤ : وحدث آنـذاك أن فيليب دي نوفار، كـان قد عاد إلى نيقـوسيا للقيام ببعض الأعمال التي أمره بالقيـام بها الملك هنري وصاحب بيروت، وقد علم بأن السيرجنـدية قادمون، فحشـد ما أمكنه من الـرجال، وخرج للتصدي لهم خارج المدينة، وقبل منتصف الليل بقليل إنقض فيليب دي نوفار عليهم ومعـه رجاله فقتلوا وأسروا ثلاثمائة أو أكثـر من السيرجندية، والذين نجوا منهم بسبب أن الوقـت كان ليلاً، وجدوا مأوى لأنفسهم في الكنائس وبيوتـات الرهبانيات الـدينية، وأمر فيليب أن يمثل أمـامه قادة السيرجندية الثلاثة الذين كـانوا قد تخلوا عن الملك وعن صاحب بيروت أمام جبلـة، ذلك أنهم كانوا خـونة وحانثين بـاليمين ، فأمر بهم فمـزقوا(٢٣١)، وكان بوده القيـام بشنقهم، لكنه لم يمتلك الفرصة، لأن مـا توفر لديـه من الـرجال كـان قليلاً جداً مـن حولـه، وكان عـدد الأسرى هناك كبيراً جداً .

١٣٥ (١٩٦) : وصار معلـوماً في اليـوم التالي أن الكـونت وولتر دي مينبو Manpeau وابن متسلم العـدالة وجماعتها قد التجـأوا إلى خندق قلعة كاستري، لأن الـداوية رفضوا استقبالهم في الداخل، لأنهم كـانوا قد قـاموا مـن قبل بـاقتحام بيتهـم وجروا إلى خـارجـه السيدات والأطفـال، حسبما تحدثنا عن هذا من قبل في سيـاق روايتنا، وبناء عليه بعث الملك وصـاحب بيروت إلى هنـاك السير جـون الشـاب، الـذي صـار فيما بعـد

كونت يافا، مع مجموعة من الفرسان بصحبته، وقد عثر عليهم داخل الخندق، فأخذهم أسرى، وجلبهم إلى نيقوسيا، ووضعوا هناك بالسجن مع الآخرين الذين أخذوا أسرى في يوم المعركة، وقد عهدبالإشراف عليهم جميعاً إلى فيليب دي نوفار، فهو الذي تولى حراستهم، وكان لديه في هذا السجن مائة وخمسة وأربعين سجيناً، وكان عدد كبير قد مات بسبب الجراحات، وكان ممن مات هناك السير هيوج دي سورل Sorel، والسير انتي دي شيلين Ente de cheligen، والسير غنت دي كور Gent de cors، غير أن السير فيليب أوبيسون Obuisson قد تعافى من جراحاته الشديدة(٢٣٢).

١٣٦ (١٩٧): واستمرت أعمال الحصار أمام سيرينا، وكان الذين في داخلها رجالاً عظماء جداً، وكان لديهم جميع سفنهم التي جاءوا بها إلى قبرص، ولديهم أيضاً اثنين وعشرين من الغلايين، وقد عمدوا إلى تعيين قائد يتولى حماية القلعة وأسوارها هو فيليب شينارت(٢٣٣)، الذي كان أخاً للسير جوفيان من جهة أمه، وقد تركوا فيها خمسين فارساً، وضعوهم تحت قيادة شخصية من أبوليا اسمه وولتر أكوفيفا(٢٣٤)، وكان السير رتشارد فيلنغر الوكيل قد ذهب إلى أرمينيا مع عدد كبير من الرجال طلباً للعون، كما بعثوا إلى أنطاكية و طرابلس، و قالوا إنهم سوف يقدمون ثانية و يقاتلون مجدداً ضد القبارصة، و كان في أرمينيا مرض كبير فيما بينهم، و قد عادوا إلى سيرينا دون انجاز أي شيء، و قالوا هناك العديد من الرجال في البر و البحر، وسوف هؤلاء يستهلكون معظم أطعمة القلعة، و لهذا السبب عاودوا الصعود إلى ظهور سفنهم و غلايينهم، وأبحروا عائدين إلى صور، و ذهب مع وكيلهم فيلنغر السير عموري برلياس، و السير عموري صاحب بيسان، ابن عمه، و السيرهيوج صاحب جبلة،وبقي فيلنغر(٢٣٥) وكيلاً في صور، أما هؤلاء الثلاثة فقد ذهبوا إلى أبوليا يطلبون العون من الامبراطور.

١٣٧(١٩٨) :و بقي فيليب شينـارت القائد في سيرنيـا، و معه خمسين فارسا وحـوالي الألف رجل من المشاة: من رماة الزنبـورك و البحارة،وكان لديـة هناك عدداً كبيراًمن صنـاع الآلات الحربية، و قد صنع بـوساطتهـم عـدداً من أبـراج القتال، وآلات رمـي الحجارة و المجـانيق، و تمكـن من حماية القلعة بشكل جيد لوقت طويل، و كانت زوجة الملك في القلعة، و هي التي عرفت بـاسم الملكة اللومباردية، لأن الامبراطور كـان قد أعطاه إياها، و ظلت واقفة إلى جانـب الحزب الامبراطوري، و قد توفيت داخل القلعة، وبعد مـا توفيت حملها الذين كانـوا في سيرينا إلى الخارج، وأعلنوا أنها الملكة و أنها الآن ميتة، و استقبلها الملك و صـاحب بيروت، و أقاما مناحة كبيرة من أجـل موتها، وأمرا بحملها مبجلة إلى نيقـوسيا على أيدي فرسان ساروا على الأقدام، ثم أمرا بتنظيـم موكب مع جميع شعب نيقوسيا لمرافقتها داخـل المدينة حتى الكنيسـة الكاتدرائيـة لنيقوسيـا حيث دفنت هناك، و بعد هـذا عاد الملك و صاحب بيروت لمتابعـة حصار سيرينا، و جلبا إلى هناك قوات عسكرية كثيرة .

١٣٨(١٩٩): وأمـر الملك هنـري بعقد اجتماع عـام لبـلاطه ، وقـد م شكـوى إلى محكمة بـلاطـه ضد السيرعمـوري بـرلياس، و السيرعمـوري صاحـب بيسان، و السيرهيوج صـاحب جبلة، وضـد جميع أتباعه الـذين وقفـوا ضده في المعـركـة، منذ أن وصل إلى الســن القانـونيـة،(٢٣٦) وتم حـرمان هـولاء بموافقـة عامـة من قبل أعضـاء المحكمة، وأعلـن عن أن الحرمـان يشملهـم شخصيـا و يشمل ممتلكـاتهم، وقـام الملك بـإعطـاء إقطاعياتهم إلى الـذين خدموه و سـاعدوه، و انزعج القبارصـة كثيراً لعدم امتـلاكهم لغلايين حتـى يتمكنوا من حصـار القلعـة من جهة البحـر، و تـرددت غـلايين اللـومبـارد فيما بين سيرينـا وبين صـور، وقضى الـرب بوصـول ثلاثة عشر من الغـلايين عائدة إلى الجنويين، و قـد وصلت عبر البحر إلى ليماسول خـلال عبورين، فقد وصل في العبـور الأول أربعة من

الغلايين، و في العبور الثاني تسعة، و توجه صاحب بيروت مسرعاً إلى ليماسول، و احتفظ بهذه الغلايين مقابل الأجر المالي من قبل الملك، و جلبهم إلى سيرينا .

١٣٩ : و من ثم حوصرت القلعة من جهة البحر و من جهة البر، و ذلك بوساطة هذه الغلايين و الذين أمكن تأمينهم من قبرص، و جرى بناء الكثير من الآلات في الخارج، و ذلك من قاذفات للحجارة، و مجانيق، وآلات كبيرة، كما جرى بناء برجين عملاقين من الخشب،مع سواتر متحركة كثيرة، لتدفع ضد الأسوار و لتقترب منها، و كانت هناك حملات كثيرة في النهار وفي الليل، وكانت هناك منازلات قتالية في كل من الداخل والخارج، و قد جرح العديد من على الطرفين، لأنه قد توفر هناك عدد كبير من القسي العقارة، و تمّ دفع البرجين الخشبيين حتى وصلا إلى الخندق، و امتلك الذين كانوا في الداخل عساكر أفضل من الرجالة مما كان في الخارج، و هكذا تمكن هؤلاء الذين كانوا في الداخل بالقوة من إلقاء النار في البرجين، و قاوموا مقاومة فعالة جداً ، خشية منهم من الايداع بالسجن، أو مواجهة الموت، وامتطى الفرسان في الخارج خيولهم، واندفعوا بها حتى الخندق، وهناك ترجلوا ودخلوا إلى البرجين الخشبيين اللذان كانا يحترقان، و قدأطفأوا النار بالقوة وأنقذاهما، وأعادوهما إلى الخلف، وقد جرح هناك عدد كبير من الفرسان.

١٤٠ : و تحادث الذين كانوا في داخل القلعة خلال الليل مع قائد السيرجندية الذين كانوا في الخارج وكان اسمه مارتن روسو Rous-seau ، و قد أعطوه كثيرا، ووعدوه بإعداد معاهدة معهم ليقوم بخيانة الذين كانوا في الخارج، و قد اتفق معهم وأعدّ أنه سيرى الوقت الذي يكون فيه الجيش منهكاً جداً، فعند ذلك سوف يحمل الذين في الداخل أسلحتهم و يخرجون منقضين بقوة، ووقتها سيتولى مارتن هذا وسيرجنديته قتل كل من يستطيعون ممن هو بالخارج، و لسوف يقتلون

بكل سهولة السير هيوج والسير آنسيودي بري، اللذان كانا معسكران على مقربة من القلعة أكثر من الآخرين، و غالبا ماتوليا تفقد حراسة السيرجنديته قرب الأسوار و ملاصق لها، و تمكن مارتن روسو هذا من إلحاق أضرار بالغة، لأنه كان من أكثر الناس معرفة بصاحب بيروت وبأولاده ، و كان معهم خلال معظم مدة الحرب، و قدأحسنوا إليه كثيراً ووثقوا به ، و كانت إمرة الحرس حول القلعة موكولة إليه كلياً، و لذلك أرسل إلى القلعة ماأراده و تلقى منها مارغب به.

١٤١ : و بفضل من ربنا جرى كشف أمر هذا الخائن بوساطة رجل جاء من داخل القلعة، و حدث في تلك الساعة أن ذهب مارتن روسو إلى نيقوسيا للحصول على قسي عقارة وتجهيزات أخرى رغب في ارسالها إلى داخل القلعة، و بعث صاحب بيروت فيليب دي نوفار فألقى القبض عليه يوم عيد الفصح من أيار،(٢٣٧)وألقى أيضا القبض على معلم صانع للقسي العقارة ،و كان من أتباع الملك، وقد شارك بهذه الخيانة، ؤ كان قد بعث إلى الذين في داخل القلعة من خلال الجيش كثيراً من القسي العقارة و أسلحة أخرى، و حملها فيليب دي نوفار إلى الجيش الذي كان معسكراً أمام سيرينا، وقد اعترفا بالخيانة أمام محكمة كاملة، وقد حكم عليهم(أي على الخونة جميعاً) بالإغراق أو بالشنق، أما مارتن روسو فقد قذف على أسوار القلعة بوساطة آلة رمي كبيرة، ثم بادر الذين كانوا خارج القلعة إلى نصب آلاتهم أمام الأسوار بدون إبطاء.

١٤٢ (٢٠٠) : وحدث في أحد الأيام لسوء حظهم العظيم، أن أصيب السير آنسيودي بري بجراحة، وكان آنذاك يدفع بنفسه إحدى الآلات ويحث الآخرين على دفعها، وجاءت إصابته بوساطة رمية سهم عقار، كان طوله قدمان، وقد سحب السهم ورماه بعيداً، واعتقد بأنه تخلص من الرأس المعدني، لكن لسوء حظه بقي هذا الرأس في طرفه، وقد فقد الكثير من الدماء، لكنه لم يرغب بأن يعلن ولاكلمة عن إصابته

حتى يتم دفع الآلـة كما ينبغي، ثم لاحظ الذين كـانوا إلى جانبه إصـابته وأدركوا مـداها فساعـدوه حتى عاد إلى مقـره، وقد نزف كثيراً حتـى صار لونه مثل لـون الثلج، وتقاطر جميع أفراد الجيش نحو مقـره وكذلك فعل جميع رفاقـه، وهم يشعرون بالحزن الكبير، وكـان فوق هؤلاء الرجـال جميعاً صـاحب بيروت، الـذي دعاه بـاسم« أسـده الأحمر»، وقد امتلـك السبب لذلك، فقـد كان (السير آنسيو) قـد اهتم أكثر من سـواه ونشط في سبيل مصالح الجيش، وكان أهلاً بالمكانـة العالية أكثر من غيره، وقد حملوه إلى بيته في نيقوسيـا، حيث تمدد في فراشه لمدة نصف سنـة أو أكثر، ولم يمكن العثور على الـرأس المعدني حتى اليوم الثالـث قبل موته، وهكذا نفـذ فيه قضـاء الرب، وسبـب موتـه حـزناً عظيماً للملـك وللرجـال الجيـدين في قبرص أيضاً، وفي اليـوم الذي مات فيـه كان صاحب بيروت في سـورية، ذلك أن قلعـة سيرينا كـانت قـد استسلمت، ولسوف تسمـع الآن كيف حدث ذلك.

١٤٣ (٢٠١) : وكما سمعت أمر الملـك ورجاله ببنـاء عدد كبير من آلات الحرب، وبعث بهذه الآلات أمـامه، متخـذاً الاستعدادات للهجـوم القبرصي، وقـاتل السير بـالين دي إيبلين ورجـاله أمـام القلعـة، وهـاجم صاحـب بيروت وأولاده الأسوار من جميع الجوانب، وبـاتت آمالهم عـالية بـالاستيلاء على القلعـة، لأن الآلات تمكنت مـن إضعاف الأسـوار كثيراً، وكان الذين في الـداخل رجالاً منظمين ومقاتلين جيدين، وكـانوا يخشون من السجـن أو الموت، ولهذا دافعوا عن أنفسهـم دفاعـاً عظيماً وبفعاليـة كبيرة، وقـاتل الـذين في الخارج بثبـات كبير، وكـان هناك عـدد كبير قـد أصيبوا بجراحـة ، وتلقى أولاد صاحب بيروت هناك كثيراً مـن الإصابات البـالغـة، وفي الـوقت نفسـه كـان بين الـذيـن في الـداخل قتلى كثيريـن وجـرحـى، وكـان المهـاجمون يتـوقفـون عـن القتـال مع حلـول الظـلام وينسحبون.

١٤٤ (٢٠٢) : ولام صاحب بيروت نفسه كثيراً وانتقدها، وقال بصوت مرتفع مسموع بشكل واضح:«يا للأسف، لقد أصابني سوء الحظ هذا، في هذا الوقت، ويا حزني من الشيء نفسه الذي حدث مرة لرجل من أهل بيتي، فعندما كان الملك عموري، داخلاً إلى مصر، أمر وقتها السير هيوج دي إيبلين(٢٣٨)، بمهاجمة مدينة بلبيس واقتحامها، وهي المدينة التي كان محاصراً لها، وأجابه(السير هيوج) بأنه سيذهب ويقوم بالهجوم، وعندما وصل إلى الخندق نخس حصانه وحمل، فاندقت رقبة الحصان، وانكسرت ساق عمي، وبادر وقتها جميع رجال الجيش إلى إنقاذه، ونجم عن هذا أضراراً بالغة، لأن عدداً كبيراً منهم قتلوا هناك وجرحوا ، وحمل بعد ذلك على الخندق السير فيليب (٢٣٩)، صاحب نابلس الذي كان فارساً جيداً، وكان بالوقت نفسه خاله (عمه)، فلقد حمل بعد حفيده، وهكذا حدث الشيء نفسه، ونجا هذا من الموت بصعوبة بالغة».

١٤٥ :« ثم كان بفضل الرب وإرادته أن تم الاستيلاء على المدينة، ومن ذلك الحين اتخذ الملك عموري ورجاله قراراً إلزامياً بأن لايقوم أي فارس أثناء أدائه لخدمة تتعلق بالاستيلاء على مدينة أو قلعة أو أي مكان،بالقفز إذا لم يستطع حصانه حمله، باستثناء الحالات التي يكون فيها محاصراً أو يدافع عن نفسه(٢٤٠)، وأنا التعيس سيء الحظ الذي يعرف القرار الذي اتخذ لكل واحد من بيتي، قد عرضت اليوم نفسي وأولادي وأصدقائي للموت في الحملة على هذه القلعة التعيسة، التي سوف تستسلم في أحد الأيام من قبل نفسها بسبب المجاعة»، وواساه الذين كانوا هناك وقالوا: «لاتشغل يامولاي بالك ولاتزعج نفسك بهذه الأمور، فالذين قتلوا في الداخل أكثر مما خسرته»، واستمر الحصار وقتاً طويلاً، وكانت النفقات التي بذلت هناك كبيرة جداً، وكانت المبالغ التي دفعت إلى السيرجندية وإلى الغلايين عظيمة، وكانت الضرائب التي

فرضها الملك عالية جداً، ذلك أنهم ما كانوا ليشعروا بالأمان ما لم يستولوا على سيرينا .

١٤٦ (٢٠٥): وسمع الامبراطور فردريك الأخبار من سورية، ولانعرف فيما إذا كان لم يملك الفرصة للقدوم إلى سورية، أو أنه لم يرغب بذلك، المهم أنه لم يقدم، غير أنه أرسل أسقف صيدا إلى سورية، مع رسائل على درجة عالية من اللطف والإطراء، قائلاً أنه ليس لديه أية مشاعر سيئة نحوهم لما فعلوه، ووعد بالعفو عنهم وأن يمنحهم نعمه، وطلب منهم أن يكونوا مخلصين له ولابنه، زد على هذا أنهم إذا لم يرغبوا بوكيله الموجود في صور في أن يكون وكيلهم، إنه سيوافق على الفور أن يكون واحداً من رجاله من أهل البلاد وكيلاً لهم في عكا، وأن يكون رتشارد فيلنغر في صور، وجاء في هذه الرسائل واضحاً سمة المرشح ليكون الوكيل، فقد كان فارساً كان موجوداً في صور، واسمه فيليب موغاستيل Maugastel(٢٤١)، وكان قليل التقدير، وقيل كان يصنع وجهه مثل امرأة، وأنه كان وثيق الصلة بوكيل صور، وقد خيل للامبراطور أنه بهذه الوسائل يمكن أن يربح إلى جانبه الناس في سورية، وأن يبعدهم عن تقديم العون إلى صاحب بيروت وإلى القبارصة، وهو طبعاً ما أن سيملك الفرصة سوف يقترف أسوأ ما يمكنه،(٢٤٢) .

١٤٧ : وبعد ما قام أسقف صيدا، الذي جاء إلى عكا بالتباحث حول عدد من الأمور وبعد إجراء ترتيبات كثيرة، اتفق صاحب صيدا والقسطلان(٢٤٣)، حول هذه الأمور، وجعلا الناس يأتون إلى كنيسة الصليب المقدس، حيث وجد الإنجيل، وبينما كانوا ينتظرون القيام بأداء اليمين، حدث أن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت مولاي صاحب بيروت، كان قد جاء من قبرص لقضاء أعمال خاصة به، فسمع بهذا الشيء، فجاء مسرعاً إلى عكا، ودخل في الساعة التي كان اليمين سيتم أخذه بها إلى الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس، وأمر بضرب

ناقوس« الكومونة»، وعندما سمع رهبان القديس أندرو صوت الناقوس ، بادروا إلى حمل السلاح(٢٤٤)، وصرخوا جميعاً:«إقتل، إقتل» .

١٤٨ : ورآهم أسقف صيدا فهرب خوفاً منهم إلى بيت أسقف عكا، وتخفى في البيعة، ولولا قدوم صاحب قيسارية، لكان أسقف صيدا قد قتل في ذلك اليوم، وكذلك صاحب صيدا، والقسطلان أيضاً، غير أن صاحب قيسارية استرد الهدوء، وقادهما معه إلى خارج المكان، وبادر على الفور إلى إعلام خاله صاحب بيروت بجميع هذه الأشياء، وكان آنذاك في قبرص مشغولاً بحصار سيرينا(٢٤٥)، وعلى الفور تخلى صاحب بيروت عن الحصار، وعين مكانه ابنه الأكبر السير بالين، ورغب الملك هنري أن يصطحب معه فيليب دي نوفار، لكن السير بالين لم يسمح بذلك .

١٤٩ : وذهب صاحب بيروت إلى عكا، وأجرى ما لزم من ترتيبات، وأمر بتجديد أيمان جميع البوليان، وأنه من جديد هو المقدم، وبعث أسقف صيدا إلى صاحب بيروت يلتمس منه باسم الرب ولأجله ولأجل شرفه وللمنفعة أن يسمح له بالقدوم إليه ليتحادث معه، ورد عليه صاحب بيروت أنه باسم الرب عليه أن يقدم، وأرسل إليه(الأسقف) وجلب إليه إلى هناك، وما أن مثل(الأسقف) بحضرة الإيبليني حتى تولى قراءة رسالة من الامبراطور، بعث فيها(الامبراطور) بتحياته وتطميناته .

١٥٠ (٢٠٧) وقال الأسقف:« لقد ورد في هذه الرسائل وجوب أن تصدقني، فقد بعث إليك الامبراطور رسالة يقول فيها إنه نادم كثيراً لما جرى بينك وبينه، وأنه سوف يتصرف في المستقبل نحوك ونحو الذين يتعلقون بك بأن تصبحوا أغنياء، وذوي أساسات ثرية، لكنه يتمنى عليك الاستجابة لنقطة واحدة فيها تشريف له، بها لن يكون بمقدور الناس القول بأنك قهرته، والتشريف الذي يطلبه منك أن تقدم إلى مكان يبدو أنه خاضع له ومن أملاكه، وأن تقول ببساطة مطلقة، وفق

الطريقة التالية أووفق طريقة أخرى: « إنني أضع نفسي تحت رحمة الامبراطور بحكم أنه مولاي»، وعلى هذا رد مولاي صاحب بيروت قائلاً:« سيدي الأسقف، عندما أنتهي من كلامي سوف أجيب على طلبك، لكن قبل ذلك سوف أضرب لك مثلاً، وهو حكاية كتبت في كتاب حكايات رينارد، وهي بتقديري سوف تنطبق تماماً على هذه المناقشة التي افتتحتها» .

١٥١ :«لقد حدث في غابة كانت كثيفة الأشجار، ومليئة بجميع أنواع الحيوانات، أنه كان هناك أسداً عظيماً، وقد كان شاحباً جداً، ومريضاً، ومضطرباً، وكان في أحد الأيام مستلقياً أمام مدخل كهفه، فرأى يمر أمامه مجموعة كبيرة من الوعول الفتية العائدة لذلك الموسم، وقال الأسد لخاصه أهل بيته: إذا أنا لم آكل ذلك الوعل الشاب الذي سار أمام الآخرين سوف أموت، فهذا ما أخبرني به الأطباء، لذلك بعث إلى الوعل وتوسل إليه باسم الرب أن يقدم ويتحدث معه، لأنه مريض جداً،وهو يموت ، واستجاب الوعل وذهب إليه لأنه مولاه، وما أن دخل إلى الكهف حتى بادر الأسد مسرعاً للإمساك به، وقفز عليه وضربه على رأسه بكفه فمزق جلده حتى مادون جبهته، وكان الوعل قوياً وسليماً، وكان الأسد ضعيفاً ومريضاً، لذلك وقع إلى الخلف نتيجة ضربته التي سددها، وهرب الوعل ورأسه ينزف وقال بأنه لن يدخل إلى بلاطه ثانية، وفي الوقت نفسه تعافى الوعل من جراحاته» .

١٥٢ :« وحدث بعد هذا بأمد طويل، أن الأسد بعث إلى الوعل وقال أنه بعون الرب قد فكر باستقباله بكل ترحاب وسرور عندمدخل بيته وهو يريد أن يعانقه، وأنه لسوء حظه حدث أن لمست مخالبه رأسه، وأن ذلك حدث على الرغم منه، وبسبب ضعفه ووقوعه أصابته مخالبه، وترجاه الآن باسم الرب أن يأتي إليه، ولقد بذل كثيراً من الالتماسات وترجاه طويلاً حتى أنه ذهب إليه ثانية، وخرج الأسد لاستقباله، وقفز

للإمسـاك به، وأصابتـه مخالبه وجـرحته حتى ذيلـه، ولقد أصابـه في ظهره كلـه ، وكان هنـاك في الظهـر جـرحين عميقين، وقفز الـوعل بكـل عنف لإصابتـه بالجراحة، وكـان الأسد ما يـزال ضعيفاً، وسقط نتيجـة لضربته، وهرب الوعل، وإثر هذا ظل مريضاً من جراحاته ، لمدة عام تقريباً» .

١٥٣ : «وفي نهاية العـام أرسل الأسد إليـه ثانية واحـداً من بارونـاته، وأقسمـوا له كثيراً وتـوسلوا أكثـر إلى حد أن الـوعل خدع وقـدم مجدداً إلى البلاط، وكان الأسد قد تحسن وأنشأ حول نفســه حاشية خاصة به، وأخذ أفراد الحاشية الوعل وقتلوه، وأصدر الأسـد أوامره بوجوب سلخه، ووضع التوابل لـه وتنظيفه لأنه رغب في أكلـه، وأكل الحيوانات مـن اللحم، أما أمثال زنغـريم وريناردِ فقـد شغلوا أنفسهـم بـإعداده، وأدخل رينـارد فمه وبوزه في داخلـه وأخذ القلب وأكله، وقد خـاف بقية الحيوانـات من هذه الفعلة كثيراً، ولاحـظ الأسد ذلك، وحاول ــ كخائن ــ بذل غايـة جهده لتسويغ عمله بـوساطة كلماته، فقال :لاتظنوا أيها السـادة أنني قد قتلت هذاالـوعل غدراً أو خيانـة، بل إنني فعلت ذلك لشفـاء نفسي، ذلك أن جميع الأطباء قالوا بأنني لا يمكن أن أعيش إذا لم آكل قلب هذا الوعل».

١٥٤ :« ولم يتمكنوا من العثـور على القلب لأن رينارد كان قـد أكله، وأقسم الأسـد بأن رينارد قـد فعل ذلك، لأن لحيتـه كانت ملـوثة بـالدم، وأشـار الجميع نحـوه بأصـابعهم، وحكم الجميع بـوجـوب موت رينـارد لفعلتـه هذه، وأعلن رينـارد على مسمع الجميع بـأنه كـان مطيعاً لأوامـر الملـك، ووضع نفســه تحت حكـم المحكمـة، وهنـاك قـال رينـارد : أيها السادة قـدم الوعـل مرة إلى البـلاط، وذهب عائداً مبتعـداً برأس ينـزف، وجـاء مرة ثـانيـة وغـادر بجرحين بليغين في ظهـره، وجـاء بـالمرة الثالثـة ليموت وهو ضعيف ذليل مثـل الذين بلا قلب، لأنه لو كـان لديه قلب لما جـاء للمرة الثـالثة، ويقـول المثل : الشيء المفقـود هو الـذي لايمكن إيجاده، فـالوعـل لم يكن لـديه قلـب، وأنا لم آكلـه، وذقني ملـوثـة بالـدم

بسبب سلخي له وفتحي لجسده، وأنا ألتمس من كل واحد هنا في هذا المكان، باسم الرب، ومن أجل نفسه، أن يحكم علي، وهنا قال الجميع بصوت واحد بأن الوعل لم يمتلك قلباً، وهكذا جرى إطلاق سراح رينارد» .

١٥٥ : وتابع صاحب بيروت يقول :« وأنا أقول لكم يا سيدي الأسقف إن الذي حدثتكم به مثل ينطبق عليّ تماماً وعلى الامبراطور، فهو الأسد وأنا الوعل، وقد تولى خداعي مرتين، وكانت المرة الأولى في ليماسول، وقد عدت منها برأس ينزف، وكانت المرة الثانية عندما تركت قلعة ديودامور، وجئت إليه، فقد قام على الرغم من جميع الاتفاقيات وضدها فاحتفظ بالقلاع وبقبرص جميعها، وباع الملك وقبرص إلى أعدائي، ومثل هذا الجرحين البليغين في ظهري، وإذا ما قمت الآن بوضع نفسي تحت رحمته، أعتقد أنني سوف أقتل مثلما حصل للوعل، ولسوف يحكم عليّ بشكل مؤكد أنني كنت بلا قلب، ولهذا أقول لك أيها السيد الأسقف، وبودي أن يعلم جيداً بأنه سوف لن يضعني تحت سلطانه، فضلاً عن هذا، إذا ما حدث لسوء الحظ، ومثلت أمامه، وهو يمتلك القوى كلها، وأنا ليس لدي لاأولاد، ولا أصدقاء، ولاقوة تتجاوز إصبع يدي الصغير، فبهذا الأصبع سوف أدافع عن نفسي حتى الموت» وهكذا أنهى كلماته .

١٥٦ (٢٠٩): وكان صاحب بيروت قد أسس نفسه وأوضاعه بشكل جيد في سورية، وقد ترك في سورية محله ابن أخته صاحب قيسارية، وعاد على الفور إلى قبرص، ودام حصار قلعة سيرينا لمدة أكثر من عام، وعانى الذين كانوا في الداخل من أشياء كثيرة، وعرفوا أنه من غير الممكن وصول عون إليهم من عند الامبراطور، وعرفوا بأن وكيل صور كان يقوم بإبرام معاهدة، ولهذا تحدثوا عن المصالحة، وتولى أرنيس صاحب جبلة وفيليب دي نوفار إبرام الصلح، ونتيجة لذلك سلموا

القلعـة والأسوار وجميع الأسلحـة والمؤن والعتاد الـذي جلبوه ووجـدوه في الداخل(٢٤٦) .

١٥٧ : وحـررهم فيليـب دي نوفـار، وأمـن لنقلهم مـا احتـاجـوه من غـلايين ومـراكـب ، وجعلهم يـذهبـون إلى صـور آمنين سـالمين هـم ومقتنيـاتهم، وقضى الاتفاق أنهم مـا أن يصبحوا في صـور، حتى يتـوجب على صاحب بيروت المضي إلى عكـا،وأن يأخذ جميع الأسرى الـذين أسروا في المعركـة ومايزالون أحيـاء، وعليهم تسليمه جميع رجالـه الذين أسروا في قلعة إيمبرت، والـذين كـانوا في صور، وتـم تنفيذ ذلك حسبما قيـل، فقد أخـذ الأسرى معه إلى عكـا(٢٤٧)، وكـان قـد جرى الإعـداد مـن قبل بوجوب أخذ الأسرى من كلا الطـرفين إلى وسط الطريق بين صور وعكا، وهنـا جرى تبـادل أسراهم فيما بينهـم، وعـاشت قبرص إثـر هذا بســلام، لكن سـورية بقيـت في أوضاع سيئـة، لأن السير رتشارد فيلنغـر وأخوانـه وعدد كبير من اللومبارد قد بقيوا في صور (٢٤٨) .

١٥٨ (٢١٢) : وبعد أربع سنوات من عقـد المصالحة، وكان هذا في سنـة ١٢٣٦ ، قام مـولاي جون دي إيبلين بـالاعتراف، فقـد كان السيـد الجيـد لبيروت، الذي أدرك جيـداً فضل ربنـا عليه ونعمتـه حيث منحـه مجداً وتشريفـاً عظيماً، وجاء اعترافـه بسبب الـوحش الـذي انقض عليـه، وقام بهذا الاعتراف بشكـل نظامي حيث عجـب الناس كثيراً من ذاكـرته العظيمة، وقد تاب من جميع ذنوبـه ونال المسامحة، وقد تاب من كثير من الأشياء التي لايعدهـا الناس ذنوباً، وقد سدد جميع ديـونه لأنه امتلك في ذلك اليوم مداخيـل كبيرة، وذلك بالاضافة إلى إقطاعـاته، وأعطى الجميع في سبيل الرب، وفي سبيل خـلاص روحه، وأعطى ذلك بيديـه مع ذكرى طيبـة، ولقـد منح الكثير من الإقطـاعيـات إلى أولاده، وأمـر بأن يكـونـوا تابعين لأخيهم الأكبر، ومتملكين للاقطاعيات منه .

١٥٩ : وبعـد هذا جعل مـن نفسه راهبـاً من رهبـان الداويـة، وذلك

حسبما كان قد نذر، وقد عارض أولاده ذلك معارضة كبيرة، وشعر جميع شعب البلاد بأسف عظيم، لهذا السبب، لكن ذلك لم يجد شيئاً، لأنه دخل في رهبانية الداوية على الرغم من معارضتهم، وقد فعل ذلك بكل هدوء، وحمل نفسه وتوجه إلى عكا، ولم يبق طويلاً في هذه الرهبنة، وبموته ختم حياته بشكل يجعل الانسان يندهش ويصعب عليه أن يصدق حقيقة ما شهده وتلمسه، وعندما كان يحتضر ويسلم الروح طلب إحضار صليب ووضعه أمامه وحمل فيليب دي نوفار الصليب، وأمسكه بيديه واضعاً إياه أمامه، وقد قبل قدمي ربنا يسوع المسيح، وقال بقدر ما استطاع:« في عهدتك، وأمرك، أضع روحي»، وهكذا أسلم الروح إلى الرب، ولم يتغير جسده لدى موته، وإذا كان الإنسان يؤمن بأن الأرواح الطيبة تذهب أمام الرب، يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، بأن روحه قد مضت من هناك إلى الفردوس، وبقي الآن ابنه السير بالين الذي تحكم بذاته وبتصرفاته وكان نشيطاً، صاحب بيروت في مكانه، ولقد توفر لديه أخوان طيبون، وأولاد عم وأولاد خال، وأصدقاء جيدون ساعدوه مساعدة مفيدة .

١٦٠(٢٢١): وكان اللومبارد وقتذاك في صور، وقد عاشوا هناك لبعض الوقت بهدوء وسلام، ونجح رتشارد فيلنغرمارشال الامبراطور وقتها،وضمن، واجتذب إلى حزبه رهبان مشفى القديس يوحنا، كماكسب اثنين من أهم برجاسية عكا، وكان لهما سلطات واسعة ونفوذ قوي على شعب المدينة، وكان اسم أولهما جون فالين Vaalin، واسم الآخر وليم دي كونشي Conches، وحدث في ذلك الوقت في عكا أنه لم يكن هناك فيها أحد من حزب الإيبلينيين، فيما عدا واحد فقط كان اسمه السير فيليب دي مونتفورت(٢٤٩)، وكان قد قدم عبر البحر عندما جاء ملك نافار إلى عكا، وقد تزوج من سيدة نبيلة من البلاد، عرفت باسم سيدة تورون (٢٥٠) (تبنين)، ولزواجه منها دعي باسم صاحب

تورون، وكـان عن طـريق أمه ابـن خال لـواحد ألماني اسمـه السير بالين الأصغر، صاحب بيروت، وابن خال أيضاً لأخوانه(٢٥١) .

١٦١ : وكان السير بـالين دي إيبلين صاحب بيروت قد عـاد في ذلك الحين من جيش ملك نافـار، بعدما أمضى فيه وقتاً طويـلاً، وبعدما صنع لنفسه اسماً عظيماً، وقـد أقام إقامـة مؤقتة في بيروت، وكـان أخواه : السير غي والسير بلدوين ـ اللـذان حققا فيما بعد مكانة هامـة جداً ـ آنذاك في قبرص، وكان أخوهما السير هيوج، وكذلك صـاحب قيسارية الأصغر قد انتقـلا من هـذا العالم، وسبـب انتقالهما هـذا حزنـاً وخسـارة كبيرة لجميع أصـدقائهما وإلى المملكتين، وكـان أخـوهما السير جـون صاحـب فوغيـا آنـذاك في أرسـوف(٢٥٢)، ويـودس دي مونتبليـارد القسطـلان، وهـو الذي تزوج مـن ابنة خالهما(٢٥٣)، وهو الذي تسلـم منصب الوكيل في عكا(٢٥٤)، لقـد كان آنـذاك في قيساريـة هو والـداوية في الجيـش مع قسم من فرسـان المملكة، ولهذا كله كان بإمكان رتشـارد فيلنغر هذا، أن يقوم بمغامرته وهو كبير الاطمئنان .

١٦٢ (٢٢٢): وهكـذا كان أن حـدث مـايلي:بعـدما تجسـس وكيل صـور السير رتشـــارد فيلنغـر، واكتشـف الكثير، ورتـب الأمـــور مـع البرجاسيين،المشار إليهم أعلاه، انطلـق وجاء بشكل سري إلى عكا، وكان ذلك خلال الليـل، وقد دخل إليها من بـاب خلفي مموه كان مـوجوداً في السور، وقاده هذا الباب إلى حـديقة المشفى، ومن هناك مضى مباشرة إلى مقر فرسـان مشفى القديس يوحنـا، وتمّ استقباله هنـاك، ومكث لمدة يوم وليلة، ومـا يزال البـاب الخلفي يـدعى«باب مـدخل الشيطـان»، وذهب البرجاسيـان المتقدم ذكرهما إلى مقر فـرسان الاسبتارية، وتشـاوروا معه، ثم مضيـا بعد ذلك يتجـولان في شـوارع المدينة يبحثـان عمن سـوف يقسم لهما، وقد جعلا كل الـذين أبدوا الرغبة في تصديقهما يقسمـون أن يكونوا قيد أمر الوكيل الذي جاء من صور.

١٦٣ : وكشفت أخبار أفعالهما من قبل واحد من الذين أقسموا لهما، وبذلك عرف فيليب دي مونتفورت بأخبارهما، وكان هناك هياج عظيم في المدينة، وقد انطلق حاملاً سلاحه ومعه أكبر عدد من الرجال استطاع تجنيدهم، وقام الجنويون والبنادقة الذين لم يحبوا الامبراطور أو أتباعه، فتسلحوا على الفور، وخلال ساعة من الزمان حصنوا شارعهم، ونشط السير فيليب دي مونتفورت فاستطاع إلقاء القبض على البرجاسيين، ووضعهما بالأغلال، وبعث على الفور بخبر هذه الأوضاع إلى صاحب بيروت، وجاء صاحب بيروت مسرعاً، وجلب معه جميع قواته وعدداً كبيراً من سيرجندية الجبال، ولقد قدم مسرعاً جداً ومرّ أمام أبواب صور، وعلم رتشارد فيلنغر الوكيل ـ الذي كان متخفياً في عكا في داخل مقر الاسبتارية ـ بقدوم صاحب بيروت، وباعتقال صديقيه، فهرب على الفور أثناء الليل من خلال الباب الخلفي المموه، وعاد إلى صور، وقام بجهد قليل للتصدي لصاحب بيروت، وقد أخفق في ذلك .

١٦٤ : وعندما دخل صاحب بيروت عكا، غدت المدينة على الفور خاضعة لسلطانه، وقد فهم بأن الاسبتارية كانوا طرفاً في هذه العملية، فحاصر المشفى من جميع الجهات وضغط عليها عن قرب عظيم، وألحق بها أضراراً فادحة، وقد تمكن من أن يفعل ذلك بسهولة لأن المقدم الأخ بيتردي فيلابرايد(٢٥٥) Villebride،وهيئة قيادة الاسبتارية كانوا آنذاك في المرقب بسبب الحرب التي كانت ناشبة آنذاك مع سلطان حلب(٢٥٦) من أجل السيطرة على تخوم المرقب ومدينة جبلة، وعلم آنذاك صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر الوكيل، قد هرب من مقر الاسبتارية وذهب إلى صور، وعاد القسطلان ورجال بلاده الذين كانوا في قيسارية من الجيش وصاروا تحت إمرة صاحب بيروت، وهكذا مكثوا مدة طويلة في عكا .

١٦٥ (٢٢٣): وحاصر صاحب بيروت بيت فرسان القديس يوحنا

في عكـا لقـرابـة ستـة أشهر(٢٥٧)، وهكـذا مـا مـن إنسـان سمح لـه بـالدخـول إلى البيت والخروج منه مـن دون أن يكون قـادراً على أن يفعل أي شيء أكثر، لأنـه وجد أيضاً في البيت عـدد كبير من الرجـال الجيدين الذيـن كانوا يـدافعون عن أنفسهم فيـه، وكان في البيت عـدد ضئيل من الاسبتارية لأن المقدم وهيئة القيادة كانـوا بعيدين مسافرين، حسبما ذكرناه أعلاه، وبنـاء عليه قرر المقدم وهيئـة قيادة الاسبتارية واتفقـوا على إيقاف حملتهم ومن ثم العـودة إلى عكا، وفعلوا ذلك وعسكروا خـارج المدينة في الكروم الجديدة.

١٦٦ : وتدخل الأصـدقاء المشتركون وتوصلـوا إلى عقد صلح فيما بين الاسبتـاريـة وصـاحـب بيروت، ومـن ثـم جـرى التخلي عـن حصـار الاسبتـاريـة، حيث أعلن صـاحـب بيروت عن نفسـه مخطئاً جـداً بحق الاسبتـارية بسبب قيـامه بهذا العمـل وترجـى من أجل المسـامحة، وأعلن أمام الناس، بأن بعـض الناس الذين لايحبون الاسبتاريـة جعلوه يفعل ما فعله بإعطائه صورة وبجعله يعتقـد بأن الأشياء التي رغب رتشارد فيلنغر القيـام بها في مدينـة عكـا مع جميـع الاضطرابـات التـي تمت، قد جـرى ترتيبها من خلال بيت الاسبتارية، وبفضـل مساعدته وتأييده، حيث كان رتشارد فيلنغـر باقياً في داخل بيـت الاسبتارية، ولهذا السبب حـاصر هذا البيت، وبناء عليه إنه يمتلك الامكانات العظمى للأسف .

١٦٧ : ثـم قـال مقـدم الاسبتـاريـة لصـاحـب بيروت :« عليـك يـا صاحـب بيروت أن لاتصدق أن يقوم بيت الاسبتـارية بمثل هـذا العمل الخطير الكبير أو أن يكون شريكـاً، عندمـا تكون هيئـة قيادتنا بعيـدة عن عكا، وعلى مسافة عظيمة، وحسبما كنـا مشغولين خارج المرقب، ولقد كنا قد تركنـا عدداً قليلاً من الرهبان في البيت في عكـا، وذلك كما يعرف كل واحد، لابل حتى في هـذه الحالة من المؤكد أن أخـواننا الذين كانـوا آنئذ في البيت لايمكـن أن يشـاركـوا بأيـة صـورة بمثـل هـذه الأشيـاء، ولهذا

السبب ينبغي عدم اتهام بيت الاسبتارية بأية تهمة قذرة، أو أن يوصموا بمثل هذا العار الكبير حتى يحاصروا لمثل هذا السبب، وعلى كل حال، بما أن المسائل قد سويت بها حقق الرضا لكل من الطرفين، فإن هذه الأشياء التي مضت يتوجب نسيانها كلياً».

كيف غادر رتشارد فيلنغر صور ليذهب عبر البحر

١٦٨ (٢٢٤) : وحدث في هذه الآونة أو قبل ذلك بوقت قليل أن أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى السير رتشارد فيلنغر، الذي كان وكيله في صور، بوجوب حضوره إلى عنده، ذلك أنه يرغب في أن يرسل إلى سورية واحداً يحل محله، وغادر السير رتشارد المتقدم الذكر وسافر من صور، وكان معه أخوه السير هنري، وابن أخته جون أوف سورنتو Sorrento، وزوجاتهم وأولادهم وحواشيهم وآل بيوتهم (٢٥٨)، وقد صعدوا جميعاً ظهر سفينة كبيرة، وسافروا عليها، وعندماغادر رتشارد فيلنغر ترك أخاه لوثير في مكانه، ومعه ما يكفي من الرجال والسلاح، فهو كان سيتولى حكم مدينة صور، لأنه كان مارشال مملكة القدس من جهة الامبراطور(٢٥٩)، وكان سكان صور يكرهون اللومبارد كراهية عظيمة، ولهذا جاء أربعة منهم(٢٦٠) إلى صاحب بيروت وعرضوا عليه تسليم مدينة صور إليه، وأعدوا معه الترتيبات، وقد عقد مجلساً استشارياً هناك حول الموضوع مع السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، ومع فيليب دي نوفار الذي كان وثيق الصلة به وقريباً جداً منه، وقرر الاجتماع مايلي : أن يتوصل إلى اتفاقية مع هؤلاء الرجال، ثم تلقّى اليمين من هؤلاء البرجاسية الأربعة من أهل صور .

١٦٩ (٢٢٥): وفكر فيليب دي نوفار ملياً في هذه المسألة خلال الليل، ثم إنه ذهب إلى مولاه، صاحب بيروت وقال له:«لقد فكرت يامولاي حول شيء يحميك من الملامة، فأنت تعرف أنك أنت مع الآخرين من أهل مملكة القدس قد أديت يمين الولاء للامبراطور على

أساس أنه الوكيل عن ابنه الملك كونراد، ولقد حافظت بأمانة وصدق على يمينك دوماً بينما حافظ هو بشكل سيء على يمينه كما هو واضح(٢٦١)، وأعلمك أن الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية(٢٦٢)، ولهذا السبب قد تحررت أنت من الامبراطور، ولسوف يكون من المفيد جداً أن يعرف هذا الوضع كل إنسان قبل أن تستولي على صور أو قبل أن تأخذ منه الوكالة، فوقتها يظل الناس ينادون بمنع الامبراطور وبحرمانه من صور كوكيل، ولسوف تكون قادراً أن تمتلك سبيلاً جيداً ومشرّفاً إذا ما رغبت بمثل ذلك» .

١٧٠ :« لأن العادة في مملكة القدس إن أكثر الناس شرعية في وراثة السلطة، هو الأكثر ظهوراً، ويتسلم هذا الميراث السلطوي بحق حتى يأتي واحد أكثر شرعية منه بوراثة السلطة، ولديك في هذه المدينة السيدة الملكة أليس، أم الملك هنري، التي هي ابنة أختك الألمانية، وهي أكثر الناس شرعية ظهوراً في مملكة القدس بوراثة السلطة، لأنها ابنة الملكة إيزابل، التي هي نفسها الوريث الشرعي للمملكة بحكم كونها ابنة الملك عموري، وصحيح أن الملك كونراد منحدر من الأخت الأكبر، وأنه لوكان حاضراً لاستحق الميراث، لكن حتى يقدم هي الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً(٢٦٣)» .

١٧١ : « ولهذا السبب أشير عليك أن تقوم بجمع رجال مملكة القدس، وأن تمثل الملكة أليس أمامهم، وأن تطالب بمملكة القدس بموجب الحق المبين أعلاه، وحسبما بينت كيف يمكن التخلص من الامبراطور والانفصال عنه، وبهذا تعد الترتيبات لوصول الملكة إلى سلطانها، وعندما تطالب بصور، إذا لم تُسلم إليها،أو لم تخضع لأوامرها، أو تدخل في خدمتها، سوف تقوم ـ إن شاء الرب ـ بموجب الاتفاق الذي عقدته مع أهل المدينة، بالاستيلاء على مدينة صور بحق شرعي كامل وبشرف ومجد لذاتك، ولسوف تطرد اللومبارد من سورية» .

١٧٢ : وعندما سمع صاحب بيروت هذا العرض المنطقي، كان مسروراً جداً به، ووافق تماماً عليه، وبعث على الفور وراء مولاي فيليب دي مونتفورت صاحب تورون، وتولى فيليب دي نوفار ـ بناء على أوامر مولاه صاحب بيروت ـ فأعاد على مسامع صاحب تورون حكاية جميع ما قاله من قبل، ووافق(صاحب تورون) على الفور، وأشار بالقيام بهذه المحاولة، وكان واثقاً بها، وقد توفرت لديه أسباب جيدة لذلك، وكانت كافية بالنسبة له، لأنه كان عاقلاً جداً، وصاحب رأي صائب، وقد أخبرا على الفور فيليب دي نوفار بوجوب ذهابه إلى الملكة أليس وإلى السير رالف دي سوا سون Soissons، الذي كان بارونا فرنسياً، وكان زوجها (٢٦٤).

١٧٣ : وأخبرها فيليب دي نوفار بما رغب به الشخصيتان المذكورين أعلاه، واللذان كانا معاً أبناء خال ألمان للملكة أليس، ولقد ابتهجا لهذا الترتيب كثيراً، وقالالفيليب دي نوفار بأنهما يرغبان في أن يكون هو السكين، وهما اللحم، حتى يستطيع أن يقسّم ويوزع كيفما يشاء، وبحث فيليب في المسألة، وذهب وعاد حتى تمّ إعداد كل شيء وترتيبه، وكانت عقود الاتفاقات المبرمة كثيرة، وكان بين الأشياء التي جرى الاتفاق عليها وأدوا الأيمان حولها، أن يقوم صاحب بيروت وكذلك صاحب تورون بالسيطرة على جميع قلاع المملكة وتجهيزها وشغلها، حتى يأتي الملك كونراد إلى هناك، وكانا قادرين على القيام بهذا، وهو ما ينبغي القيام به، وقام فيليب دي نوفار بالتعاون مع برجاسي اسمه فيليب دي بوديون Bauduyn، الذي كان عاقلاً، ووثيق الصلة مع صاحب تورون، ولقد قاما فيما بينهما برسم خطوط الاتفاقيات ومن ثم كتابتها بشكل سري جداً، حتى أن ما من كلمة واحدة قد عرفت في أرجاء البلاد .

١٧٤ (٢٢٦): وتدبر صاحب بيروت وصاحب تورون عقد اجتماع لجميع إقطاعيي عكا وأعيانها، في بيت بطريرك القدس(٢٦٥)، وكان

الجنـويون والبنـادقة والبيـازنة هنـاك(٢٦٦)، وجميع الـرهبانيـات الدينيـة العـائدة للمـدينـة أيضـاً،وقـدمت الملكـة أليـس زوجهـا مع رالـف دي سـواسـون إلى الاجتماع، وتولى فيلـب دي نـوفـار الذي كـان مستشـارهما دعواهما، وطرح بكل وضوح جميع الأسبـاب والإدعاءات التي سمعتها من قبل، وخـلاصتها : إن الملكة أليس الـوريث الشرعي الأكثر ظهـوراً،وهي التي تستحـق تسلم سلطـان مملكـة القدس، وبنـاء عليـه إنها قـدطلبت ومعها زوجهـا، أن يقدم الحضور الـولاء والخدمات المتعلقة بـالمملكة، ثم إنهما عـرضـا الحفـاظ على الاستخدامـات الجيـدة وعلى العـادات الطيبـة للمملكة .

١٧٥ : واعتزل الذين كـانوا من أهل المملكة جانبـاً، واستدعوا فيليب دي نوفار للتشـاور معهم، وسألوه الرأي والاجتهـاد الممكن اعتماده للقيام برد، وقـد أوضح لهم جميع الأسبـاب التي تقدم وسمعتهـا، وبين كيف أن الملكـة أليس هـي أكثـر الـورثـة الشرعيين ظهـوراً للسلطـة، وكيف أنهم انفصلوا عن الامبراطـور فردريك وتحرروا من التبعية إليه، لأن ابنـه كونراد قـد وصل إلى السـن القـانـونيـة، ونصحهم بشكـل جيـد وأشـار عليهم بوجوب وضـع الملكة أليس في موقع المتسلم لسلطـة مملكة القدس، لأنها أوضح الورثـة الشرعيين حقاً بالمملكة، وأنـه يتوجب عليهم تقـديم الولاء والخدمات إليهـا، بشرط أنه ما أن يقـدم الملك كونراد إلى مملكـة القدس، حتى يبـادروا إلى التخلي عن الارتباط بـالملكة أليـس، ووقتها يحولـون إليه وينقلون كل ماهم مدانون به إليه ومتوجب عليهم نحوه.

١٧٦ : ووافق الحضور جميعاً على رأي فيليب دي نـوفار، والتمسوا منه أن يقوم شخصيـاً بتقديم جوابهم إلى الملكـة أليس، وقد تـولى تنفيذ ذلك على الفور وبكل رغبـة وطواعية، وقـد قيل له بمثـابة إيماءة بأنه طـالما هو نفسه عرض المطـالب والادعاءات، وقدم أيضـاً الجواب، عليه أن يعطي القرار، وإثـر هذا جُعلت الملكة أليـس متحكمة بمملكة القـدس، وكان

أول من قـدم لها الـولاء صـاحب بيروت، وتـلاه صـاحـب تـورون، ومن بعدهما جميع الفـرسان الآخرين العـائدين لعكا، وقد حدث هـذا في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣) .

١٧٧ : وبفضل ما حدث نال فيليب دي نوفار التشريف والثروة، لأن الملكة أليـس أعطته مائة دينـار إسلامي بمثـابة إقطـاع، وأمرت بتسـديد جميع ديونه التي بلغت ألف مـارك فضي، وصار فيليب الوكيل والمعلم في كل شيء(٢٦٧)، وتمكـن بنجاح أن يجمع الإيجارات حتـى أنه استطـاع في ثلاثة أيام أن يدفع إلى المرتزقـة وللغلايين التي كانت ذاهبة إلى حصار صـور، لأن الملكـة أليس كـانـت قد طـالبـت بصـور، ورفض اللـومبـارد استسـلامها، وحشـد السير رالف سواسـون، زوج الملكـة أليس المتقدمـة الـذكـر هـو ومولاي صـاحـب بيروت وصاحـب تـورون عـدداً كبيراً من المرتزقـة والغلايين المسلحة، وجلـب فيليب دي نوفـار سفينة كبيرة لهؤلاء السادة، وكانت مشحونة بشكل جيد بعدد من الرجال المسلحين، وذهب الجنويون والبنادقة إلى هناك، وتوفر هناك عدد كبير من الرجال.

١٧٨ : وانطلق الجيـش في أثنـاء الليل وزحـف بـراً وبحـراً، وحـاصر صور، ورتب صـاحـب بيروت الأمور بأن تحدث مع بعض الذيـن كان قد اتفق معهم على تسليم المدينـة، حسبما ذكرنا من قبل، وهـؤلاء لم يتمكنوا من المتابعة وفق الطريقـة التي تمّ الاتفاق عليها لتسليم المدينة، غير أنهم أخبروه بـوجـود بـاب خلفي قـرب شـارع الجزاريـن، على الجانب بـاتجاه البحـر، وأنـه إذا مـا أراد المرور مـع جيشـه على طـرف الشـاطـىء، وأن تتمكن غلايينـه من الاقتراب من سلسلة الميناء، فوقتهـا سيفتحون الباب الخلفي، ويفكون سلسلـة الميناء، وهكذا يمكنه الـدخول بأمان، وعنـدها سيقـوم الذيـن في داخل صـور من حـزبـه بحمل أسلحتهم والثـورة على رجـال الامبراطـور، وعنــدمـا سمـع صـاحب بيروت بهذه الخطــة وعـد بتنفيذها، غير أنه أصر على أن يقوم الذيـن بالداخل بالتخلي عنه، وأخبره

البرجاسية بردهم أنهم سوف ينفذون الخطة بدون إحباط .

١٧٩ : وعبأ صاحب بيروت جيشه وصفه على اليابسة وفي البحر، ورتب إشارات بينه شخصياً وبين الذين كانوا على اليابسة، وردد البرجاسية الذين تحدثوا مع صاحب بيروت كل ما حدث على مسامع البرجاسية الآخرين، الذين كانوا متفقين معه، وعندما رأوا أن الفرصة قد تهيأت أعطوا الإشارات، وعندما رؤيت هذه الاشارات أعطى صاحب بيروت نداء إلى السلاح، وأصدر إلى الذين كانوا على ظهور الغلايين الأوامر بالاقلاع، وبدخول الميناء مهما كان الثمن، حتى وإن كلفهم التنفيذ فقدان حياتهم، ثم إنه ركب وزحف هو ورجاله(٢٦٨) إلى المكان الذي كان رفاقه ينتظرونه فيه قرب الباب الخلفي بجوار شارع الجزارين، وكان البحر عالياً، ووقعت الخيول على الصخور، وكان عدد كبير من الناس، لهذا عرضة لخطر الموت، وسقط الذي حمل العلم في البحر، وكان فارساً شاباً، وابناً لفيليب دي نوفار اسمه بالين، ونال اسمه هذا من صاحب بيروت الذي كان عرابه، وقد وصل إلى الأسفل وتمكن من استرداد العلم ومن ثم رفعه خفاقاً في البحر، وحمله بعد هذا حتى الاستيلاء على المدينة .

١٨٠ : ودخل صاحب بيروت ورجاله إلى المدينة عبر الباب الخلفي بكل ثبات،وكادوا أن يتعرضوا للقتل من قبل الذين كانوا في الأبراج مع المذافعين عن المدينة، ودخل الذين كانوا في الغلايين أيضاً بكل شجاعة، وعندما رآهم الرجال الآخرون من الجيش، ممن لم يكن يعرف ماهذا، بادروا بالركض في جميع أجزاء المدينة، وصعد السير رالف دي سواسون على الأسوار بكل شجاعة وإقدام(٢٦٩)، ولحق صاحب تورون بصاحب بيروت من خلال الباب الخلفي، وعندما رآهم أهل المدينة وقد دخلوا بمثل هذه الأعداد، انقضوا على اللومبارد وعندما سمع لوثير فيلنغر، واستوعب ما كان يحدث وينجز، سلح نفسه، وغادر البيت

حيث كان، ومضى يركض إلى القلعة، وركض الذين كانوا بالمدينة من الأبوليين، متسابقين بين بعضهم بعضاً إلى القلعة، وقُتل عدد كبير ممن كانوا هناك واعتقلوا، وقد فقدوا كل ما امتلكوه في المدينة .

١٨١ : وهكذا جرى الاستيلاء على مدينة صور، التي كانت من أحصن المدن في العالم، وانطلق الذين استولوا على المدينة، وشغلوا أنفسهم بحصار القلعة، وشددوا عليها الحصار، وضيقوا عليها الخناق، لأنه توفر عدد كبير من الرجال أثناء الحصار، وكذلك أعداد كبيرة جداً من الجنود الرجالة(٢٧٠)، وتم صنع عدد من الآلات وأبراج الحجارة، التي تولت قصف القلعة، وأرهقت الذين كانوا في الداخل إلى الحدود القصوى، وتولى السير لوثير فيلنغر الدفاع عن القلعةبنشاط عظيم، ذلك أنه كان فارساً نشيطاً، وقائداً للذين كانوا في الداخل، وكان هؤلاء مجموعة جيدة من المقاتلين قادرين على الدفاع عن القلعة، لذلك لم ينل الذين كانوا في الخارج منهم شيئاً .

١٨٢ (٢٢٨): وبينما كان الذين خارج القلعة يتولون حصار القلعة، حدث حادث عظيم لهم حسبما ستسمع عنه، وبه أنجزوا مقاصدهم فيما يتعلق بالقلعة المذكورة، فقد منحهم الرب نعمة لاتقدر، وكنا قد تحدثنا من قبل عن رتشارد فيلنغر الذي غادر صور، هو وأتباعه على ظهر سفينة كبيرة، توجهت تريد أبوليا، وقد ساقته الأحوال الجوية إلى سواحل بربارى، وجنحت سفينته، وتعرضوا جميعاً إلى خطر الموت غرقاً(٢٧١)، وكان هو ومن معه قد حشروا أنفسهم في القارب المرافق للسفينة مع الكثير من مقتنياتهم التي كانوا يحملونها، وكان قبل هذا قد أخذ سفينة من المسلمين، مما يدعوه المسلمون قراقي Karaque(٢٧٢)، ووضع فيها واحداً من أصدقائه الجيدين، واسمه بيتردي غريل Grail الذي كان برفقته وكان رجلاً عظيماً ورائعاً في الحرب، وقد ساعده كثيراً في النزول من السفينة إلى القارب، ومن ثم في القراقي، والقيام بجمع شمله

وشمل حاجياته.

١٨٣ : ولم يتجرأوا على ركوب البحرالمفتوح، لأن مركبهم كان صغيراً، مع أنه كان من السهل عليهم الذهاب إلى صقلية، لكن الأحوال الجوية كانت معاكسة لهم كثيراً، لذلك عادوا يسايرون سواحل سورية، فهذا ما أراده الرب، وقضت إرادة ربنا بقيام الأحوال الجوية بدفعهم من شواطىء برباري حتى ميناء صور، ولم يكونوا قد علموا بالأخبار، وقد وصلوا خلال الليل، وهم مثل الذين خيل إليهم أنهم وصلوا بأنفسهم بسلام إلى بيوتهم، حيث أنهم لم يعلموا شيئاً عما حدث في مدينة صور، لأنهم لو علموا بشيء من هذا القبيل لذهبوا إلى طرابلس أو إلى أرمينيا، وقد وصلوا وأنزلوا أشرعتهم مباشرة إلى جانب السفينة الكبيرة التي اشتراها فيليب دي نوفار وجهزها لحمل السادة عندما جاءوا إلى الحصار، وقد سألوا إلى من تعود السفينة، ومن هذا عرفهم الذين كانوا على السفينة وألقوا القبض عليهم واستولوا على بضائعهم، وحملوهم إلى السفينة.

١٨٤ : ووصلت الأخبار إلى صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر قد وصل إلى الميناء، وتولى هو إخبار صاحب تورون، وذهب هذان الاثنان إلى رالف دي سواسون، وقامت ضجة كبيرة في جميع أرجاء المدينة، وركض جميع الناس إلى الميناء، وأقلع كثيرون في بوارج ومراكب أخرى واتجهوا نحو« القراقي» المذكورة، وتوقف السير رالف دي سواسون وصاحب بيروت عند السلسلة وبعثا صاحب تورون وفيليب دي نوفار إلى السفينة، وقام هذان باعتقال رتشارد فيلنغر وجماعته كلها وكل ما كان معه من بضائع وثروات أخرى، وذلك بدون أية مقاومة جاءت من قبله أو من قبل أي واحد من رجاله، لأنهم لم يكن لديهم قوة، وحملوهم إلى اليابسة، حيث بعثوهم إلى مسكن السير رالف دي سواسون، وضربهم الأطفال والنساء بالحجارة حتى كادوا أن يقتلوهم هم والذين تولوا

قيادتهم .

١٨٥ : وطلب صاحب بيروت تمكينه منهم ليضعهم في السجن،بحكم أنهم أعداءه الألداء الذين دمروا قلعته في بيروت، وسببوا له أذى عظيماً، ولم يرغب السير رالف دي سواسون بتسليمهم له، وقال فيليب دي نوفار: «باسم الرب يامولاي، امنحهم له،لأن فيلنغر سوف يخاف خوفاً عظيماً منه، فيقوم الآن بتسليمك القلعة» وبناء على ذلك أعطاهم له، وبعثهم إليه، وصنع صاحب بيروت سلاسل من الحديد مثل التي كان الامبراطور قد صنعها له عندما اتخذه سجيناً عنده ورهينة في ليماسول، وكان فيلنغر مرعوباً منه كثيراً ومن جماعته، ثم جاء السير جون دي إيبلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، للمشاركة بحصار قلعة صور، واجتمع القادة للتشاور، ثم أخبروا السير رتشارد فيلنغر وجماعته بأنه يتوجب عليهم ترتيب استسلام القلعة، وإلاّ فإنهم سوف يشنقونه من رقبته أمام الذين كانوا في القلعة .

١٨٦ : وبعث السير رتشارد فيلنغر إلى أخيه السير لوثير الذي كان قائد القلعة، وأخبره بأوضاعه، وما من أحد يعرف فعلاً بالذي أخبره إياه وبالجواب الذي حمله الرسول، لكن الذي عرف تماماً أنه ردّ على الذين كانوا بالخارج أن بإمكانهم أن يفعلوا بأخيه ما يشاءون وكذلك بابن أخيه، ذلك أنه لن يسلم القلعة، مطلقاً، ثم نصبت أعمدة ذات شعب خماسية، ووضعت فوق برج مرتفع كان قريباً من مواجهة القلعة، وجرى اقتياد السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخيه إلى هناك، وكانوا قد غطوا أعينهم بأربطة، ووضعوا حلقات حول رقابهم، وجرى تعليقهم إلى الأعمدة بوساطة حبال ربطت حول أقدامهم، والذي كان يحتاجه الإنسان هو أن يشد نهاية الحبال، ووقتها سوف تنشد الإنشوصات، وتنغلق وساعتها سيبقى كل واحد معلق من رقبته .

١٨٧ : ورآهم السير لوثير في هذه المحنة، فحزن كثيراً وأشفق عليهم،

وصرخ عـاليـاً(٢٧٣)، وأرسـل فيليـب دي نـوفـار إلى هنـاك، وجـرى الإعـداد إلى استسـلام تـم بـوسـاطتـه، على أسـاس تسليمهـم للقلعـة، واستلام فيليب دي نـوفار لها، وقد أقسم لهم، وجعلهم يقسمـون بأن يتم تحرير السير رتشـارد فيلنغر وإطـلاق سراحه مع جميـع أصحابـه، وأن ترد إليـه كـل الأشيـاء التي أخـذت منـه، وأن يجري استـلام الأسرى سـالمين جميعـاً، ولسـوف يتـم إعطـاء الذيـن في القلعـة الأمـان وأن يمكنـوا مـن الذهاب حيث شاءوا مع مقتنيـاتهم، وأن يصاحبهم رجل من الإيبلينيين، ويقـودهم حتـى مأمنهـم أينما كان هـذا المأمن حسـب رغبتهم، وجـرى الاتفاق في هذا العهـد على أن يُدفع إلى المرتزقة كل مـا يعود إليهم، وأن يعوضـوا عن جميع الخسـائر التي تعرضـوا إليها في المدينـة، عندما هـربوا بشكل غير متوقع إلى القلعة .

١٨٨ : وقـد مكث فيليـب دي نـوفار وقتـاً طـويـلاً في القلعة للقيـام بإعـداد الاتفاقيـات حتى أن الـذين كـانوا في الخارج اعتقـدوا أن الذيـن كانوا في الداخل قد قتلوه، ولذلـك تمنع السير بالين بصعوبة بالغة وضبط نفسه عـن قتل السير رتشارد فيلنغر وجماعتـه كلها، وأمر صـاحب بيروت بالين ابن فيليـب دي نوفار وقال لـه:«إذا وجدت والدك قد قتـل، اقتلهم جميعاً بيدك» .

١٨٩ : وعندمـا أكمل فيليب دي نوفـار هذه الاتفاقيات، وعقـد هذه العهود مع الذين كانوا في القلعة، خرج من القلعة، وروى أخبار جميع ما صنعه، وتمت الموافقـة على ذلك كله، وجرى تنفيـذه بسرور عظيم، وإرادة طيبة، ورغبة كبيرة، وزيد على ذلك عطـاءات كثيرة لم يكن فيليب قد أتى على ذكرهـا في الميثـاق، وخـرج الجميع في الصبـاح التـالي مـن القلعـة، وأعطى فيليب دي نـوفار القلعة إلى صاحب بيروت وإلى صـاحب تورون الذي كـان عليه القيام بحـراسة الحصـن، وذلك وفقاً لما جـاء في المواثيق التي عقدت في عكا بين الملكة أليس وبينهما، وقاد السير جون دي إيبلين

اللومبارد الذين كانوا هناك إلى المكان الذي رغبوا بالذهاب إليه، وهكذا اجتث عش شر اللومبارد وأطيح به ورمي جانباً، وهكذا لم يعودوا يمتلكون أية قوة في سورية أو في قبرص، وعلى هذه الصورة جرى الاستيلاء على مدينة صور وعلى القلعة في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣)(٢٧٤) .

(وعاش ملك قبرص والبيت الإيبليني بعد هذا مدة طويلة بمجد عظيم، وحكموا مملكتي قبرص والقدس، واحتفظوا بهما بأحوال جيدة، مرفوقة بشكر جميع الناس، ذلك أنهم عرفوا كيف يحافظوا على حقوق كل واحد بوساطة إخلاصهم، وحسن أخلاقهم وكرمهم نحو الجميع، لكن بما أن الحكاية طويلة جداً لأن يحاول الانسان أن يحكي كل الذي فعلوه في حياتهم، سوف أسكت مؤكداً لكم أنه لايوجد في العالم المسيحي بيتاً أكثر شجاعة من البيت الإيبليني)(٢٧٥) .

الملاحق

الملحق الأول

فقرات من الجزء الأول من كتاب« تاريخ أعمال الحرب»، اعتقد كوهلر أنه مقتبس من الترجمة الذاتية لفيليب دي نوفار، وقد تولى نشره تحت عنوان:« قطعة من ترجمة ذاتية»

١ (٨٢) : حدث أن كان في سنة ١٢٢٣ لتجسيد مولانا يسوع المسيح في مملكة القدس فتاة اسمها إيزابل، ابنة الملك جون دي بريين، وقد كانت الوريث الشرعي لمملكة القدس وسيدة لها من خلال أمها الملكة ماريا التي كانت حفيدة الملك عموري، ملك القدس .

٢ (٨٣): وكان لهذه الفتاة النبيلة التي أرغب بالحديث عنها، والتي كانت الوارث الشرعي لمملكة القدس، أخت تزوجت من ملك قبرص، الذي كان اسمه هيوج، وكانت تعرف باسم الملكة أليس .

٣ (٨٤): ووجد في هذه الآونة على هذا الطرف من البحر رجل نبيل كان اسمه جون دي إيبلين، وقد كان صاحباً لبيروت، وكانت لديه في مملكة قبرص موارد عظيمة جداً أتت من قلاعه ومن ممتلكاته الأخرى، وكان صاحب بيروت هذا شجاعاً، وقاسياً جداً، ونشيطاً، وعبقرياً، وأديباً، وصاحب أخلاق حميدة تجاه جميع الناس، ولهذه الأسباب كان محبوباً جداً، ومشهوراً في كل مكان، وكان فوق كل شيء حكيماً، وواسع المعرفة، ورجلاً عالي التقدير، ومخلصاً تجاه الرب .

٤ (٨٥): وكان لصاحب بيروت أخاً اسمه فيليب دي إيبلين، الذي امتلك أيضاً موارد كثيرة وإقطاعات، وكان مثله شجاعاً، ونشيطاً، وكان هذان السيدان خالان للفتاة المتقدمة الذكر، أي ملكة القدس، ولأختها الملكة أليس ملكة قبرص .

٥ (٨٦) : ولقد حدث في هذه السنة(١٢٢٠) أنه جرى تنصيب فردريك ــ الذي يعرف باسم يتيم أبوليا ـ امبراطوراً من قبل البابا هونوريوس، وشرع يحكم بمثابة امبراطور في هذه الآونة، متمتعاً بقوة كبيرة، وشهرة عظيمة، كما وحدث في هذا الحين(١٢٢٢) أن ذهب الملك جون دي بريين إلى البلاط في روما، أي إلى البابا، الذي كان اسمه هونوريوس، واتفق معه أن يقوم البابا المذكور بترتيب زواج الفتاة المتقدمة الذكر، أي إيزابل ملكة القدس، التي كانت ابنته، من الامبراطور فردريك المتقدم الذكر، كما تقدم وأخبرتكم .

٦ (٨٧) : وكان قبل هذا قد بعث الامبراطور رسلاً إلى الملك جون وإلى بارونات مملكة القدس، للإعداد لزواجه من الفتاة المذكورة التي كان قد سمع بأخبارها، غير أنه عندما مضى رسل الامبراطور إلى سورية، كان في الوقت نفسه، قد ذهب الملك جون إلى بلاط روما، وهكذا لم يعرف أي طرف شيئاً عن أخبار الطرف الآخر، وضمن الملك جون موافقة البابا على الزواج المذكور كما سمعتم .

٧ (٨٨) : وتمت الموافقة على الزواج، وأكمل من على الطرفين، وبناء عليه أعدّ الامبراطور مجموعة من الغلايين وسلحها، وذلك بغية الذهاب إلى سورية لجلب الفتاة المذكورة، أي ملكة القدس، وأناب الامبراطور عنه رجلاً عاقلاً وله مكانته، هو أسقف باتي، وإليه أعطى الامبراطور خاتمه، فبذلك الخاتم كان الأسقف سيقوم بتزويج الفتاة المذكورة من الامبراطور، ونالت القضية موافقة الكنيسة المقدسة، وانتدب الامبراطور عدداً من فرسانه والأعيان لديه للسفر على متن الغلايين المذكورة، لمرافقة السيدة المذكورة لدى قدومها، وبعث الامبراطور بهدايا جيدة من أجود المجوهرات إلى السيدة المذكورة، وإلى خاليها، وإلى أقربائها الآخرين، وأقلعت الغلايين وقدمت إلى مدينة عكا .

٨ : وصدف أن كان في تلك الأيام بارون بيروت النبيل وصاحبها، في

عكـا، حيث استقبـل أسقـف بـاتي وفرسـان الامبراطـور الآخـرين بكـل تشريـف وترحاب عظيم، لأنه كان مـن أعظم اللوردات أدباً، وكان معتاداً تماماً على مثـل هذه الخدمـات، ويعرف جيـداً كيف يقـوم بأدائهـا، وأمن الإقامـة لهم، مع الخدمات الجيدة ووافـر الحاجيات، وجمع كل البـارونات الذين كـانوا في عكا، وقد تلقـوا رسائل البابا، والامبراطـور والملك جون، وأعطوا الأخبـار اهتماماً جيداً، واحترامـاً عظيماً، وأبدوا سرورهـم وغبطتهم نحو أخبار الزواج المذكور .

٩ (٨٩) : وقـام صاحـب بيروت مع أخيـه الـذي قدم مـن قبرص، وأيضـاً جميع بـارونـات سوريـة وقبرص وفـرسانهما، والعـامـة والبرجاسيـة والآخرين من الناس بارتداء ثيـاب الفرح، وأعدوا الأشياء الأخرى اللائقة للاحتفال بمثل هـذا الزواج النبيل، وهذا التتويج الرفيـع جداً، وقد بعثوا بالفتاة المذكورة إلى صـور، وهناك جرى تزويجها وتتويجهـا من قبل سمعان رئيس أسـاقفة صور، واستمرت الاحتفـالات خمسة عشر يومـاً، وفي رقص وغناء ونشاطات اجتماعية، وفي تبادل ثيـاب الفرح ومنح الثياب، وأشكال أخرى كثيرة من أشكال الاحتفال .

١٠ (٩٠) : وعندمـا انتهت الاحتفالات في مـدينة صـور، وسط كثير من الأبهة كما هـو لائق ومناسـب لمثل هـذا الزواج الهام بين هـذه الملكة النبيلـة ملكة القـدس وشخصيـة عظيمة هـي شخصيـة الامبراطور، قـام صاحب بيروت الذي هو خالها وأخوه مولاي فيليب دي إيبلين والآخرون من أقربائهـا بتعيين بعض الأشخاص للإرسال مع الملكـة حتى تصل إلى الامبراطور ورتبوا أن يكـون الذين سيرافقونها هم : سمعان رئيـس أساقفة صـور، والسير بـالين صـاحـب صيـدا، وهـو ابـن خـال ألماني للملكـة المذكـورة، وذلك مـع فرسـان آخريـن وأعيان وسيـدات ووصيفات، وقـد رافقوهـا حتى أوصلـوها إلى الامبراطـور فردريـك، لكن خـالها صاحـب بيروت وبعض البارونات الآخرين اكتفوا بمرافقتها حتى قبرص فقط .

١١ (٩١): وعندمـا حل اليوم الثـامن من شهـر تموز لسنة ١٢٢٤ (١٢٢٥) حملـت الملكـة المذكـورة نفسها إلى الغـلايين العشريـن المتقـدم ذكـرها، التـي كان الامبراطـور قد أرسلهـا، ولدى مغـادرة الملكة رافقتهـا أختهـا(عمتهـا) الملكـة أليس، ملكـة قبرص والسيـدات الأخـريـات إلى الشاطـىء وهن يبكين، وكأنهن قـد شعرن أنهن لن يـرينها مرة ثـانية، كما حـدث بالفعـل ولم يرينهـا، ولدى مغـادرة السيدة المذكـورة نظرت نحـو البلاد وقـالت:«أدعك بحفـظ الرب، يا سـورية الجميلة، لأنني لن أراك مرة أخرى»، وما تنبأت به هو الذي حدث .

الملحق الثاني

فقرات من الجزء الثاني من «تاريخ أعمال الحرب» كان كوهلر قد حذفها لدى إعداده لطبعته لنص فيليب دي نوفار

(٩٩): مضى في هـذه السنة نفسهـا (١٢١٨) جيش سوريـة بوسـاطة البحر، إلى دمياط، وانتزعها مـن أيدي المسلمين، وجاء بعد هذا (١٢١٩) من رومـا إلى عكا المعلـم بيلاغوس، أسقـف ألبانـو، ونائب البـابا، وأمير الرومان.

(١٠٠):واستـولى في سنـة ١٢١٩ بوهيمـونـد صـاحب أنطـاكيـة على أنطاكية وانتزعها من ابن أخيه روبن، بوساطة مؤامرات وليم فارابل Far-abel.

(١٠١): ومات في هذه السنة نفسها ليون ملك أرمينيا (كليكية).

(١٠٢) وتوج امبرطوراً في هذه السنة (١٢٢٠) في رومـا فردريك ملك صقليـة، وكـان ذلـك في كنيسـة القـديـس بطـرس، وبـوسـاطـة البـابـا هونوريوس الثالث، وأظهر فردريك هـذا نفسه عندما كان شاباً، وقبل أن يصبح امبراطـوراً، على أنه رائع جـداً، لكنه بعـدما صـار امبراطوراً بـذل غاية جهده في سبيل ايذاء الكنيسـة المقدسة والحط من شأنها، وفي سبيل تدمير الـرجال النبلاء، وقـد رفع من شـأن الأقنان والرجـال ذوي الأصل الدنيء، واعتنى باللصوص ودافع عنهم وكـذلك عن القتلة وعن آخرين، لأن مثل هـذه الأشياء فعلهـا هو نفسه أكثـر من هؤلاء الآخـرين الـذين دافع عنهـم، وأكبر مما استطاعـوا أن يفعلوه، فقـد كان شريراً بـلا حدود، حتى أنه لم تتـوفر أية شفقة لديـه، وكان خائنا وشريراً، ولايمكـن الوثوق بأي من أيمانه أو وعوده التي قطعهـا على نفسه، وكان متمنعا دوما، لابل نشيطاً جـداً في عدم فـرض احترام الايمان الكاثـوليكي، وقـد قام دون أن يـوفر أحـداً أو يصون كـرامـة الناس أو الكنيسـة، أو الجنس، أو السـن،

بتعـذيب الأرامـل، والأطفـال، والمسنين، والضعفـاء، ورؤساء الأسـاقفـة، والأساقفة ورجال الدين بشكل هـائل، وبطريقة لم يسمع بمثلها من قبل، فقد حـرم هؤلاء من قبلـه من حياتهم ومن مقتنيـاتهم، أما النسبة لمسـألة الجنـس فإنـه قد خـالف الطبيعـة، لـذلك تفـوق في دعارتـه على نيرون، وكانت أفعـال عهره تفوق الاحصاء، وكذلـك أفعال الزنا لديـه، فقد كان سدوميـا في جميع الأحـوال، وقد سجـن ابنه هنـري، ملك ألمانيـا، وهكذا فإنـه مات بـالسجن، حسبما ستجد خبر ذلـك فيما يلي، وقام أخيراً البـابا هونـوريوس المتقـدم الذكـر بحرمـانه كنسيـاً، وقاتـل ضده كثيراً، حسبما ستسمع حول ذلك فيما بعد.

(١٠٣): استعاد المسلمون في سنة ١٢٢١ دمياط من المسيحيين، وأخذ في هذه السنة وكيـل أرمينيا روبن المتقدم الذكر إلى طـرسوس، ووضعه في السجن، حيث توفي، وماتت في هذه السنة كونستانس امبراطورة ألمانيا.

(١٠٤): وعاد في سنة ١٢٢٢ النائب البابوي بيـلاغوس المتقدم الذكر إلى رومـا، وذهب معـه الملك جـون، ملـك القدس، والبطـريرك رالـف، والراهـب غورين دي مـونتاغيو، مقـدم الاسبتارية، وتحادث الملـك جون المذكور مع البابا حول زواج ابنته من الامبراطور، وذلك بمباركة من البابا هونوريوس الثالث.

(١٠٥): وتزوج في هـذه السنة فيليب بن بـوهيموند أمير أنطاكيـة من ابنة الملك ليون ملـك أرمينيا، وتسلم المملكة كلها، وأخذه الـوكيل بعدها ووضعه في السجن حيث مات.

(١٠٦) :وكـانت في هـذه السنـة هـزة أرضية كبيرة في قبرص، دمـرت بافوسPaphos.

(١٠٧):وعاد في سنـة ١٢٢٣ البطريـرك رالف، بطـريرك القـدس من روما إلى عكا.

(١٠٨): ومات في هـذه السنة الملـك فيليب ملك فـرنسا، وتـوج ابنه لويس ملكاً على فرنسا،وأخذ في هذه السنة لى روشيل La Rochelle.

(١٠٩): وجاء في سنـة ١٢٢٣ (١٢٢٥) إلى عكا أسقـف باتي، وحمل الخاتـم الى ايـزابـل ابنـة الملـك جون، ملـك القـدس، وذلـك لصـالـح الامبراطـور فردريـك، ومـات في هذه السنـة (١٢٢٥) البطـريرك رالـف بطريرك القدس،واختير بعده جيرولد بطريركاً للقدس.

(١١٦): وجرى في سنـة ١٢٢٥ تتويج ايزابـل ابنة الملك جـون ملك القدس في صور،وعبرت بعـد هذا البحر لتتزوج من الامبراطـور فردريك، وقد ذهبت إلى هناك مـع سمعان رئيس أساقفة صور ومـع بالين صاحب صيدا.

(١١٨): وجـاء في سنـة ١٢٢٦ (١٢٢٧) مـن عبر البحـر الكـونـت توماس، من جهة الامبراطور فردريك، وصار وكيلاً في عكا.

(١١٩): وبدأت في هـذه السنة أعمال بناء قلعـة مونتفورت (القـرين) من قبل رهبـان فرسان التيوتـون، وهي قلعة في سوريـة في مملكة القدس، ومات في هـذه السنة (١٢٢٦) الملك لـويس ملـك فرنسا، وجـرى بعده تتويج ابنه لويس، الذي أدار المملكة بتقوى وسلام طوال حياته.

(١٢٠): ومـات في سنة ١٢٢٧ البـابـا هونـوريـوس الثـالث المتقـدم الذكـر، الذي شغـل كرسي رومـا لمدة عشر سنوات، وستـة أشهر، وثـلاثة وعشرين يوماً.

(١٢١): وصار بعده البابـا غريغوري التاسع، وهو قـد ولد في شامبين في مدينـة أنيان Anaine، وقد اختير في سبتيسـوليوم Septisolium في اليوم الثـامن من آذار بعد عيـد القديس جـورج، وقام بتطويب القـديس فرانسيس، والقـديس أنثوني، والأخوة الصغـار، والقديسة ايزابـل الألمانية، التي كانت زوجـة اللاندغريف، وقد اختصر مختلـف مصنفات المراسيم،

وأضاف أوامره، بحيث أن أشياء كثيرة كان مشكوكاً بها باتت جلية، وتولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً مرتين وفي مناسبتين، وشن الامبراطور الحرب لمدة طويلة ضده، وقد شغل كرسي روما لمدة أربعة عشر عاماً وستة أشهر وثلاثة أيام، وقدم في هذه السنة من روما إلى عكا البطريرك جيرولد بطريرك القدس، الذي كان نائباً عاماً للبابا، وجاء أيضاً دوق ليمبورغ Lemburg ، وأسقف وينشستر، وأسقف اكسيتر، والسير جوفيان الذي خدم الامبراطور لبعض الوقت، حسبما تحدثنا من قبل، وقد جاء انذاك عائداً من عبر البحر إلى قبرص.

(١٢٤): وتوفي في هذه السنة (١٢٢٧) الراهب غورين دي مونتاغيو، مقدم فرسان القديس يوحنا.

(١٢٥): وبنيت في هذه السنة قلعتا قيسارية وصيدا، وتوفي في هذه الآونة كورودين (الملك المعظم عيسى) سلطان دمشق.

(١٥٧): وبنى في سنة ١٢٢٩ البطريرك جيرولد برجين في يافا مقابل عسقلان، كما أعيد بناء كنيسة الضريح المقدس، وجاء بطريرك أنطاكية إلى عكا بمثابة نائب لبلاط روما، وانتزعت بعد هذا نيابة البابا من بطريرك (القدس) بوساطة الامبراطور فردريك الذي تشكاه إلى البابا، ولهذا ذهب إلى روما واسترد استلام وظيفة النيابة البابوية طوال بطريركيته.

(١٩١): وعندما طال أمد القتال كثيراً، لم يعد بامكان الأبوليين التحمل أكثر، فقد تلقوا خسائر كبيرة وأضراراً فادحة، لذلك تخلوا عن أرض المعركة، ومضوا متعبين عبر الممر إلى سيرينا، ولاحقهم القبارصة، وطاردوهم، وظلوا يتشابكون معهم ويتبادلون الطعن والضرب معهم حتى أبواب سيرينا، حيث أعادوا تجميع أنفسهم بعد صعوبات جمة، وبعد ما ربح القبارصة المعركة، واستولوا على الميدان، وطاردوهم حسبما سمعتم، عادوا إلى مكان كان عبارة عن أرض منخفضة عند سفح

الجبل، وهناك عسكروا.

(١٩٢): ورأى رتشارد فيلنغر قائد جيش اللـومبارد أنه قد حوصر، وأن ليس لـديه مـا يكفي من الـرجال أو الطعام، لـذا عقد اجتماعـاً للتشاور وبعث إلى بافوس لجلب السفن التي كانت هناك، وعندما جاءت السفن إليـه، انتخب الـرجـال الـذين أرادهـم أن يبقـوا في سيرينـا، وصعد هـو والآخـرون ظهور الغـلايين، وتـوجهـوا إلى أرمينية (كليكيـة)، ووصلـوا إلى طـرسوس، واستقبلهـم هناك الملـك هيتـوم وأبوه قسطنطين، ورحبـوا بهم ترحيبـاً كبيراً، وقد مكثوا مـدة طويلة في تلـك البلاد، وأصابهم الطـاعون هناك، ولـذلك مات عـدد كبير منهم، ووقع عـدد أكبر مرضى، وعنـدما رأوا أنهم لايمكن لهم الاستمـرار أحياء في تلـك البلاد، لـذلك غـادروها وقدموا إلى صور.

(١٩٣): وما أن ذهـب الذين سمعت عنهـم، وغادروا سيرينا للتـوجه إلى أرمينيا حتى عسكـر الملك هنري ورجاله قرب أسـوار سيرينا، وهكذا أقاموا مـلاصقين للأسوار إلى حد أن مامن انسـان كان قادراً على الخروج أو الدخـول، ونتيجة للمعركـة التي وقعت قبيـل قليل بقي الملـك هنري يتمتع بسلطـانه بسلام ودونما ازعاج، وكـذلك فعل الـرجال الذين كـانوا معه، واستمر الحصار أمام سيرينا حتى مـا بعد عيد الفصح، وقد انتهى أخيراً بقيام الملـك هنري بـاطلاق سراح جميع الأسرى الـذين أخـذهـم في صور، والـذين أخـذوا في قلعة ايمبرت، وكذلـك جميع السيـدات اللائي اعتقلـن في نيقـوسيـا في الكنـائس وفي بيوت الـرهبـانيـات، عنـد قـدوم (اللومبـارد) إلى البلاد، وبذلك جـرى تسليم قلعة سيرينـا إلى الملك وإلى صاحب بيروت في سنة ١٢٣٣.

(١٩٤): وفي هـذه الآونـة، أي أثنـاء استمرار الحصـار أمـام سيرينـا، حدث للملكـة أليس زوجـة الملك هنـري، وابنة مـركيز أوف مـونتفرات، والتـي كانـت تعرف بـاسم اللـومبارديـة، لأن الامبراطور كـان قد أعطـاه

إياهـا، وكانـت قد وضعـت نفسها في قلعـة سيرينا مـع الأبولين، وتحت إمرة الامبراطور، حدث أن أصيبـت بداء عضال، وبذلك ماتـت، وعندما ماتت قام الذين كانوا في داخل سيرينا بالباسها بالباسها كما ينبغي إلباس الملكة، ثم طلبـوا الأمان لارسال رجـل ليتحدث مـع الملك، وجاء الـذي حصل على الأمـان إلى الملـك، وأخبره أن زوجتـه الملكـة قـد انتقلـت مـن هـذه الحياة، وأن الذيـن كانوا في الداخل يـرسلون إليه رسالة أنـه إذا ما تفضل وتسلمها للقيـام بدفنهـا بما يتناسـب معها كملكـة، وأنه ينبغـي أن يفعل ذلك لها لأنها زوجتـه، ووافق الملك، وأعطيت هـدنة بأن لايقوم بـاطلاق النشاب أو رمـي الحراب من الخارج أو من الـداخل في أثنـاء حمل الملكة إلى معسكـر الملك، ثـم وضعها الـذين كـانوا في سيرينـا خارج القلعـة، وتسلمها الذيـن كانوا من معسكـر الملك، وحملت بعد ذلـك إلى نيقوسيا في مـوكب عظيـم على أيدي الفـرسان وهـم جميعاً يسيرون على الأقـدام، وأدخلت بكل تشريف إلى كاتدرائية كنيسـة القديسة صوفيا، وتولى رئيس الأساقفة يوستوريو دفنها.

(٢٠٣): وذهبت الملكـة أليس ملكة قبرص في سنة ١٢٣٢ إلى فـرنسا لاسترداد مقاطعة شامبين.

(٢٠٤): وتعرض البطريرك جيرولد للتهمـة في روما من قبل الامبراطور فردريـك، وانتزعت منه سلطـة نيابة البابـوية، وبناء عليه ذهـب إلى روما واسترجع النيابة البابوية لتكون في بطريركيته بشكل دائم.

(٢١٠): ثـم عادت الملكـة أليس ملكـة قبرص سنـة ١٢٣٥، بعدمـا استردت مقاطعـة شامبين، وقـد وصلت من بـلاد ماوراء البحـر إلى عكا سالمة وصحية.

(٢١١):: ذهـب في سنـة ١٢٣٦ صـاحب بيروت وابـن أختـه جـون صاحب قيساريـة وفرسان الاسبتارية وفرسان الداويـة لحصار مونتفيراند،

وقـدموا لـلاسبتـارية مجداً كبيراً، وخـدمة عظيمـة، وعـادوا بعد ذلـك إلى قبرص مع كثير من البهجة، وكانوا في سلام عظيم، وحالة جيدة.

(٢١٣): وحدث في هـذا الموسم في سنـة ١٢٣٩، أن بدأت في مملكـة فرنسـا حركة صليبيـة عظيمة للذهـاب إلى الارض المقدسة، وذهـب عدد كبير من الصليبيين عبر مرسيليـا، وذهب آخرون عبر برنـديزي، وكان في هذه الحركـة ثيبوت ملك نـافار، الذي كـان كونت شـامبين، وهيوج دوق بيرغندي، وبيتر دي دروكس Dreux الذي دعي بـاسم بيتر موكليرك Mauclerc ، كونت أوف بريتاني، وجون دوكـس أوف ماكون، كونت أوف فورزForez وكونت أوف نيفر Nevers، وهنري كونت أوف بار لى دوك Duc ، وعمـوري كـونـت أوف مونتفـورت، وعـدد كبير آخـر مـن الأعيـان، ومن هـؤلاء ذهـب كونـت أوف بار، وكـونـت أوف مونتفـورت وجماعتاهما من مـرسيليا، وعرفت هـذه الصليبية باسم صليبيـة البارونات، لأنه وجد بها عـدد كبير جداً من البارونات حسبما سمعت، وعنـدما قدم هؤلاء البارونات ووصلوا إلى عكا في يوم عيـد القديس جايل (صنجيل)، الذي يقـع في اليوم الأول من شهـر ايلول، كـان هناك حوالي الألـف من الفرسان، وقـد عسكروا في أرجاء المدينة وخارجهـا على السابلون Sabe-lon، وعقـدوا هناك مـؤتمراً، واتفقـوا على الـذهاب نجـدة إلى عسقـلان، وركبوا وانطلقـوا إلى يافا، ومعهم شعـب البلاد، وعندما وصلـوا إلى هناك أخبرهم جاسـوس بأن هناك ألف من الترك معسكريـن في غزة، وأن اسم أميرهـم وقائدهـم ركـن الديـن، وعندمـا سمـع الصليبيون بهذه الأخبـار اتفقـوا على أنهم يحتـاجـون إلى أربعمائة فارس لهذا الغـرض، وبنـاء عليـه انطلق كونـت أوف بار لى دوك، وكونت عموري أوف مـونتفورت، وبالين صـاحـب صيدا، ويـودس دي مـونتبليـارد، وجون دي إيبلين صـاحـب أرسوف، وغادروا يـافا في مطلع الليل، وسـاروا وبذلك كانـوا عند الفجر تقريبـا قرب غـزة، وتسلحوا، وزحفـوا على شكل أرتـال إلى المكان الـذي

كـان فيه الترك، وعنـدما رآهـم الترك ركبوا خيـولهم وتراجعـوا نحو رابيـة صغيرة، وعقد هناك ركن الـدين اجتماعاً مع رجاله حـول ما الذي ينبغي عليه القيـام به، وقد أشـاروا بوجـوب الابتعاد عن هنـاك وضرورة المغادرة لأنه ليس لديه ما يكفي من الرجال للقتال ضدهم، وأجابهم ركن الدين بأنـه سوف يغـادر في الوقت المنـاسب لـه، غير أنه سوف يبعـث برجـاله المسلحين بشكل ثقيـل ليكتشفوا أوضـاع الأعداء وأحـوالهم، ثم إنـه نفذ ماقـاله، وأرسـل مائتين مـن أتراكه ليتنـاوشوا معهـم، وحدث أنـه ما أن وصـل المنـاوشـون إلى الصليبيين حتـى بـدأوا بـالتراجـع، وهنـا شرع الصليبيـون بـالدوران ومـن ثـم الاصطـدام ببعضهم بعضـاً، ورأى ركـن الديـن الاضطراب والفـوضى السيئة للصليبيين، وبنـاء عليه انحـدر من الرابية حيث كـان، وزحف بسرعة كبيرة نحو موقع القتـال، وما أن وصل حتى انقض هو ورجاله بجرأة متنـاهية، وضربوا في وسط الفرنجة، بسبب المظهـر السيء الذي رأوه، وأوقعـوا فيهـم أضراراً بـالغة، وهكـذا خضـع الصليبيون بشكل فـوضوي، وبدون اتفاق بالرأي إلى الهزيمـة، ونجا منهم الـذيـن استطاعـوا الفـرار، وأسر المسلمـون هنـاك عموري كـونـت أوف مونتفـورت، وقتل هناك هنري كـونت أوف بارلى دوك، وكان هنـاك عدداً كبيراً مـن الفـرسـان الـذي قتلـوا أو أسروا، وتـم فقـدان جميـع الـداويـة والاسبتـارية وبقيـة الرجـالـة، كما أن معظم العتـاد والتجهيزات فقـدت، ووصل الـذين نجوا مـن القتال إلى عسقلان، ووجـدوا هناك ملك نـافار وكـونـت أوف بـريتـاني، وجيشهما كله، ومـا أن وصلـوا إلى هنـاك حتـى استبدبهم خـوف عظيم، وشعروا جميعـا، وبدا لهم أن المسلمين بـاتوا على الابواب ولسوف يأسرونهم جميعا، ولذلك مـا أن حل الظلام وباتت الدنيا ليلاً حتـى انطلق كل منهـم نحو يافا بـدون نظام أو تلقي أوامـر وبدون انتظـار بعضهم بعضـاً، وبتراجعهـم على هـذه الصورة وكـأنهم مهـزومين تركـوا كميات كبيرة مـن الأطعمة والتجهيـزات، وعندمـا وصلوا إلى يـافا مكثوا هنـاك لبعض الوقـت فقط، وفي الحقيقـة غادروها إلى عكـا وساروا

بدون توقف حتى وصلوا إلى هناك، وقد مكثوا هناك لمدة طويلة دون أن يقوموا بأي شيء مفيد، وكان من بين الذين نجوا من هذه المعركة بين آخرين من رجال البلاد، بالين صاحب صيدا، وفيليب دي مونتفورت، وجون دي إيبلين، صاحب أرسوف، ويودس دي مونتبليارد، وعدد كبير آخر من الحجاج.

(٢١٤): وكان في هذه الآونة رجل دين في طرابلس اسمه«وليم»، وكنيته « دي شامبين»، غير أنه كان قد ولد في طرابلس، وكان على معرفة عظيمة بصاحب حماة، وقد خدمه مراراً، وقد جاء إلى جيش ملك نافار، وقال للبارونات بأن سلطان حماة قد أرسل إليهم رسالة، بأنهم إذا مارغبوا بالقدوم إلى بلاده، حيث يتمكن من نيل قوة الصليبيين وعونهم، فإنه سوف يضع في أيديهم قلعته وسيصبح مسيحياً، وحول هذا الموضوع بعث إليهم رسالة يترجاهم فيها ويقول كل شيء يتوقف عليهم، إذا ما رغبوا بالوصول إلى هذه الغاية، وبناء عليه غادر الجيش عكا وزحف على طول الساحل حتى وصل إلى طرابلس، ووقف هناك، وعسكر رجاله أمام المدينة في أسفل تلة الحجاج، وبعثوا من هناك برسل إلى سلطان حماه برفقة رجل الدين وليم المتقدم الذكر لمعرفة فيها إذا كان يرغب بالاستمرار في الأشياء التي أرسل رسالة من أجلها وإكمالها، واصطنع السلطان معاذير بأن طلب عقد مواثيق، وشغلهم لبعض الوقت بالكلمات، غير أنه في النهاية تخلى عنهم وخذلهم في كل شيء، مثله مثل انسان لم يفعل شيئاً سوى أنه هزأ بهم، والعذر الذي قدمه هو أنه تراجع من خلال خوفه من صاحبة حلب، أم السلطان، التي كانت في حالة حرب معه، فقد كانت هذه السيدة متملكة للسلطةفي حلب، لأن ابنها ، سلطان حلب، كان دون السن القانونية، وعندما بات الصليبيون مدركين للخداع وللغش الذي مارسه سلطان حماة، وبعدما مكثوا لبعض الوقت أمام طرابلس، حيث احتفى بهم بوهيموند أمير أنطاكية احتفاء عظيماً،

واحتفل بـوجودهـم، غادروا وعـادوا إلى عكا، غير أن جـون كونـت أوف ماكـون مات في طـرابلس، ودفـن هناك في واحـد من بيـوت الرهبـانيات الدينية.

(٢١٥): وعندمـا عاد حجاجنا إلى عكـا، لم يمكثوا هناك وقتاً طـويلاً حتـى ذهبوا لـلإقامـة في بيت الـرعايـة في حيفا بغيـة تمكين خيولهم مـن الرعي، وعنـدما لم يعد هناك مـرعى، ذهبوا للإقـامة قرب نبع الصفـورية، وفيها هم هناك جاءهـم رسول من عند سلطان دمشق للبحـث معهم من أجـل إبرام هـدنـة، وكان اسـم هـذا السلطـان الصالـح، وكـان مايـزال صاحـب بعلبك، وهـو ابن سيـف الديـن العادل، وتطـورت الأمور على الجانبين، وهكـذا أعـدت الترتيبـات بين السلطـان والصليبيين، وتخلى بـوساطـة هـذه المعـاهدة عـن قلعتـي بلفورت وقلعـة صـافيتـا لصالـح الداوية، وسلـم كذلك جميع الأراضي العائدة للقدس، وهـي التي بحوزة الفـرنجة، وذلـك امتداداً مـن الساحـل إلى نهر الأردن، وعقد الصليبيـون ميثاقاً معـه بأنهم سوف لن يعقـدوا معاهدة أو يقيموا صلحـاً مع سلطان القاهرة بدونـه وبدون موافقته، وأنهم سوف يذهبـون للعسكرة في عسقلان أو في يافا مـع قواتهم كلها، للحيلولة دون سلطـان مصر، ولمنعه من المرور خلال تلك الأراضي والبلاد عمـوماً ، ومن ثم الذهاب إلى سـورية، وكان على السلطان المتقـدم الذكـر العسكرة على مقـربة منهـم حيث ينبـع نهر يافا، وأقسم على جميـع هذه المعاهدات التي سمعتم عنهـا، جميع بارونات الجيـش، كما أقسـم عليها السلطـان مـع جميـع أمـرائه، وبموجـب هـذه الموافقة سلم إليهم قلعة بلفورت وكذلك أراضي صيدا وطبرية .

(٢١٦): وعندما اكتمل التحليف على المعـاهدة، كما سمعتم، ذهب الصليبيون للعسكـرة قرب يـافا ومعهم سلطـان دمشق، وصـاحب حمص أيضاً، وقدعسكروا عنـد نبع النهر مع جيشهم كله أيضـاً، وجرى الإعداد لهذه المعاهدة التي سمعتم عنها وإبرامها من قبل الداوية، وبدون موافقة

فرسان مشفى القديس يوحنا، وبناء عليه رتب فرسان القديس يوحنا لأن يعقد سلطان مصر معاهدة معهـم ومع جزء من الصليبيين ، وحلف على هذه المعاهدة ملـك نافار، وكونت بريتاني، وعـدد كبير آخر من الحجاج، دون إقامـة أي تقديـر لليمين الذي حلفـوه وعقدوه مـع سلطان دمشـق، وهكذا عقدت تلك المعـاهدة وفق الطريقة التي سمعتم عنهـا وغادر يافا وذهب إلى عكـا كل من ملـك نافار، وكونـت بريتاني والحجـاج الآخرون الذيـن حلفوا على هذه المعـاهدة مـع سلطان مصر، وفي عكا أمنـوا سفناً لعبور البحر إلى بلدانهم، أما مقدم الاسبتارية الراهب بيتر دي فيلابرايد، الذي حلف على هـذه المعاهدة، ولم يحلف شيئاً إلى سلطـان دمشق، فقد غادر يـافا مـع فرسـانه كلهم، وقـد ذهب إلى عكـا، وبقي هنـاك، وبقي رجال البـلاد والداويـة وكونـت نفري وجـزء من الحجـاج، في يافـا، ولم يرغبـوا في خرق المعاهـدة ولا الانسحاب من المواثيـق التي عقدوهـا مع سلطـان دمشق، وأوجـد هـذا بين صفـوف الصليبيين حالـة تمزق وعـدم اتفاق، ذلك أن بعضهم ارتبط بمعاهدة، وبعضهم الآخر بمعاهدة أخرى .

(٢١٧): ومات في هذه السنة السير بالين صاحب صيدا .

(٢١٨): وفي ذلك الوقـت الذي كان فيه الحجاج في عكـا، تزوجت الملكـة أليس، ملكـة قبرص من نبيـل فرنسي كـان اسمه سير رالـف دي سواسون، وكان هو أخ لكونت أوف سواسون .

(٢١٩): ومجدداً وصـل إلى عكا في سنـة ١٢٤٠ اللورد رتشـارد أوف كورنـوول Cornwall وكـان أخاً للملـك هنري ملـك إنكلترا، وقد قـاد كوكبة ممتـازة من الفرسان، وقـد حملوا معهم مقتنيات كثيرة، وأقـام عندما جاء إلى عكـا في بيت مشفى فرسـان القديس يـوحنا وبعدما أقـام هناك لبعـض الـوقت جهـز فيـه رجـاله وألبسهـم، ذهـب إلى يـافا وأقـام مـع الصليبيين الآخـرين الـذيـن كـانوا هنـاك، وفيما هـو هنـاك ضغط عليـه

الداوية حتى يأخذ بمعاهدتهم ومواثيقهم مع سلطان دمشق، وأن عليه أن يحلف عليها، وطلب منه الاسبتارية وحثوه على الأخذ بمعاهدتهم مع سلطان مصر، وتحدثوا معه في عكا كثيراً حتى أنه لم يرغب بالوقوف إلى جانب ضد الآخر، ولهذا قال إذا ما رغب الصليبيون الذين كانوا في يافا بالمعسكرة في عسقلان، فهو على استعداد لتحصين القلعة، وعقد بارونات الجيش والداوية والاسبتارية والتيوتون مؤتمراً للتشاور، وقالوا إن ما اقترحه يتماشى مع المعاهدة التي عقدوها مع سلطان دمشق،وهي مربحة للصليبيين، وعلى هذا توافقوا، وانطلقوا من يافا، وعندما أمنوا العمال وكل ما يحتاجونه للعمل، ذهبوا إلى عسقلان، ولدى وصولهم إليها، وضعوا تجهيزاتهم، وانطلقوا نحو العمل، وتمت أعمال تحصين قلعة عسقلان، وفق طريقة الملك رتشارد ملك إنكلترا، الذي هو عم للكونت رتشارد هذا، الذي تولى الآن تحصينها، وأكمل تحصينها وجهزها على خير ما يمكنه، ومن ثم بعث إلى القدس فارساً اسمه وولتر بينينباي Pen-nenpie، الذي كان وكيلاً هناك للامبراطور فردريك، وكان يحكم القدس وفقاً للمعاهدة وللشروط المبرمة مع سلطان مصر، وما أن وصل وولتر بينينباي هذا إلى عسقلان، حتى سلم الكونت رتشارد القلعة إليه، وجعله حاكماً لها مسؤولاً عن حمايتها لصالح الامبراطور، وبعدما صنع الكونت رتشارد أوف كورنوول هذا، وافق على المعاهدة المعقودة مع سلطان مصر، وتمكن بذلك من إطلاق سراح الكونت عموري أوف مونتفورت والفرسان الآخرين الذين كان ركن الدين قد أسرهم لدى إلحاقه الهزيمة بالصليبيين عند غزة، وبعدما عمل هذا كله عاد الكونت رتشارد إلى عكا، وأمّن سفنه وعاد إلى بلاده في هذه السنة نفسها، وكان حيثما ذهب جيش الفرنجة ذهب سلطان دمشق، وعسكر إلى جانبهم، وبعدما أمضى الحجاج وقتاً في يافا، وأعني الحجاج الذين مكثوا بعد ذهاب الآخرين، رغبوا الآن في العودة إلى بلدانهم، وبناء عليه ذهبوا إلى عكا، وأمّنوا هناك سفنهم، وسافروا عائدين، وقام الصليبيون الآخرون

كلهم بالعودة آنذاك إلى عكا .

(٢٢٠): وشرع في سنة ١٢٤١ جـون دي إيبلين صاحـب بيروت بتحصين قلعة أرسوف.

(٢٣٠): ووضع رتشـارد فيلنغر نفسه في سفينة مـع مقتنياته وأنـاسه وبقية رجـال الامبراطور الذين كـانوا في القلعة، وعبر إلى أبوليـا، وبمجرد وصوله وضعـه الامبراطور بالسجن هو وهنري وجـون أوف سورنتو Sor-rento ابن أخته، وقـد بقيوا في السجن مدة طويلة حتـى أطلق سراحهم بوسـاطة الكـونت ريمـوند أوف طـولوز، وذلـك حسبما ستسمعون حُـول ذلك فيما بعد .

(٢٣١): وذهـب لوثير أخـو رتشارد فيلنغـر المتقـدم الذكـر إلى أمير أنطاكية، الـذي استقبله بترحاب كبير، ومنحه زواجاً نبيلاً، وسيـدة ثرية في أنطاكية، حيث عاش بشكل جيد حتى موته .

(٢٣٢): وطلب رالف دي سواسون من السير بالين صاحب بيروت ومن السير فيليـب دي مونتفـورت، صاحـب تورون، منحـه مدينـة صور لنفسه وللملكـة أليس زوجته، ذلـك أنه رغب في نيلهـا بالطريقـة نفسها التي نال بها بقية الأشياء العائدة لمملكـة القدس، وأجاباه أنهما لن يسلماه إياها، ولن يـوكلاها له، بل سوف يتوليـا حمايتها حتى يعلما إلى من عليهما تسليمها، ورأى السير رالف آنئـذ أنه لايمتلك قوة ولا سلطـة وما هو إلا مجرد خيـال، ونتيجـة لهذا الاستخفـاف والإهـانـة التـي واجههـا في هـذه القضية، تخلى عن كـل شيء، وترك الملكة زوجته، وذهـب إلى بلاده، وقال بعضهم بأن هذا الطلب قد تقدم بـه السير رالف سواسون والملكة أليس أمـام قلعـة صـور قبـل الاستيـلاء عليها، لكـن سـواء أكـان ذلـك قبـل الاستيلاء أو بعده، لم ينالا أبداً ما طلباه .

كيف ذهب الكونت ريموند أوف طولوز إلى روما يطلب

التحليل من البابا غريغوري

(٢٣٣): وذهب في هذه الآونة الكونت ريموند صاحب طولوز إلى روما، فهو كان متهماً بالهرطقة ومحروم كنسياً لهذا السبب، واستهدف تطهير نفسه وإلغاء حرمانه كنسياً وتحليله من قبل البابا غريغوري، واستقبله البابا بلطف بما فيه الكفاية، وبعد كلام كثير رسم البابا وجوب تحليله، وعهد بأعمال تحليله إلى رئيس أساقفة القديس نيقولا أوف باري، الذي كان آنذاك في روما، وكان رئيس الأساقفة هذا كاهناً عظيماً، ورجلاً حكيماً، وواحداً من الرجال النبلاء للملكة، ذلك أنه كان أخاً ألمانياً للسيررتشارد فيلنغر، الذي سمعت الحديث عنه من قبل، وقد أصبح على صلة وثيقة مع كونت طولوز، وعدّ الكونت نفسه مداناً له .

(٢٣٤): وحدث أن استأذن كونت طولوز من البابا المذكور وودعه ليذهب ويرى الامبراطور، لأنه امتلك ـ كما قال ـ رغبة عظيمة لأن يعمل على إيجاد اتفاق ما بين البابا وبين الامبراطور، وعندما حان الوقت لمغادرته روما ترجاه رئيس أساقفة باري كما طلب من عدد من الكرادلة أن يترجوه ليعمل على إطلاق سراح أخويه وابن أخته الذين كانوا في سجن الامبراطور، ووافق الكونت بترحاب ووعد أن يفعل كل ما يمكنه، وعند ذلك ذهب الكونت إلى أبوليا واستقبل بترحاب عظيم وعومل معاملة مشرفةمن الامبراطور، وبقي هناك لبعض الوقت، وتباحث مراراً هو والامبراطور، حول ما كان يرضيهما، أما بشأن المصالحة فيما بين الامبراطور والكنيسة فإنه لم يكن قادراً على فعل شيء، لذلك تخلى عن الموضوع، ثم إنه طلب من الامبراطور منحه هدية حسب طلبه، ووافق الامبراطور، وعلى هذا طلب منه رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخته الذين كانوا في السجن، وأزعج طلب الكونت هذا الامبراطور كثيراً، وود كثيراً لو أن الكونت توقف عن هذا الطلب، واتهم السير رتشارد فيلنغر وصحبه بتجاوزات عظيمة وجرائم كان قد اقترفها بحق امبراطوريته،

وفعل هذا كله لعل الكونت يتوقف عن القيام بهذا الطلب، ولكن الكونت ما كان ليتخلى عن طلبه مهما كان الأمر، وتمسك به بقوة حتى أمر الامبراطور بإخراجهم من السجن، وأعطاهم إلى الكونت، على شرط أن يغادروا مملكته تماماً، وشكره الكونت، ثم قام الكونت بتوديع الامبراطور وعاد إلى بلاده، آخذاً معه السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخته، وأعطاهم هناك إقطاعية فرسانية جيدة، وقد مكثوا هناك حتى جاء الوقت الذي خلع فيه فردريك من قبل البابا أنوسنت الرابع، ومات وهو محروم كنسياً حسبما سوف تسمع حول ذلك فيما بعد .

(٢٣٥): وانتهى هذا الكتاب في يوم الأربعاء في اليوم التاسع من نيسان من سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين لتجسيد المسيح .

(٢٣٦): وقد كتب من قبل جون لى ميج Miege سجين مولاي عموري دي ميمار Mimars، والموقوف في قلعة سيرينا .

الملحق الثالث

اقتباسات تتعلق بصليبية فردريك الثاني من :

Breve chronicon de rebus siculis a robert guiscardi temporibus Inde AD Annum 1250"(Huillard - Bre-holles,Historia diplomatica Friderici Secundi (897 - 904)

في سنة ١٢٢٧ لتجسيد ربنا، وفي شهر أيلول، وفي أوله، قام السيد الامبراطور باستعدادات عظيمة، ورغب في عبور البحر مع الجيش الصليبي الذي كان يقوم في ذلك الحين بحشده من جميع أرجاء العالم في برنديزي، ولأنه هوجم بالمرض لم يستطع العبور، ومع ذلك لم يؤخر إرسال الجيش، بل أرسله مع بطريريك القدس، الذي كان مسرعاً يود الوصول إلى سورية بمثابة نائب للبابا وللكنيسة الرومانية، لكنه هو نفسه قد مكث مريضاً في أوترانتو، وهي مدينة في أبوليا، وقام في الشهر التالي، وهو تشرين الثاني، في السنة نفسها، البابا غريغوري، الذي خلف البابا هونوريوس، بجمع كل أساقفة إيطاليا، بعد مضي ثمانية أيام على عيد القديس مارتن، في هذا الشهر نفسه، في روما، في كنيسة القديس بطرس، وهناك تولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً لأنه لم يذهب، وقام الجيش الصليبي الذي عبر إلى سورية في العبور نفسه ببناء قلعتي صيدا، وقيسارية .

وفي سنة ١٢٢٨ لتجسيد الرب، وفي شهر نيسان، في مطلعه، ولدت الامبراطورة إيزابل التي هي زوجة الامبراطور فردريك، وابنة الملك جون، ولداً ذكراً كانت قد حملت به من زوجها الامبراطور فردريك، وحدثت الولادة في أندريا، وهي مدينة في أبوليا، وعندما علم الامبراطور ـ أبوه ـ بولادته، وكان آنذاك في ترويا Troya وهي مدينة في أبوليا، منحه اسم كونراد، وعلى كل حال انتقلت أمه بعد ولادته بعشرة أيام إلى الرب،

وكان ذلـك في مدينة أنـدريا نفسها، وحضر مراسـم دفنها جميع أسـاقفة مملكة صقلية، وذلك بسبب أن الامبراطور نفسـه كان يرغب في العبور إلى سـوريـة، حتى يتمكـن مـن الـوفـاء بعهـده، وفي الحقيقة انطلـق السيـد الامبراطور مـن ميناء بـرنديزي، وكـان ذلك في شهر حـزيران التـالي من هـذه السنـة نفسها وفي الخمسعشريـة نفسهـا، وحـدث هذا بعـدمـا جمع بعض السفن مـن مملكته الصقلية، وعندما انطلق كـان معه أربعين من الغلايين، وكـان ذلك عشية عيـد القديـس بطرس، أي في شهر حـزيران المذكـور أعـلاه(٢٨ حزيـران)، ووصـل في اليـوم التـالي، وهو يـوم عيـد القديس نفسـه إلى أوترانتو، وهي مدينـة في أبوليا، ثم غادرنـا أوترانتو في مساء ذلـك اليوم، ووصلنا في اليـوم التالي إلى جزيرة رومـانيا التي تـدعى أوثرون Othronos(فانو Fanu)، وغادرنا من هناك في اليوم التالي (١ ـ تموز)في حوالي الساعة السادسة، ووصلنا إلى جـزيرة وقلعة تدعى كورفو، وتأخرنا هنـاك حتى المساء، ثم أبحرنا، ووصلنا في اليـوم التالي بعد غروب الشمـس إلى ميناء غـويسكارد، واسترحنـا هناك تلـك الليلة، ووصلنـا في حوالي السـاعة السادسة مـن اليوم التالي إلى جزيـرة سيفالونيا، التـي كان فيها الكونت لورد مويان Maione، الذي كان من أبوليـا، وغادرنا ذلك المكان عند حوالي غياب الشمس، وقـد ثار البحر كما هو المعتاد، ووصلنا في اليوم التالي(٤ ـ تموز) في حوالي السـاعة التاسعة إلى مودون Modon، وانتظرنا هناك حتى الصباح، وقد غـادرنا من هناك قرابة إشراق الشمس، ووصلنا مع المساء إلى ميناء بـورتوكاغلاي portocaglie، وبعد المكوث هناك طـوال الليل، غـادرنا في الصبـاح ووصلنا في مسـاء اليوم نفسـه إلى جزيـرة سيرجو Cerigo، وتـأخرنـا هناك حتـى فجر اليـوم التالي حيـث غادرنا وأبحرنا نحو كريـت، ووصلنا إلى هناك إلى الجزيرة نفسها في حوالي ساعـة صلاة العشاء أو قـرابة المساء، وكان ذلـك إلى مكان يدعـى سودا Suda،ومكثنا هناك طـوال الليل، وفي الصباح التالي، أي في الثـامن من تموز مـن الخمسعشريـة نفسها، ثـم شرعنـا في العـاشر من الشهـر نفسـه

بالإبحار حول سواحل هذه الجزيرة نفسها، ووصلنا في اليوم الحادي عشر في حوالي الساعة الثالثة إلى إحدى مدن هذه الجزيرة، وتدعى كانديا(الخندق)، وقد نزلنا دونها وبقينا هناك طوال اليوم والليلة، وفي اليوم التالي، أي أن تقول في الثاني عشر من تموز، غادرنا كريت وأقلعنا داخل البحر، ووصلنا في الثالث عشر من هذا الشهر الذي هو شهر تموز إلى جزيرة رودس، ولأننا كنا منهكين بعض الشيء استرحنا هناك طوال ليلة يوم الرابع عشر، وأبحرنا من هناك في ذلك اليوم نفسه، أي أن تقول في الرابع عشر من شهر تموز، ووصلنا إلى المدينة التي اسمها رودس، وكان ذلك في حوالي الساعة التاسعة، ولم ننزل إلى اليابسة، ومع ذلك مكثنا هناك في الميناء النهار كله مع الليل، وغادرنا في الصباح، وأبحرنا على طول ساحل مقاطعة ليكيا Lycia، ووصلنا في المساء إلى مدينة باتارا التي ولد فيها نيقولا معترف الرب، وبقينا هناك طوال الليل، وغادرنا من هناك في الصباح(١٦ ــ تموز)، ورأينا في حوالي الساعة الثالثة مايرا Myra المدينة التي تميز فيها القديس نيقولا خلال معجزاته الربانية، وحيث كان أسقفاً، ووصلنا بعد الساعة التاسعة في اليوم نفسه إلى فينيقيا، حيث وجدنا ماء بارداً جداً بكميات عظيمة، قادماً من أنهر كبيرة، ومكثنا هناك ذلك اليوم واليوم التالي(١٦ ــ ١٧ تموز)، وأرحنا أجسادنا بعض الشيء، وشرعنا بعد هذا في يوم الثامن عشر من الشهر نفسه بعد إشراق الشمس بالابحار نحو جزيرة قبرص، وعبرنا البحر في اليوم العشرين من الشهر نفسه ووصلنا إلى الجزيرة، ووصلنا في اليوم التالي إلى ليماسول وهي مدينة في تلك الجزيرة، وبعد اليوم الثاني أو اليوم الثالث جاء الملك هنري ملك الجزيرة مع جميع فرسانه إلى عند الامبراطور في ليماسول، ذلك أنه بالنسبة للامبراطورية التي هو من أتباعها يتوجب عليه نحوه أداء الولاء، وفي الحقيقة حدث أنه منذ كان الملك طفلاً أن استولى بعض الناس من جزيرته على كل مقتنياته، ولهذا السبب طلب الامبراطور منهم وجوب تقديم حساب

حول بلاد الملـك، وخشي هؤلاء أنه لن يكـون بمقدورهم تقديـم حساب كامل، لـذلك قاموا في اليـوم الخامس أو السادس ليلاً بمغـادرة خيامهم حيث تركوهـا وما فيها من حاجيات، وانسحبـوا سراً بدون أن نعرف، وقد ذهبوا إلى نيقـوسيا، وهـي إحدى مـدن الجزيرة، وشرعـوا في أعمال تحصين لثلاث قلاع موجـودة في الجزيرة نفسها قائلين:«لن يبدو ظهـورنا أقل من ظهـور الامبراطور»، وعلى كـل حال عنـدما رأى الامبراطـور هذا بقـي في ليماسـول حتـى يـوم السـابـع عشر مـن شهـر آب التـالي، وذلـك في الخمسعشرية الأولى، ثـم إنه مضـى إلى مدينـة نيقوسيـا المذكورة أعـلاه، والتحق بنا أمير أنطاكيـة النبيل، وبعد البقاء هناك لعدة أيـام جاء الذين عصوا عليـه، وركعوا عنـد قدمي الامبراطـور، وبعدمـا قام هكـذا بتنظيم المملكـة وتلقى أيمان الـولاء من الجميـع، قمنـا في اليوم الثـاني من شهـر أيلول في الخمسعشرية الثانية، بأخذ الطـريق إلى سورية، ووصلنا في اليوم الخامـس مـن الشهـر نفسـه إلى البترون، ثـم اجتـزنـا بيروت، وصيـدا والصرفند، ووصلنـا قبل الفجر إلى ميناء صـور، ولم نمكث هناك طـويلاً، بل وصلنـا في ذلك اليوم إلى عكا، ووجـدنا هناك الجيش الصليبـي الذي تـولى بناء قلعتـي صيدا وقيسـارية، وعنـدما نـزلنا هنـاك، بدأ الامبراطـور يبحث إلى أيـن يذهب مع جيشـه، وبعث في الوقت نفسـه سلطان مصر الذي جاء من مصر، والذي كان آنـذاك مقيماً في شكيم، التي تدعى الآن باسـم نابلس أميراً كبيراً إلى الامبراطور مـع هدايا فـاخرة، ووعد بوسـاطة هذا الرسول نفسـه أن يرد إليه الأراضي المقدسة التابعـة للقدس مع جميع ممتلكات تلك المملكـة، وجميع الأسرى الذين لدى ابن أخيـه، وبناء عليه أعاد الامبراطور هذا الرسول نفسه، وبعـث معه رسوله الخاص، وبوساطة هذا الرسول بعث إلى السلطان كثيراً من الهدايـا، وأعد الامبراطور بالوقت نفسـه العدة للـزحـف مـع جيشه لإعـادة بنـاء يـافا، ووصـل الجيـش في السادس عشر مـن تشرين ثاني مـن الخمسعشريةالثـانية نفسها إلى يـافا، وبدأ بكل نشـاط بإعادة بناء قلعتهـا، ومن خلال المباحثـات بين السفراء

الذين بذلـوا الجهد في سبيل إقامة سلم بين الامبراطـور والسلطان، أمكن في شهر آذار(شبـاط ١٢٢٩) تحقيق الوصـول إلى اتفاق ومن ثـم تنفيذه، أي أن تقول بأن السلطـان نفسه أعاد بسلام وبهدوء إلى الامبراطـور مدينة القدس والأجزاء الأخرى العائدة لهذه المملكـة، وفي اليوم الثامن عشر من شهـر آذار نفسـه،وفي يوم الأحـد آنـذاك جـرى غنـاء:«ابتهجي يـاقـدس الـرب،وكونـوا كلكم مبتهجين يـا من تحبـونـه»، وتم تنفيـذ هذا، ودخـل الامبراطور نفسـه مع الجيـش الصليبي كلـه إلى المدينة مبتهجين، والـذي كتب هذا كـان شخصياً هناك، ولم ينحرف عن طريـق الحق، وقدم روايته بناء على ما رآه ومن معلـوماته المؤكدة، زد على هذا، إنه عنـدما تتم قراءة التاريخ والعودة إليه مراراً نجد أنه منـذ أيام الامبراطورين هرقل وكونراد، ما مـن امبراطور دخـل إلى تلك المدينة إلاّ الامبراطـور فردريـك هذا، كما ويقرأ كيـف أن الصليبيين احتفظوا بها بسلام وهـدوء حتى مجيء الـوقت الذي تقـدم ذكره أعـلاه، وهو وقت احتـلال الخوارزمية لها،...، ثـم عاد الامبراطور فردريـك في شهر نيسان، في الخمسعشرية المذكـورة أعلاه، إلى مدينة عكا، حيث سمع بأن الجيش البابوي قد غزا مملكة صقلية، واحتل البـلاد كلهـا حتـى كـابـوا Capua..... ثـم أقلـع على سطـح البحـر الامبراطور المذكور أعلاه، وكان ذلـك في الأول من أيار من الخمسعشرية المذكورة أعـلاه، وأبحر مـع سبعة مـن الغلايين المسلحـة، كان الكـونت هنري صـاحب مالطـا قد جلبهم معـه في ذلك الحين من مملكـة صقلية، وقد وصل إلى ميناء برنديزي في العاشر من حزيران .

(١٢٣١): وقد بعـث مارشالـه اللورد رتشـارد فيلنغر مع جيـش من فـرسان المملكـة إلى جـزيرة قبرص، ولم يستطـع النـزول هناك لأن اللـورد جون صاحـب بيروت وقف ضده مع جيشـه الكبير، وقد ذهبوا إلى بيروت في سورية ونزلـوا في بلاد هذا اللورد جون نفسه، ولقـد استطاعوا السيطرة على المدينة غير أنهم أخفقوا في الاستيـلاء على القلعة، وعندما جـاء شهر

أيار من هذه السنة(١٢٣٢)، أبحر جون صاحب بيروت هذا نفسه من قبرص إلى مدينة عكا مـع جيشه، وانضم إليه جميع سكان عكـا، وبعدما جمع جيشاً استطاع أن يـرفع الحصار عن بيروت، وقام اللـورد رتشارد هذا نفسه بركوب غـلايينه وصحب سفنه التي كانت معـه، وذهب إلى جزيرة قبرص، التي كـانت متروكـة بدون مدافعين، وتمكـن بوسـاطة جيشـه من الاستيلاء عليهـا كلها لصالحه وأخضعها لإرادتـه ولحكمه، وقام صـاحب بيروت بعد هذا بحشد جيش، فعبر البحـر وجاء إلى قبرص مع الجنويين، واقتتـل الطرفـان قرب نيقـوسيا مـع جيـوشهما، وهزم اللـورد رتشارد مـع جيشه، ووقـع ما لايقل عـن أربعمائة من فرسـانه بالأسر أو قتلـوا، ونجا اللورد رتشارد مـن خلال فراره مع بعـض الفرسان التابعين لـه، وتراجعوا إلى غلايينهـم التي تركوهـا على مقربة مـن شاطىء البحر هنـاك، وعادوا بوساطة هـذه الغلايين إلى صور، التي كانت بيد اللـورد رتشارد، وكان قد حصنها لصالح الامبراطور .

الملحق الرابع

روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور

أ: رواية مرسيليو جورجيو الوكيل البندقي (Tafel und Thomas (Urkun den) Zur Alteren Handels- und I I,354-356 staatges chichte Der Republik venedig)

(تشرين أول ١٢٤٣)

روى مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أخبار عدد من الوقائع التي وقعت في ذلك المكان وفق تسلسلها، وذلك من أجل أي واحد يريد أن يدخل ضمن أحكام كومونة البنادقة، حتى يتمكن من حماية نفسه والاحتراز لها، ولكي يستطيع تدبر هذه الأعمال المتعلقة بمجد وازدهار وصلاح السيد الدوج وكومونة البندقية، ولهذا تدبرت أنا مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أمر تدوين ماسوف يظهر أدناه كتابة.

ذلك أنني عندما دخلت سورية للمرة الأولى، وجدت اللومبارد، الأشرار جداً، الذين كانوا مستولين على صور لصالح السيد الامبراطور فردريك، وكانوا يتصرفون وكأن جميع الموارد التي ينبغي أن تكون لكومونة البنادقة جميعها في داخل مدينة صور وفي خارجها هي حق لهم وملك، وبذلك حرمونا من كل شيء كلياً، ولقد رغبت في أن أعرف من الوكيل الذي كان هناك عن الامبراطور المذكور لماذا كان يفعل هذا، ورؤية فيما إذا كان من الممكن له اعادة ذلك إلينا، وقد بعثت إليه برسل فرفض الاستماع إليهم، لابل رفض حتى رؤيتهم، وهذا لاشك هو الأسوأ، كما جعلني أعرف من خلال قوم أدنياء أنه لايثق بي خاصة، ولايثق بالبنادقة الآخرين بالأشخاص وبالأشياء، وبناء على هذا إنه إذا ما أراد أن

يؤذيني شخصياً أو يـؤذي البنادقة الآخرين، يمكن أن يعـد بمثابة خائن، ورأيت إثـر هذا أن الـوكيل المذكـور كان يـوجه جهـوده كلها في محاولـة الاستيلاء على مـدينة عكا مـن أجل حرمـاننا وطردنـا مع جميع الآخـرين المرتبطين بـالكنيسة الـرومـانية، وبـدأت بحكمـة في محاولـة إقناع اللـورد فيليب دي مونتفـورت، الذي كان صاحـب تورون، مع آخريـن اعتقدت أنهم كانوا قادريـن على القيام بأعباء مثل هذه المواجهـة الهامة، واستطعنا في النهـاية أن نحتفـظ بعكا، ومـن ثـم إعادة الاستيـلاء على صور، وقـام الذيـن كانوا بـالحقيقة يمعنون التفكير حول هـذه الأشياء التي حـدثتكم عنها، والـذين كـانوا يقلبـون الرأي في عقـولهم عما يمكن أن يحدث لهم، قاموا بالموافقة على الأمور التي اقترحتها عليهم.

وقـام البارونـات المتقـدم ذكرهـم، وقد رأوا المخـاطـر التي يمكـن أن يتعرضـوا لها في عكا من وكيـل الامبراطور، وكـانوا واثقين من المعـاهدات المعقـودة مع الجنـويين، قـاموا بـالإعداد للمشروع التـالي ومـن ثم القيـام بتنفيذه: يتوجـب على ملكة قبرص التي اسمها أليس أن تطـالب بمملكة القدس مـن رئيس أساقفـة صور، الذي كان نـائب البطريرك ومـن جميع الأساقفة الآخريـن في المملكة المذكورة، ومن بيوت الرهبـانيات النظامية، ومن كـومونة مـدينة عكا، ومن كـومونتي البنـادقة والجنويين، ومـن جميع الآخرين بموافقـة صامتة على أساس أنها وحدها فقـط في المملكة، كانت وفقاً للعادات هي الأكثـر شرعية من أي انسان آخر كان في ذلـك الوقت موجوداً في المملكة، ورأى الأسـاقفة والبارونات مع الآخريـن الذين تقدم ذكرهـم أعلاه، بعد تشـاورهم مع بعضهم بعضـاً بكل دقة، أن مـا طلبته الملكـة أليـس كان حقـاً، ولـذلـك وافقـوا على التماسها على أنـه مطلـب شرعي، وأقسمـت الملكة المذكـورة— وفقاً للعـادات— بين يدي رئيـس أساقفة صـور والبارونات أنها سوف تحكـم المملكة وفق الطريقـة التالية: إنها سوف تحافظ على عـادات المملكة فيما يتعلق بالبارونات، وبـالفرسان

وبجميع الشعب، وستحافظ أيضاً على أوضاع الكنيسة وأحوال الدين، ولسوف ترعى امتيازات الأفراد وتحافظ عليها، ولسوف تحفظ بشكل خاص وتبقي بشكل سليم المعاهدة والامتيازات مع دوج البندقية وكومونة البنادقة، وبعدما حلفت الملكة قام زوجها واسمه رالف دي سواسون فأقسم مثلها ، وبعد إقسام الملكة هي وزوجها، قدم كل البارونات، والفرسان وشعب المملكة الولاء للملكة ولزوجها، وذلك وفقاً لعادات المملكة، وكان هذا هواليوم الخامس منذ بداية شهر حزيران من السنة المذكورة أعلاه.

وبعدما تم انجاز جميع ماورد ذكره أعلاه، قامت الملكة المذكورة، وقد استحوذت على حكم المملكة، وطلبت مني تسليح واحد من الغلايين على حسابها، بما أنها ترغب به من أجل مقصد الذهاب لـلاستيلاء على صور، على أساس أنها بلادها التي من مسؤولياتها المطالبة بها والحصول عليها، ورتبت معنا أن نعيد الاستيلاء على حصتنا، وبناء عليه اجتمعنا للتشاور، ورددت عليها بنفس راغبة بأننا سوف نمنحها الغليون، لكن ليس كما سألت على حسابها، بل على حسابنا كلياً، وكان هذا بسبب أن السيد الدوج وكومونة البندقية لم يعتادوا على القيام بأية خدمة لأصدقائهم على حساب هؤلاء الأصدقاء، بل على حسابهم هم كلياً، هذا وطلبت منها ومن البارونات مايلي: إنه بمشيئة الرب سوف نحصل على تملك البلاد مع البارونات، ووقتها سوف تعيد إلينا — تماشيا مع اليمين— كل ما كان قد صودر وانتزع مما كنا نمتلكه في صور في كل من الداخل ومن الخارج وفي كل مكان آخر من المملكة كلها، وأنها سوف تحافظ على امتيازاتنا كاملة دونما نقص، وردت السيدة الملكة واللورد رالف زوجها، وكذلك رد صاحب بيروت واللورد فيليب دي مونتفورت، بأن ذلك سوف يكون خدمة عظمى، ووعد كل واحد وفقاً لما وعدوا به وحلفوا على ذلك— ذلك أنهم كانوا مرتبطين بتحالف معقود فيما بيننا

وبينهـم، وكـان قـد أقيـم لـدى قـدوم الامبراطـور— وتعهـدوا بمـواثيـق الفروسية بأنه إذا ما أعطاهـم الرب البلاد سيعيدون تنظيم الأمور الادارية وسوف ينفذون هـذه الأشياء، وذلك حسبما طلبت، وقمت أنـا بناء عليه، وقد وثقـت بوعـودهم وبـاخلاصهم وصـدقهم، فـأعطيتهم الـذي طلبوه منـي، وذهبـت معهـم على الطـريق البري، وكـان معـي ثـلاثين فـارسـاً مسلحين بشكل جيد، وكان هذا في التاسع من الشهر المذكور.

وبعد مـا وصلنا إلى صور، استولينـا على المدينة في نهاية اليوم الثـالـث، وكان هذا بمعـاونة بنادقتنا الـذين كانوا بـرجاسية فيها، وأعـدنا الاستيلاء على القلعة في نهايـة اليوم الثامن والعشريـن بعد جهد كبير، لأننا أنشـأنا هناك آلة حصـار، ومالبثنا أن استولينـا عليها، وما كنا لنستـولي عليها لولا أن وكيل الامبراطـور الذي كان ذاهباً إلى أبـوليا قد جنحت بـه سفينته في ممر جبل بارشي Barche، وقد عاد بالمركب الصغير العائد للسفينة التي أبحر فيها، ورجع إلى صـور، وهكذا اعتقلناه، وقد أنشأنا منصـة فوق برج مرتفع مـواجه للقلعة، وأعلنا أننا سـوف نشنقه، وارتعب الذيـن كانوا في القلعة مـن عزمنـا على شنقه، وسلمـوا القلعة وفـق الشروط التاليـة: إنهم سوف يحصلون على حـريتهم، وبعدما اكتمـل الاستيلاء على المدينة وعلى القلعة، أخـذت الملكة طـريقها إلى صـور، وقد جئـت إليها عبر الطـريق الرئيسي وطلبت منهـا ومن البارونات وجوب أن يعيـدوا إليّ جميع الأشياء التي وعدوا بها، وأن يجعلـونا نتملك الأشياء التي انتزعـت منا، وقد ردت الملكة عليّ مع البـارونات بأن لديهم الرغبة بفعـل ذلك بكل سرور، وأنهم متمسكون بما وعـدوا به، لكنهـم سألوني الانتظـار حتى يعـودوا إلى عكا، من أجل أن يتمكنـوا من ايضاح الأمور لـرجال المملكة، وبذلـك يحولون ضد أي تحرك شرير يعزى إليهم، وبذلـك سوف يكون ضمانة عظمى لنا، وقالوا بـأنهم على يقين أنه بالنسبة لهذه القضية لن يكـون هناك أي عمل معارض من قبل أي انسـان، ولايمكن أن يكون، ولمعرفتي بأنـه لن يكون

هناك من سوف يعارضهم، كما قالوا، فقد وافقت.

(ثم تابع مرسيليو يعدد جميع الممتلكات والامتيازات التي عادت إلى البنادقة في صور وعكا وفي جميع أرجاء مملكة القدس).

ب: رواية جون دي إيبلين صاحب يافا حول «الوثائق المتعلقة بالوصول إلى وكالة المملكة ونيابتها» قوانين القدس: ٢/ ٣٩٩ــ ٤٠

عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية بعث برسائل وبرسل لوضع رجل محله، وبناء عليه اجتمع رجال الاقطاع، وكان بين الحضور يستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا، الذي كان آنذاك نائب البطريرك، وقد قالوا مايلي: إذا كان يرضي الملك كونراد أن يقدم لتسلم سلطاته، سوف يستقبلونه بمثابة سيدهم الشرعي، ذلك أن أحكام المملكة المذكورة وممارساتها لايمكن أن تدار بالرسائل وبالرسل، وهم لن يتمكنوا من فعل ذلك له، لأن هذا الأمرسيكون معاكساً لأيمانهم ولإخلاصهم، وبالنسبة له الذي هو سيدهم، وسوف يرتبط بهم بالثقة والاخلاص، هم متأكدون بأنه لايرغب مطلقاً بالعمل وفق أي طريقة يبدون هم فيها أو يكونون مقترفين لعمل أي شيء زائف أو معاكس لأحكام وممارسات المملكة المذكورة التي متوجب عليه حكمها والحفاظ عليها، ولأنه قد بدا لهم أنه لايعرف جيداً الممارسات المذكورة، فإنهم قد أخبروه بها، غير أنهم سوف يحمون المملكة وفقاً لممارساتهم حتى يتفضل ويأتي، وكان عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية، اجتمع رجالات المملكة، ومثلوا بحضرة يستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا، والذي كان النائب البطريركي في نيقوسيا في الوقت نفسه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبل، وبينوا بأحاديثهم كيف أن مولاهم الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبما أنه وصل إلى السن القانونية، لم يعد والده الامبراطور فردريك وكيل البلاد، ذلك أن أحكام وممارسات مملكة القدس، وكذلك مملكة قبرص هي كما يلي :عندما يصل الوريث الشرعي إلى السن القانونية يفقد الأب

وكذلك تفقد الأم حقوق الوكالة، ولهذا السبب فقد الامبراطور فردريك حقوق الوكالة، وبودهم تنصيب رجل يتولى السلطة وفقا لمقتضيات ممارساتهم، وبما أن السير بالين، صاحب صيدا متوفى فقد اختاروا القسطلان السير يودس دي مونتبليارد، ليتولى الاشراف على السيادة، لأن لا ابن عمي صاحب قيسارية ولا أنا رغبنا بهذه الولاية لأسباب محددة خاصة، وعندما عرفت ابنة عمتي الملكة أليس بأن الامبراطور قد فقد الوكالة بوصول ابنه إلى السن القانونية، تدبرت جمع كل الأعيان التي أمكنها الحصول عليهم، وذهبت إلى الاجتماع بحضور رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وكان بين الحضور مقدم الداوية، الراهب أرماند دي بيرغورد، وقنصل جنوى، ووكيل البندقية، وطالبت بمملكة القدس من خلال ابنة أختها الامبراطورة ايزابل، على أساس أنها الوريث الأكثر ظهوراً بشرعيته، وقدطالبت بحقها في الاجتماع، وقالت بما أن حفيدها الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية ولم يقدم شخصيا للدخول إلى مملكته، إنها أقرب وريث ينبغي أن يدخل إلى المملكة، وهي أقرب وريث في خط الأسرة المتداولة لحكم المملكة، وهي جاهزة للبرهنة على ذلك، إذا ما رغب الاجتماع بذلك، أو إذا ما اعتقد أنه من الضروري قيامها بالبرهنة على ذلك، وبناء عليه رجت وطلبت عدم تسلم الرسائل التي أرسلها الملك كونراد، أو التي سوف يرسلها، وعدم استقبال الرسل الذين أرسلهم أو سوف يرسلهم، لأن ذلك سوف يكون مضاداً لأحكام المملكة المذكورة وممارساتها، التي لايمكنهم بأي حال من الأحوال الوقوف ضدها، واجتمع الأعيان للتشاور، ووافقوا جميعاً على قبول الملكة أليس، باستثناء القسطلان فقط، الذي رغب بعدم قبولها وتسلمها السلطة قبل إرسال رسالة إلى الملك كونراد بأن عليه القدوم، أو أن خالته سوف تقبل ملكة، ورأى صاحب بيروت ورأيت أنا وكذلك ارتأى الآخرون أنه ليس من الضروري الارسال له، وبذلك دخلت الملكة أليس إلى السيادة، وقدّم لها الولاء على أنها الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً،

وأقـوى أصحاب الإدعـاءات بـالعرش أمـام الاجتماع الـذي أخذ شكـل محكمـة البلاط، وذلـك باستثنـاء الملك كـونراد،ثـم حركـت قضية جميـع العطاءات التي منحهـا الامبراطور وألغيت حتى أن وظيفة كـافل المملكة التي منحت إلى السير ريموند صاحب جبلة قد ألغيت، لأن ما من شيء قانـوني عمل خارج إطار أحكـام وممارسات المملكة ولهذا السبـب ألغيت هـذه الأشياء، وبعثـت الملكة أليـس المذكورة رسـالة إلى قبرص إلى ابنهـا الملك هنـري وإلى أقربائنا الـذين بادروا فقـدموا أولاً، ثم ذهب صـاحب بيروت، والسير رالـف دي مونتفـورت صـاحـب تورون، والسيرجـون دي إيبلين صـاحب أرسـوف، وأنا، وفـرسان عكـا، عبر البر مع السير رالـف دي سواسون، زوج الملكة المذكورة، وذلك لـلاستيلاء على صور وانتزاعها من السير بيتير Ytier (لوثير) فيلنغر الذي كان هنـاك لصالح الامبراطور، وقد استولينـا عليها، ووضعها أعيان المملكة تحت حمايـة صاحب بيروت، ووضعوا قلعة عكا تحت حماية صاحـب تورون ومعه السير نيقولاس أنتيوم Antiaume، لأنه ينبغي على الأعيـان حراسة الحصون العـائدة للمملكة عندما يكون الورثة تحت السن القانـونية، أو عندما يكونون خارج البلاد، ولم يـدخلـوا بعـد إلى مملكتهـم كما ينبغـي أن يفعلـوا، كما أننـا لم نقبـل بوضعهم تحت أمرة السير رالـف دي سواسون المتقدم الذكر لتـوفر مخاطر محددة قد تنجم عن ذلك.

ج: من هرقل: ٣٣/ ١/ ٤٢٠

عندما كان الحجاج في عكا، تـزوجت أليس، أم ملك قبرص من رجل نبيـل فرنسي، كـان اسمـه رالـف دي سواسـون، وكـان هـو أخ الكونـت سواسون، وبعد زواجه منها تقدم بنـاء على موافقة جزء من رجال المملكة وطالب لزوجته الملكة، بحماية مملكـة القدس والسيادة عليها، وقد طالب بذلـك لأنها كانـت أكثر الورثـة شرعية بين ورثة الملـك عموري جـدها، وذلك بين الموجوديـن في البلاد، أو كانوا مـوجودين منذ وفـاة الامبراطورة

ايزابل، التي كانت زوجة الامبراطور، والتي لها ولد كان في أبوليا، وهو قد كان الوريث الشرعي للملكة، لكن بما أنه لم يكن حاضراً، ولم يحضر من قبل، كانوا على استعداد لاستقبالها بمثابة سيدتهم، ويوكلون إليها المملكة لتتولى حمايتها، وسوف يربطونها بها باستثناء حقوق الملك كونراد وامتيازاته، وكونراد هو ابن الامبراطورة ايزابل، التي هي ابنة أختها، وهذا ما تم صنيعه، وعندما نال رالف دي سواسون السيادة وفق الطريقة التي سمعتم بها، أمسك بالسلطة بشكل ضعيف جدا، لأن الذين تمت توليتهم من قبله— والذين كانوا أقرباء زوجته— امتلكوا سلطة أكبر وصلاحيات أعظم مما تملكه، لذلك بدا بأنه مجرد خيال، ولهذا الحال، وبسبب الاذلال والاهانة التي تعرض لها، تخلى عن كل شيء، وترك زوجته، وذهب عائداً إلى بلاده.

الحواشي

١— كان هيوج دي لوزغنان، ملك قبرص(١٢٠٥ ــ ١٢١٨) ابن عموري دي لوزغنان ملك قبرص، واسشيفي دي إيبلين، ويقدم كتاب هرقل(ص ٣٦٠) وصفاً لشخصه ولأخلاقه، وقد عدّ ملكاً قديراً، مع أنه كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما مات، وقد مضت السني المبكرة من حكمه تحت وصاية وولتر دي مونتبليارد، زوج أخته بورغوني Borgogne، وتنبع أهميته في التاريخ من مشاركته في الحملة الصليبية الخامسة.

٢— كان مزار بيعة سيدتنا في طرطوس واحداً من أكثر الأماكن المقدسة شعبية في سورية، فقد كان هدفاً لعدد كبير من الحجاج، وكانت طرطوس تابعة لكونتيه طرابلس، لكنها أصبحت منذ ١١٧٠ تابعة لفرسان الداوية، وما تزال كنيستهم التي بنيت حسب النظام القوطي واحدة من أجمل الأبنية الصليبية المتبقية في سورية.

٣— عاد الملك هيوج من عكا عبر طرابلس، حيث ذهب مع أندرو صاحب هنغاريا وجون دي بريين، إلى الحملة الصليبية .

٤— نقل الجسد فيما بعد إلى المشفى في نيقوسيا، حيث بقي بشكل دائم.

٥— كانت أليس أوف شامبين، ملكة قبرص، ابنة هنري أوف شامبين وإيزابل بلانتغنت صاحبة القدس، وتزوجت إيزابل بشكل متتابع من همفري صاحب تورون، ثم من كونراد دي مونتفرات، ثم من هنري دي شامبين، وأخيراً من عموري دي لوزغنان، وكانت مريم صاحبة القدس ابنتها من خلال كونراد، وأليس من خلال هنري، وتم نيل الموافقة الكنسية على السماح بزواج أليس من هيوج الذي كان ابن زوج أمها الرابع.

٦— البنات كن: مريم التي تزوجت من وولتر الرابع أوف بريين،

وإيزابل التي تزوجت من هنري صاحب أنطاكية الابن الصغير لبوهيموند الرابع.

٧— نقرأ في الأعمال«شهرين» حسب تصحيح كوهلر.

٨— هنري الأول صاحب قبرص(١٢١٨ ـ ١٢٥٣).

٩— كانت إيزابل صاحبة القدس، وأم أليس أختاً غير شقيقة لجون ولفيليب دي إيبلين، بحكم أن أمها كانت مريم البيزنطية التي تزوجت أولاً من عموري الأول ملك القدس وبعد موته من بالين دي إيبلين.

١٠— كان جون دي إيبلين، صاحب بيروت، ابن بالين دي إيبلين صاحب نابلس، وكذلك مريم البيزنطية، وجون هو بطل تاريخ فيليب دي نوفار، وكان جون قد جعل قسطلان القدس من قبل هنري دي شامبين، وقد حمل هذا اللقب من سنة ١١٩٤ إلى ١٢٠٠، عندما استبدل وظيفة القسطلان بإقطاع بيروت، وقد تزوج من هلفيس أوف نفين Helvis of nefin، وقد أنجبت له ولداً، توفي شاباً بعد وفاتها، ثم تزوج بعد وفاتها من ميليساند صاحبة أرسوف، التي رزق منها بخمسة صبيان، أشير إليهم في تاريخ فيليب، وكان صاحب بيروت العجوز واحداً من كبار الحقوقيين في بلاد ما وراء البحر، كما كان واحداً من أساتذة نوفار، وقد كان جون صاحب بيروت أثناء كون مريم صاحبة القدس دون السن القانونية هو وكيل القدس من ١٢٠٦ إلى ١٢١٠ .

١١— كان فيليب دي إيبلين ـ أخو جون صاحب بيروت ـ صاحب بيرستيرونا Peristerona في مقاطعة ميسورا Messorea القبرصية(ماس لاتري: ٣ / ٦٠٨ ـ ٦٠٩)، وقد تزوج من أليس دي مونتبليارد الذي كان أبوها وكيلاً أثناء صغرسن هيوج الأول،

وقد ولد لهما جون دي إيبلين صاحب يافا، ومصنف Livre des assises de la haute cour، وقد امتلك فيليب قصراً في ليماسول، احتله فردريك الثاني عندما توقف في قبرص أثناء كون هنري الأول صغيراً، وتنبع مكانته في التاريخ من أنه كان وكيل قبرص في أثناء صغر سن هنري الأول.

١١— قدم كتاب هرقل(ص ٣٦٠ ـ ٣٦١) رواية تختلف بعض الشيء عن هذه الحادثة:«عندما تسلمت(أليس) الولاء، وضعت في مكانها للاشراف على المملكة خالها ـ أخو أمها ـ الذي كان اسمه فيليب دي إيبلين، وقد فعلت ذلك بحماقة، ذلك أنها عندما حاولت التراجع، لم تستطع فعل ذلك، كما ستسمع».

وتبعاً لقوانين كل من القدس وقبرص يمكن انتقال الوكالة على وريث قاصر إلى الحي من الأبوين، حيث لايمكن لميراث المملكة الضياع من خلاله(قوانين القدس: ١/ ٦٠٩ ـ ٦١٠)، وكانت المحكمة العليا دوماً جاهزة للمحافظة على حق الوكالة وترتيب الأفضل لها، وخرجت في هذه الحالة على الحكم العام، بإعطاء أليس كلاً من الوصاية على ابنها مع موارد المملكة، ولأن العادات المقبولة قضت بأن لاتوكل أمور الوريث إلى الشخص نفسه الذي سيكون وكيل الدولة، وأعطي الوكيل بالعادة أمر الإشراف على الحكومة مع التمتع بالموارد، مع طلب حساب دقيق عندما يسلم الوكيل وظيفته، ولقد أعطيت أليس في هذه الحالة الوكالة والموارد، والوصاية على الوريث، غير أن الإيبليني قد جرى تعيينه وكيلاً للوكيل لإدارة المملكة، وسواء أكان تعيين فيليب من قبل المحكمة نفسها، أو من قبل أليس بحكم كونها وكيلة، فإن اليمين الذي أعطي للايبليني قضى حتى يصل هنري إلى السن القانونية، وهذا لايمكن نقضه بأمر أليس، ويحتاج إلى أمر من المحكمة(إنظر لى

مونت :الملكية الإقطاعيـة في المملكة اللاتينية في القدس ص ٤٩ ـ ٥٤).

١٣ــ قال أمادي(ص ١١٨) بأن أليـس قد أعطت عشر موارد قبرص إلى الكنيسة وذلك بموافقة البارونات .

١٤ــ قال هرقل(ص ٣٦٧) بأن هنري قد جرى تتويجه في سنة ١٢٢٨، عندمـا كان في الحاديـة عشرة من عمـره لمدة ثلاث سنـوات، وهذا يجعله قد تتوج في الثامنة من عمره في سنة ١٢٢٥ .

١٥ــ يورستوريو، رئيس أساقفـة نيقوسيا(١٢١٧ ـ ١٢٥٠) وكان أخاً لفـولـق أسقف ليماسـول، وبيتر دي مـونتـاغيـو، مقدم الـداويـة، وغورين دي مونتـاغيو مقدم الاسبتارية، أما جيرارد دي مـونتاغيو، فكان فـارساً قبرصياً، وزوج اسشيفـي دي مونتبليارد، الـذي قتل في معركة نيقوسيا سنة ١٢٢٩، كان حفيـده(انظر ماس لاتري:«تاريخ الـوثائق الـلاتينية في جـزيرة قبرص»«وثـائق الشرق اللاتينـي: ٢ / ٢١٤ــ ٢٢٩، ديــلا فيـلا لى روكــس، «الاسبتـاريــة في الأرض المقدسـة»ص ١٣٧، وفيمايلي فصل ٥٧) وكـان يوستـوريو واحـداً من أعظم رؤساء الأساقفة الذيـن عرفتهم نيقوسيا، وقد عمل الكثير لإغناء رئاسة أسقفية نيقوسيا وتقويتها .

١٦ــ جرت العـادة بتتويـج ملوك قبرص في كنيسة القـديسة صـوفيا في نيقوسيا، التي كـانت الكاتدرائية الرئيسـة في قبرص، وجرى تتويج ملوك القـدس ، طوال بقاء مملكـة القدس في القـدس أو في صور، وبعـد سقـوط المملكة، وعنـدمـا بـات ملـوك قبرص أيضاً ملـوكـاً للقدس، جرى تتـويجهم ملوكاً لقبرص في نيقوسيا، وملـوكاً للقدس في فيماغـوستا، في الكنيسيـة الكاتـدرائية للقـديس نيقـولا، وكانـت كاتـدرائية القديسة صـوفيا في نيقوسيـا أيضاً المكان المفضل لـدفن

ملوك قبرص.

١٧— عندما اشترى غـي دي لوزغنان قبرص من رتشـارد ملك إنكلترا، احتفـظ لنفسه بلقـب ملـك القـدس، ولم يمتلك أخـوه عمـوري، الـذي خلفـه في قبرص، أي لقـب ملكـي، ولـذلـك طلـب مـن الامبراطور هنري السادس أن يمنحه التـاج الملكي مقابل الاعتراف بالتابعية إلى الامبراطورية، ووضـع التاج على رأس عموري من قبل الأسقـف كونـراد أوف هيلدزهيـم Hildesheim، العامـل باسـم هنري السادس، وكان ذلك سنـة ١١٩٧، وليس هناك من اعتراض على حـق ادعـاء الامبراطـور بالسيـادة الشرعيـة على قبرص، وكـان جون دي إيبلين نفسه على استعـداد تام للاعتراف بسيادة فـردريك على الملك هنـري، وجاء الاعتراض عندما بعـث فردريك بتـوماس دي أكينو، كونت أسيرا، وكيلاً لعكا.

١٨— جاء في نـص«الأعمال»:«في السنة الخامسة والعشرين مـن العمر»، وصحح كوهلـر ذلك من أمادي ص١١٨، وفي حين اختلـف سن الـرشـد في أوربـا في القـرن الثـالـث عشر، كـان على العمـوم سـن الخامسـة عشرة أكثر شيـوعـاً من الخامسـة والعشريـن، وكان سـن الخامسة عشرة هـو السن القانـوني في كل من القـدس وقبرص، أما بـالنسبـة«لعـادات ألمانيـا» التي طـالـب بها فـردريـك استنـاداً إلى ملاحظاته عن الـ Sachsens piegel و Schwabens pie-gel، وذلـك استنـاداً لما جـاء في كتـاب(غـولهيرمـوز Guil-hiermozأطروحـة حول أصل النبـالة» ص ٣٩٣ ـ ٤٢٥ ،) فقد أراد فردريك أنه عنـدما يصل الوريث إلى سن الثـانية عشرة يمكن أن يوضع تحت عناية Avoue، يتولى خدمة إقطاعه حتى يصل إلى سن الحادية والعشرين.

١٩— غيرت طبعة RHC(ص ٦٧٢)هذه الفقرة بحيث أصبحت:« أنها

ينبغي أن تلتمس في أن يـدعها تستحوذ على الوكالـة بنعمة»، وهذا التعـديل غير مسـوغ في النـص، ومع الاقـرار أنـه أكثر منطقيـة في القراءة.

٢٠— كان الايبلينيون أخـوالاً كباراً لايزابل صاحبـة القدس، ذلك أنهم كانوا أخوة غير أشقاء لجدتها من جهة أمهـا ـ الملكة إيزابل صاحبة القدس.

٢١— كان عمـوري برلياس، الرجـل الشرير في حكايـة نوفار ابناً لـرينو برليـاس الذي كان فـارساً من بواتـو، استقر في قبرص، وكانـت أمه إيزابل لى روكس دي بيسان، وهي وريثة إقطاعي«عربي وزكنين» في القدس، وقد تزوجـت إيزابل فيما بعد بيرتراند بـورسليت الذي كان حليفـاً لأبنائهـا، وكـان عموري قـد تـزوج مـن قبل سنـة ١٢١٧، أغنس ابنـة بيرترانـد صاحب المرقـب، ويبدو أنـه تمتع بثقـة أليس صاحبـة قبرص، وكان واحـداً من أكثـر أعضاء المحكمـة العليا في قبرص نفوذاً .

٢٣ (٢٢)— كان عمـوري صاحـب بيسان ابـن وولتر صاحـب بيسان وداوس Douce بورسليـت، حاجـب قبرص ١٢١٨ — ١٢٢٠، وكان أبـوه خال إيزابـل صاحبـة بيسان، أم عموري بـرلياس، وعلى هذا كـان العموريـان أبناء خـال، وقد ذهـب عموري بـرلياس إلى أبوليا بعد هزيمة الحزب الامبراطوري في قبرص، وأصبح صاحباً لـ« تـريكاريكـو Tricarico، وقـد تزوجـت أخته مـن بلدويـن دي إيبلين .

٢٤— كـان جوفيـان دي شنشي Chenchi(أو دي روسي Rossi ـ تبعاً لأمادي)زوج إرمـالاين Ermaline دي سواسـون، وأخاً غير شقيـق لفيليب شينـارت Chenart، وذلـك حسبما أكده نـوفـار،

وقليل هـو المعلوم عنـه باستثنـاء رواية نـوفار، وقـد ظهر اسمـه في مراسيـم فردريك الثاني لعـام ١٢٢٦ باسم«جوفيـانوس دي سيبرو Cipro»، وقد وقع تحت رئيس أتباع الامبراطو (H - B. 11.536 - 38)، وكان هذا عندما كان منفياً في قبرص .

٢٥— كـان وليم دي ريفـت أخـاً لجيمس دي ريفـت الـذي تزوج مـن إيزابـل دي سواسون، أخـت إرمالاين دي سـواسون التي تـزوجت من جـوفيان دي شنشي، وكان على هذا قـريباً بعيداً من جـوفيان، والقرابة جـاءت فقط من خلال الـزواج، وينبغي عدم مزجـه بوليم دي ريفـت الأصغر، الـذي أثنى نـوفار عليـه كثيراً على أنه محامـي استئنـاف عظيـم في المحاكـم، وكـان وليـم الأصغـر ابن كـل مـن جيمس وإيـزابل، وأهمية وليـم موضوع البحـث هنا فقط لأنـه كان واحداً من الوكلاء الخمسة في ظل فردريك الثاني .

٢٦— كان هيـوج صاحـب جبلة ابـن برتـراند صـاحب جبلـة، ودولت الأرمنيـة، أخـت الملـك ليـون الأول«وكتـاب أسر مـا وراء البحـار» الذي هـو مصدري لمعظم تفـاصيل أنسـاب هؤلاء، غامـض جداً، وغير مـؤكد بـالنسبة لهيـوج، غير أن إ.ج.ري، قد صحـح المادة في مقـال في (١٨٩٥) R.o.I ص ٣٩٨— ٤٢٢. وقـال: كان هيـوج والد برتراند الابن الثالث لـوليم الثاني وحفيداً لهيوج الأول صاحب جبلة وميليساند صاحبة أرسوف، وزوجة جون دي إيبلين.

٢٧— امتلـك جون صـاحب بيروت خمسـة أولا هم: بـالين، وبلدويـن، وهيوج، وجون، وغي، وقد ظهروا جميعاً في رواية نوفار.

٢٨— كـان بـالين دي إيبلين، صـاحـب بيروت (١٢٣٦— ١٢٤٧)، وقسطـلان قبرص (١٢٣٦— ١٢٣٩) ووكيل القـدس (١٢٤٦— ١٢٤٧) قد تـزوج من استشيفـي دي مونتبليـارد، أرملة جيرارد دي

مونتاغيـو، وقد تعرض للحرمـان الكنسي لزواجه منها بسبـب وجود درجة من القرابة تحظر ذلك، وكـان بالين هو السيد المباشر لفيليب دي نـوفـار، وعلى هـذا حـرص فيليـب على الالحاح على بسـالتـه وأخلافه الحميدة في ثنايا روايته.

٢٩— تزوج بلـدوين دي إيبلين، كافـل قبرص، (١٢٤٦— ١٢٤٧) من أليـس، ابنه وولتر صـاحب بيسـان، وقـد أخذ أسيراً في المنصـورة، عندما كان في خـدمة الملك لويس صاحب فرنسـا، وقد مات سنة ١٢٦٧، مخلفـاً عدداً كبيراً مـن الأولاد كان منهـم فيليب قسطـلان قبرص سنة ١٣٠٢.

٣٠— قال أمادي (ص ١١٩): «قرأوا»، ويبدو هذا تفسيراً معقولاً.

٣١— نوع من أنواع المبارزات.

٣٢— قال كتاب «الاعمال» :«تور»، وصحح كوهلر إلى «تورننغيل» وذلك اعتماداً على نـافار (٧١) وكـذلك مـن بوسترون، وبـاستثناء الـدور الذي شغلـه في الحرب ضد الامبراطـوريين، الذي أتـى نافـار على ذكره، هو غير معروف اطلاقاً.

٣٣—« Etqueil Feroit autel Fin Come Sire Heimexy»
ألح فيليب على وضع جون هذا لكـي يظهر الأعمال التالية لبرلياس على أنها أكثر انحطـاطاً وخيـانة، واقترح مـاس لاترى (ص ٢٣١) أن جـون كان مهتما بـالحفاظ على السلـم بين البارونـات العائديـن للمملكة،، وللحيلولة دون الخلاف في أثناء النيابة.

٣٤— ويقـول النـص «Forspassa» ممـا يعنـي « مضـى»، غير أن تورينول لم يمض بعيداً، ويمكن معرفة هذا من خلال عودة ظهوره بعد وقـت قصير، حاملاً ضغينته ضـد برلياس، وغير راغـب مطلقاً في إقامة صلح معه.

٣٥— بوهيموند الخامس ولد بوهيموند الـرابع صاحب أنطاكية، كان قد ورث مناصـب أبيه، وحكم أنطاكيـة— طرابلس مـن ١٢٣٣ حتى ١٢٥١، ولم يوافق البـابا هونوريـوس الثالث على زواجه مـن أليس على أساس قرابـة الدم، وأخيراً فسخ، وبما أن بلاد طرابلـس كانت تحت الحرمان وقت الزواج، ذهب الزوجـان إلى جزيرة أمام الساحل للاحتفال بـالعرس، وتزوج بوهيمونـد في سنة ١٢٣٧ لوس Lucie ابنة بول دي سيني Segni، وهي ابنـة أخت كبيرة للبابا انـوسنت الثالث.

٣٦— كـان أن يقبل عمـوري بالتعيين بـالوكـالـة من قبـل الملكة خـرق لامتيـازات البـلاد، ولقواعـد الـدستـور، وحسبما ورد أعلاه كـانـت المحكمة العليا صـاحبة السلطة العليا، وأي عمـل أو قرار اتخذ في المحكمة، يمكن أن يغير فيهـا فقط، وأقسم البارونـات في المحكمة على قبول فيليب كوكيل حتى يصـل الملك إلى السن القانونية، وفي المحكمة فقط، وبقرار يتخذ فيها كان من الممكن احداث أي تغيير في الوكـالة، وهكذا جـرت الأمور، حيث أعيـد فيليب إلى الوكـالة، ولعل هـذا كان بقرار مـن المحكمة، واحتفظ بـوظيفته حتى تـاريخ وفاتـه، عندمـا قبلت المحكمـة أخاه جـون صاحـب بيروت ليكون وكيلاً حتى بلوغ الملك السن القانونية.

٣٧— أعطـى هـرقـل (ص ٣٦١— ٣٦٢) روايـة أكثـر تفصيـلاً حـول الحادث كله: « عندمـا تزوج (بوهيموند) منها (أليـس) أرسل رسلاً إلى قبرص، واجتمـع جميـع أعيـان المملكـة في قصر الملكـة، وقـال الـرسل: « تـرسل إليكـم ياسـادتي الملكة التحيـات، بحكم أنكـم رجالها المخلصين وأصدقائها، وبودهـا أن تخبركم أيضاً بأنها كوكيلة لابنها، وبإرادة منها ورغبة، وبـدون أي اكراه وبدون أي سبب آخر غير رغبتها، كـانت قـد وضعت، وأقامـت في مكانها خـالها فيليب

دي إيبلين، غير أنها لم تعد ترغب ببقائه وكيلاً من الآن فصاعداً، وبناء عليه ترسل إليكم أوامرها، بحكم كونكم رجالها، بأن لاتكونوا من هذا اليوم فصاعداً تحت أوامره، وأن لاتفعلوا شيئاً له، وأن تستقبلوا في مكانه عموري برلياس، وأن تكونوا تحت إمرته»، وعندما فرغ الرسل من قولهم هذا، نهض فيليب دي نوفار، وقال: «أيها السادة إنكم تعلمون بأنكم قد أقسمتم لي بأمر من الملكة على أن تطيعوني وأن تنفذوا أوامري حتى وصول الطفل إلى السن القانونية، لأنه هو وريثنا الشرعي، وبودي أن أعرف هل ستبقونني وكيلاً أم لا؟، ثم إنه طلب من كل واحد منهم على انفراد قول ما الذي يريده حول الموضوع، وقال الجميع بأنهم متمسكون به وكيلاً لهم، وذلك باستثناء فارس اسمه بلدوين دي بيليمي Beleme، الذي قال بأنه لن يعترف بوكيل آخر في قبرص غير الملكة أليس، وانقض عليه أقرباء ورفاق فيليب دي إيبلين، ونجا بصعوبة من الموت، وهكذا بقي فيليب دي ايبلين في الوكالة، وصارت الملكة خارجة دون أن تتمكن من استردادها».

وتختلف هذه الرواية عن رواية نوفار، عن قبول فيليب بالتعيين، على أساس أنه جاء من عند أليس وليس من قبل البلاط، ولعل نوفار قد شعر بأنه صنع قضية أقوى لصالح الايبليني، إذا ما ترك ذكر التعيين على أنه كان بوساطة المحكمة، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن رواية نافار تمثل تقاليد روايات البيت الإيبليني، بينما تقدم رواية هرقل نصاً كان هو المقبول بشكل عام في سورية، ولعل هذا النص هو الذي فضله آل لوزغنان ورعوه، وعلى كل حال، وحسب ما جاء أعلاه، من الممكن أن التعيين في هذه الحالة جاء من قبل الملكة أليس، وإنه قد جاء تماما في إطار ما تقوم به المحكمة، ومن غير الممكن فسخه من دون موافقة المحكمة وهذا واضح في كل

رواية من الروايتين حول القضية.

٣٨— لم تكن العلاقات وشيجة كما يبدو من اشارة فيليب، وقد تزوجت هليفس أوف راما بالين دي إيبلين، ومن ماناسيس دي هيرجس، وكان بالين ابنها من الزواج الأول، وهو قد كان والد كل من جون وفيليب دي إيبلين، وتزوجت ابنتا هلفيس من ماناسيس من آنسيو دي بري، وكانت جدة مانسيو دي بري الذي ورد ذكره لدى فيليب دي نوفار، وتزوج آنسيو هذا من أنسيلي Ancelle، أرملة بيتر شابي وقد مات دونما انجاب.

٣٩— كانت كلمة فيليب هي Vayrs، وقد ترجمناها إلى «بشرة متوردة»، وقد حذف أمادي (ص ١٢٠) هذا الجزء الاخير من الوصف، وقال عوضاً عن ذلك ما هو أكثر فائدة للبطل: «وكان له مظهر بهي».

٤٠— جون صاحب قيسارية، وابن وولتر صاحب قيسارية، ومرغريت دي إيبلين، أخت كل من جون وفيليب دي إيبلين، وقد تزوج جون من أليس حفيدة يوستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا.

٤١— هذه اشارة مفيدة، تشهد على حب فردريك للطيور، ومن أجل البحث بشأن معرفته بالطيور انظر : «Dearto venandi Cum avibus في كتاب س.هـ. هاسكن «العلم في العصور الوسطى» (كمبردج، ماس، ١٩٢٤) ص ٢٩٩— ٣٢٦؛ وكان جوفيان في ايطاليا في كانون ثاني ١٢٢٦، عندما شهد على مرسومين لفردريك (هـ.ب: ٢/ ٥٣٦— ٥٣٨).

٤٢— حمل فردريك الصليب وتعهد بنفسه القيام بحملة صليبية، بمناسبة تتويجه في سنة ١٢١٥، ومرة ثانية أثناء زواجه من ايزابل دي بريين في سنة ١٢٢٥.

٤٣— برنديزي.

٤٤— هذا صعب تصديقه بالنسبة للامبراطور، وهو غير عادل، فقد وقع فردريـك مريضاً بالـوباء الذي اجتـاح معسكره في برنديـزي، وكان قد أقلع من الميناء غير أنه كـان مريضاً جداً، لهذا أرغم على العودة إلى اليابسة، وذلك بناء على نصيحـة الجميع، حتى بناء على نصيحة جيرولد بطريرك القـدس، وقد ظن البابا غريغـوري التاسع أن ذلك مجرد محاولة ثـانية لتجنـب السفر، فلذلـك قام على الفـور بحرمـانه كنسياً.

٤٥— كـان الاسطـول الـذي بعــث قبلــه تحت إمـرة تــومــاس دي أكينوAquino، كونت أوف أسيرا، ورئيـس العدالة في Terra di Lavoro ، الذي عينه فـردريك وكيلاً له في سـورية ، وتحت هنري أوف ليمبورغ.

٤٦— طلب القانون مضي أربعين يوما بين تسليم ضمان المبارزة والقتال، ووقـوع المبـارزة نفسهـا (انظر قـانـون القـدس: ١/ ١٦٠— ١٦٢. الملكية الاقطاعية ص ٢٧٩).

٤٧— جيرولد أوف لوساني Lausanne ،راعي ديـر موليم وكلـوني من قبل، وأسقف فـالنس، وقد جرى تعيينـه بطريركاً للقـدس من قبل غريغوري التاسـع مع صلاحيات نيابة البابا، وكـان موضوع دراسة لـ: و. يعقـوب «جيرولد بطـريرك القـدس» (آخن ١٩٠٥)، وكـان جيرولـد فعالاً جـداً في معـاداته لفـردريك الثـاني، وقـد استدعـي أخيراً، بناء على اصرار الامبراطور.

٤٨— كان وولتر صاحب قيسارية قسطلان قبرص (١٢١٠— ١٢٢٩)، زوج مرغريـت دي إيبلين، أخت جون وفيليب، وكـان والد الشاب جون صاحـب قيسارية، وكان مـن أعوان الايبلينيين الصلبين، وقد

مـات في معركـة نيقـوسيا، حيـث قتـل من قبـل دي سنشي حسبما روى نافار.

٤٩— أعطـى أمــادي (ص ١٢٢— ١٢٣) وبسترون (ص ٦٢— ٦٣) روايات أكثر تفصيلاً حول هذه المبارزة.

٥٠— قـال أمـادي (ص ١٢٣) بشكــل محدد بـأنهم اتهمـوا الايبلينيين بالتمييز ضدهم لأنهم أحبوا الامبراطور.

٥١— أعطـى كتاب «حـوليات الأرض المقـدسـة» (ص ٤٣٨) تاريـخ ١٢٢٧ نفسه، وجاء في هرقل (ص ٣٦٥) قـوله: «في الصيف الذي جاء بعده في سنة ١٢٢٨ لتجسيد مولانا يسوع المسيح».

٥٢— أبحر فردريك من برنديزي في ٢٨ حزيران سنة ١٢٢٨، والتاريخ الذي أعطاه نافار هو خطأ.

٥٣— أصر غريغـوري التاسـع بالأصـل على ذهاب فـردريك في حملتـه الصليبية، لكـن عندما شرع فـردريك ثم عـاد، قام البـابا بحرمـانه كنسياً، وحظر ذهابـه، وقد سعى بكل وسيلة ممكنة بعـد ذلك، عند مغادرة فردريك لاغلاق الفرص بالنجاح أمامه، ولإحباط مساعيه.

٥٤— قال أمـادي (ص ١٢٤): في الأول من حـزيران؛ وقـال بوسترون (ص ٦٣): في الأول مـن حزيـران سنـة ١٢٢٨، وكان الامبراطـور مـايزال في بـرنديـزي في حـزيران، كما ظهـر في وثائق في (هــ.ب: ٣/ ٦٩، ٧١)، وكان التاريخ الفعلي لـوصوله إلى ليماسول في ٢١— تموز ١٢٢٨.

٥٥— كان رتشـارد فيلنغر مـارشال الامبراطـورية، وتـوماس أوف أسيرا، وهيرمان فـون سالزا، وهنري أوف ليمبـورغ، والجماعة التي تقـدمت بالسفر على الامبراطور، في عكا هو والجميع ينتظرونه.

٥٦— أضيف ما بين الحاصرتين من أمادي (ص ١٢٤)، ذلك أن نص نافار بلا تحديد، ويمكنني أن أستخلص أن هذه العبارة في النص الأصيل لفيليب، لكنها حذفت من قبل مصنف «الأعمال» وكان على كوهلر اضافتها.

٥٧— جاء نص هذه الرسالة — عند د. جونا في «تاريخ قبرص» — المرسلة من فردريك إلى جون دي إيبلين حسب مايلي:

«مولاي وخالي الممجد جداً: غاية الرسالة الحالية هي اخبارك بوصولنا إلى ليماسول في طريقنا إلى فلسطين، من أجل تقديم العون لعبيد يسوع المسيح، ولإخبارك أننا نرغب قبل مغادرتنا إلى تلك البلاد، أن ننال الرضا برؤيتكم مع الملك ومع أولادكم أولاد خالنا الأعزاء والمحبوبين، وأن نحظى بمتعة معانقتكم والتعرف إليكم شخصياً، وأكثر من هذا إننا نرغب بالتشاور معكم حول المنهج الذي ينبغي اتباعه من أجل استرداد الأرض المقدسة، ونحن نقدر بدون حدود نصيحتكم، والآراء الصادرة عن رجل حكيم وعظيم التجربة مثلكم، وعلى قناعة أن التحالف القائم بيننا ينبغي أن يسهم في النجاح السعيد لمشروعنا، ولهذا نرجوكم أن تقدموا على الفور إلى ليماسول بسبب أن حالة الاستعجال لقضايانا لاتسمح لنا بالاقامة طويلاً هناك. في ليماسول ١٧— ايلول ١٢٢٨. ابن أختك المحب جداً. الامبراطور فردريك».

وأعطى لوراندو في كتابه « تاريخ ملوك قبرص» (الطبعة الفرنسية، باريس ١٧٣٢) ج١ ص ٥٥، جوهر الرسالة نفسها، إنما بشكل مختصر بعض الشيء، وهذه الرسالة غير موجودة لدى ماس لاتري أوفي Huillard -Breholles ، ومع هذا تحمل هذه الرسالة سمات فيليب دي نوفار، ومع أنها قد تكون غير صحيحة تماما، ونسخة غير دقيقة عن رسالة الامبراطور، من الممكن أنها استقيت

من الأصل.

٥٨— ليس للعبـارة الأخيرة أي معنى، لأن قبرص لم تكن قد قهـرت من قبل الصليبيين.

٥٩— قال هرقل (ص ٣٦٧) «طلب هو (الامبراطور) أن يتملك الوكالة بمـوجب حـق الامبراطـورية أي وكـالة الملـك الـذي كان قـاصراً، ووكالـة بلاده، وولاء الملـك وولاء رجالـه، وفي هذا المقصـد لم يكن هناك مـن يعارضه، وفي الحقيقيـة جرى التنفيذ تمامـاً حسبما طلب، وعندمـا تلقى الولاءات، احتفـظ بالملـك في بيته»، وقد بـدا تسليم الملـك لـه شخصياً في البـدايـة على أنـه قبـول بإدعـاء الامبراطـور بالوكالة، لذا مالبث أن اتضح، أن ذلك كان مجرد اعتراف بسيادته على الملك، وليس موقفاً متقدماً ضد حق الايبليني بالوكالة.

٦٠— ديمتريوس أوف مـونتفرات، ملـك اسمي لسـالونيـك، وهو ابـن بونفيس الثاني دي مونتفرات.

٦١— مانفرد الثاني، مركيز لانكيا Lancia ، والنائب الامبراطوري العام في لومباردي.

٦٢— أفترض أن عبارة Dou regne تعني IlRegno،أي الصقليين، أما بـالنسبة لقـوله :«بارونـات ألمانيا وبـارونات المملكـة» ففيه ربما إشارة إلى مملكة صقلية وليس إلى مملكة قبرص.

٦٣— فراغ بالأصل المخطوط، لعله حوى عدد الرجال.

٦٤— هذا يفيد أن السيادة كانت لاتعني فقط التسيير الكامل والاشراف على التـابـع القـاصر، بـل أيضـاً على مـوارد الاقطـاع أثنـاء حقبـة الاشراف والتسيير.

٦٥— إيزابل بلانتغنت، ملكة القدس(١١٩٠ — ١٢٠٦).

٦٦— عموري الأول ملك القدس(١١٦٢ — ١١٧٤).

٦٧— عموري الثاني صاحب القدس(١١٩٧ — ١٢٠٥).

٦٨— شغل جون وظيفة القسطلان(١١٩٤ — ١٢٠٠)، وقد قايضها ببيروت، حسبما ذكرنا أعلاه، وفتحت بيروت من قبل صلاح الدين، واستردها الصليبيون وكانت في حالة سيئة جداً، وقد بقيت في حوذة المسلمين من ١١٨٧ حتى ١١٩٧.

٦٩— كان من المبادىء الرئيسية في قانون ما وراء البحر، أن المقطع يمكن أن يحرم من إقطاعه بقرار من المحكمة، وقد طالب الإيبليني بتطبيق هذا المبدأ الأساسي.

٧٠— قال هرقل(ص ٣٦٧):«ولداه، بالين الأقدم ولادة، وهيوج الثالث».

٧١— قال أمادي(ص ١٢٩): «ماأن غادر والدهم، عندما الامبراطور، إلخ»، وهذه القراءة أفضل بكثير مما هو مثبت بالنص الأصلي.

٧٢—Traversains.

٧٣— أكد هرقل(ص ٣٦٨) هذا السجن وسوءمعاملة السجناء.

٧٤— كلا الأمرين: كنائب للقدس وسلطان على ملك قبرص.

٧٥— ديودامور هو الاسم القديم لقلعة القديس هيلاريون في الجبال ما بين نيقوسيا وسيرينا.

٧٦— ترجمت اصطلاح Sodceer إلى «مرتزقة» لكن هذا الاصطلاح غالباً ما شمل الفرسان والسيرجندية الذين خدموا مقابل الدفع.

٧٧— بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية(١٢٠١ — ١٢٣٣)، وتبعاً لهرقل(ص ٣٦٨) كان قد قابل الامبراطور في بيروغي على الطريق

فيما بين ليماسول ونيقوسيا.

٧٨— غـي الأول صاحب جبلـة(١١٩٤ — ١٢٤٠)، كـان مسانـداً صلباً للامبراطور، وقد أقرضه مبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبية.

٧٩— بـالين الأول صـاحـب صيـدا(١١٩٨ — ١٢٤٠) ابـن رينـو صـاحـب صيدا وهلفيـس دي إيبلين ابـن أخـت جون صـاحـب بيروت، وقد كان مـن أهم لوردات سورية، وقد تـزوج حفيدة جون دي بريين، وشغل دوراً هاماً في الصليبيـة ضد دمياط، وكان واحداً من البارونات المقادسة الذين رافقـوا الملكة إيزابل إلى أبوليا، عندما تزوجـت من فـردريك، وقـد بقي مدة مـن الزمـان في إيطاليـا بعد الزواج، وورد ذكـره لدى سـاليمبني Salimbene على أنه كان في بادوا في سنة ١٢٢٥، أثنـاء تعميد ذلك المؤرخ، وظهر اسمـه أيضاً على عدد من صكوك مراسيـم فردريك في سنة ١٢٢٦(هـ . ب : ٢ / ٥٣٦، ٥٣٨، ٦٧١)، وعندمـا وصلت أخبار وفاة إيـزابل إلى سورية، انتخبه البـارونات واحداً من الوكلاء لـلامبراطور، وقد أبقى عليه فردريك في هذا المنصـب، وقد كان سفيراً مهماً بين الامبراطور والسلطان المصري،وساعد في مباحثات معاهـدة يافا، وعندما غادر فردريـك سوريـة عينه وكيلاً، وذلـك حسب رواية نـوفار،وقـد مثل خيرة مجمـوعة البـارونـات السوريين الـذيـن رغبـوا باحترام حقـوق الامبراطور، ومـع هذا رفـض الوقوف إلى جـانبه عندمـا خرق نـوابه الأصول المعتمدة بادارة المملكة.

٨٠— ١٧ — آب سنة ١٢٢٨ .

٨١— عندمـا شعر جـون دي بريين بأنـه خدع وأبعـد عن تـاج القدس العائد إليـه، تحالف شخصيـاً مع البابـا في معاداة الامبراطـور، وقد غزا أبـوليا على رأس جيـش بابوي، وأثـار الثورة ضـده بين النبلاء

غير الراضين، وكـانت حملتـه ناجحة تماماً، وقد استحـوذ على جزء كبير من ممتلكات فردريك في القاهرة.

٨٢— لقد تـرجمت هذه الفقـرة المشوشة بتصرف كـامل، ولابـد أن هنري خطأ بدلاً من عموري، وكما أوضح ماس لاتري(تاريخ قبرص : ١ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، هناك أهمية كبيرة في هذه الاتفاقية بالاقسام على التابعية، لكـن رفض تقديم الولاء، وتبعـاً «لقوانين القدس» (٢ / ٣٩٨) لايحتاج التـابع تقديم الـولاء إلى الوكيل أو إلى سيـد قاصر، ذلـك أن الولاء لايجوز إلاّ أن يطلـب مـن قبـل السيدفقـط، لكـن يمكن للـوكيل أن يصادر ممتلكـات أي تابـع يرفض أن يقـدم إليه الولاء خلال مـدة الوكالة، علماً أن التـابع إذا ما قدم الـولاء للسيد عنـدما يصـل إلى السـن القـانونيـة، يتـوجـب على السيد أن يعيـد الإقطاع إليه(انظـر الملكية الاقطاعية في القـدس ص ٥٣ ـ ٥٤)، وبـالنسبة لـوضع فـردريك الثـاني، كـان البارونـات القبارصـة على استعداد تـام لتقديـم الولاء إلى مولى ملكهـم، لو أن الاتفـاقية بين الملك عموري والامبراطور هنري السادس قضت بذلك، لكن كان على الملك هنري نفسـه أن يقدم الولاء إلى فردريـك على أنه مولاه، وكان الإيبلينـي مستحوذاً على الـولاءات التي قـدمت إليـه كوكيـل للملك القاصر.

٨٣— قـال هـرقـل(ص ٣٦٩): « قضى اتفـاق الصلـح أن يستحـوذ الامبراطور على وكالة الملك بـالنسبة لبلاد قبرص، وينبغي أن تكون كل الموارد له، وعليـه أن يحرر الرهائن، ويحلل مـن التعهدات، وأن يتلقى ولاء جون دي إيبلين، باستثناء المطـالب التي طلبها منه..... وقـد عين شحناً في القـلاع تابعين لـه، مع وكـلائه في جميع أنحـاء البلاد لجمع الموارد وإرسالها إلى سورية».

ورفض الإيبلينـي تقديـم ولائه إلى فردريـك في إطاركـون فردريـك وكيلاً

لقبرص، ولابد أن معنى ذلك أن الإيبليني قـدم الولاء إلى فردريك، كنائب لملك القدس.

٨٤ — ٢ — أيلول سنة ١٢٢٨ .

٨٥ — هل معنى هذا أن جون كان الرهينة الثانية وليس بلدوين؟ أو أن معنى ذلك هو أنه بعدما أعـاد فردريك الرهينتين: بالين وبلدوين، أخذ الأخ الأصغر جـون، ووضعه في حاشيته؟ إن المرجـح هو الأمر الثاني.

٨٦ — يقول روهرخت في(تاريخ ملوك القدس ص ٧٧٥) بأنه عاد إلى إيطاليـا مع الامبراطور، وينقل عـن«الأعمال» لتوثيق ماذهـب إليه، لكـن ليـس في النـص مـا يشير إلى أن جون عـاد إلى إيطـاليـا مـع فردريك، وفوغيا موجودة في Capitanate.

٨٧ — ٣ — أيلول ١٢٢٨، ويؤكد هرقـل(ص ٣٦٩)بوضوح بأن جون دي إيبلين ووولتر صاحب قيسارية قد رافقاه.

٨٨ — نفين قائمـة في منطقة طـرابلس، على السـاحل، إلى الجنـوب من مدينة طرابلس مباشرة.

٨٩ — وكان فيليب قد قال في مقطع ٣٤ المتقدم بـأن بوهيموند قد جاء إلى الامبراطور قبل أن ينطلق إلى نيقوسيا لمطاردة الايبليني.

٩٠ — استثنـى الحرمـان البـابـوي الـذي نشر في سـوريـة بعـد وصـول فـردريك: رجـال الديـن، والداويـة، والاسبتاريـة، على أن فرسـان التيوتـون وقفوا إلى جـانب الامبراطـور، وأولاه البارونـات السوريـون القليل من الاهتمام.

٩١— أقحـم هذا النـص الـذي بـدايته«تـرك صـور...» ونقـل من عنـد أمادي(ص ١٣٣) وكان ذلك من قبل كوهلر، ولعله يومىء إلى أن

فردريك قد توقف أولاً في صور ثم ذهب إلى عكا، والحقيقة هي أن جون دي إيبلين قد التحق به في صور، بعد التوقف أولاً في بيروت، مما يؤكد هذا الانطباع، وتظهر رواية -Chron iconsicul(انظر الملحق الثالث) إن الاسطول الامبراطوري قد توقف في ميناء صور، لكن دون أن ينزل منه أحد، ولم يبق هناك لوقت طويل، ومن الممكن أن يكون الايبليني قد التحق بالأسطول في الميناء، وكان أول نزول لفردريك إلى اليابسة في سورية، في عكا، التي كانت عاصمة المملكة.

٩٢— وأضاف أمادي(ص ١٣٣):«على مسافة أربع وعشرين من عكا»، وحصن جيش فردريك يافا أثناء سيرالمفاوضات.

٩٣— الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب(١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، أسن أولاد سيف الدين، وابن أخي صلاح الدين، وقد كان حاكم مصر بعد موت أبيه.

٩٤— غير صحيح لم يكن الكامل في ذلك الحين سلطان دمشق، وحكم المعظم عيسى، وهوأخ أصغر للكامل، وقد حكم دمشق(١٢١٨ ـ ١٢٢٧)، وقد خلفه ابنه الملك الناصر داود، وكان داود في البداية قادراً على الدخول إلى ميراثه مع موافقة عمه الآخر، الأشرف موسى، صاحب الجزيرة، لكن حدث في سنة ١٢٢٨أن دخل الملك الكامل والأشرف في تحالف اقتسما خلاله ديار دمشق، وتسلم الكامل بموجب هذا التحالف فلسطين، في حين توجه الأشرف إلى دمشق وإلى الشطر الشمالي من أملاك المعظم، وكان حصار دمشق من قبل الأشرف طوال الوقت الذي كان فيه فردريك في القدس، وكانت رغبة الكامل الجامحة في أن يتحرر من خطر فردريك ليشارك في الصراع حول دمشق من أهم الأسباب التي دفعت هذا السلطان لتقديم شروط معاهدة مغرية.

٩٥— لقد تقدمت مناقشة هذه المعاهدة وبنودها في المدخل.

٩٦— هذا ينبغي أن يكون«Cotron وليس«بترون Botron، وكان ستيفن أوف كترون هذا، هو الـذي أرسله فردريك إلى سوريـة مع ثلاثمائة فارس من صقلية لمرافقة أسقف ملفي، ولتلقي الولاء من البارونات المقادسة بمناسبة زواج الامبراطور وملكة القدس(هرقل ص ٣٥٩ . هـ . ب :٢ / ٩٢١ ـ ٩٢٤)وجاء عند أمادي (ص ١٣٣)« كان الكونت ستيفن في البترون».

٩٧— كان جـون دي إيبلين صاحب يـافا، وابن فيليـب دي إيبلين، هو الـذي سيصبـح فيما بعـد مـولى فيليب دي نـوفـار وتلميـذه، وهـو مصنـف العمل العظيـم حـول قوانين القـدس، وكـان في السابعـة عشرة من عمـره في سنة ١٢٣٢ ، ولابـد أنه كـان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الحين.

٩٨— رفض كل من الداوية والاسبتارية إتباع فردريك، لأنه كان محروماً كنسياً، وتحت الحظـر البابـوي، ولقد وافقـوا أخيراً على التعاون مـع جيشه بمثـابة حلفـاء يخدمون في ظـل«رباط المسيـح»، وليس تحت إمـرة الامبراطور(هـرقل ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣) وعبثاً حـاول فردريـك الاستيـلاء على قلعة الـداويـة في تل الصـافيـة(ري ـ التحصينـات العسكرية ص ٩٩)، واتهم الداوية بمحاولة اغتياله(متى باريس : ٣ / ١٧٧ ــ ١٧٩)، وخـدم فـرسان التيـوتـون الامبراطـور عـن طواعيـة، وكانـوا مخلصين له طـوال الوقـت، لكن تنظيمات الـرهبنة الأخرى احترمت الأوامر البابويـة، ورفضت إطاعة الامبراطور، وورد ذكر معارضة الرهبانيـات والبطريرك في رسائل جيرولد، وهيرمان et al،وريكاردوس سينت جرمانو(ص ٣٥٥).

٩٩— بيتردي مونتاغيو، المقـدم الأعظم(١٢١٩ — ١٢٣٢)، وكان أخاً

ليوستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا.

١٠٠— أقحم كوهلر هذه العبارة من أمادي(ص ١٣٤)، وأوضح أمادي تداخل مادة« الأعمال»بقوله:«كان في ذلك الوقت عدد كبير من الرهبان الشجعان من الداوية، وكان المقدم هو بيتردي مونتاغيو، ومثل هذا امتلك فرسان التيوتون مقدماً شجاعاً وحكيماً».

١٠١— هيرمان فون سالزا، المقدم الأعلى(١٢١٠ ـ ١٢٣٩)، وقد كان واحداً من أعظم مستشاري فردريك ثقة، وكان هو الذي ساعد على مناقشات الزواج من ملكة القدس لتأمين عرش القدس لفردريك، وأفضل ما هو معروف به هو تأمينه الامتيازات للفرسان في بروسيا، مما شكل فيها بعد القاعدة من أجل دولتهم الإقليمية.

١٠٢— لعل في قوله:«شعب السهل» إشارة إلى سكان السهل الساحلي من حول عكا.

١٠٣— هذه هي الاشارة الوحيدة لتتويج فردريك في القدس في ١٨ ـ أيار ١٢٢٩، التي قدمها نوفار، وقدم هرقل (ص ٣٧٤)رواية التتويج من وجهة النظر السورية، ملاحظين أن الكتيبة القبرصية قد بقيت في يافا، ولم ترافق الامبراطور إلى المدينة المقدسة، ويمكن لهذه الأوضاع شرح كل إشارة إلى التتويج لدى نوفار، ولم يعترف الإيبلينيون بهذا التتويج ، واعترفوا فقط بفردريك على أنه وكيل لكونراد فقط، وكونراد هو الوريث الشرعي،.(انظر : Roh-richt,Geschichte,P 791, Kantorawicz,Fredrik 11,P.197)

١٠٤— استمر الحصار وفقاً لرواية جيرولد لمدة خمسة أيام(MGH Epis,1,315-17.) (ففي رسالة من جيرولد صادرة في أيار ١٢٢٩ (هـ . ب : ٣ / ١٣٥ ـ ١٤٠)تشكى من أن فردريك قد

حاصره في قصره العائد للبطريركية ، وادعى كانتوروكز(ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥) بأن الشعب قد أثير من قبل البطريرك ضد فردريك ويلاحظ أن عدوانيته نحو الداوية قد استمرت بعد عودته إلى إيطاليا حيث صادر جميع ممتلكاتهم في بلاده.

١٠٥— تحدث كل من أمادي(ص ١٣٤ ــ ١٣٥) وبوسترون(ص ٧٢) عن محاولات قام بها الامبراطور لاعتقال جون صاحب بيروت في ذلك الحين، وقد شكل الداوية والجنوية مع جون صاحب بيروت حلفاً عملياً ضد الامبراطور لحماية أنفسهم.

١٠٦— كان يودس دي مونتبليارد، قسطلان القدس قد عين وكيلاً للقدس من قبل الملك جون دي برين في سنة ١٢٢٣ ، وقد استمر في مركزه بتكليف من فردريك في أيام زواجه، واستبدل في تموز ١٢٢٧ بالكونت توماس أوف أسيرا، ثم أنه اختير من قبل البارونات بعد وفاة إيزابل ليكون وكيلاً لكونراد، وذلك مع بالين صاحب صيدا ليكون زميلاً له، وكان هذان يشغلان وظيفة الوكالة عندما وصل الامبراطور إلى عكا، وعاد يودس إلى الوكالة عندما استقال غانيير الألماني ليصبح داوياً في سنة ١٢٣٩، ومرة ثانية عندما بلغ كونراد في سنة ١٢٤٣ السن القانونية، وقد آثر حقوق الملك كونراد ضد الإيبلينيين، مع أنه كان قريباً جداً من تلك الأسرة : فقد كان هو ابن وولتر دي مونتبليارد وبورغوني دي لوزغنان ، وكانت عمته(خالته) أليس زوجة فيليب دي إيبلين، وأخته اشيفي قد تزوجت بالين ابن جون صاحب بيروت، وهو نفسه قد تزوج من اشيفي صاحبة طبرية حفيدة هيلفيس دي إيبلين وابنة أخت(أخ) بالين صاحب صيدا، وقد تزوجت ابنته من فيليب دي إيبلين ابن بلدوين.

١٠٧— انظر أعلاه الفقرة ٣٤، الحاشية ٧٩ .

١٠٨ــ جرى تحديد شخصية غـارنيير الألماني من قبل إ. وكلمان على أنه ويرنرفـون إيشيم Egisheim،وكان ألسـاتيانيalsatian(فردريك الثاني : ١/ ١٣٥ ــ ١٣٦) وقد كان واحـداً من أقدم أفـراد أسرته في الشرق، وأسهم في وصولها إلى مـوقع الأهمية، وقد تـزوج من بافي Pavieصاحبة جبلة، وغدا ابنهما سيداً لقيسارية من خلال زواجه، وكـانت أسرتـه ذات عواطـف امبراطـورية، وكـان حفيده غـارنيير الأصغـر عضواً في المستعمـرة الامبراطوريـة ـ القبرصيـة في كورفـو، تحت قيـادة فيليب شينـارت Chenart، وقـال روهرخـت -Bei) trage,1,47 و(Geschichce P.745بـأن الألماني وجــون صاحـب بيروت Zweitreue Anhanger Friedrichs))قد تركـا بمثابـة وكيلين في حين جعل بالين صـاحب صيـدا قسطلان صور، هذا وأعطى هرقل(ص ٣٨٨) اسم أيمون دي لارون على أنه هو الـذي كان قسطلان صور، ولم ينقـل روهرخت عـن أي مصدر بشأن هذه الرواية المدهشة، التي لاتتماشى بشكل مؤكد مع سياسة فردريك نحو الإيبلينيين.

١٠٩ أليس دي مـونتفرات، ابنـة وليم الرابـع دي مونتفـرات وبيرثا أوف غريفساني Gravesaneالتي لم تكـن لابنة خال(عم) لفـردريك ولا لوليـم، وجاءت قرابتهـا لهنري مـن كونها حفيدة كبرى لكـونراد زوج إيزابـل صاحبـة القدس، ووهـم أمادي في (ص ١٣٦) حين جعلها ابنـة وليم صاحب السيـف الطويل، حيث خلـط بينه وبين كونراد، ولقد مضى دوكانج(الأسر، ص :٦٣)حتى أبعد من هذا ، حيث جعل وليم صـاحب السيف الطويل، كونـت سالسبري، ابناً طبيعيـاً لهنـري الثـاني ملـك إنكلترا، ووالـداً لأليـس، وكـان وليـم الثـالــث أوف مـونتفـرات الجد الأعلى العــام لكـل مــن أليـس وإيـزابل،زوجـة فردريـك المتوفـاة، وأن زوجته صـوفيا كـانت ابنـة

فـردريك الأول، وعمـة(خـالة)فـردريـك الثاني، وحسبها بين مـاس لاتـري(المصـدر نفسـه :١ / ٢٥٣)لم تكـن في جميـع الاحتمالات موجـودة أثناء حفلة العـرس، ولعلها تزوجـت من واحد مـن وكلاء الأعمال.

١١٠— باع فردريك الـوكالة إلى عموري برلياس ورفـاقه الأربعة قبل أن يغادر عكـا(هرقـل،ص ٣٧٥)، وجددت الاتفـاقية في ليماسـول، وكانت الوكالة لمدة ثلاث سنوات.

١١١— قـال هرقـل في (ص ٣٧٥) :«وأخبرهم بـوجوب تسليـم العشرة آلاف مارك إلى بالين صـاحب صيدا ومعه غـارنيير الألماني، اللذان بقيا في موضعه كوكيلان للقدس».

١١٢— هذا هـو أول ظهور لفيليب على أنـه شخصية فعالـة في أحداث روايتـه، ولعلـه استقـى مـواده الاخبـاريـة المتقـدمـة مـن بعـض الإيبلينيين، لكن مـن الآن فصاعـداً غدت الـرواية روايـة شخصية عن الأحداث التي أسهم فيها شخصياً بدور كبير.

١١٣— أوضـح غاستـون الباريسي(دوريـة الشرق اللاتينـي ٩(١٩٠٢) ١٩٤) أن هذا قـد يفيدبـأن الإيبلينيين كانـوا آسفين بعض الشيء بشـأن أعمالهم، وأن الحزب الامبراطـوري كـان على الأقـل حـزبـاً شعبياً، ومن المؤكد أن مقاصد فيليـب كانت لإعطاء هذا الانطباع، وهذا واحد مـن الأماكن التي أبـاحت سمات فيليب الدعـائية عن نفسها.

١١٤— قال هـرقل في(ص ٣٧٦) بـأن الوكـلاء قد سلبـوا أراضي جون دي إيبلين ومتحزبيه الذين كانوا مـا يزالون في عكا ، حتى يتمكنوا من تأمين جمع مبلـغ ثلاثة آلاف مارك لـدفعها إلى الامبراطور (ربما القسط الأول من العشرة آ لا ف).

١١٥— قد يومي هذا بأن موقف الإيبلينيين لم يكن الموقف الأكثر شعبية، وأن الوكلاء قد امتلكوا أتباعاً لهم قدرهم، انظر وقارن الحاشية رقم / ١١٣ / المتقدمة، وقد لجأ فيليب إلى الميول الاعتذارية للوكلاء في الفقرة التالية.

١١٦— كان معنى قبول فيليب للاقطاع من الوكلاء أن عليه تأييدهم والارتباط بهم بموجب قانون العلاقات الاقطاعية، وكان منح الاقطاعات شائعاً لربط إنسان ما بآخر من أصحاب السلطة، وهذه هي المرة الأولى التي ورد فيها ذكر ديون فيليب التي أصبحت فيما بعد كبيرة جداً.

١١٧— قال أمادي في(ص ١٤٠)«كان قد قتله»، وهذه الفقرة غير واضحة كثيراً فما الذي قصده فيليب من الالتجاء إلى مقر الاسبتارية، حيث كانت النسوة هناك، وكيف حشد مائة وخمسين رجلاً عسكر معهم في المقر، وبذلك تولى خدمة نفسه وخدمة النسوة؟.

١١٨— قام كوهلر بالتصحيح بعد قراءة تصحيح غاستون الباريسي(رومانيا ١٩(١٨٩٠) ٩٩)، وقراءة«الأعمال»هي«Bonlait »وقال أمادي (ص ١٤٠) :«لإنقاذ ديودامور والسيدات اللاتي هناك»، وهذا خطأ لأن السيدات لم يكن في ذلك الوقت في ديودامور.

١١٩— غاستريا Gastria الحديثة، في أسفل جزيرة كراباس، جنوبي كنتارا، وشمالي فيماغوستا.

١٢٠— أي عائدين من الحملة الصليبية التي رافقوا فيها الامبراطور.

١٢١— كان التوركبلية فرساناً خفيفي التسليح جرى تجنيدهم من خليط من السكان الفرنجة والسوريين، وكانت لهم مكانتهم الهامة

كإحتياط لفرسان الإقطاع الثقال.

١٢٢— كان وولتر صاحب قيسارية، قسطلان قبرص(١٢١٠ ـ ١٢٢٩) الزوج الثاني لمرغريت دي إيبلين، أخت كل من جون وفيليب ، وكان ابنهما جون« صاحب قيسارية الشاب الطيب»، كما كان مساعداً فعالاً للإيبلينيين.

١٢٣ كان جيرارد دي مونتاغيو بالإضافة إلى كونه حفيد بيتر، وغورين، ويوستورغ، زوج اسشيفي دي مونتبليارد، ابنة بيتر وبوروني ، وأخت يودس الوكيل، وتزوجت اسشيفي بعد وفاة جيرارد بالين دي إيبلين، وتؤكد حوليات الأرض المقدسة (ص ٤٣٨) موت جيرارد وولتر في هذه المعركة.

١٢٤— كنتارا قائمة في كراباس، وإلى أقصى الشرق للثلاث قلاع العظيمة أي قلاع الشمال وهي: ديودامور، وبوفانتو، وكنتاراً،وتبعاً لهرقل(ص ٣٧٧) كان وليم دي ريفت مع برلياس وصاحب بيسان في ديودامور، وقال بوسترون (ص ٧٨) بأن دي ريفت قد هرب إلى بوفافنتو، وأضاف ماس لاتري في(التاريخ : ١/ ٢٥٩) بأن نوفار قد حاصره هناك، لكن رواية فيليب تظهر أنه لم يكن في بوفافنتو، وليس هناك من بينة تشير بأن دي ريفت قد ذهب إلى هناك، ومن المؤكد لو أن فيليب ربح حصار مثل هذه القلعة الهامة لما أخفق في ذكر ذلك، لأنه قدم تفاصيل واسعة عن حصارات أخرى.

١٢٥— أعطى هرقل في(ص ٣٧٧) التاريخ على أنه السبت ٢٤ حزيران لسنة ١٢٢٩ كان يوم أحد، في حين كان يوم ١٤ تموز كان يوم سبت، وقال أمادي في(ص ١٤٣) كان ١٤ ـ حزيران، وقال ماس لاتري(المصدر نفسه : ١/ ٢٥٨): بأن ذلك كان يوم

السبت ٢٣ حزيران، وأعطى روهرخت(التاريخ ص ٨٠٣) ١٤ ـ تموز ، وذلك اعتماداً على «الأعمال»، لكن علينا أن نلاحظ أن أمادي ربما صحف في قراءته Jjugnet الذي ورد في «الأعمال» كحزيران، عوضاً عن تموز.

١٢٦— كيرينا الحديثة على الساحل الشمالي، إلى الشمال من نيقوسيا مباشرة.

١٢٧— توفي هيوج الابن الثالث لجون من دون ورثة، وكانت وفاته في حوالي سنة ١٢٤٠، وقليل هو المعروف عنه.

١٢٨— كانت الـ Trebuchet آلة حصار هجومية، وكانت سلاحاً أكثر فعالية وقوة من أية آلة قديمة لرمي المقذوفات، واستخدمت أول ما استخدمت في القرن الثالث عشر، ويبدو أنها شرقية الأصل، ذلك أنها استخدمت كثيراً من قبل المسلمين(انظر أومان :تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى،(ط . ثانية، لندن ١٩٢٤)٢ / ٤٣ ـ ٤٦).

١٢٩— قال هرقل في(ص ٣٧٧): عشرة أشهر، وكان الحصار قد بدأ في تموز ١٢٢٩، أي مباشرة بعد معركة نيقوسيا، وانتهى بعد بعض الوقت، بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، الذي جاء في ٧ ـ نيسان.

١٣٠— قال هرقل في(ص ٣٧٧):«ولهذا عانى الملك هنري ، الذي كان في الداخل، من آلام عظيمة ومن الحاجة إلى الطعام والملابس، وعانى كذلك الذين كانوا معه في الداخل، ولهذا انتقد كثيراً الذين أمسكوه داخل الحصار، واشتكى إلى إخلاصهم بحكم كونهم أتباعه، ووبخهم على أنهم خونة، وأمر جون دي إيبلين بجمع المال من جميع أرجاء الجزيرة، وبذلك تابع الحرب، واستمربالحصار.

١٣١— ٧ ـ نيسان ١٢٣٠ .

١٣٢ — كان فيليب دي شينارت واحداً من اللوردات السوريين الذين رافقوا إيزابيل دي برين إلى إيطاليا في سنة ١٢٢٥ (هـ . ب :٢ / ٥٣٦ ـ سينارد)، غير أن القليل هو المعروف عنه قبل الدفاع عن كنتارا، وقد ارتقى فيما بعد إلى مرتبة هامة في الخدمة الامبراطورية في إيطاليا وكورفو(انظر مايلي المقطع ١٣٨ — الحاشية رقم ٢٢٢).

١٣٣— أضاف أمادي في (ص ١٤٥) :«لاسترداد إقطاعاتهم».

١٣٤— أضاف أمادي في(ص ١٤٥):«وينبغي أن ينيب واحداً يتولى استلام الموارد من أجلهم».

١٣٥— ظهر وليم دي تينر، على صك وثيقة تاريخها أيلول ١٢٣٢ ، على أنــــــــــــــــــــــــــه مقدم الرهبان الاسبتارية في فرنسا، (Delaville le roulx,cartulaire general de l`ordre.

de st jeande jerusalem, ii,does 1996.2036)

١٣٦— البابا غريغوري التاسع(١٢٢٧ — ١٢٤١)، والملك لويس التاسع(١٢٢٦ — ١٢٧٠)(وكانت بلانشي أوف كاستيل في ذلك الحين هي النائبة)، وهنري الثالث(١٢١٦ — ١٢٧٢)، وفيرناند الثالث أوف كاستيل، وألفونسو التاسع أوف ليون، وسانشو الرابع أوف نافار، وجيمس الأول أوف أراغون، وسانشو الثاني أوف برتغال.

١٣٧— أضاف أمادي في(ص ١٤٦):«لكن عندما تمت المصالحة أقلع عن الذهاب،ولم يرسله(صاحب بيروت)).

١٣٨— أضاف هرقل(ص ٣٨٠) هنا ذكر واقعة حذفها فيليب بالمرة، وكان لها أثرها الكبير على الصراع مع الامبراطور، ووقعت هذه

الـواقعة في سنـة ١٢٢٩، ونـص الروايـة في هـرقل هـي كما يلي:«في ذلـك الـوقت الـذي غـادر فيـه الامبراطـور بلاد سـوريـة وقبرص، قدمـت الملكة أليـس أم الملك هنـري إلى عكا، وطـالبت بمملكـة القدس على أساس أنها الوريث الأكثـر شرعية كان ظاهراً بين أولاد جـدها الملـك عمـوري، واجتمـع رجالات البـلاد للتشـاور، وردوا عليها بأنهم ليسـوا رجال الامبراطور فردريـك، المستحوذ على البلاد وكالة عن ابنه كونراد، ولهذا السبب هـم كانوا غير قادرين لتلبية ما طلبته، لكـن بما أنهم لم يروا قـط كونـراد ابنه هـذا، كما أنه لم يحضر مطلقـاً إلى المملكـة، لما تقـدم بعثـوا رسـالـة إلى الامبراطـور بـأنـه يتوجب عليـه أن يرسل خلال عـام ابنه إليهم، وإذا ما بعثـه إليهم سوف يحافظـون عليه سيـداً لهم، وإذا لم يرسلـه سوف يفعلـون من أجلـه الذي هـو متوجـب عليهم، وبغيـة تقديـم هذا الطلـب إلى الامبراطور بعثوا كرسل إثنين من الفرسـان، كان أحدهم غيوفري لى تور، الذي كان باروناً في البـلاد، وكان الآخر جون دي بيلول Bail-luel، الذي كان باروناً في فلانـدرز، وعبر هذان الفارسان البحر إلى أبوليـا في غليون، وقد وصـلا إلى برنديزي، وسـافرا من هنـاك حتى وجدا الامبراطـور في سان لـورانزو، حيـث كان متـوجهاً إلى كـابوا، حسبما سمعت، وأعطيـاه هناك رسـالتهما، وقد أجـابهما بأنـه سوف يفعل المطلوب منه خلال المدة المحددة ».

١٣٩— أقام فردريك مصـالحة مع البابا غريغوري في سان جـرمانو سنة ١٢٣٠.

١٤٠— هذا واضح أنـه موقف مسبق وحكم غير عادل إلى حـد ما، وقد أعطى هرقـل(ص ٣٨٣ — ٣٨٦) سبباً إضافياً لإرسـال فردريك الحملة هو الاضطرابات التي واجهـا المقادسة في عملهم للسيطرة على القدس، فقد كـان المسلمون يؤذونهم ولايحترمون المعـاهدة، وقد

ناشـد سكان القدس وكـلاء الامبراطور لتقـديم العون لهم، ونـاشد هؤلاء بدورهـم الامبراطور، ولكن في الوقت الـذي بعث الامبراطور فيه الأسطـول للقيام جـزئياً بـإعادة السيطـرة على المدينة المقـدسة، كان إخضاع الإيبلينيين هو السبب الرئيسي لإرسال الحملة.

١٤١— كان رتشارد فيلنغر واحداً من رجـالات فردريك المعتمد عليهم، وقـد جـرى تعيينـه نائبـاً إمبراطـوريـاً في الشرق، ووكيـلاً في قبرص وسورية، وطالبت رسالة بعث بها غريغوري التاسع تاريخها ١٢ — آب سنة ١٢٣١ ، السـوريين من رجـال دين وشعـب قبول فيلنغـر كوكيل لفردريك ملك القدس، وليس كنائب امبراطوري.(MG H. Epis, 1,363 - 64)

١٤٢— تبعاً لما ذكره جـون دي إيبلين صاحب يافـا(القوانين: ١ / ٣٢٥) قام بالين صـاحب صيدا، وهو يعمل بنـاء على أوامر الامبراطور، فجرد صـاحب بيروت مـن جميع ممتلكاتـه في مملكة القـدس، وقال فيليب دي نوفار(القوانين : ١ / ٥٢٨) بأنه قـد جرد من إقطاعاته في عكا، وجرى أيضـاً تجريد كل من جـون صاحب يافـا، وروهارد صاحب حيفا، وفيليب لى آسن، صاحـب قيسارية، من قبل بالين، وبما أن هـذا الإجراء لم يجر بـوساطـة المحكمـة، بل فقـط من قبـل الوكيل، كـان عملاً غير شرعي،وقام البـارونات بمساندة المجـردين في جهودهـم للحفاظ على إقطاعاتهم.

١٤٣— قال هرقـل(ص ٣٨٦) بأنه جرى استخدام جاسـوس من قبل الإيبليني، كان قـد جاء على السفينة من برنديـزي، ويبدو أن هذا كـان منطقيـاً بما أن التيـوتـون أنفسهـم كـانـوا على صلـة وثيقـة بالامبراطور.

١٤٤— قـال هرقـل(ص ٣٨٦) بـأن الإيبليـني والملك قـد ذهبـا إلى لى

كويت Quit(كيتي قرب لارنكا) مع عدد قليل من الفرسان والسيرجندية احتشدوا في ليماسول تحت قيادة بالين.

١٤٥— جاء الأسطول على قسمين: فقد وصل القسم الأول إلى رأس غافاتا، بينما كان القسم الثاني مايزال في برنديزي، وجاء فيلنغر نفسه بعدما كان رجاله من القسم الأول يحاصرون بيروت.

١٤٦— قدم هرقل(ص ٣٨٦ — ٣٨٧) رواية أكثر تفصيلاً حول المناقشات، ونص روايته هو التالي:«وصل في هذا الحين غليونان إلى ليماسول كان فيهما أسقف ملفي مع اثنين من الفرسان، كان إقطاعهما في عكا، وأولهما أيمون الألماني، وثانيهما جون دي بيلول، الذي كان من الفلمنك، وقد طلبا الملك ليتحدثا إليه، وقد أخبرا أنه كان في لى كويت، وقد غادرا ليماسول في غليونيهما، ومضيا إلى لي كويت، فهناك كان الملك معسكراً.

وعندما وصلا إلى هناك قالا للملك بحضور صاحب بيروت:«بعث إليك الامبراطور رسالة يطلب بها منك بحكم كونك تابعاً له، أن تقوم بطرد جون دي إيبلين وأولاده، وأحفاده وأقربائه، وبمغادرتهم لبلادك، لأنهم اقترفوا الخطأ، وبناء عليه يرسل إليك أوامره، ويحظر عليك بحكم كونك تابعاً له، أن تمنحه مأوى أو ملجأ في أراضيك»، وعقد الملك الذي كان دون السن القانوني المشاورات، وجرى إعداد جواب له ليقدمه إلى الفارسين بوساطة فارس كان من أتباعه واسمه وليم فيزكونت، الذي قال لهما:« أيها السادة، لقد أمرني الملك، وفوضني في أن أقول لكما: إنه مندهش جداً لقيام مولاكم الامبراطور بتقديم مثل هذا الأمر، لأن صاحب بيروت هو خاله من جهة أمه، ومعروف بشكل جيد أنه هو وحفيده وجزء من أقربائه هم من أتباعه، ولهذا لايمكنه أن يتخلى عنهم، وبصرف النظرعن لطف الامبراطور، لايمكن للملك، ولا

يجوز له أن يفعل ما أخبرتماه به، وإنه إذا ما فعل ذلك، يكون قد أخطأ بحقهم»، ونهض بعد هذا جون دي إيبلين وقال مخاطباً الملك:«مولاي إنني من أتباعك، لذلك أرجوك أن تدعمني وفقاً للعدل،لأنني على استعداد لتقديم العدل وأخذ العدل أمامك وفي بلاطك إذا ما طالب أي إنسان بذلك». وهنا قام الرسولان وقالا للملك:«مولاي لقد سمعت ما قلناه لك وأبلغناه إياك عن الامبراطور، ولقد سمعنا جوابك» وبناء عليه غادرا على الفور، ومضيا إلى غليونيهما، واعتليا ظهريهما وسافرا إلى غافاتا حيث كان أسطولهما راسياً».

١٤٧— قال هرقل(ص ٣٨٧) بأنهما تمهلا هناك، انتظاراً لوصول المارشال فيلنغر.

١٤٨— أدرج يوبل Eubel في كتابه«تاريخ الكاثوليكية» اسم غوليرانوس Gualeranus على أنه كان أسقف بيروت في سنة ١٢٣٣ — ١٢٤٥، ولعله كان الأسقف الذي استسلم في سنة ١٢٣٠ .

١٤٩— تبعاً لجونا«تاريخ قبرص»(١/ ٥٣٦، ٥٣٩) : كان جون غونيمي Goneme هو المتولي لقلعة بيروت.

١٥٠— دون تاريخ هرقل(ص ٣٣٨ — ٣٩٢)أخبار وقائع حدثت في عكا، وقد أسقط ذكرها نوفار مع أنها كانت ذات تأثير مباشر على الرواية، مثلما يلي:

«بعدما أمضى المارشال مدة وجيزة في بيروت مضى إلى عكا مع قوة صغيرة فقط،وعندما وصل إلى هناك حشد جميع الفرسان والبرجاسية، وما أن اجتمعوا في قلعة القصر الكبير، حتى أمر بقراءة رسائل عليهم بحضورهم، وهي رسائل كانت مختومة بالذهب، وأرسلت من قبل الامبراطور فردريك إلى جميع الذين في

المملكة، وقد حوت كلمات كثيرة لطيفة ومهدئة ومطمئنة، وقد قال بين أشياء:«لقد بعثت إليكم مارشال الامبراطورية،رتشارد فيلنغر نائباً يعمل لصالحي، وليكون وكيلاً للمملكة للحفاظ على الحق والعدالة، وليحمي حقوق الكبير والصغير، والغني والفقير»، وعندما اكتملت قراءة هذه الرسائل، نهض رتشارد وقال:«أيها السادة لقد سمعتم رسائل مولاي الامبراطور، وحسبما قد أمرني، أنا جاهز للعمل بوساطة التشاور مع نبلاء الناس في هذه البلاد»، ولو أن السلوك والأعمال كانت مثل هذه الكلمات والرسائل، لرضي أهل البلاد تماماً، واستقبلوه كوكيل، لكن ما أن وصل إلى البلاد، حتى كانت أعماله مخالفة تماماً،فقد أباح عما كان في قرارة نفسه مما أضمره في عقله، فبدا متجبراً ومتكبراً، وغير مزود بالعقل، وبناء عليه شعر كل انسان وأدرك أن مقصده هو تدمير كل شيء، وتحويل كل شيء إلى لا شيء، وبعدما أدركوا هذا كله، وباتوا متأكدين من سوء نواياه، اجتمعوا وتشاوروا، وبناء عليه وقف بالين صاحب صيدا وقال:«لقد فوضوني أن أقول لك كلمة باسمهم وباسمي شخصياً: عليك أن تعرف أنه عندما جرى الاستيلاء على هذه البلاد، لم يكن ذلك بفضل قائد من الحكام، بل جرى الاستيلاءعليها بوساطة الصليبيين، وبفضل أعمال الحجاج والشعب الذي احتشد، وعندما استولوا عليها، اتخذوا رئيساً لهم بالاتفاق وبوساطة الانتخاب، وأعطوه السيادة على المملكة، وصنعوا فيها بعد بموافقة الشعب كله وبمعرفته «قواعد» و«قوانين»، رغبوا بالحفاظ عليها واستخدامها في المملكة، لسلامة الحاكم وبقية الشعب، وللحفاظ على الحقوق، وأقسموا بعد ذلك على الحفاظ عليهم، وجعلوا الرئيس يقسم أيضاً، ومنذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي أقسم جميع الحكام الذين عرفتهم المملكة عليها، وكذلك فعل الامبراطور، ويوجد في هذه القواعد وقواعد

أخرى وقوانين هـذا القانون القاضي: إنه لايمكن للحـاكم(الملك) ولايستطيـع ولايجوز لـه حـرمـان تـابعه الاقطـاعـي بـدون مـوافقـة المحكمة، ومـن المعروف بشكل جيد بـأن صاحب بيروت هو تـابع للامبراطـور، وقد قمت أنـت، الذي حللت محل الامبراطـور لحماية الأرض، وللحفـاظ على الحقـوق، بـوضـع يـدك على ممتلكـاتـه الاقطـاعيـة، وحرمتـه مـن مـدينـة بيروت، والمناطـق المحيطـة بها، وتـوليـت حصـار القلعـة من دون قـرار مـن المحكمـة، ومـن دون صدور حكـم عنها بهذا الشأن، ولهذا نطلـب منك، بمـوجب الحق والعقل، وبغية الحفاظ على اليمين والإخـلاص والثقة العائدة لمولانا الامبراطور، أن تقوم أنت ورجالـك بمغادرة بيروت، وإذا ما توفرت لديك الـرغبة في خلع صاحـب بيروت وحرمانه، وإذا كنـت ترغب بـأن تطلـب وأن تدعـي أي شيءعليـه، اطلـب دعـوته بمـوجـب ممـارسات المملكـة، ودع قـرار الحكـم للمحكمة، وإذا كـان قـرار المحكمة لصالحك، نحن على استعداد لمساعـدتك، وأن نضع قوتنا لدعم القضية التي تحتاج إلى ترضية وإصلاح».

«وعندمـا سمع المارشـال رتشارد فيلنغـر هذا الكـلام استولى عليـه العجب كيف تجرأوا على مخاطبته به،لأنـه لم يعتقد بوجود أي إنسان يمكنـه أن يتجرأ على معـارضـة أي شيءأراد هـو صنعه، وقـد رأى الآن أن الأمـر ماضيـاً حسبما فكر، وهـو لن يمضي كـذلك أيضـاً، ومع هذا أخفـى ضغينته في قلبه، لأنه لم يكـن بإمكانه فعـل ما هو أحسن، وبناء عليه قال لهم: بأنـه لايستطيع الرد عليهم، فيما يتعلق بهذا، حتى يتشاور مـع أعيان رجال الامبراطور، الذين قـدموا معه، والـذين هـم الآن في بيروت، وهو سـوف يذهـب إلى هناك، ليقـوم بعقد مشـاورات معهم، وعليهم أن يبعثـوا إليه إلى هنـاك للحصول على جـوابـه، وإثر هـذا غـادر في صبـاح اليوم التـالي، وذهـب إلى

بيروت، وعندما حصل هناك شدد الحصار على القلعة وضيق عليها أكثر مما فعل من قبل».

«وبعث بالين صاحب صيدا، وجون صاحب قيسارية، ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني والفرسان والآخرون بفارسين إلى بيروت يطلبون الجواب من المارشال، وذلك بناء على ما وعدهم به، وكان أحد الفارسين رينو دي كيفاس، حاجب المملكة، وكان الآخر دانيال دي مولمبك Molembec، وعندما جاء هذان الرجلان إلى بيروت أخبرالمارشال أنهما قدما إليه للحصول على الجواب الذي وعد به أتباع الامبراطور، وهو ما جاءا يطالبان به، وكان جوابه هو التالي:«أخبركم أيها السادة أنني تابع للامبراطور، وأنا قائم لتنفيذ أوامره، وبودي أن يعلم كل واحد أنني سوف لن أجلب الأذى إلى أي واحد طالما أنا قادر ، في أي جانب هو معقول(وذلك أنه معلوم كيف تصرف جون دي إيبلين بذاته، وسلك نحو الامبراطور)، وأكثر من هذا إنني أفعل ذلك بسبب أنني عبد الامبراطور، والامبراطور هو المولى، وإذا ما شعرتم بين أنفسكم بأن الامبراطور فعل لكم أشياء ينبغي أن لايفعلها، ابعثوا رسلاً إليه، وهو بحكم كونه سيد مخلص وجيد، سوف يفعل ما يرضيكم، فهذا ما ينبغي»، وعاد الرسولان إلى عكا، وأبلغا بجواب المارشال الذين بعثوا بهما».

«وعندما سمع رجالات المملكة الجواب، وأدركوا أن إرادة المارشال كانت بالفعل حسبما أرغموا على الاعتقاد، وبناء عليه إذا لم يقوموا بالتشاور فيما بينهم بشأن أعمالهم سوف يلجون في مضيق خطر، وتنفيذاً لهذا اجتمع أكثرهم حكمة وأبعدهم رؤية للتشاور فيما بينهم، وأنه ليس أمامهم من منهج غير المنهج التالي: من المتوجب عليهم جميعاً ربط أنفسهم برباط القسم بالقيام بحماية حقوقهم،

وامتيازاتهم وإعفاءات المملكة من التكاليف والمحافظة عليها، ثم إنهم تذكروا أنه يوجد في المملكة أخوانية(رهبانية)، عرفت باسم رهبانية القديس أندرو، التي كانت قد تأسست من قبل الملك بلدوين، وتأكدت بالامتياز الذي منحه، وقد توفر في هذه الرهبانية قواعد وطرائق، بحكم شريعة امتيازات أعضائها، ولقد كان من بين الأحكام فيها: يمكن لكل من يود الانضمام إلى الأخوانية أن يفعل ذلك، وعلى أعضاء الأخوانية استقبالهم، ثم اجتمع الأعيان والفرسان والبرجاسية، وعندما كانوا مجتمعين بعثوا يطلبون مستشاري الأخوانية مع امتيازاتها، وعندما حضروا إلى هناك طلبوا قراءة الامتيازين، وبعد ذلك أقسموا على الانتماء إلى الأخوانية، ثم قام معظم الناس بالاقسام على الانتماء إلى الأخوانية، وقد فعلوا ذلك برغبة كبيرة بسبب الخوف الذي انتابهم نتيجة شرور المارشال رتشارد، وهكذا ارتبطوا جميعهم واحدهم بالآخر، ثم أرسلت إثر هذا رسالة إلى قبرص لإخبار جون دي إيبلين، وعندما سمع هذا بالإجراء الذي اتخذ في عكا من قبل رجال المملكة، وفق الطريقة التي سمعتم بها، كان عظيم السرور بذلك، وبدا ذلك بالفعل عظيم العون له في الحفاظ على وضعه».

١٥١— الاشارة إلى وليم أوف أورانج بطل ملحمة ألسكانز Aliscans وملاحم إقطاعية أخرى، على أنه طلب العون لمساعدة حفيده، هي موجودة في (نهاية الأغنية الرابعة)من: Roman de Foulque de candie

١٥٢— كانت لدى ليوبوند صاحب النمسا نواياه تجاه عرش قبرص أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

١٥٣— قال هرقل(ص ٣٩٢): كان هناك من رفض المساعدة بدافع الغيرة.

١٥٤— في قوله«انتهاء موسم الاضطراب» إشارة إلى الاعتدال الربيعي، وقال هرقل(ص ٣٩٢): بأنهم غادروا في أول أيام الصيام، الذي كان في سنة ١٢٣٢ يوم ٢٥ — شباط.

١٥٥— هذا يعني أي قائد كبير أو مهم، وكان آرنس صاحب جبلة وكيل صاحب الشؤون المالية في قبرص، وقد ترك قائداً للجزيرة خلال غياب الإيبليني والملك(هرقل ص ٣٩٩)، وتبعاً لجونا(تاريخ قبرص: ١ / ٥٣٧ ، ٥٤٥)تُرك فيليب دي نوفار نفسه حاكماً لقبرص، وهذا خطأ واضح.

١٥٦— هذا يعني: برلياس، صاحب بيسان، وصاحب جبلة.

١٥٧— كان مرسى القسطلان قائماًعلى الساحل فيما بين البترون ونفين.

١٥٨— قال هرقل(ص ٣٩٣)بأن فيلنغر قد بعث غليوناً إلى طرابلس لجلبهم إلى بيروت، وأضاف:«وسبب تخليهم عن الملك وعن جيشه هو كما قالوا: كان الملك قاصراً وتحت سلطان الآخرين، وهم كانوا بشكل رئيسي أتباعاً للامبراطور، ومرتبطين به أكثر من ارتباطهم بالملك».

١٥٩— ممر ضيق على الطريق البحري بين جبلة وبيروت.

١٦٠— قدم أمادي(ص ١٥٣)دوبيت معزو إلى نافار، أسقط من رواية«الأعمال»، وأدخله كوهلر في حواشيه، على أنه بلا شك جزء من النص الأصيل لفيليب، ونصه كما يلي:

«منحنا الرب كثيراً من القوة والصحة

كافية لنا للحفاظ على شرفنا وعلى ثروتنا».

١٦١— أضاف هرقل(ص ٣٩٣ — ٣٩٤)رواية حادثة هامة قال عنها:«عندما جاءوا إلى هناك(إلى بيروت)أرسل جون دي إيبلين

رسولاً إلى عكا، وكـان واحداً من رجاله اسمه درويـن، وبعث بعدة رسـائل إلى بالين صـاحـب صيدا، وإلى جـون صـاحـب قيساريـة اللذان كانـا ابني أختيه، وإلى عدد كبير آخر من أصـدقائه، وأرسل رسائل إلى رجـالات البلاد بشكـل عام، وقد حـوت هذه الـرسائل، وأوضحت مايلي بعد التحتيات:«أيها السـادة، أنا هنا لأعلمكم بأن رجالاً غـرباء من بلـد آخر قد قـاموا بمهـاجمتي، وقد استـولوا على مدينتـي وأخذوها، وكـذلك فعلوا بـأرضي، وقاموا بحصـار قلعتي، ولهذا السبب ليـس لدي قـدرة للقدوم إليكـم، أو لإرسال أي مـن رجالي، لأنهم محاصرون في قلعتـي، ولايمكنهم الخروج منهـا، وبناء عليـه تدبـرت أمر إعـلامكم بما أحتـاج إليه، بهذه الـرسائل، التـي أدعوكم فيهـا وأطلب منكم بحكم كونكم أخـوان لي وأصدقاء، أن تقوموا بنجـدتي فوراً، وذلك وفقاً لممارسات مملكـة القدس ولعاداتها، وأن تقـدموا المسـاندة لي حتـى أتمكن مـن إنقاذ مـدينتي والحفـاظ عليها، وعلى قلعتي وأرضي».

وقرئت هذه الرسائل في بيت بالين صاحب صيدا،حيث كان معظم رجـال الامبراطـور مجتمعين، وبنـاء عليـه طلـب جـون صـاحـب قيسارية، الجواب لتقديمه لخالـه جون دي إيبلين، وتطور الأمر بناء عليـه إلى انقسـام النـاس إلى قسمين، قسـم منهما رأى أن عليهـم تقـديم العـون إليـه ومسـاندتـه في هـذا الموقـف، وعرضـوا القيـام بالـذهاب لمساعـدته ومساندتـه، وقال القسم الآخـر إنهم لايتفقون مع أصحـاب هذا الموقف، وكـان الذيـن وافقوا على الذهـاب هم: صاحب قيسارية، وروهارد صاحـب حيفا، مع أخيه رينو، وغيوفري لى تـور، وغيـوفـري دي استروني، وبلـدويـن دي بـون فيسين، مـع فرسـان آخرين، حيـث توفر منهم ثـلاثة وأربعون، واستعـد هؤلاء، وانطلقوا، وزحفوا إلى حيث كان ملك قبرص وجون دي إيبلين».

١٦٢— البطريـرك جيرولد، والمقدم أرمانـد دي بيريغورد مقدم الـداوية، والمقدم غوريـن مقدم الاسبتارية، وباليـن صاحـب صيدا، ويودس دي مونتبليـارد، القسطلان، وبـالإضافة إلى هـؤلاء ذكر هـرقل(ص ٣٩٤): بيتر، رئيـس أساقفـة قيسـاريـة، ووكيل البنـادقـة، وقنصلي الجنوية والبيازنة.

١٦٣— قال هرقـل في (ص ٣٨٨) بأن صور قد استسلمـت إلى هنري، أخـو فيلنغـر، وكـان مسلمها إليـه إيمـون دي لارون، الـذي تـولى حراستهـا، وكان بالين صـاحب صيـدا وكيل فردريـك في المملكة، وربما كان بالين قد أمر دي لارون الذي كان قسطلان صور بالقيام بعملية النقل.

١٦٤— أضاف هرقل في(ص ٣٩٤) أنهم عادوا بعد ذلك إلى عكا.

١٦٥— قال كتاب«الأعمال»:«صور»،لكـن أمادي صححها إلى«أرسوف» وكذلك فعل كوهلر.

١٦٦— كان وكيلاً في ١٢٤٦ ــ ١٢٤٨، و١٢٤٩ ـ ١٢٥٤ ، و١٢٥٦ ـ ١٢٥٧ ، و ١٢٥٨ ــ ١٢٥٩، وذلك في ظـل أليس ملكـة قبرص، وبليسـانـس Plaisance، وهيـوج الثـاني، وكان القسطـلان مـن ١٢٥١ إلى ١٢٥٨ .

١٦٧— كـان الزواج فيما بين ايـزابل دي لـوزغنان، وهنـري الابن الثـاني لبوهيمـوند الرابع، وصـار بوهيموند بعـد عودته من قبرص معـادياً تماما لفردريك الثاني، وراهن الايبلينيون على هذا آملين بمساعدته، وفي النهاية تـم الزواج، وكانت المحصلة أن أصبح هيـوج صاحب انطاكية— لوزغنان، هيوج الثالث صاحب قبرص.

١٦٨— كان السير وليـم فيزكـونت واحـداً من أشهـر رجال العـدالة في وقته، وقـد أورد نافـار ذكره على أنـه كان مـن أبرز رجـال العدالـة

الذيـن عرفهم، وكـان هو المتحدث بـاسم القبـارصة عندمـا طلب فـردريـك طـرد الإيبلينيين. (انظر أعـلاه، الفصـل ٧٩— الحاشيـة ١٤٣).

١٦٩— قامت تلة الحجـاج آنذاك خارج طرابلس مباشرة، فهنـاك كانت قلعة كان قد أقامها ريموند صنجيل، عندما كان يحاصر طرابلس.

١٧٠— بيمـونـت أو بيوليـو، اسـم ديـر سسترشيـاني كـان هامـاً خـارج طرابلس.

١٧١— الملك الأشرف، سلطان دمشق (١٢٢٨— ١٢٣٧).

١٧٢— تزوج بيرتـراند بـورسليت من مـاري لى روكس دي بيسـان، وقد بـاعوا في سنـة ١٢٣٤، اقطـاعـاتها في «عربي وزكنين» إلى فـرسـان التيـوتـون (Strehlke,pp.61-62)، وكـان بـورسليـت قـد فقـد اقطاعاته في قبرص في سنة ١٢٣٢.

١٧٣— قال النص: (et mostroyentau doit porou il mon-teroyent) وقد جرى ترجمة ذلك بتصرف لأن المعنى غامض.

١٧٤— قال أمـادي (ص ١٥٩) بأنهم رفعوا مقـابض تحريك مـراكبهم، حتى لايمكن لها المغادرة .

١٧٥— قال ريكـاردوس سان جـرمانو (ص ٣٦٨) بـأن جون صـاحب بيروت قد تسلم عكا في نيسان ١٢٣٢، (Inodium imperator-is)، وأعطى هـرقل (ص ٣٩٥) هنـا موعد حـادثة تحطيـم اسطول اللـومبارد، التـي ذكرهـا نافـار فيها بعد (فصـل ١١٥)، حيث أثـار الإيبلينيون سـوادالشعب بعكـا ضد اللـومبارد إلى حـد الاقدام على تحطيم الاسطـول الذي كـان راسيا في المينـاء هناك، وتـم الاستيلاء على سبع عشرة سفينـة، وسمحوا لواحـدة فقط بالنجـاة، ويبدو في

هذه الحالة أن تحديد هرقل لموقع الحادث صحيح، وأن نافار تذكر الحادث، دون أن يعرف تماما متى وقع، ولهذا أورد الخبر في روايته بالمكان غير الصحيح ولم يحسن الربط، فقد كان نافار نفسه في طرابلس وقت حدوث الحادث ، وقد سمع به فيما بعد من الإيبيلينيين، وبالنسبة لمسألة كومونة عكا، انظر أي مقال من مقالات «أبحاث ذكرى هاسكن Haskins، ص ١١٧— ١٣٢».

١٧٦—كان الجنويون دوما من حزب الغولف، ولم يكونوا مرة كذلك أكثر مما كانوا عليه أثناء صراعهم مع فردريك الثاني، وكانت بيزا من حزب الغبلينيين، وتصارعت المدينتان في خارج ايطاليا في البحر، وفي السواحل السورية.

١٧٧— قال هرقل (ص ٣٩٥— ٣٩٦) بأن الايبلينيين حشدوا جنوداً لحصار صور، حيث كان فيلنغر مقيماً، وأنه عندما سمع فيلنغر بالخطة للهجوم عليه، أرسل أوامر إلى أخيه لوثير، بأن يرفع الحصار عن بيروت، وأن يجلب قواته إلى صور.

١٧٨— اسمها حاليا خربة الحمصين، وهي على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال من عكا.

١٧٩— قال هرقل (ص ٣٩٦) بأنهم عندما سمعوا بأمر الانسحاب الذي قام به جيش اللومبارد من بيروت إلى صور، تخلوا عن خطتهم بالهجوم على صور.

١٨٠— ألبرت ريزاتو أسقف بريسيشا Brescia، وبطريرك أنطاكية (١٢٢٨— ١٢٤٦)، وبعد صلح سان جرمانو قام البابا بمساندة القضية الامبراطورية في سورية، وقام في تموز ١٢٣٢ بتجريد جيرولد بطريرك القدس— الذي كان معادياً عنيفاً للامبراطوريين— من منصب نائب البابا، الذي منحه إلى ألبيرت

بطـريـرك أنطاكيـة، وقـد عهـد إلى ألبيرت بالقيـام بمهمـة استرداد السلم في الشرق، وأن يرد بارونات قبرص إلى طاعة الامبراطور.

١٨١— كـان غـي دي ايبلين، الابـن الخامـس لجون صـاحـب بيروت، قسطـلان قبرص في سنـة ١٢٤٧، وقـد ميـز نفسـه في أثنـاء حملـة القديس لويس على مصر، وتزوج من فيليبا ابنه عموري برلياس.

١٨٢— أعطى هرقل (ص ٣٩٧) مزيداً من التفاصيل: كان الحرس تحت إمـرة جـون دي إيبلين متمـركـزيـن، لكـن في الجانـب الخطـأ مـن المعسكر، أي في الجانـب المتجه إلى عكا، وليـس نحو صـور، وكان الحراس جميعاً نياما في خيمهم.

١٨٣— كان في هـذا أذى للملك الذي كان مـايزال طفلاً، وتبعـاً لهرقل (ص ٣٩٧) قام جـون بابن فوضـع الملك على فرسـه، وأرسله تحت الحراسـة إلى عكا، بينما بقـي هـو نفسـه في القتال، حيـث أصيـب بجراحة خطيرة، وأخذ أسيراً.

١٨٤— ذكر هـرقل (ص ٣٩٨) أسماء: بـالين صاحـب صيدا، ويـودس دي مونتبليارد، وجون صاحب قيسارية، وروهارد دي كيفاس.

١٨٥— قال أمادي (ص١٦١) بشكـل مؤكد: «وهكذا هجـروا الطريق ومضوا عبر الحقول لشعورهم بالعار بسبب هذه الهزيمة».

١٨٦— ممر ضيق قرب درج صور على الطريق من عكا إلى صور.

١٨٧— أعطى هـرقل (ص ٣٩٨) تاريخا دقيقـاً لمعركة قلعـة ايمبرت هو الثالـث من أيـار لسنة ١٢٣٢، وهـو اليوم الـذي وصل فيـه الملك هنري إلى سن الرشد أي إلى الخامسة عشرة.

١٨٨— اسمها في «الأعمال»: مريم وايزابل.

١٨٩— ظهر هذا الاسـم بأشكال: آرنس، آرنسيـوس، هيرنس، وهينرس،

فهكـذا ورد على عـدد الصكـوك مـع الإيبلينيين في السنـوات ١٢٢٠— ١٢٣٩ (لى مـونـت: «سجـلات محفـوظـات الكنـائس والديرة في نيقوسيـا» (بيزنشن: ٥/ ١٩٣٠) أرقام: ١٢، ٣٨— ٤٢، ٤٥، ٤٦).

١٩٠— أضـاف كل مـن «الأعمال» وهـرقـل (ص ٣٩٩): «الذي تـركـه صاحب بيروت قائداً للبلاد».

١٩١— كان فيليب دي كافران واحداً من الشهود على معاهدة هنري مع الجنويين في سنة ١٢٣٣، وكان قريبـاً من أسرة مورف في قبرص عن طريق الزواج، ذلك أنه تزوج من أغنس ابنة بلدوين دي مورف.

١٩٢— أضـاف كـل مـن «الأعمال» وهـرقـل (ص ٣٩٩): «وكـادوا أن يضيعوا بسبب نقص الطعـام وكانوا في حالة قنوط وحـزن حتى تم انقاذهـم».

١٩٣— كانت إسشيفـي دي مونتبليارد ابنة وولتر وبـوروني دي لوزغنان، كما كانت أرملة جيرارد دي مـونتاغيو، الذي قتل في معركـة نيقوسيا في سنة ١٢٢٩—، وقـد تزوجت مـن بالين دي إيبلين، لكـن أعلن أن الزواج يفتقـر إلى الشرعية لأنهما قـريبان إلى درجـة تمنع الـزواج، لأن عمتها (خالتهـا) قد تزوجت مـن فيليب عم بالين، وقـد حرما كنسيا في الخامس من أيار عام ١٢٣١، من قبل غريغوري التاسع، واستمر الحرمان لم يرفع حتى مابعد ١٢٣٢، لكن قبل ١٢٣٩.

١٩٤— غوينارت، أو جيراردو، أو جيرارد.

١٩٥— أقحـم «الأعمال» هنا الفقـرة ١٨٠ مـن أجـل احداث نقلـة إلى الموضوع التالي بقولـه : «هنا عبرت بصمت حكاية اللومبـارد الذين كانوا في قبرص، وفكروا بأنهم حصلوا على كل شيء، فانعطفوا نحو الملـك هنـري ونحـو صـاحـب بيروت، اللـذان بـادرا بكـل سرعـة

ونشاط وتصرفا في وسط المصاعب التي وجدا نفسيهما فيها».

١٩٦— ٣— أيار ١٢٣٢.

١٩٧— لم تحفظ هذه المعاهدة الأولى، بل جددت ومددت بوساطة معاهدة فيما غوستا، انظر ما يلي ص ١٥٦— ١٥٧.

١٩٨— جرد غريغوري جيرولد من سلطات نيابة البابوية في تموز ١٢٣٢، وحوّل هذه السلطات إلى بطريرك أنطاكية.

١٩٩— كان البوليان فرنجة من مواليد سورية.

٢٠٠— وفقاً لرواية هرقل (ص ٣٩٥) وقعت حادثة الاستيلاء على الاسطول العائد للومبارد كلها قبل معركة قلعة ايمبرت، وذلك عندما قدم جون دي إيبلين إلى عكا، واتخذ مقدماً للكومونة في نيسان ١٢٣٢ (انظر المقطع ١٠١، والحاشية ١٧٤)، ويبدو أن التاريخ الأبكر هو الأكثر احتمالا لعدة أسباب، وهو المقبول من قبل روهرخت، وموللر مع آخرين، وقال فيليب نفسه في المقطع / ١٠١/ بأن الإيبلينيين قد حشدوا اسطولاً بهذه المناسبة، وأثار في المقطع / ١٠٣/ إلى أن هذا الاسطول كان راسياً في ميناء عكا، وفي ١٧— حزيران، أي قبل وصول أخبار معركة أغريدي إلى روما،لأنها وقعت في ١٥ حزيران، وكان البابا قد كتب إلى جيرولد يحذره من التعاون ضد الامبراطور مع أعدائه (MGH.Epis. I.NO 467)، ولو أن هذه الحادثة وقعت في نيسان لكانت في ذهن البابا عندما كتب تحذيره، وعلى هذا لابد أنها قد وقعت بعد هزيمة قلعة ايمبرت، وبيّن موللر أن نافار كان في ذلك الحين في طرابلس مع بالين، وبذلك حصل على القصة بعد تداولها، ولابد أن التغيير في سياسة بوهيموند صاحب أنطاكية— طرابلس تساعد أيضاً على التوضيح، إذا كانت ثورة عكا والاستيلاء على

اسطول اللومبـارد قد حدثا في تـاريخ أبكر. (موللـر— اللومبارد في قبرص ص ٣٩).

٢٠١— قال هرقـل (ص ٣٩٨) بأن عدداً من اللوردات قـد ارتعبوا بعد هزيمة قلعـة ايمبرت ولهذا التحقوا باللومبـارد، وعلى هذا بات على الإيبليني والملك تـأمين عدد كبير من الرجـال الجدد حتى يتمكنوا من الصمود مجدداً.

٢٠٢— يبدو أن عملية البيع التي ذكرها نافار هنا، قد تناولت بيع بعض الحاجيات من قبـل جون دي إيبلين في الـRue de La vielle Reine في عكـا الاسبتـاريـة، وكان ذلـك في نيسـان سنـة ١٢٣٢ Delavielle Le Roulx, Cartulaire, II, docs, 2015,) (2016)، وقال هـرقل (ص ٣٩٨) بـأنه بعـد هزيمـة قلعة ايمبرت باع جون صاحب قيسارية قلعته التي اسمها كفرلت إلى الاسبتارية مقابل ١٦,٠٠٠ قطعـة ذهبية، وأن جون دي إيبلين صاحـب يافا باع قلعته التي اسمها عرامس Arames إلى الداوية، مقابل مبلغ ١٥٠٠٠، ويبدو هنا أن نافار قـد مزج البيعين العائدين للحقبتين، وذلك عنـد ذكره بيع الأرض في قيسـارية، الـذي وقع بعد المعـركة، وبيع الأمـلاك والحاجيات في عكا، الذي حـدث في نيسان، وروى هرقـل بأن الاستيلاء على الاسطول والمشـاكل الأولى في عكا كـانت في نيسان، وأن بيع الأراضي ومحاولة تجنيد الرجـال، كانتا بعد معركة قلعة ايمبرت، وبما أن نـافار قـد كتب متأخـرا من السهـل التصور بأنه مزج بين الحادثتين المتشـابهتين، لأنه تم في الحالتين بيع أراضي وحصول على سفن.

٢٠٣— قال أمادي (ص ١٦٤) بأن الجنويين التحقوا بهم.

٢٠٤— أعطى هرقـل (ص ٤٠٠) تاريخاً للمغادرة على أنه كـان مع عيد

الحصاد، أي في ٣٠ أيار.

٢٠٥— قال أمادي (ص ١٦٥) بأنهم قدموا من طرابلس مع الجنويين.

٢٠٦— هناك فراغ في نص «الأعمال»، ولعل معنى المفقود هو «أولئك الصيداويين»، لأنه من الصعب الاشارة إلى بالين صاحب صيدا، كوكيل للامبراطور.

٢٠٧— رأس إلى الجنوب من فيها غوستا.

٢٠٨— قال فيليب أعلاه بأن أستشيفي زوجة بالين دي إيبلين قد تولت تحصين قلعة بوفافينتو ضد اللومبارد، ولعل الاشارة إليها هنا جاءت خطأ، ذلك أنها حذفت في الجملة التالية.

٢٠٩— قال هرقل (ص ٤٠٠) «يومان» ، وتاريخ معاهدة الجنويين هو ١٠ — حزيران.

٢١٠— جرى نشر نص المعاهدة من قبل ماس لاتري «التاريخ: ٢/ ٥١—٥٦»، وفي:

Liber Jurium reipublicae Ianuensis (تورين ١٨٥٤— ج١ ص ٨٩٩— ٩٠٢)، وقد منح جون دي إيبلين الجنويين حقوقاً في بيروت منذ تاريخ مبكر هو تشرين ثاني ١٢٢١، (ماس لاتري: ٢/ ٤٣— ٤٤).

٢١١— في «الأعمال» «وليم دي لور»، لكن الذي ورد في نص المعاهدة هو «دي أورتو»، وقد دعته باسم «نائب قنصل»، وأبرمت المعاهدة فيها بين الملك وهيوج فيراريو Ferrarioووليم دي أورتو، قنصل ونائب قنصل الجنويين.

٢١٢— الشرط الأول من المعاهدة، وتبعاً لقوانين القدس: ١/ ١٢٨— ١٢٩، حوكمت هذه القضايا في المحكمة الملكية، وقد حفظت

جميع حقوق منح البلاط للطوائف التجارية (انظر لى مونت: الملكية الاقطاعية ص ١٠٢، ٢٣٥— ٢٣٦).

٢١٣— الشرط الرابع من المعاهدة، واعتقد محققو الطبعة الأكاديمية (ص ١٧٣) أن هذه تشير إلى الاعفاء من الجمارك، وأنا أعتقد أنها تعني منح الحق بعرض قضايا في محكمتهم البحرية كانت بالعادة تعرض في Cour de la chaine الملكية، وأعطاهم الشرط الأول محكمة خاصة بهم، وأعطاهم الشرط الثاني حرية الابحار مع الاعفاء من الضرائب.

٢١٤— قلعة قرب ليماسول؛ المادة الثالثة من المعاهدة، وقد أعطيوا أيضاً بيوتاً وأراضي في فيماغوستا وبافوس.

٢١٥— ترجمنا كلمة ounement التي وردت في النص بـ «تحالف»، وقرأ محققوالطبعة الأكاديمية هذه الكلمة بـarmement.

٢١٦— استقيت الكلمتان اللتان جاءتا بين حاصرتين من أمادي (ص ١٦٧) لأن ذلك أوضح.

٢١٧— لى كوثيري أو كيثيرا قرب نيقوسيا، وكانت دوما مركزاً للطحن.

٢١٨— أضاف «الأعمال»: «وذلك في اليوم نفسه الذي جاءوا فيه».

٢١٩— أضاف «الأعمال»: «الذي كان اسمه تراهونا Trahona » وورد هذا الاسم أيضا في هرقل (ص ٤٠٠).

٢٢٠— قال كل من «الأعمال» وهرقل (ص ٤٠٠): «الثلاثاء الخامس عشر من حزيران».

٢٢١— أضاف «الأعمال» من هرقل (ص٤٠٠): «وهكذا جرى ارسال جزء من تجهيزاتهم وسيرجنديتهم .

إلى القعلـة المذكـورة، وكـان الجزء الآخـر سيصـل فيها بعـد »، ولم يــوضـــح فيليب تمام الإيضاح استراتيجية القبارصة في أغريدي، فبعـدما أنقـذ الإيبلينـي أغـريدي زحـف مبـاشرة نحـو ديودامـور، واجتاز الشعـب الضيق الذي كـان فيه اللومبـارد، وقد قاتـل هؤلاء الجيـش القبرصي من على جنـاحيه، لكنهـم لم يتمكنـوا من إيقـاف تقدمه، وتمكن بالين وفرقته عنـد فم الشعب من احداث فراغ كبير بين الفرقتين الأوليتين للومبارد، والكتلة الأسـاسية من جيشهم، وتم ربح المعركـة تماما قبل وصول فيلنغر مـع القوة الكبرى، وقدم سير جندية الإيبليني الذي احتلوا أغريـدي في الوقت المناسب، ليقدموا مسـاعدة ثمينـة، وهـذه المعـركة هـامـة لأنها معـركة أحسـن فيهـا القبارصة استخـدام المشاة، فقد قلب ذلك الموازين: وصـار فرسان اللومبارد الثقال تحت رحمة المشاة القبارصة، الـذين تولوا قتلهم عند سقـوطهـم مـن على ظهـور خيولهم، وسـاعـدوا في الـوقـت نفسـه فرسانهم على التمكن من امتطاء خيولهم ثانية.

٢٢٢ــ استخرج كـوهلر هذه القـراءة من أمـادي (ص ١٦٩) مصححاً بذلك «الأعمال» الذي جاء فيـه: «وأقام في قيادة الرتل الأول السير هيـوج ــ ابنه ــ، والسير آمسيـودي بري في الـرتل الثـاني، والسير بلدوين دي ايبلين في الثالث، وصاحب قيسارية الشاب في الرابع، ووقف هـو في الساقـة، لأن أكثر مـن ذلك لم يكـن هناك أرتـال»، وقال جونـا (١/ ٥٥٠) بأن فيليب دي نوفار قد تسلـم قيادة قوات الساقة.

٢٢٣ــ كان يودس دي لى فيرتي فيـزكونت عكا في سنـة ١٢٥٠، وكانت أسرة مونتوليـف أسرة لها أهمية عالية في قبرص في أثناء القـرن الرابع عشر، وقـد ظهرت على صكـوك عائدة لكـونت طـرابلس في القـرن الثاني عشر، وغير هـذا لم يكن هـؤلاء الرجـال معروفين، وقـد جعل

دوم جونا (١/ ٥٥٢) صاحب أرسوف بطـلاً لعملية الدفاع المنفردة هـذه، وقد أصبـح لى فيرتي، دي فيرتي، ولى فليس نـاسيو، في هـذه الرواية.

٢٢٤— وليم دي باليريا، كـونت أوف مانوبيلو، ونائب عـام للامبراطور، وقد كان واحداً من مستشاري فردريك المعتمد عليهم.

٢٢٥— غيوفـري دي مونتفوسكـولو Montefoscolo، وقد أصبـح هو نفسه فيما بعد متسلم العدالة في كالبيرا.

٢٢٦— قال أمادي (ص ١٧١): «انعطفوا نحو أغريدي».

٢٢٧— كاستري أو كاستريا.

٢٢٨— ربما كان هـذا بيرارد دي مانيـوبيلو Manupello، أحد أقـرباء بيرارد دي مـانيوبيلـو كـونت لـوريتـو، الـذي كان في سنـة ١٢٣٩ واحـداً من الفـرسـان الـذين عهـد إليهـم فـردريك بـأمـر الأسرى اللومبارد.

٢٢٩— أعاد كـوهلر بنـاء هذا الجزء الأخير كلـه من هـذا المقطع اعتماداً على أمــادي ص: ١٧١— ١٧٢، وجــاء نــص الأعمال كما يلي: «وشيء واحد تـوفر هناك قـد ساعد القبـارصة كثيراً، وأعني بـذلك السيرجندية الرجّالة، وهكذا حدث أنـه عندما كان يقع أرضاً واحد من فرسـانهم كانوا يساعدونه على إمتطـاء فرسه ثانية، وعنـدما كان يقع واحـد من فرسـان اللومبارد كـانوا يقتلـونه أو يأخـذونه أسيراً، ولهذا السبب قتـل عدد كبير مـن أبوليـا، أو أخذوا أسرى، في حين فقد القبـارصة فارسـاً واحداً، كان اسمـه سيرجي، وكان قـد ولد في توسكـانيا، لكنـه نشأ في قبرص وفيهـا صار فـارساً، وقـد قتل مـن فرسان أبوليا أكثر من ستين فارساً، ووقع بالأسر، أكثر من أربعين».

٢٣٠— بليشيا Blessia أو بليتشا Pletcha في السهل جنوب ديودامور.

٢٣١— فسر ماس لاتري (التاريخ: ١/ ٢٩١) هذا على أن معناه قطع أيديهم أو أقدامهم، وهي عقوبة غالباً ما نفذت بحق من لم يكونوا من النبلاء وذلك بموجب «قانون أنظمة البرجاسية» (القوانين: ٢/ ٥٦).

٢٣٢— اقترح روهرخت (التاريخ ص ٨٢٣— ٨٢٤) أن انتي دي تشيلجن ربما هوهانس فون شيلجن، أما البقية فتعذر التعرف عليهم.

٢٣٣— كان فيليب شينارت قد صار قائداً لكنتارا بعد وفاة جوفيان.

٢٣٤— في الأبروزي Abruzzi، كان وولتر أوف أكوافيفا ابن رينارد أكوافيفا.

٢٣٥— ذكر كوهلر اسم فيلنغر اعتماداً على أمادي ص ١٧٤، وجاء سياق رواية «الأعمال»، وكأن هيوج صاحب جبلة قد بقي الوكيل في صور، في حين ذهب فيلنغر، وبرلياس، وصاحب بيسان إلى الغرب، وقد تقبل هذه الرواية كل من روهرخت (التاريخ ص ٨٢٤)، وموللر (اللومبارد، ص ٥٤)، لجعل صاحب جبلة وكيلاً في صور، وقال ماس لاتري (التاريخ: ١/ ٢٩١) بأن فيلنغر قد ذهب إلى الغرب، مخلفاً أخاه لوثير وكيلاً في صور، وأن صاحب جبلة قد التحق مؤخراً بلوثير هناك، وأنا أميل إلى مراجعة التصحيح الذي قدمة كوهلر على أساس أن فيلنغر قد اختفى ولم يكن حاضراً في سورية لمدة طويلة بعد هذا الحادث.

٢٣٦— هذه هي المرة الأخيرة التي تذكر فيها رواية فيليب مجموعة: برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وأعطى أمادي (ص

١٧٤— ١٧٥) أسماء آخرين أعلن عن مصادرتهم في ذلك الحين وهم: فيليب شينارت، وهيوج شابوت (زابوك)، وهيوج دي ماري، ورينو لى شامبرلين (زامبر لاني) وهيوج بورسليت، وبيرتراند بورسليت، وسادة حصون: الطور، وكرباسو، وميسوريا.

٢٣٧— هرب شيعة الامبراطور بعد نفيهم ومصادرتهم في قبرص إلى بلدان صديقة، أو إلى بلدان تحت حكم الامبراطور، فقد فرّ عموري بـرلياس وأسرته إلى طرابلس، وهناك مات قبل وقت قليل من عام ١٢٣٦، وإلى طرابلس التجأ أيضاً هيوج صاحب جبلة، وبرتراند بورسليت، وكان أمراء طرابلس — أنطاكية يؤثرون الامبراطور، ولهذا رحبوا بهؤلاء اللاجئين، وأقروهم ببيوت جديدة، وقدم لوثير فيلنغر فيها بعد إلى هناك، وهرب إلى أبوليا عموري صاحب بيسان، وشينارت، وشابوت، ودي مير، وعدد كبير آخر من القبارصة، حيث منحوا هناك اقطاعيات من قبل الامبراطور، وأدخلوا في الخدمات الامبراطورية، وقد ترقى فيليب شينارت الذي كان المدافع عن سيرينا إلى أعلى المراتب، حيث تزوج من وارثة أبولية، وغدا كونتاً لكونفيرسانو conversano (١٢٤٢)، وإليها أضاف السيادة على أكوافيفا، وعين في سنة ١٢٤٧ قسطلاناً لباري، وعين في السنة نفسها مع : عموري صاحب بيسان، وتوماس دي أكينو— كونت أسيرا، الوكيل الامبراطوري السالف في سورية— وعموري سافارين الذي كان قبرصيا منفياً آخر، نواباً لصقلية، عندما كان الامبراطور بعيداً في الشمال، ثم جرى تعيينه قائداً أعظم لصقلية من قبل مانفرد في سنة ١٢٥٥، وهو الذي قاد اسطول الصقليين أثناء هجوم مانفرد على سواحل ألبانيا، ثم عين نائباً امبراطوريا صقليا في كورفو وإبروس، ومنح في كورفو عدة اقطاعيات لعدة قبارصة، وأسس هناك مستعمرة ثانية للقبارصة،

الـذين كـان من بين البـارزيـن بينهم أسرة بيـت ألمان، وعند وفـاة مانفـرد أعلن فيليب نفسـه سيداً مستقلاً لكـورفو، لكن مـالبث أن قتل إثـر ذلك بتحريـض من زوجته الثانيـة، التي كانـت ابنة أمير اغريقـي لإبروس، وأقام ابنـه، بعد مقاومـة يائسة، سلماً مـع شارك أوف آنجو، واستمر في المكـانة نفسها والتملك والشرف في كـورفور تحت حكـم الأسرة الجديدة. وتـزوج عموري صـاحـب بيسان مـن وارثة تريكاريكو Tricarico في أبوليا، وأصبح من خلالها الوريث هنـاك، وصار هيـوج شابـوت سيـداً لغرومـو Grumo والأراضي المجاورة، واستخدم مـن قبل الامبراطور فردريك الثـاني حيث بعثه سفيراً إلى انكلترا في سنة ١٢٣٩، وأصبح هيوج دي ماري صاحب شامبـو مارينـو، وأرسل رسولاً إلى فـرنسا، ولحق جـون جوفيـان ابن جوفيـان دي شنشي، بعمه فيليـب شينارت، واستحـوذ على أراضي في أبـوليـا، وشكـل هـؤلاء نـواة مستعمـرة قبرصيـة في الأراضي الامبراطورية، وبـات مقدراً بأن هؤلاء القبارصـة قد استحوذوا على جميع أراضي منطقـة باري تقـريباً. (انظـر إ. بيرتوكـس Bertaux: «فـرنجـة مـاوراء البحـر في أبـوليـا وفي ايبري Epire » الـدوريـة التـاريخيـة، ٨٥ (١٩٠٤)، ٢٢٤— ٢٥١، والحواشي التـي لـدى: «غ. غودشيGodici» « العـلاقات الـدبلـومـاسية أيـام حكـم شارل الاول وشـارل الثاني دي أنجـو، ١/٢٩٨— ٢٩٩، ٣٠٧— ٣١٠).

٢٣٧— اعتماداً على أمادي (ص ١٧٦)، واستـدرك ر. دي ماس لاتـري هنا أن ذلـك لابد أنه كان في عيـد الحصاد، لأن عيد الفصـح لعام ١٢٣٢ حل يـوم ١١— نيسان، في حين كـان عيد الحصـاد في ٣٠ —أيار.

٢٣٨— كان هيـوج دي إيبلين هو الابـن الأكبر لبالين دي إيبلين، وعـم

جون دي إيبلين صاحب بيروت، وقد تزوج من أغنس دي كورتناي، بعد طلاقها من عموري الأول ـ ملك القدس ١١٦٢ — ١١٧٤ ــ وظل رأساً لأسرة آل إيبلين من سنة ١١٥٥ حتى تاريخ وفاته في سنة ١١٧٤ .

٢٣٩— كان فيليب دي ميللي Milly صاحب نابلس ابن غي دي ميللي صاحب نابلس وستيفاني، وتزوجت ستيفاني بعد وفاة غي من بلدوين صاحب الرملة، وتزوجت ابنتها هلفيس صاحبة الرملة من بالين دي إيبلين، وجاء من هذا القران هيوج دي إيبلين، وعلى هذا كان فيليب خال هيوج، وورث فيليب في سنة ١١٦١ السيادة على الكرك والشوبك، وأرغم على التخلي عن إقطاعه الذي شمل نابلس لصالح التاج ليحصل على الموافقة الملكية على ميراثه الذي ضم إقطاعية أكبر(Strehlke,p.3) وتخلى في سنة ١١٦٩ عن إقطاعياته لوريثه، وصار المقدم الأعلى لفرسان الداوية.

٢٤٠— حول هذه المسألةانظر Schlumberger,Campagnes du Roi Amaury I,PP 192 - 93 ولى مونت«الملكية الاقطاعية» ص ٩٩، وبينوت ــ القوانين :١ / ٤٥٥، الحاشية، وبيّن شلمبيرغ أن هذه القاعدة كانت مجرد أمر صدر في ذلك اليوم، ولم تكن حكماً دائماً، لأنها غير موجودة في أي من كتب القوانين.

٢٤١— كان فيليب موغستيل ابن توماس دي موغستيل، أحد إقطاعيي قيسارية، وأخاً لسمعان دي موغستيل رئيس أساقفة صور، وقد تزوج من مرغريت دي دياسبري Diaspre ،والأخت تزوجت من دانييل دي تيريموند.

٢٤٢— بالفعل إذا ما تخلينا عن الأحكام العدوانية والمواقف العنيفة المسبقة لفيليب، يبدو أن هذه كانت محاولة مخلصة من جانب

الامبراطور للوصول إلى صلح مع البارونات السوريين، وكان هنري وصاحب بيروت يحاولان أن يكسبا الناس إلى جانبيهما عن طريق منح الاقطاعيات، لكن كانت الغالبية العظمى من البارونات السوريين متمسكة بشدة بإخلاصها لكونراد وللامبراطور، مع أنهم اعترضوا على تجاوزات فيلنغر، واعتقد الامبراطور أنه بتعيينه لواحد من البارونات من أسرة محلية جيدة وكيلاً مشتركاً مع فيلنغر، سيزيل بعض أسباب الشكوى لدى السوريين، وسيقوي من وضعه، ومن الجدير بالملاحظة أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد كانا راضيين بهذه الترتيبات، ولهذا رفضا من قبل الاعتراف بفيلنغر وكيلاً، واستمرا يعدان نفسيهما الوكيلين الصحيحين للامبراطور في سورية.

٢٤٣— خلف يودس دي مونتبليارد غارنيير الألماني كشريك صاحب صيدا في وكالته.

٢٤٤— أضاف أمادي(ص ١٧٩):«وكوكبة كبيرة من الجنويين».

٢٤٥— يوجد لدى جون دي إيبلين صاحب يافا في «قوانين القدس»: ٢ / ٣٩٩ رواية أخرى حول هذه الحادثة نفسها هذا نصها:«وعندما عاد الامبراطور ترك في مكانه صاحب صيدا مع السير غارنيير الألماني، وبقي السير غارنيير في (مركزه)وقتاً قصيراً، ومن ثم انتسب إلى الداوية، وحل القسطلان محله، وحدث بعد ذلك أن أرسل الامبراطور أسقفاً إلى هذه البلاد، يحمل رسائل إلى صاحب صيدا، وإلى القسطلان، يأمرهما فيها بوجوب تولي السير فيليب دي موغستيل للسيادة، وجمع صاحب صيدا والقسطلان رجال الاقطاع في كنيسة الصليب المقدس، وكان البطريرك جيرولد موجوداً هناك، وصدر الأمر بقراءة الرسائل التي تحتوي على أمر الامبراطور المذكور أعلاه، وقدم ابن خالي جون صاحب قيسارية

إلى هناك، وتفوه برد الاقطاعيين بسبب أن صاحب بيروت ونحن جميعاً كنا في قبرص، وتحدث كيف أن الامبراطور ثم القسطلان وصاحب صيدا ـ اللذان كانا هناك ـ قد أقسما عندما بقيا في محله على التمسك بالقوانين وبالممارسات وبالعادات العائدة لمملكة القدس، وأنه هونفسه وجميع الاقطاعيين الآخرين متمسكين بإخلاصهم ـ وخاصة باليمين ـ وتعهدهم بالتمسك بالقوانين، وبالعادات الجيدة لمملكة القدس، وبالمحافظة عليها، وأن هذا الذي أمر به الامبراطور مضاد لهذه القوانين وللممارسات، لأنه أراد أن ينقض بوساطة الرسائل ماجرى إبرامه أمام المحكمة، وهذا ما لايسمحون به ولن ينفذوه للأسباب المبينة أعلاه، وحدث هياج عظيم، وقرع ناقوس الكومونة، وغادر الأسقف، وبقي صاحب صيدا والقسطلان حيث كانا بإدارة السلطة، ومات صاحب صيدا، وبقي القسطلان في إدارة السلطة.

٢٤٦— قال جونا(١ / ٥٥٥) بأن سيرينا قد وضعت تحت إمرة بلدوين دي بري، وهو أخ لـ «أنريان Anrian دي بري» الذي قتل أثناء الحصار.

٢٤٧— قال أمادي(ص ١٨٢): خمسين أسيراً.

٢٤٨— ترك فيليب دي نوفار الذي اهتم بالصراع الإيبليني ـ اللومباردي فقط، سياق الأحداث هنا، وعبر مباشرة نحو وفاة جون دي إيبلين في سنة ١٢٣٦ ، فقد استمر الصراع بين الإيبلينيين والامبراطور، وتدخل البابا لصالح فردريك حسبما كنا قد رأينا، ولم يذكر نوفار مطلقاً حقيقة وقوف الإيبلينيين ضد البابا، وأهمل كلياً ذكر السفارات التي تنقلت فيما بين سورية وروما، وقدم هرقل(ص ٤٠٦ — ٤٠٧)حكاية بعض هذه المباحثات بقوله:«في هذه الآونة(خطأ فتاريخ سنة ١٢٣٣ يتوجب أن يكون سنة ١٢٣٥)

أرسل رجال مملكـة القدس رسلاً إلى روما، وذلـك بناء على تحريض من هيرمان مقـدم اسبتارية التيوتون، للعمل على عقـد صلح بينهم وبين الامبراطور، وكـان الرسل فـارسان من عكـا وهما: فيليب دي تروي، وهنـري صاحـب الناصرة، وعنـدما قـدما إلى رومـا فعلا مـا أراده مقـدم التيـوتـون تمامـاً وذلـك وفقـاً لإرادة الامبراطـور، وختما رسائل مـواثيق السـلام، وعندما عـادا إلى عكا، قـدما الـرسائل إلى حيث قرئت، وعندما سمـع أهل المملكة بشكل السلم كما ورد في فحوى الـرسائل غضبوا غضبـاً شديداً، وكـانوا يمتلكون التسـويغ لفعـل ذلك، لأن هـذا السلـم كان عـاراً عليهـم وخسارة ومضـاداً لسلطـانهم وللتعليمات الصـادرة إلى الـرسـولين، ولهذا لامـوهما، وعدوهما خـائنين وزائفين، وكادوا أن ينزلـوا بهما عقوبات جسـدية، واجتمع رجـال المملكة للتشـاور، وبإتفـاق جماعي بينهـم بعثوا إلى ملك قبرص، وبنـاء عليه بعث ملـك قبرص ورجال مملكـة القدس رسولاً عاماً عنهم يمثلهم جميعاً إلى روما إلى الحبر الأعظم، وجاءت مراسلتهم إلى البـابا فيما يتعلق بهذا الأمر،ولأن هـذا الصلح الزائف قد أبـرم أمامه وبمعـرفته، وكان الـرسول الذي بعثـوا به فارسـاً من قبرص، كان قد ولـد في سورية، لكنه ذهـب للعيش في قبرص على إقطـاع كبير كان الملـك هنـري قد منحـه إيـاه، وقـد جعله هنـاك حاجـب قبرص، وكان اسـم هذا الفـارس غيوفـري لى تور، ووضـع الملك هنري نفسه في هذا كله مع جماعة رجال مملكة القدس، فلقد تضرر الملك كثيراً من هذه المعاهـدة التي تكلمنا عنها أعلاه حسبما جاءت بـالرسـائل، وغادر غيوفـري لى تور قبرص، وقـدم إلى عكا، وتسلم رسائل بارونات البلاد واعتراضـاتهم،وذلك بالاضافة لما كان قد تسلمه من ملك قبرص، ودخل مسـافراً إلى سفينة جنوية، وعبر بوساطتها إلى جنوى، ومضى من هناك إلى فيتيربو، حيث كان البابا مـع بلاطـه كلـه، وحمل معـه هدايـا فـائقـة وثمينة إلى البـابـا وإلى

الكاردينـالات، وسلم رسائلـه، وأظهر للبابـا النقاط التي بمـوجبها والأسباب التي ينبغـي للصلح أن يتم قبوله، واستقبله البـابا بشكل لائق، وسمع منه بكل رغبة، وردّ عليه بأنه غير مندهش أبداً إذا ما رفضوا تلك المعاهدة، لأن الذي قـامت عليه زائفاً وشريراً، ولم يكن بإمكانـه فعل أي شيء آخر،لأن السفيرين اللـذان أبرماها قـالا بأن لـديهما أوامـر بصنـع ما صنعـاه،وإذا كـان(البـارونـات)غيرراغبين بالموافقـة على ما عقـده(الرسـولان)فهذا ممكـن لهم وحق في حـدود سلطتهـم، وهو لـن يـرغمهم أبـداً، بـل وعدهـم بتـأييد الكنيسـة ودعمهـا، وأرسـل إليهـم رسـائل رغـب فيهـا إليهـم بـأن تتخـذ المملكتـان الموقـف نفســه، وأرسـل إلى عكـا، وإلى الـرهبـانيـات العسكريـة الثلاث، وإلى الكومونـات يطلب فيها مـن ملك قبرص ومن بلاده، ومـن الذين في مملكة القدس وجـوب التعاون في حماية أنفسهم وحقوقهـم والدفاع عنها، وأمرهـم بإلحاح بضرورة التمسك بذلك، وبعث بـالرسالة نفسها إلى معتمد الجنـويين وإلى كومونتهم بالـرسالة نفسهـا، وحمل غيوفري لى تور هـذه الرسائل كلهـا وأشياء كثيرة أخرى تسلمهـا من البابا غـريغوري، وهكذا عـاد إلى جنوى، ومن هناك ركب سفينة وعبر إلى عكا، ومنها ذهب إلى قبرص.

وكـان الصلح الأول قـد عقد عنـدمـا كان البـابا والامبراطـور على وئام، وجاءت سفارة غيوفري إلى غريغوري بعدما فسدت العلاقات ثانية بينه وبين فردريك.

٢٤٩— فيليب دي مـونتفورت، صـاحـب كـاسترا Castres في ألبيوس Albigeois، وابن غي دي مونتفورت، وبـالتالي حفيد سمعان دي مونتفورت الـذي استولى على الألبينسيين Alebigensians،وابن خال(عم) ايرل ليستر المشهور.

٢٥٠— ماري أوف طـرابلس ـ أنطـاكية ــ ابنة ريمونـد روبين وهلفيس

دي لوزغنان، وقد ورثت اللقب المعزو إلى تورون(التي كانت داخل الأراضي الاسلامية) من جدتها أليس صاحبة أرمينيا، وكان هذا بعيد سنة ١٢٣٦، وقد تزوجت في سنة ١٢٤٠ فيليب دي مونتفورت.

٢٥١— كانت أمه هلفيس دي إيبلين، أخت جون صاحب بيروت،وكانت تعرف باسم سيدة صيدا.

٢٥٢— قال«الأعمال»صور، لكن هذا من الواضح أنه خطأ، وقد صححه كوهلر.

٢٥٣— اسشيفي صاحبة طبرية، ابنة رينو صاحب طبرية، ومرغريت دي إيبلين، وأخت غير شقيقة من خلال أمها لجون صاحب قيسارية.

٢٥٤— أوضح أمادي(ص ١٨٧) بأن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيلاً في عكا، كان ميتاً، وكان يودس قد صار وكيلاً بالزمالة مع بالين عندما استقال غارنيير الألماني من الوكالة.

٢٥٥— بيتر فيلابرايد المقدم الأعلى للاسبتارية ١٢٣٩ / ٤٠ — ٤٣ .

٢٥٦ — الناصر صلاح الدين يوسف ـ سلطان حلب(١٢٣٦ — ١٢٦٠)، وكان آخر سلاطين الأيوبيين في حلب.

٢٥٧— يبدو أن هذا الحصار قد وقع في سنة ١٢٤١، وذلك اعتماداً على بينة فيليب ومن خلال التطورات المنطقية للأحداث، ومع أن«حوليات الأرض المقدسة» (ص ٣٨٢)تجعله في سنة ١٢٤٣، بعد الاستيلاء على صور، وقال ريكاردوس دي سان جرمانو(ص ٣٨٢)بأن مدينة عكا قد ثارت ضد الامبراطور في سنة ١٢٤١، وأن ذلك كان في تشرين الأول وعلى هذا نجعل تاريخ الحصار من

تشرين الأول ١٢٤١ إلى نيسان ١٢٤٢.

٢٥٨— روى كل من هرقل(ص ٤٢٢) وأمادي(ص ١٩٢) بأن مغادرة فيلنغر حصلت بعد اجتماع المحكمة العليا التي انتخبت الملكة أليس لتولي السلطة.

٢٥٩— أضافت الأعمال هنا:«عندما غادر رتشارد فيلنغر»، وكان فيلنغر مارشال الامبراطورية لكن ليس في سورية، وإذا كان لوثير قد عين مارشالاً للقدس من قبل فردريك، فهذه هي البينة الوحيدة على ذلك.

٢٦٠— قال أمادي(ص ١٨٩): أربعة برجاسية بنادقة وجنويين، ويتوافق هذا بشكل جيد مع ما قاله مرسيليو جورجيو فيما يتعلق بالمبادرة المتعلقة بخطط الاستيلاء على صور(انظرالملحق).

٢٦١— سقط قوله:«حفظ بشكل سيء» من«الأعمال»، وأقحمه كوهلر نقلاً عن أمادي(١٨٩)،وأنا أميل إلى التساؤل حول ضرورة هذا الاقحام، لأنه حتى فيليب كان قد أقبل على إظهار أن بالين قد حافظ على إخلاصه، وفردريك لم يفعل ذلك.

٢٦٢— ولد كونراد في ٢٥ — نيسان ١٢٢٨، وبناء عليه وصل إلى سن البلوغ في ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وبناء على هذه القاعدة جرى التأريخ للاستيلاء على صور في ١٢٤٣(انظر حاشية المقطع ١٨٩، أي رقم ٢٧٤).

٢٦٣— ينبغي التذكر أنه في سنة ١٢٢٩، ادعت أليس الحق في المملكة على أساس أنها وارثة لإيزابل، وأن المحكمة العليا قدرفضت ادعاءاتها على أساس أن كونراد كان الوريث الشرعي، وحثها فيليب هنا على المطالبة بالمملكة على أساس أن تكون وكيلة، بحكم أنها أحق الورثة وأقربهم من كونراد، الذي امتلك بموجب

قانـون البلاد سنة ويـوماً بعد وصـوله إلى سـن الرشد ليقـدم نفسه شخصياً للمطـالبة بميراثه، وعليـه كان يمكنها تسلـم الميراث حتى يأتي شخصياً ويطالب به.

٢٦٤— كان رالـف دي سواسـون الأخ الأصغر لكـونت أوف سـواسون، وكان قـد قدم إلى سـورية مـع صليبية ثيبـوت ملك نـافار، وتـزوج الملكة الثرية لكن المسنة.

٢٦٥— كان هذا في ٥ — حزيران ١٢٤٣، وكان البطريرك متغيباً، وكان رئيس أساقفة صـور يعمل ممثلاً له، ولدينا أربـع روايات حول هذا الاجتماع الهام للمحكمة العليا وهي:رواية مرسيليو جورجيو، ورواية جـون دي إيبلين صاحـب يافـا، وروايـة فيليب دي نـوفار،وروايـة هرقل، وجرى تقديم الروايات الثلاث ـ باستثناء رواية نافار ـ في الملاحق، ولروايـة مرسيليو جورجيو أهميـة خاصة بتحديـد التواريخ بـدقة، وسـاقـت«حوليـات الأرض المقـدسة»(ص ٤٤١) سلسلـة الأحداث كلها في حـولية سنة ١٢٤٢، وقال فقط:«طـالبت في هذه السنة الملكة أليس بمملكة القدس، وبنـاء عليه استقبلها أهل عكا بمثابـة ملكتهم الوارثـة،وقدمـوا الولاء إليها وإلى زوجهـا رالف دي سواسون، وزحـف أهل عكا وصاحب بيروت وطردوا اللـومبارد من صور ومـن سورية، وأسروا وكيل صـور، واستولوا على السفينـة التي كـان فيهـا، ذلك أنـه لسـوء حظـه كـان عائداً»، ونـص الحوليـات القصير هـذا أخطأ في قـولـه بـأن «أليس استقبلـت كملكـة»، وأن صاحب أرسوف قد استولى على صور.

٢٦٦— الاشارة هذه إلى البيـازنة خطأ، وقال أمـادي(ص ١٩٠) بشكل محدد:«وليس البيازنة لأنهم كانـوا متحزبين إلى الامبراطور»، ويتوافق هذا مـع سياسة البيـازنة التي كـانت غبلينيـة بشكل ثابـت، ولقد قبل روهـرخت بـوجودهـم في هذا الاجتماع، لكننـي لا أدري كيف

كـان ذلك، ولم يـذكـرهـم مرسيليـو جـورجيـو، ومثله فعلـت بقيـة الروايات.

٢٦٧— قال أمـادي(ص ١٩٢):«كان الـوكيل والمسـؤول عن الموارد»، واعتقـد روهـرخـت(ص ٨٥٧)إن المقصـود هنـا هـو فيليـب دي مونتفـورت، لكن بحكم أننـا رأينا فيليـب دي نوفار يقـوم بتجهيز السفينة، يبدو من الطبيعي أكثـر أن نعتقد أنه المقصود، لاسيما وأنه ذكر ذلك مباشرة بعد حديثه عن مكاسبه المالية.

٢٦٨— أضاف«الأعمال» :«وتابعـوا الاندفاع وساروا عبر البحـر بمحاذاة أسوار المدينة بوساطة اسبتارية التيوتون».

٢٦٩— تبعاً لهرقل(ص ٤٢٣)جـاء رالف دي سواسون إلى صـور، فقط بعد الاستيـلاء على المدينة، وقـال مرسيليـو بأن الملكـة قدمـت فيما بعد، غير أنه لم يذكر رالف.

٢٧٠— أضـــاف أمـادي(ص ١٩٤) :«كـــان الجزء الأعظـم جنـــويين وبنادقة».

٢٧١— نقرأ في أمادي(ص ١٩٤) وفي«الأعمال» :«بعد إمضـائهم تسعة أيام في البحر سـاقهم الحظ إلى برباري، ووجـدوا هناك سفينتهم في حالة مؤسفة، حيث كان الماء يدخـل إليها من عدة أماكن»، ونجد هذا نفسه في هرقل(ص ٤٢٦).

٢٧٢— كانت القراقي سفينة ذات أشرعة ثلاثة، عالية الدكة، مع أشرعة أمامية مربعة، ومع شراع مثلث في النهاية القصوى.

٢٧٣— أضـاف أمـادي(ص ١٩٦):«وصرخ الـذيـن كـانـوا في الخارج بوجوب التوقف، وإرسال واحد ليتحدث معه».

٢٧٤— ينبغـي أن يكـون هـذا في سنـة ١٢٤٣، والتـواريـخ الخطأ غير

موجودة في أمادي، وعزاهم كوهلر إلى مصنف«الأعمال»، ومن السهل التعرف إلى تاريخ الاستيلاء على صور بشكل صحيح من خلال رسالة مرسيليو جورجيو، التي كتبت في تشرين أول ١٢٤٣، وفيها روى أحداث شهر حزيران من ذلك العام، ومن غير الممكن القبول بتاريخ أبكر للهجوم على صور، أي أن يكون قبل ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وهو التاريخ الذي وصل فيه كونراد إلى السن القانونية، وأكد كل من الإيبليني ونافار بأن ذلك كان بعد الاعتراف بأليس، فبعد هذا الاعتراف جرى الهجوم، وجعل هيولارد ـ بريهول(تاريخ الدبلوماسية، ص ٣٥٧ من المدخل) تاريخ الاستيلاء على صور في سنة ١٢٤٠، وذلك اعتماداً على ماريو سنوتو(ص ٢١٦)، لكن مصداقية الإيبليني، ونافار، وجورجيوأعلى من مصداقية سنوتو، ومما ورد لدى هرقل(ص ٤٢٠)، حيث جعل حادث الاعتراف بأليس يقع في سنة ١٢٤٠(بعد حديثه عن زواج أليس من رالف قال هرقل بأنه بعدما تزوج رالف طالب بالاستحواذ على المملكة، غير أنه لم يذكر بالتحديد أكان ذلك على الفور أو بعد زواجه منها)، وكان فيلنغر مايزال الوكيل في صور بتاريخ ١٧ — أيار ١٢٤٢(روهرخت، السجلات،الوثيقة رقم ١١٠٧)، ولم يظهر اسم توماس أوف أسيرا بمثابة وكيل في الشرق حتى آب ١٢٤٣، (السجلات، وثيقة رقم١١٢)، ومع أن ريكاردوس دي جرمانو قال بأنه عين في سنة ١٢٤٢، وعلى هذا يكون تعيينه وقت مغادرة فيلنغر، أي قبل الهجوم على صور(انظر توماس لاتري — التاريخ : ١ / ٣٢٤، الحاشية كوهلر ص ١٣٨ .روهرخت — التاريخ ص ٨٥٤ — ٨٥٩).

٢٧٥ — غير موجود في«الأعمال»، ووضعه كوهلر في الحاشية، ويبدو أن هذا النص المأخوذ من أمادي(ص ١٩٧)يشكل النهاية الحقيقية

- ٢٦٢٦ -

لتاريخ فيليب دي نوفار، وبنـاء عليه أدخلته على أنه المقطع الأخير في كتاب نافار، مـع أنه من الممكن لم يكتب من قبـل فيليب الذي حرص في كل مكان على تجنب الحديث بلغة الشخص الأول.

جريدة
أهم المصادر

Manuscript

Paris, Bibliothèque Nationale, Nouvelles Acquisitions français 6680: Les Gestes des Chiprois.

Editions of the Text and Works Used in Establishing It

Kohler, Charles, Les Mémoires de Philippe de Novare, 1218-1243. Paris, Champion, 1913. "Les Classiques français du moyen âge," t. 10. (This is the edition followed in the present translation.)

Raynaud, Gaston, Les Gestes des Chiprois. Paris and Geneva, 1887. "Société de l'Orient latin, Série historique," t. 5.

Paris, Gaston, and Louis de Mas Latrie, Les Gestes des Chiprois. Paris, 1906. "Recueil des historiens des croisades; Documents arméniens," II, 651-872.

Mas Latrie, René de, Chroniques d'Amadi et de Strambaldi. 2 vols. Paris, 1891-93. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France"; t. 1, Chronique d'Amadi, t. 2, Chronique de Strambaldi.

——— Chronique de l'île de Chypre par Florio Bustron. Paris, 1886. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France, Mélanges historiques," t. 5.

Other Works of Philip de Novare

Novare, Philippe de, "Le Livre de forme de plait," edited by Count Beugnot in Assises de Jérusalem, I, 469-571. Paris, 1841.

——— Les Quatre Ages de l'homme, edited by Marcel de Fréville. Paris, 1888. "Société des anciens textes français."

Works about Philip de Novare

Beugnot, Count, "Notice sur la vie et sur les écrits de Philippe de Navarre," Bibliothèque de l'École des chartes, II, 1-31. Paris, 1840-41.

——— "Introduction aux Assises de la Haute Cour" in Les Assises de Jérusalem, I. Paris, 1841. "Recueil des historiens des croisades: Lois," I.

Grandclaude, Maurice, Étude critique sur les livres des Assises de Jérusalem. Paris, 1923.

Herzog, Annie, Die Frau auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerstaaten. Berlin, 1919. (Pages 118-38 are a study of Philip.)

Lajard, F., "Philippe de Navarre, Jean d'Ibelin et al . . . redacteurs . . . des Assises de Jérusalem," in Histoire littéraire de la France, t. XXI, Paris, 1847.

Langlois, Charles, La Vie en France au moyen âge d'après quelques moralistes du temps, pp. 205-40. Paris, 1926.

Paris, Gaston, "Philippe de Novare," Romania, XIX (1890), 99-102.

——— "Les Mémoires de Philippe de Novare," Revue de l'Orient latin, IX (1902), 164-205.

Pastoret, E., "Philippe de Navarre jurisconsulte," in Histoire littéraire de la France, t. XIII. Paris, 1814.

Richter, Paul, "Beiträge zur Historiographie in den Kreuzfahrerstaaten vornehmlich für die Geschichte Kaiser Friedrichs II," Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung, XIII (1892), 255-310; XV (1894), 561-99.

CONTEMPORARY CHRONICLES AND COLLECTIONS OF DOCUMENTS

Abou'l Feda, "Annals," in Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux, t. I. Paris, 1872.

"Annales de Terre Sainte, Les," edited by R. Röhricht in Archives de l'Orient latin, II, Part B, 427-61. Paris-Geneva, 1884.

Assises de Jérusalem, edited by Count Beugnot. 2 vols., Paris, 1841-43. "Recueil des historiens des croisades: Lois."

Bedr ed Din Alaïny, "Le Collier de perles," in Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux, t. II. Paris, 1887.

"Breve Chronicon de rebus Siculis" in Huillard-Bréholles, Historia diplomatica Friderici Secundi, t. I, Paris, 1852.

Burchardi et Conradi Urspergensium Chronicon, Hanover, 1874. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XXIII.

Delaville Le Roulx, J., Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem, 4 vols. Paris, 1894-1904.

"Estoire, L', de Eracles empereur et la conqueste de la Terre d'Outremer; la continuation de l'Estoire de Guillaume arcevesque de Sur," in Recueil des historiens des croisades: Historiens occidentaux, t. II. Paris, 1859.

Giudice, G., Codice diplomatico del regno di Carlo I e II d'Angiò. 2 vols. Naples, 1863-69.

Huillard-Bréholles, J., Historia diplomatica Friderici Secundi. 6 vols. in 12. Paris, 1852-61.

Ibelin, Jean d', "Documents relatifs à la successibilité au trône et à la régence," in Assises de Jérusalem, II, 397-422. Paris, 1843.

——— "Le Livre des Assises de la Haute Cour," in Assises de Jérusalem, I, 21-430. Paris, 1841.

Joinville, Jean de, Histoire de St. Louis, edited by N. de Wailly. Paris, Firmin Didot, 1874.

Laffan, R. G. D., Select Documents of European History, 3 vols. London, 1930-31.

La Monte, John L., "Register of the Cartulary of the Cathedral of Santa Sophia of Nicosia," Byzantion, V (1930), 439-522.

Liber iurium reipublicae Ianuensis, edited by Ricotti. 2 vols., Turin, 1854. "Historia patriae monumenta," t. 7, 9.

"Les Lignages d'Outremer," in Assises de Jérusalem, II, 435-74. Paris, 1843.

Lusignan, Étienne de, Histoire contenant une sommaire description des généalogies, alliances, et gestes de tous les princes et grans seigneurs . . . qui ont iadis commandé és Royaumes de Hierusalem, Cypre, Armenie, et lieux circonuoisins. Paris, 1579.

——— Description de toute l'isle de Cypre, et des roys, princes, et seigneurs, tant Payens que Chrestiens, qui ont commandé en icelle. Paris, 1580.

Makrizi, "Histoire d'Égypte," translated by E. Blochet in Revue de l'Orient latin, VI-XI. Paris, 1898-1908.

Matthaei Parisiensis chronicon majora, edited by H. R. Luard. 7 vols., London, 1872-83. "Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland."

Michaud, J. F., Bibliothèque des croisades. 4 vols. Paris, 1829.

Monumenta Germaniae historica: Epistolae XIII saecula spectantes, edited by Reiffenberg. 3 vols. Berlin, 1883-94.

Monumenta Germaniae historica: Leges, 4th series, t. 2, edited by L. Weiland. Hanover, 1896.

Röhricht, Reinhold, Regesta regni Hierosolymitani. Innsbruck, 1893. Additamentum, Innsbruck, 1904.

Ryccardi de Sancto Germano notarii chronica, edited by Prutz, Hanover, 1866. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XIX.

Sanuto, Mario, Liber secretorum fidelium crucis, edited by Bongars, Hanover, 1611. "Gesta Dei per Francos," t. II.

Strehlke, E., Tabulae ordinis Theutonici, Berlin, 1869.

Tafel, G., and G. Thomas, Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig. 3 vols., Vienna, 1856-57. "Fontes rerum Austriacarum," Section II, Vols. 12-14.

Winkelmann, E., Acta imperii inedita. 2 vols. Innsbruck, 1880-85.

Modern Works

Archives de l'Orient latin. 2 vols. Paris-Geneva, 1881-84.

Bertaux, E., "Les Français d'outremer en Apulie et en Épire au temps des Hohenstaufen d'Italie," Revue historique, LXXXV (1904), 225-51.

Blochet, E., "Les Relations diplomatiques des Hohenstaufens avec les sultans d'Égypte," Revue historique, LXXX (1902), 51-64.

Bréhier, L., L'Église et l'Orient: les croisades. 5th edition, Paris, 1928.

Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. Paris, 1904.

Du Cange, C. D., Les Familles d'Outremer, edited by E. G. Rey, Paris, 1869. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France."

Guilhiermoz, P., Essai sur l'origine de la noblesse en France au moyen âge. Paris, 1902.

Iorga, N., France en Chypre. Paris, 1931.

Jacobs, W., Patriarch Gerold von Jerusalem. Aachen, 1905.

Jauna, Dom, Histoire générale des royaumes de Chypre, Jérusalem, Arménie, et Égypte. 2 vols. Leyden, 1785.

Kantorowicz, E., Frederick II. English translation by E. O. Lorimer, London-New York, 1931.

Kington, T. L., History of Frederick II, Emperor of the Romans. 2 vols. London, 1862.

Lafiteau, Jean, Histoire de Jean de Brienne. Paris, 1727.

La Monte, John L., Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100-1291. Cambridge, Mass., 1932. "Monographs of the Mediaeval Academy of America," No. 4.

——— "The Communal Movement in Syria in the Thirteenth Century," Haskins Anniversary Essays. Boston, 1929.

Löher, F. von, Kaiser Friedrich II Kampf um Cypern. München, 1878. "Abhandlungen der K. Bayer. Akademie der Wissenschaft." IIIte Klasse, XIV (2).

Longnon, Jean, Les Français d'Outremer au moyen âge. Paris, 1929.

Loredano, G. F., Histoire des rois de Chypre de la maison de Lusignan, traduit de l'Italien du Chevalier Henri Gibelet. 2 vols. Paris, 1732. (Loredano wrote under the name of Gibelet; the first edition of this work appeared at Bologna in 1647.)

Mas Latrie, Count Louis de, Histoire de l'Ile de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris, 1852-61.

——— "Généalogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan," Archivio Veneto, XXI (1881), 309-59.

Müller, Hans, Der Longebardenkrieg auf Cypern, 1229-1233. Halle, 1890.

Reinhards, J. P., Vollständige Geschichte des königreichs Cypern. 2 vols. Erlangen-Leipzig, 1766-68.

Revue de l'Orient latin, 12 vols. Paris, 1893-1911.

Rey, E. G., Étude sur les monuments de l'architecture militaire des croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre. Paris, 1871. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France."

Röhricht, Reinhold, Geschichte des Königreichs Jerusalem. Innsbruck, 1898.

——— Die Kreuzfahrt Kaiser Friedrichs des Zweiten. Berlin, 1872. Also reprinted with corrections and revisions in his Beiträge zur Geschichte der Kreuzzüge, I. Berlin, 1874. (The edition of the Beiträge has been cited throughout.)

Schlumberger, Gustave, Les Campagnes du roi Amaury Ier de Jérusalem en Égypte. Paris, 1906.

Stevenson, W. B., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Storrs, Sir Ronald, A Chronology of Cyprus. Nicosia, 1930.

Stubbs, William, "The Mediaeval Kingdoms of Cyprus and Armenia," Lectures and Addresses on Mediaeval and Modern History. Oxford, 1900.

Winkelmann, E., Kaiser Friedrich II. 2 vols., Leipzig, 1889-97. "Jahrbücher der deutschen Geschichte."

(٢)

وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة

(١١٧٢م)

مدخل

يبدو أنه مامن شيء يقيني معروف عن ثيوديرك، باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه ديترخ الذي ورد ذكره لدى جون أوف وورزبيرغ في مطلع كتاب رحلته، لكن لايوجد برهان يؤكد ذلك، كما أننا لانمتلك أية وسيلة لمطابقته مع ثيوديركوس برابوستيوس دي ويردا Praepositus de werdea،أو مع ثيوديركوس برابوستيوس أونولسباخ Onols-bach،الذي نقف على ذكره في السجلات الموجودة في وورزبيرغ والعائدة إلى أواخر القرن الثاني عشر، ولعله حسبما تقدم القول في مدخل رحلة جون أوف وورزبيرغ، كان هو ثيوديرك الذي صار أسقفاً لوورزبيرغ في سنة ١٢٢٣، ونعرف أنه كان ألمانياً، ومؤكد أنه كان من منطقة الراين، ذلك أنه حدثنا كيف تولى هو ورفاقه في يوم أحد السعف دفن رفيقهم الحاج أدولف أوف كولون في حقل الفاخوري قرب القدس، كما أن قيامه بعقد مقارنة بين كنيسة الضريح المقدس في القدس وبين الكنيسة في أكس لى شابيل(آخن) فيه برهنة على معرفته بتلك البلاد.

وهناك توافق قريب في كثير من الأجزاء بين ما ورد لدى جون أوف وورزبيرغ وثيوديرك، خاصة ما جاء في روايتيهما في وصف الأماكن التي لم يشاهداها، ذلك أنهما استخدما الجمل نفسها وكذلك الكلمات، ولعلهما هنا نقلا عن بعضهما بعضاً، لكن المرجح أكثر أنهما معاً — أو بالحري جون أوف وورزبيرغ، مثله مثل يوجيسبوس فرتللوس مع كتاب آخرين نقلا هذا الجزء من مصدر مختصر عن جغرافية وتاريخ الأرض المقدسة وجوارها، كان آنذاك متداولاً بكثرة، والذي سوف ندعوه هنا بسبب الاختصار:«الخلاصة القديمة الوافية»، وحصلنا على بعض التوضيح لخطته من ذكر جون أوف وورزبيرغ لنيته القيام بالكتابة فقط عن القدس وأحوازها:«وعن الأماكن المقدسة الموجودة داخل الأسوار وخارجها....

وبناء عليه ليس لدينا نية بتقديم أية رواية عن الأماكن القائمة في المناطق المجاورة، لمعرفتنا أن ما قيل عنهم فيه الكفاية، من قبل أي كاتب»، وجدير بالملاحظة أن ثيتمار Thietmar(ط.لورنت Laur-ent،٢٦)فعل عكس هذا تماماً، لأن الكثير قد قيل عن القدس،ولأن تلك المدينة وصفت وصفاً مفصلاً من قبل عدد كبير من الكتاب، ومع هذا يلاحظ أن جون أوف وورزبيرغ لم ينفذ ما نواه،لأنه أعطانا وصفاً عن أحوال الأماكن المقدسة في الجليل أيضاً، وهذا أمر يثير الشبهات، ويدفع إلى القول أن كل ما فعله كان هو النقل عن غيره، هذا إذا لم نقم مكرهين بالافتراض أن وصف الأماكن البعيدة عن القدس قد أضيف إلى وصف خطط القدس وأحوازها من قبل يد أخرى، ولقد بدأ ثيوديرك عمله بالاعلان بشكل محدد بأن وصفه قائم في جزء منه على ما رآه، وفي جزء آخر على روايات موثوقة استقيت من آخرين، لكن حتى وهو يتعامل مع هذه «الروايات الموثوقة» أو مع«الخلاصة القديمة الوافية» يمضي بعيداً في الاعتماد على الذات أكثر من جون، زيادة على هذا في روايته — بالاضافة إلى أنها مليئة أكثر — كثيراً من اللمسات المضيئة، المعدومة لدى الآخرين، فقد نشد الناس«العون من الرب» ومن«الضريح المقدس» عندما كانوا ينتظرون نزول النار المقدسة يوم عيد الفصح، والدموع تنهمر من أعينهم، وأيضاً قام الحجاج بغرس صلبانهم فوق صخرة الجمجمة، وأشعلوا النيران عشية عيد الفصح، كما قام الجهلة من الحجاج فصنعوا كوماً من الحجارة في وادي حنون متوقعين الجلوس عليها يوم القيامة، ووصف كيف أنه أصيب بالرعب هو ورفاقه من المسلمين، الذين دعاهم بالعرب، والذين كانوا قد شرعوا بفلاحة حقل وقع إلى جانب الطريق إلى نابلس، فقد كانوا يصرخون بشكل مرعب،«فتلك كانت عادتهم عندما كانوا يتولون القيام بعمل ما»، وقد شهد بنفسه ووصف ثراء الاسبتارية وأعمالهم الخيرية، وقوة الداوية، وذكر الأسماء النورماندية ـ الفرنسية مثل:«بلمونت» و«فونتنويد»و«جبل

البهجة»، التي باتت غريبة في فلسطين، كما تحدث عن جموع السفن في ميناء عكا الخطر، حيث كان مركبه بين تلك السفن،والمشهد من جبل الغواية فوق السهل المظلم الواسع، المغطى بأعداد لاتحصى من الحجاج، وكل واحد منهم حامل مشعل، وهم يتولون الحراسة ومراقبة المسلمين فوق التلال العربية لما وراء الأردن، وهذه الأوصاف والروايات لها قيمة لاتقدر بثمن، لأنها تساعد على رسم صورة الأرض المقدسة في أيام ملوك الفرنجة، ولابد من التمييز بين ما رآه ثيوديرك، وما وصفه اعتماداً على الآخرين، فقد جاء وصف الذي رآه واضحاً وكاملاً، ومليئاً بالحقائق الجديدة، بينما جاء المنقول مختصراً، متداخلاً ومضطرباً دوماً، ويبدو أنه نزل أولاً في عكا، وسافر من هناك إلى القدس، وزار أريحا والأردن، وعاد عبر الطريق نفسه، مع أنه قد يكون تولى شخصياً زيارة الناصرة، وطبرية وجبل الطور، وروايته عن بحر جنسارث مضطربة بشكل مرعب، ولعل مرد ذلك إلى أخطاء النساخ، وهو على كل حال لم يصف ما رآه فقط بشكل واضح، بل جاء وصفه ساذجاً وذكياً بغية كسب تقدير القارىء، وكان المخلّص مقيماً إلى جانب قلبه، لايزاحمه على مكانته سواه، وقد تحدث عن أمه بالاحترام اللائق، دون أثر لعبادتها الذي تميزت به العصور المتأخرة، ونجده متفوقاً على كثير من رحالة أيامنا هذه،أي أنه لم يتملك مشاعر الكراهية ضد الديانات الأخرى، ومع هذا لانجد لديه روح النقد المتوفرة لدى المؤرخ المعاصر، ولايحتوي الكتاب سوى على القليل من ردات الفعل الدينية التي غالباً ما يخفي الناس وراءها جهلهم بأمور هذه الحياة، ولهذا يرغب الانسان لو أن الكاتب أعطانا تعبيراً أوفى عن مشاعره الشخصية بشكل صادق، ومستقيم وصادر عن القلب، ومع أننا نتعرف من الفصل(٢٩) بأن الكاتب كان رجل دين، هو لم يحاول قط أن يفرض مكانته الدينية علينا، والمثير حقاً والغريب أنه لم يشر قط إلى قيامه بالدعاء أو بأية أعمال تعبدية أخرى في أي من الأماكن المقدسة، ففي الحقبة التي كتب فيها احتلت الأمور الروحية

مكانـة ساميـة، ومع هـذا بدا أنـه من غير الضروري بـالنسبة لـه القيام بإثارة مشاعر القرّاء أو المستمعين.

وليـس هناك مـن شك بـأن رحلـة حج ثيـوديـرك قد قـامت في أيـام الحروب الصليبيـة، أي قبل طـرد الصليبيين مـن القدس سنـة ١١٨٧ م، وهناك شواهد متميـزة عديدة بأنه أقام في القدس في الوقـت الذي كانت ما تزال فيـه تحكم من قبل ملوك الفـرنجة، وكل الذي بقـي علينا هو أن نحاول تحديد السنة تماماً، وهكذا نقـرأ في الفصل الثلاثين بأن عماد الدين زنكي، واسمـه لديه«سنجينوس» أو«سنجيـونيوس»، قد قطـع رؤوس ستة من الرهبان في أحد الأديرة على شواطىء الأردن.

ويبـدو أن هـذا قـد حدث سنـة ١١٣٨، عنـدمـا عبر المسلمـون نهر الأردن، وأغاروا على منـاطق أريحا وتقوع، وبعد هـذه الغزوة بأعـوام ثمانية اغتيل عماد الـدين، ونجد في الفصل الثـاني عشر اسم البطريـرك فولتشر، الذي تولى كرسي البطركية من سنة ١١٤٦ حتى سنة ١١٥٧.

وقـرأ ثيـوديـرك(الفصـل ١٥) بأن هيكـل الـرب قـد انتهـى في السنـة السادسة والثلاثين بعد الاستيـلاء على القدس، وذلك بعد سنة/ ١١٠١/ ويقودنـا هذا إلى سنـة ١١٦٤ م، وذكر في الفصل(٤٥) بـأن بانيـاس قد استولى المسلمـون عليها في سنـة ١١٧١، وينقلنا وصـف قبور الملـوك في الفصل / ١٢ / إلى عموري الذي مات في ١١ — حزيران سنة ١١٧٣.

وهكـذا بدا أن سنـة ١١٧٣، كانـت آخـر تاريـخ ورد ذكره: والنقطـة التاليـة المتوجـب فحصها هي : هـل أتيح له رؤيـة القبور الملكيـة، وهي مسألة لم تكن سهلـة مطلقاً، فقد جاء ثيوديرك من بيعـة القديسة حنة في كنيسة الضريـح المقدس الكبرى، وتابـع سيره نحو الممر الجنـوبي، حيث هنـاك مذبـح ملاصـق للاتجاه الجنـوبي، وأتـى هنا على ذكـر خمسة قبـور وجدت على الجانب اليمينـي أمام الباب، وكان القبر الأول هـو قبر أخي

الملك الحاكم في القدس (بلدوين الثالث)، وكان موضوعاً فوق شرفة جوقة الكهنة، المعروفة الآن باسم «جاثليقية» الكنيسة الإغريقية، وفيما يتعلق بكلمات: «قبر أخي ملك القدس الذي اسمه بلدوين» هي غير واضحة بما فيه الكفاية، وأعتقد أن التعليل موجود في جملة: «القبر الرابع هو قبر والد الملك الحالي، أي الملك عموري»، وكانت القبور حسب الترتيب التاريخي هي حسب مايلي:

أولهم قبر غودفري، وهو يقف ثالثاً بعد قبر بلدوين الثالث، إذا ما انطلقت منه نحو الشرفة، وهو القبر التالي لقبر بلدوين الثاني.

والقبرالثاني هو قبربلدوين الأول، وهو الثاني في الصف.

والقبرالثالث هو قبر بلدوين الثاني (دي بورغ)، والد الملكة ميليساند، ويودس راعية دير لعازر في بيت عنيا، وهو الخامس بالصف.

والقبرالرابع هو قبر فولك، والد بلدوين الثالث، وعموري، وهو الرابع بالصف.

والقبر الخامس هو قبر بلدوين الثالث، وهو الأول بالصف.

ولا يمكن الآن لإنسان أن ينكر بأن ثيوديرك قد قام بحجة إلى الأرض المقدسة في أيام حياة الملك عموري، الذي حكم من سنة ١١٦٢ حتى سنة ١١٧٣، ومن المهم تبيان أن قبر بلدوين الثالث أشير إليه على أنه قبر أخي الملك، لأن من المفترض معرفة الملك الحاكم بشكل جيد وبديهي، ولهذا يمكن بسهولة تعليل لماذا لم يرد ذكر قبر عموري في اللائحة، لأنه كان مايزال حياً، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنه رأى القبور سنة ١١٧١ م لكن ليس بعد سنة ١١٧٣، التي مات فيها عموري، ونصل الآن إلى محصلة أن حج ثيوديرك حدث بين سنة ١١٧١ و ١١٧٣.

وهناك نقاط أخرى جديرة بالتقدير، وهي وإن كانت أدنى دقة، لكنها مع ذلك تشير إلى التاريخ نفسه، فقد قال ثيوديرك في الفصل الخامس بأن بيعة الضريح المقدس كانت ألوان الطلاء فيها باهتة، ولهذا لم يستطع قراءة النقوش التي حفرت على الأقواس، وفي هذا دليل على أن الزيارة التي قام بها قد حدثت في تاريخ متأخر، لكن ليس متأخراً كثيراً بالنسبة لوجود المملكة اللاتينية في القدس، ففي التاريخ المتأخر كثيراً لم نعد نسمع بأن البيعة كانت مقسومة إلى قسمين(انظر رحلة فوكاس، ورحلة المجهول: ٤ فصل ١٥) وقد اعتمد فوكاس على حقيقة أن الامبراطور مانويل كومينوس الذي حكم من سنة ١١٤٣ إلى سنة ١١٨٠ قد تولى تذهيب القيامة كلها، وهناك احتمال كبير بأن ثيوديرك قد رأى بيعة الضريح المقدس أيام ترميمها، حيث مع أنه لم يستطع قراءة النقوش الباهتة الألوان، أخبرنا أنه استطاع أن يقرأ الترنيمة التجاوبية«قام المسيح» بأحرف ذهبية، في حين أن جون وورزبيرغ وصفها على أنها كانت مكتوبة بأحرف فضية، ولقد رأى ثيوديرك البريج التزييني فوق البيعة مع القبة بلون ذهبي، وهذا اللون الذهبي كان براقاً، ومعه أيضاً لون الصليب فوق القبة، وكأنه لون جديد، وتحدث جون فقط عن قبة صغيرة مغطاة بالفضة، وفي هذا كله برهان على أن جون كان المتقدم بالحج على ثيوديرك، ونعرف من ثيوديرك أن الداوية كانوا مشغولين ببناء كنيسة جديدة فوق جبل موريا، وقد استخدم حولها العبارة التالية التي وردت نفسها عند جون وورزبيرغ:

extructione nove ecclesiae nondum tamen consummatae

زيادة على هذا إن نظرية أن جون كان هو الحاج الأول مدعومة بالملاحظة التالية، وهي قوله:«في شكيم هناك كنيسة قيد البناء» فوق بير أيوب، حيث أن ثيوديرك تحدث عنها على أنها كانت مبنية خالصة، وعلى كل حال يبدو أن هذا لايتماشى مع البينة التالية، وهي أن ثيوديرك قد

تحدث عن كنيسة بيترنوستر، أو كنيسة مخلصنا بأنها«الآن قيد البناء» حيث أن جون قد تحدث عنها على أنها كانت مبنية، وفي جميع الأحوال، يمكن أن نستخلص من هذا أن الفارق الزمني بين الحاجين كان قصيراً جداً، وأخيراً يمكننا الإفادة من إشارة ثيوديرك إلى وجود بركة جديدة على الطريق من القدس إلى بيت لحم، وجاء هذا لدى وصفه لوادي حينوم، ولاشك أن المقصود هنا هو بركة السلطان في هذه الأيام، وهي بركة لانمتلك إشارة إليها قبل تاريخ ١١٧٦، ونعرف من جهة أخرى أن بير أيوب القائم عند التقاء واديي حينوم وقدرون قد اكتشف أولاً في سنة ١١٨٤ من قبل جرمانوس، وبناء عليه كان من غير الممكن الإشارة إليه من قبل ثيوديرك.

ونعرف من بينة داخلية بأن رحلة حج ثيوديرك قامت في ربيع السنة أيام«العبور الأول» في آذار أو في وقت الفصح وليس أيام«العبور الثاني» في آب يوم عيد القديس يوحنا، ذلك أن ثيوديرك رأى شعيراً ناضجاً في سهل أريحا في يوم أحد جاء بعد يوم أحد السعف، وفي يوم الأربعاء من أسبوع الفصح كان في عكا في طريق العودة إلى الوطن.

وصف ثيوديرك

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

استهلال

يتوجه ثيوديرك أحقر الرهبان جميعاً ورجال المسيحية بنفسه إلى عباد الثالوث المثلث المتحد، وبشكل خاص إلى محبي مولانا الكريم يسوع المسيح.

لكي يعلموا على الأرض أنهم بمشاركتهم بآلام مخلصنا.

يمكنهم أن يستحقوا فيها بعد الحكم معه.

وحرصنا أن ندون كتابة على الورق، كل شيء متعلق بالأماكن المقدسة، حيث عاش بالجسد بارينا ومخلصنا بشكل فعلي، وأنجز مهامه مع الأسرار المرتبطة برجولته المباركة، وبخلاصنا، وذلك حسبما رأيناه بأعيننا، أو تعلمناه من مصادر رجال آخرين موثوقين وصنعنا هذا وفق أفضل ما نستطيعه، وذلك بغية إشباع رغبات الذين هم غير قادرين على الذهاب إلى هناك بأجسادهم الفعلية، بوساطة الأشياء التي لم يستطيعوا رؤيتها بأعينهم أو سماعها بآذانهم، وليكن معلوماً من قبل كل واحد من قرائنا بأننا بذلنا الجهد في هذا العمل من أجل أن يتعلموا تذكر المسيح دوماً، لأننا بتذكره يمكن أن نتعلم حبه، وبحبه يمكن أن نشفق عليه وهو الذي عانى قرب هذه الأماكن، ومن خلال الشفقة عليه يمكن أن نحصل على الشوق إليه، وبشوق المرء يمكن أن يتحلل من ذنوبه، وبالتحلل من الذنوب يمكن الحصول على نعمته، وبالحصول على نعمته يمكن للمرء أن يغدو شريكاً في مملكته في السماء، وبذلك سوف يعد جديراً من قبله الذي هو مع الرب ومع روح القدس، يعيش ويحكم إلى

الأبد. آمين.

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

١ — *خراب البلاد وتغير أسمائها:*

من الواضح لكل من قرأ العهدين القديم والجديد، بأن بلاد كنعان قد منحت بأمر رباني إلى الأسباط الإثني عشر من أبناء إسرائيل ليتملكوها، وهذه البلاد مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي:

اليهودية، والسامرة، والجليل، وقد كانت في الماضي غنية بعدد كبير من المدن، والبلدات والقلاع، وأسماء هذه المدن القديمة ومواقعها معروفة لكل إنسان، غير أن المحدثين بحكم كونهم غرباء في البلاد، وليسوا من سكانها الأصليين يعرفون فقط عدداً قليلاً من الأسماء وهي الأماكن التي سوف نتولى وصفها في مواقعها الموائمة، وبما أن مولانا العزيز يسوع قد طلب الانتقام لدمه الذي سفك على الصليب على أيدي المجرمين اليهود، دخل الحاكمان الرومانيان فاسبسيان وتيتوس إلى اليهودية مع جيش تولى اجتثاث الهيكل والمدينة، وهدم جميع المدن والقرى في أرجاء اليهودية، وطرد القتلة أنفسهم وأخرجهم من ديارهم وأرغمهم على العيش بين الغرباء، ونتيجة لهذا كله فإن جميع أعمال ومنشآت ذلك الشعب والمقاطعة كلها قد تهدمت، ومع أن بعض الآثار في بعض الأماكن ما تزال باقية، إن جميع الأسماء تقريباً قد تغيرت.

٢ — *اليهودية:*

دعونا على هذا نتحدث أولاً عن اليهودية، فالمعروف أنها كانت المنطقة الرئيسية للملكة اليهودية، والتي تمكنا من تفحصها بأعيننا وبآذاننا، وهناك كما تقوم العين في الرأس تقوم مدينة القدس المقدسة، التي منها ـ بوساطة الرب ـ تدفقت نعمة مولانا يسوع المسيح، وخلاصه، وحياته، إلى جميع الأمم، ويحدّ اليهودية من جهة الغرب البحر

الكبير(المتوسط)، وهي مفصولة من جهة الجنوب ، بوساطة الصحراء عن جبال العربية ومصر، ويحدها من جهة الشرق نهر الأردن، ويتاخمها في الشمال السامرة وأدوم، وتتكون اليهودية من الجبال في معظم أجزائها، وترتفع حول المدينة المقدسة على شكل سلاسل عالية، منحدرة من جميع الجهات إلى حدودها المتقدمة الذكر، وكأنما ينزل المرء منهم إليها، وهذه الجبال في الوقت نفسه وعرة وكثيفة بصخورها القاسية، وهي مزينة من جهة أخرى بصخور موائمة جداً ليقتطع منها حجارة مربعة منحوتة صالحة للبناء، وهذه الحجارة في أماكن أخرى جميلة بألوانها البيضاء، والحمراء، والرخام المنوع، وكل بقعة وجدت بين هذه الصخور الكثيفة أرضاً صالحة للزراعة استخدمت لإنتاج كل نوع من الثمار، وهكذا رأينا الروابي والجبال مغطاة بالكروم، وغراس أشجار الزيتون، وأشجار التين، والوديان مليئة بالقمح وبمنتوجات الحدائق.

٣- القدس. وادي شعفاط وجهنم. جبل البهجة(جبال الجودي). قبرشعفاط. وضع المدينة المقدسة. تحصيناتها. أبوابها. شوارعها. بيوتها. بركها. أخشابها.

تقوم مدينة القدس على ذروة هذه الجبال وهي محدودة بكل من شعفاط وجيروم، وتعد مدينة القدس هي الأقدس والأشهر بين المدن الأخرى والأماكن في جميع أنحاء العالم، وهي ليست مقدسة بنفسها، أو تقدست بنفسها، لكنها تقدست وتمجدت بحضور الرب نفسه فيها، وبحضور مولانا يسوع المسيح وبحضور أمه المقدسة، ولأنه وجدت فيها عقيدة، ودعوة، وشهادة الآباء، والأنبياء، والرسل والرجال المقدسين الآخرين، ومهما يكن من أمر هي مطوقة بشعاب جبلية أعلى منها نفسها، ثم إنها هي نفسها مدينة مرتفعة، لأنها مبنية فوق جبل، ومن هنا إنها تجذب أنظار الذين يتطلعون إليها من جميع الجبال التي تحيط بها، ويقوم الآن فيما بين جبل موريا، الذي يقع عليه هيكل الرب، وبين جبل

الزيتون، الذي تـرتفع قمته فوق كل الجبال الأخرى، بركة قدرون، ووادي شعفاط، وهـو وادي يبدأ مـن جبل البهجـة(جبال الجودي)، ومـن هناك يدخـل الانسان إلى المدينـة من الجانـب الشمالي، فيمر بكنيسـة القديسـة مريـم، التي حملـت اسمها منها، ثـم يمر بقبر شعفـاط، ملك اليهـودية، فمـن موتـه نـال هـذا المكان اسمـه، ثـم يمـر قريبـاً مـن بـركة سلـوان للاستحمام، حيـث هناك واد آخـر يلتقي بـه، ويعطف هـذا الوادي مجراه من عنـد زاوية المدينة الجنـوبية، فيجتـاز البركة الجديدة القـائمة فيما بين جبـل صهيون وحقـل الفـاخوري، وبـذلك يحتضـن طـرفين من أطـراف المدينـة بمجرى عميـق جداً، ويقـوم قبر شعفاط في وسـط هذا الـوادي، وهو مبني من حجارة مربعة على شكل هـرم، ويوجد حوله عدد كبير من القـاطنين من عبيـد الـرب، أو النساك، وكلهـم تحت رعـايـة راعي ديـر القديسـة مريم، هـذا وأطول قسم مـن المدينة هو الممتـد من الشمال إلى الجنوب والقسـم الأعرض هو الممتـد من الغرب إلى الشرق، وهـي محصنة بأسـوار وبحصن على قمـة الجبل القـائم فوق الـوديان المتقـدمة الـذكر، وهناك حـاجز أو خندق موجـود خارج الأسوار، مزود بشرافـات وفتحات رمايـة، يدعـونها«حصن أمـامي»، وللمـدينة سبعـة أبواب، يغلقـون منها بإحكـام ستة كـل ليلة مـن حلول المسـاء حتى إشراق الشمـس، والباب السـابع مغلـق بجـدار، ويفتح فقـط يوم أحـد السعـف، وفي يوم تمجيـد الصليب، وللمدينـة شكل المستطيل، ولها خمس زوايا، إحداهـن عريضة، وشوارعها جميعاً مبلطـة بالحجارة، وهي مقنطرة، مخروقة بكثير مـن النوافذ من أجـل مرور الإضاءة، وتـرتفع البيوت بـوساطـة حجارة مصنعة بـدقة وعناية، ولكنها لاتنتهي بسقف«جملوني» حسـب طرائقنا، بل هي مستوية ومسطحة الشكل، ويتـولى الناس جمع مياه الأمطار التي تتسـاقط عليهم، ويتولـون تخزينها، بصهاريـج لاستخداماتهم الـذاتية، ولايستخدمـون ماء آخر، لأنـه لا يوجد لـديهم، والأخشاب صـالحة للبناء وللنار، وهـي نادرة هنـاك، لأن جبل لبنـان هـو الجبل الـوحيـد المليء بأشجـار الأرز والسرو،

والصنوبر، وهذا الجبل بعيد عنهم، ولايمكنهم الوصول إليه خوفاً من هجمات المسلمين .

٤ــ برج داود. جبل صهيون وجبل موريا. حقل الفاخوري. جبل جبعون. بيت بيلاطس. أنطونيا.

كان برج داود ملكاً لملك القدس، وهو متفوق الحصانة، حيث بني بحجارة مربعة ذات حجم هائل، وهو قائم قرب الباب الغربي، ومنه يقود الطريق إلى بيت لحم، وإلى جانبه ومعه القاعة الجديدة البناء والقصر الملاصق له، وهو محصن بشدة بخنادق وسواتر دفاعية، وهو قائم على جبل صهيون، ولهذا نقرأ في سفر الملوك«استولى داود الآن على صهيون»، وهو قائم متوضع في مواجهة هيكل الرب، في جزء المدينة الممتد جانبياً، حيث أن جبل صهيون موجود على اليسار، وجبل الزيتون في الشرق، ويمتد جبل صهيون من البرج حتى كنيسة القديسة مريم، لكن بدون الأسوار، ومن الكنيسة تقريباً حتى قصر سليمان، وإلى الطريق الذي يؤدي إلى الباب الجميل إلى البرج، وهو هنا أعرض، غير أنه أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، ومع أن جبل موريا المطل على وادي شعفاط، والذي يقوم عليه هيكل الرب وقصر سليمان، يمكن أن يظن أنه رابية عالية، مع هذا إن جبل صهيون أعلى منه بأكثر مما هو متصور، وكما قيل من قبل حتى أنه يطل على وادي شعفاط، ويوجد في حقل الفاخوري، المفصول عنه بوساطة الوادي المذكور، مقبرة الحجاج، وفيها تقوم كنيسة القديسة مريم، أي العذراء أم الرب، وفيها أيضاً دفن في يوم أحد سعف النخيل المقدس، أخانا المعروف باسم أدولف، وهو من أهالي كولون، ويطل على هذا الوادي جبل جبعون، الذي جرى عليه تتويج سليمان، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك.

وفيما يتعلق بالأبنية الأخرى سواء العام منها أو الخاص، لم نستطع العثور على أي أثر، أو لنقل على قليل جداً، وذلك باستثناء بيت

بيلاطس، قرب كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا، وهي قائمة قرب بركة الضأن، ومن جميع الأبنية التي يخبرنا يوسفيوس أنها بنيت من قبل هيرود، لم يبق الآن شيء منها، وهي جميعاً قد هدمت تماماً وذلك باستثناء جانب واحد مايزال قائماً في القصر الذي عرف باسم أنطونيا، مع باب موجود في الخارج قرب باحة الهيكل.

٥ــ *كنيسة الضريح المقدس، وبداية البيعة التي فيها .*

وهكذا إن المتبقي علينا هو وجوب الحديث عن الأماكن المقدسة، التي بسببها دعيت المدينة نفسها بالمقدسة، ولقد رأينا أن علينا أن نبدأ مباشرة بقدس الأقداس، أي أن ننطلق من الضريح المقدس للرب، وكنيسة الضريح هي أجمل بناء وأروعه، ومعروف أنه تأسس من قبل الامبراطورة حنة، وبما أن الجدار الخارجي جاء على شكل الدائرة فقد جعل ذلك الكنيسة نفسها دائرية، ويحتل ضريح مولانا النقطة المركزية في الكنيسة، وشكله هو شكل البيعة التي بنيت فوق الضريح نفسه، وهو مزين بشكل جميل، ومغلف بالرخام، وشكله ليس شكل دائرة كاملة، بل ينطلق من محيط الدائرة جداران منخفضان باتجاه الشرق، ويلتقيان بجدار ثالث، وتحتوي هذه الجدران على ثلاثة أبواب، بعرض ثلاثة أقدام وبارتفاع سبعة أقدام، وينفتح واحد منها على الشمال، وآخر على الشرق، وآخر على الجانب الجنوبي، ويتم الدخول بوساطة الباب الشمالي، ويكون الخروج بوساطة الباب الجنوبي، أما الباب الشرقي فمفرد لاستخدام حراس الضريح.

ويوجد بين هذه الأبواب الصغيرة الثلاثة، والباب الرابع الذي يمضي منه الانسان إلى الضريح نفسه، مذبح، مع أنه صغير له قداسة عظيمة، فعليه - كما قيل - جرى تمديد جسد مولانا من قبل يوسف ونيقوديموس، زيادة على هذا، يوجد فوق الفتحة الفعلية لمدخل هذا الضريح، القائمة خلف المذبح صورة هذين الرجلين نفسيهما مصنوعة من الفسيفساء وهما

يضعان جسد مولانا في القبر، مع مولاتنا أمه واقفة جانباً وكذلك المريمات الثلاث اللائي نعرفهن معرفة جيدة من الانجيل، وذلك مع وعاء عطر، ومع ملك أيضاً، جالساً فوق الضريح، وهو يزيح الحجر قائلاً:«انظروا ها هو المكان الذي مددوه فيه، وبين الفتحة والضريح نفسه خط ممتد أخذ شكل شبه دائرة، تحتوي على هذين البيتين من الشعر:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح»

«وأقمشة الكتان ، والملاك، والفداء»

وقد صورت هذه الأمور جميعاً ضمن عمل فسيفسائي رائع، وبهذا العمل جرى تزيين البيعة الصغيرة، ولكل واحد من هذه الأبواب بواب حريص، لايسمح بدخول أقل من ستة رجال دفعة واحدة، وليس أكثر من اثني عشر رجلاً، ذلك أن المكان ضيق جداً ولايمكنه استيعاب عدد أكبر، وبعد قيامهم بتعبداتهم يرغمون على الخروج عبر باب آخر، ولايمكن لانسان أن يدخل إلى فتحة الضريح نفسه إلاّ زحفاً على الركب، وبعبوره للفتحة يجد أثمن الكنوز المرغوب بها، وأعني بذلك الضريح حيث تمدد مولانا يسوع المسيح — الأعظم نعمة — لمدة ثلاثة أيام، وهذا الضريح مزين بشكل رائع بوساطة الرخام الأبيض والذهب والحجارة الكريمة، ويوجد على الطرف ثلاث فتحات، يمنح فيها الحجاج المتشوقين جداً، قبلاتهم، إلى الصخرة نفسها التي تمدد عليها مولانا، والتي مساحتها قدمان ونصف القدم بالعرض، وطولها بمقدار ذراع رجل واحد من المرفق، وقدم واحدة أيضاً، والأرضية فيما بين الضريح نفسه والجدار واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب خمسة رجال يقومون بالصلاة وهم جاثين على ركبهم، ورؤوسهم معطوفة باتجاه الضريح، وهناك خارج هذا المبنى سلسلة مكونة من عشرة أعمدة، تشكل مع الأقواس التي تدعمها ساحة مستديرة مغلقة، وتحتها قاعدة

تحتوي على النقش المحفور التالي، المذهبة أحرفه:«قام المسيح من الموت، ولن يموت ثانية، وليس للموت سلطان عليه بعد الآن. لأنه في ذلك قد عاش، قد عاش مع الرب»، وعند رأسه الذي أدير باتجاه الغرب، يوجد مذبح مطوق بجدران فاصلة، وأبواب، ومزاليج من الحديد، مع شعرية من الخشب القبرصي، مزينة بمختلف الألوان، وبسقف من النوع نفسه، ومزين بالطريقة نفسها، وهو قائم فوق الجدران، وسقف العمل نفسه مكون من ألواح من النحاس المذهب، مع فتحة مستديرة في الوسط، يقف من حولها أعمدة صغيرة على شكل دائرة تحمل قناطر صغيرة فوقها، وهي تدعم سقفاً على شكل كأس، ويوجد فوق السقف نفسه صليب مذهب، وفوق الصليب حمامة مذهبة أيضاً، ويتشكل بين كل عمودين في الدائرة قوس، معلق في وسطه مصباح، وبالطريقة نفسها معلق أيضاً مصباحان بين كل من الأعمدة المنخفضة حول الدائرة كلها، وحول كل قوس من الأقواس المنخفضة، كتبت أشعار، بعضها فوق بعض الأقواس لم نكن قادرين على قراءتها، لأن لون الطلاء كان باهتاً، وكنا قادرين فقط على قراءة ستة بشكل واضح، وقد كتبت فوق ستة أقواس:

تمدد في هذا الضريح

الذي تولى صنع هذا العالم:

أنت يا من ترى ضريحه

أسرع لتكون

هيكلاً يلبي حاجتي.

حمل الرب بارك!

الآباء القدماء

- ٢٦٥٢ -

متشوقون هنا في مرقدهم

إليه لرؤيته.

طلع في عفراتا Ephrata

عانى في الجلجلة

هو من فراشه الصخري

قاد أبانا آدم،

فرفعه عالياً

وقهر فنون الشيطان وألاعيبه

وقال للقلوب الغارقة:

«انهضي، إنه أنا»!

وأيضاً حول الاطار الحديدي الذي - حسبما قلنا من قبل - هو موضوع عند رأس الضريح، والذي فوقه شعرية حجرية، يوجد مدرج مكتوب عليه يحتوي الأبيات التالية:

«إنه هنا تمّ نيل النصر على الموت

وبدأت الحياة من أجلنا

إلى الرب جرى تقديم الأضحية المرضية،

وسقطت الضحية،

وعن ذنوبنا عفي

وكانت هناك بهجة في السماء

وحزن وأسى في جهنم

ولقد انتهى العهد القديم

وأرسل الله عهداً جديداً

ونعلم من هذا، أيها المسيح، الذي نزف دماً هنا،

أن الأرض هذه مقدسة، التي عليها نمشي»

٦ — *الكنيسة أو المبنى المستدير نفسه*

لقد تم رصف بلاط هذه الكنيسة بشكل جميل جداً، وقد رصع بالخزف وبمختلف أنواع الرخام الملون، وتستند الكنيسة في الأسفل وترتفع على ثمانية أعمدة مربعة، مما يدعى باسم سواري، وستة عشر عموداً حجرياً مفرداً، لكن بها أنها مقنطرة في الأسفل والأعلى، هي بالأعلى تشبه الكنيسة في أكس لاشابيل، فهي مدعومة بالطريقة نفسها، وهي مرفوعة على ثماني سواري، وستة عشر عموداً، والاطار المحيط بالكنيسة كلها، مغطى بنقوش كتابية بالأحرف الإغريقية، ويتلألأ وجه الجدار القائم بين الاطار الوسطي والاطار الأعلى بفسيفساء لامثيل لها بالجمال، ومن الممكن من هناك من أمام شرفة جوقة المرتلين، أي فوق قوس المعبد ، رؤية جسد يسوع وقد صنع من الفسيفساء نفسها، لكن ذلك صناعة قديمة، وقد رسم بألوان براقة، وذلك حتى السرة، مع وجه هو الأكثر جمالاً، وقد وقفت إلى يساره أمه، وإلى يمينه جبرائيل رئيس الملائكة، وهو يتفوه بالتحية المعروفة جداً:«سلام يا مريم، المليئة بالنعمة، الرب معك، باركك بين النساء، وبارك ثمرة رحمك»، وقد كتبت هذه التحية في كل من اللاتينية والاغريقية حول المولى المسيح نفسه، ويوجد بعد هذا، على طرف اليمين الحواريون الاثني عشر، وقد جرى رسمهم في وصف متسلسل في الفسيفساء نفسها، وقد رفع كل منهم يديه شكراً للمسيح بكلمات تشير إلى الأسرار المقدسة، وفي وسطهم ، وفي موضع خاص مجوف قليلاً داخل الجدار، جلس في أبهة ملكية الامبراطور

قسطنطين، وهو يرتـدي اللباس الملكي Trabea، ذلك أنه هـو ووالدته حنـة قد أسسـا الكنيسـة، وهنـاك أيضاً خلـف الـرسـل رئيس الملائكـة ميكائيل وهو يتلألأ بأشعة رائعة، ويتبـع هذا على اليسار صف فيه ثلاثة عشر نبياً، كلهـم قد أداروا وجوههـم نحو الطفـل الجميل، وتوجهـوا إليه بالخطاب بكـل احترام، حاملين في أيديهم نبواتهم التـي أوحي لهم بها في القديـم، وجلست في وسطهم الامبراطورة حنـة المباركة، في مقابـل ابنها، وهي تتلألأ بشكل مجيـد، ويرسو فوق الجدار نفسه سقف مـن الرصاص، مستند على عـوارض خشبية قبرصية مائلـة، وفي وسط هذا السقـف فتحة دائرية كبيرة، يدخـل من خلالها الضوء مـن الأعلى، وينير الكنيسة كلها، لأنها لاتمتلك نافذة أخرى مهما كان نوعها.

٧— شرفة جوقة الرهبان النظاميين

زيـادة على هـذا، هنـاك إلى جـوار هـذه الكنيسـة، معبـد، أو قـدس الأقداس، وهو عمل فني رائع، وقد بني بالتتابع من قبل الفرنجة، الذين يغنون هنـاك بشكل جميـل جداً أغـان الشكر والمدح، في خـلال كل مـن النهـار والليل، أو أن تقـول خـلال السـاعات النظـاميـة، وفقـاً لطريقـة العذراء مريم، وفي أيديهم أوقاف كنسيـة، ومخصص لهم نصف التقدمات إلى الضريح المقـدس بمثابـة دخل، بينما جـرى تخصيص النصـف الآخر لاستخدامات البطريـرك، وجرى تكريس المذبح العلوي على اسـم مولانا ومخلصنا وعلى شرفه، ويوجـد خلفه كرسي البطريرك، الذي علّـق فوقه من قـوس المعبـد، صـورة كبيرة مـزينـة لسيدتنـا، وصـورة للقـديـس يـوحنـا المعمدان، وصـورة ثالثـة لجبرائيل المقدس الـذي كان إشبينهـا، وجرى في السقف الـداخلي تمثيل مولانا يسـوع المسيح، وهو ممسك صليبـه بشماله، وحامل آدم بيمينه، وهـو ينظر بأبهة ملكية نحو السماء، وقد رُفعـت قدمه اليسرى في خطوة هـائلة، بينما ظلـت قدمـه اليمنى مستنـدة على الأرض، وقد فعـل ذلك وهو يـدخل إلى السماء، وتبع هـذا وقوف أمه، والقـديس

يوحنا المعمدان وجميع الرسل من حوله، ويوجد تحت قدمه مدرج مكتوب عليه، وهو ممتد عبر القوس كله من طرف جدار إلى الطرف الآخر، وهو يحتوي على النقش التالي:

«إحمده وهو الذي صلب بالجسد،

ومجّده وهو الذي دفن من أجلنا،

اعبده فهو الذي قام من الموت.»

ويوجد خلف هذا مدرج مكتوب أعلى امتد عبر القوس نفسه، وقد نقش عليه مقطع من الكتابات المقدسة هو التالي:«صعد المسيح إلى الأعلى، وقاد معه جسداً أسيراً، وأعطى أعطيات إلى الناس»(المزامير : ٦٨ / ١٨)، وهناك في حوالي وسط شرفة الجوقة مذبح صغير مفتوح، له قداسة عظيمة، ورسم على البلاط هناك صليب، نقش داخل دائرة، وفي هذا إشارة وتنبيه على أنه على هذه البقعة مدد يوسف ونيقوديموس جسد ربنا، من أجل غسله بعد إنزاله من على الصليب، ويوجد قبل باب شرفة جوقة المرتلين مذبح له حجم ليس صغيراً، وهو على كل حال يستخدم من قبل السريان في طقوسهم، وعندما كانت تنتهي طقوس اللاتين اليومية، اعتاد السريان على إنشاد تراتيلهم إما خارج شرفة جوقة المرتلين أو في واحد من أركان الكنيسة، وفي الحقيقة لديهم في الكنيسة عدد من المذابح الصغيرة، معدّة ومكرسة لاستخداماتهم الخاصة، وهناك طوائف دينية تمارس طقوسها الدينية في الكنيسة في القدس هي: اللاتين، والأرمن، والإغريق، واليعاقبة، والنوبيين، وتختلف هذه الطوائف عن بعضها بعضاً في كل من اللغة، وفي طريقة أداء الطقوس المقدسة، ويستخدم اليعاقبة البوق في أيام أعيادهم، وذلك وفق طرائق اليهود.

٨— النار المقدسة

جرت العادة في كنيسة الضريح المقدس، أي في كل من الكنيسة نفسها وجميع الكنائس في المدينة، أنهم كانوا يقومون في صباح ليلة الفصح باطفاء جميع المصابيح الدنيوية، ويقومون بانتظار قدوم الضوء من السماء، ويعدون لتلقي هذا الضوء واحداً من المصابيح الفضية، التي جرى تعليق سبعة منها، استعداداً لذلك، ثم يقف جميع رجال الدين والشعب ينتظرون بقلق عظيم وتوقعات كبيرة، حتى يرسل الرب يده نحو الأسفل من الأعلى، وغالباً ما يكون هناك بين الصلوات صرخات بصوت مرتفع، لكن ليست بدون دموع فيها: «أعنا يارب» و«أعيننا أيها الضريح المقدس»، ويحمل في تلك الأثناء البطريرك، أو واحد من الأساقفة الآخرين، الذين احتشدوا هناك لاستقبال النار المقدسة، ومعهم بقية رجال الدين، صليباً فيه قطعة كبيرة من صليب مولانا قد أدخلت فيه، وذلك مع آثار مقدسة أخرى للقديسين، الذين غالباً ما يزورون الضريح المقدس للصلاة هناك، ويقومون أيضاً بانتظار هل أرسل الرب نور نعمته إلى الوعاء المعد لاستقباله، واعتادت النار على الظهور في ساعات محددة وفي أماكن معينة، وكانت تظهر في بعض الأحيان في حوالي الساعة الأولى، وأحياناً أخرى في حوالي الساعة الثالثة، أو السادسة، أو التاسعة، أو أنها قد تتأخر حتى آخر ساعات القداس، زد على هذا أنها كانت تأتي أحياناً إلى الضريح نفسه، أو إلى هيكل الرب، وأحياناً إلى كنيسة القديس يوحنا، وعلى كل حال عندما كنا نحن العبيد الحقراء ننتظر النار المقدسة مع الحجاج الآخرين، وصلت تلك النار المقدسة بعد الساعة التاسعة مباشرة، وعلى الفور قرعت النواقيس في الكنائس، وبدأت طقوس القداسات تحكى في المدينة كلها، وكانت طقوس التعميد والطقوس الأخرى قد جرى الاحتفال بها من قبل، وما أن وصلت النار المقدسة حتى نقلت إلى هيكل الرب، كما جرت العادة، وذلك قبل نقلها إلى أي مكان آخر، باستثناء أن البطريرك أشعل شمعته منها.

٩— *بيعة القديسة مريم والصليب المقدس. سجن الرب. مذبح القديس نيقولا. الباب الذي يؤدي إلى الدير.*

ويوجد على الجانب الغربي من الكنيسة، قرب الباب، الذي يصعد منه الانسان أكثر من ثلاثين درجة من الكنيسة إلى الشارع، وفي مواجهة الباب نفسه، بيعة مكرسة للقديسة مريم، وهي ملك للأرمن، كما ويوجد على الجانب الأيسر من الكنيسة، باتجاه الشمال، بيعة مكرسة للصليب المقدس، وفيها جزء كبير من الخشبة المبجلة نفسها،محفوظة في وعاء من الذهب والفضة، وهذه البيعة بأيدي السريان، ومجدداً، هناك على الطرف نفسه، مقابل هذه البيعة، باتجاه الشرق، بيعة ذات قداسة خاصة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، والمكرس للصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الخشبة المقدسة نفسها مغطاة بالذهب والفضة والجواهر، ومحفوظة في وعاء هو الأجمل، ومن الممكن رؤيتها بسهولة، ولدى مقتضيات الحاجة اعتاد الصليبيون على حمل هذا الرمز المقدس ضد المسلمين في المعارك، وهذه البيعة مزينة أيضاً بشكل رائع بالفسيفساء، وكان امبراطور الرومان هرقل قد أنقذ هذا الصليب واسترده من كسرى، امبراطور الفرس، أثناء الحرب التي استعرت ضده، وأعاده إلى المسيحيين، وقرب هذه البيعة وعلى الجانب الشرقي منها، يدخل الانسان إلى بيعة مظلمة، وبوساطة حوالي العشرين خطوة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، ومن الممكن أن يرى تحت البلاط علامة صليب، ويقال بأن مولانا يسوع المسيح قد سجن في هذا المكان، وقد انتظر في هذا المكان بيلاطس في موضع آلامه لمدة طويلة، حتى تمت تغطية وجهه، وأقيم الصليب ونصب فوق الجمجمة، وصار من الممكن تعليقه عليه، ويوجد أيضاً خلف هذه البيعة مذبح مكرس للقديس نيقولا ، وخلف هذا هناك باب الدير، الذي منه يدخل الانسان إلى دير الرهبان النظاميين، القائم قريباً من هناك حول المعبد، وبعدما يدور الانسان حول الدير، ويعاود الدخول

إلى الكنيسة من الجانب الآخر لهذا الباب، يلاحظ وجود صورة للمسيح على الصليب، مرسومة فوق الباب العائد للدير، وهي تلمع بشكل أخاذ، وتجعل الناظر إليها يشعر بالأسى العظيم، وقد كتب حول هذه الصورة الأبيات التالية:

«أنت يا من مضيت في هذا الطريق،

أنت قد سببت لي حزناً عظيماً،

أنا عانيت هذا من أجلك،

ومن أجلي تحاشى الآثام»

١٠ — *بيعة القديسة حنة. القبو الذي عثر فيه على الصليب.*

وينزل الانسان باتجاه الشرق ثلاثين درجة، لابل أكثر، إلى بيعة القديسة الامبراطورة حنة المبجلة، التي هي قائمة خارج الكنيسة نفسها، حيث هناك مذبح مقدس مكرس لها، وثانية ينزل الانسان من جهة اليمين خمس عشرة درجة أو بالحري أكثر من ذلك إلى كهف تحت الأرض، وعلى الجانب الأيمن من هذا الكهف يمكن للانسان أن يرى مذبحاً مفتوحاً، وتحته صليب محفور على البلاط، ويحكى أن الامبراطورة عثرت في هذه البقعة على صليب مولانا، وهناك صليب مذبح للقديس جيمس، وليس لهذه البيعة من نافذة غير الفتحة الكبرى الموجودة في سقفها.

١١ — *بيعة الجلد. قبر الدوق غودفري وقبور ملوك القدس. البيعة تحت برج الناقوس. بيعة القديس يوحنا المعمدان وأحوازها.*

هناك في جزء آخر من الكنيسة، أي في الجهة اليمنى، في خلف شرفة الجوقة مذبح لطيف، وذلك حيث يقوم العمود الذي ربط إليه مولانا

وجلد، ومن الممكـن رؤية خمسة قبور، خلف هذا في الجنـوب، قبل باب الكنيسة، وأحد هذه القبور هو الأقـرب إلى الباب، وهو مصنوع من رخام أبيض وعمـل فني ثمين، وهو قبر أخي ملـك القدس، واسمه بلـدوين، والقبر الثاني هـو قبرالملك بلـدوين أخي الـدوق غودفـري، ويوجـد عليه نقشت الكتابة التالية:

«يرقد هنا بلدوين، الذي هو يهوذا المكابي الثاني،

أمل بلاده،وفخر الكنيسة وقوتها، هو كان،

الأرز ومصر،ودان، ودمشق المتغطرسة،

خافت قدرته، وإليه بذلّ أرسلت الهدايا والجزية.

آه، في يوم من الأيام، تمدد تحت هذه الآبدة الفقيرة».

والقبرالثالث الـواقع خلف هذا، هـو قبر أخيه الدوق غودفـري نفسه، الذي تمكن بسيفه وبحكمتـه من استرداد مدينة القدس، التي كـانت قد غزيت مـن قبل المسلمين ومن قبل الترك، وأعـادها إلى الصليبيين، وأعاد إلى عـرشه البطـريـرك، الـذي كان قـد طـرد مـن قبل المسلمين، ووضـع مجموعة من رجـال الدين في الكنيسة، وأعطاهم منحاً مقـررة حتى يكونوا أقوياء، ويقاتلـوا في سبيل الرب، والقبرالرابع هو قبروالـد عموري، الملك الحاكـــم الآن، والخامـــس هـــو قبر رئيســـة وراعيـــة ديـــر القديس(لازاروس)لعازر.

ويوجد في الجنوب باب، يدخل الانسـان من خلاله إلى البيعة القائمة تحت بـرج الناقـوس، ومنها يجتـاز الانسـان إلى بيعة أخـرى ذات قداسـة عظيمة مكـرسة ليـوحنا المعمـدان، وهناك أيضـاً جرن للمعمـودية، ومـن هناك يذهب الانســان أيضاً مرة ثانية إلى البيعة الثـالثة، ويصعد الانسان من البيعة الأولى إلى الشارع بوساطة أربعين درجة أو أكثر.

١٢ — جبل أكرا. الدهليز الخارجي أمام الجلجلة. بيعة الصلب. بيعة الجلجلة باب الكنيسة.

بقي علينا أن نتحدث الآن عن جبل أكرا(الجمجمة)، التي يتلألأ في الكنيسة مثلما تتلألأ العينان في الرأس، فمن هناك سوف يتدفق النور والحياة الأبدية علينا، من خلال موت وسفك دماء ابن الرب، وقبل المدخل، أو باب الكنيسة، المغطى ببرونز قوي، والذي شكله مضاعف، يصعد الانسان بوساطة خمس عشرة درجة إلى حجرة صغيرة لها سياج ومزينة بالصور، ويقف عند رأس السلم حرس يحرسون الباب، ويسمحون للعدد الذي يريدونه من الحجاج بالدخول، خشية أن يحدث بالضغط الشديد — كما حدث مراراً هناك — دهس أو خطر على الحياة، ويصعد الانسان من ذلك الدهليز إلى بيعة ذات مكانة رفيعة جداً بالقداسة، ذلك أنها أقدس مكان تحت الشمس، وهذه البيعة مكونة بوساطة أربعة أقواس لها قوة عظيمة، وهي مبلطة ببلاط جميل، مكون من مختلف أنواع الرخام، وقبتها من الداخل، أو سقفها، مزين بشكل بديع بصور الأنبياء، مثل داود، وسليمان ، واشعيا، وآخرين، وهم يحملون في أيديهم نصوصاً تشير إلى آلام المسيح، وقد مثلت هناك على الفسيفساء بشكل فائق الجمال، حتى أنه لايوجد عمل يمكن أن يقارن به تحت قبة السماء، فقط بشرط إمكان رؤيته بوضوح، لأن هذا المكان مظلم بعض الشيء بالبناء المقام من حوله، والمكان الذي نصب عليه الصليب الذي عانى المخلص عليه الموت، موجود على الجانب الشرقي، وهو الآن مرفوع فوق درجة عالية، مغطاة من جانب اليسار بأجمل أنواع الرخام، وظاهر هناك دائرة واسعة بما فيه الكفاية لتستوعب رأس إنسان ، ذلك أنه من المعروف بأن الصليب نفسه قد أثبت هناك، ويرغب الحجاج صدوراً عن حبهم واحترامهم الذي يحملونه للذي صلب هناك، في إدخال رؤوسهم ووجوههم في تلك الفتحة، ويوجد في جهة اليمين جبل

أكـرا نفسه، وهـو أكثر ارتفـاعـاً ويشكل شعبـاً جبليـاً طويـلاً وعريضـاً وعميقاً في طرفه، لأن الصخور قد تفتت عنـدما مات المسيح، وتصدعت وانفتحت من الأعلى ومن الأمام مشكلة جرفاً مخيفاً، وبهذا تبرهن أن الدم الذي تدفق مـن طرف المسيح، وهو معلق فوق الصليب قـد وجد طريقه تمامـاً إلى الأرض، ومـن عـادة الحجاج، نصـب الصلبـان التـي يحملـونها معهم من بلدانهم، على قمة هذه الصخـرة، وقد رأينا كميات كبيرة منهم هنـاك، وقـد اعتاد حـراس الجمجمـة على إحـراقهـم بـالنار عشيـة عيـد الفصح، ويـوجد في تلـك البيعة مـذبح لـه قداسـة كبيرة، حيث يحتفـل بجميع القداسات عليه يوم الجمعة الحزينـة، ويتولى ذلك البطريرك وجميع رجال الـدين، وهنـاك على الجدار على الجانب الأيسر مـن المذبح صـورة جميلة جـداً لمولانا وهـو على الصليب، ولـوجينوس واقـف إلى يمينه وهـو يطعن طرفه برمحه، ووقف إلى يساره ستيفتون وهو يقدم له خلاً، واسفنجة وقصبـة، وأمه واقفـة على يساره، والقـديـس يوحنـا على يمينه، وهنـاك في الوقت نفسه لـوحان عظيهان غطيا كلياً بكتابة نقشت بـالاغريقية، وهذان اللوحان محيطان بالصخرة كلها .

وعلى طـرف اليمين للمــذبـح نفســه يـوجـد أيضـاً صـورة تظهـر نيقوديموس ويـوسف وهما ينزلان المسيح الميت مـن على الصليب،ونقش هناك أيضاً مـايلي:«إنزال مولانا يسوع المسيح مـن على الصليب»، وينزل الانســـان خمس عشرة درجـــة إلى الكنيســـة، فيصــل إلى البيعـــة المسماة«الجلجلة»، وهي ذات قداسة عظيمة، لكنهـا مظلمة جداً، ويوجد في ظهرهـا حفرة عميقـة يمكن منهـا للمتطلعين هناك رؤيـة نهاية جـرف الصخـرة المنحدر مـن أكرا، ويقـال بـأن دم المسيح قـد وقف في ذلـك المكان بعدما جرى نحو الأسفـل إلى هناك من خلال الصدع، زيادة على هذا يوجد فوق القوس الذي يشكـل حد الجلجلة، أو بكلمة أخرى: فوق الطرف الغـربي من أكـرا، صورة مـرسومـة فوق الجدار، فيهـا يمكن رؤيـة

هذه الأبيات المكتوبة بأحرف ذهبية:

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،

وتكريسنا له لايمكن أن يجعله أكثر قداسة

وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة

هو الخامس عشر من تموز، وجرى تكريسه

من قبل البطريرك فولتشر في وضع مهيب»

ويقف خارج باب هذه الكنيسة، في الفراغ ما بين البابين مولانا المسيح في ثوب لاهوتي، وكأنه قد قام الآن من الموت، بينما تمددت مريم المجدلية ساجدة عند قدميه، لكن دون أن تلمسها، ويحمل الرب باتجاهها مدرج يحتوي على هذين البيتين:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تجثين أمام الذي يبتغي الموت؟

لاتلمسيني، انتبهي أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

١٣ — *بيعة المريمات الثلاث. بيعة الأرمن. بيعة صغيرة أخرى. الشارع والسوق. كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان. كنيسة القديسة مريم الكبرى. كنيسة القديسة مريم اللاتينية.*

ولدى خروج الانسان من الكنيسة باتجاه الجنوب، يجد نوعاً من أنواع الساحات المربعة مبلطة بحجارة مربعة، وعلى الجانب الأيسر منها، الذي هو قرب الجلجلة، في الجانب الخارجي، هناك بيعة مكرسة للمريمات الثلاث، وهي ملك للاتين، ويوجد بعد مسافة منها باتجاه الجنوب بيعة أخرى هي بأيدي الأرمن، وبعدها بقليل أيضاً هناك بيعة أخرى صغيرة، وعندما يخرج الانسان من هذه الساحة المكشوفة، يوجد على اليسار شارع مقنطر مليء بالبضائع للبيع، ويوجد في مقابل الكنيسة موضع

السوق ويقف هنا أمام الكنيسة ستة أعمدة، مع أقواس عليهم، وهناك على الجانب الجنوبي من الكنيسة، تقوم كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان، وبالنسبة لهذه الكنيسة ما من إنسان يمكنه أن يتحدث بشكل موثوق إلى إنسان آخر، ويخبره كم هي جميلة ببنائها، وكم هي مزودة بعدد وافر من الغرف والأسرة والمواد الأخرى لاستخدامات الفقراء والمرضى من الناس، وكم هي غنية بوسائل انعاش الفقراء، وكم هي منصرفة للعمل للحفاظ على المحتاج وبالفعل لايمكنه القيام بذلك مالم تتهيأ له الفرصة ليراها بأم عينيه، وفي الحقيقة مررنا بهذا المكان، ولم نكن قادرين بأية وسيلة من الوسائل من اكتشاف عدد الناس المرضى الذين كانوا متمددين هناك، لكن رأينا أن عدد الأسرة كان أكثر من ألف سرير، وليس هذا بقدرة أي انسان، بل إن أقوى الملوك والأباطرة هم وحدهم فقط الذين بامكانهم رعاية هذا العدد الكبير من الناس، كما يفعل هذا البيت كل يوم، ثم إنه لاعجب، أن الاسبتارية بالاضافة لامتلاكهم بيوتاً في البلدان الأخرى (التي من غير الهين معرفة عددها الإجمالي) قاموا مع الداوية بالاستيلاء على جميع المدن والقرى تقريباً التي هي تابعة لليهودية، والتي كانت قد دمرت من قبل فسبسيان وتيتوس، وذلك مع جميع أراضيها وكرومها، ولديهم قوات متمركزة خلال المنطقة كلها، والقلاع هناك محصنة بشكل جيد ضد المسلمين، وبعد هذه إلى الشرق من موقف الانسان هناك، يأتي إلى كنيسة القديسة مريم، التي فيها راهبات تحت إدارة راعية دير، وهي لها شهرتها الواسعة للقداسات اللاهوتية يومياً، ويقال بأن هذا المكان قد كرس للقديسة مريم، بسبب أن مولانا عندما كان تحت العذاب وهو على طريق آلامه، كانت محبوسة في داخل حجرة كانت آنذاك موجودة في تلك البقعة وذلك بناء على أوامره، زيادة على هذا يليها كنيسة أخرى ملاصقة لها وإلى الشرق منها، أيضاً مكرسة لسيدتنا، لأنه بينما كان مولانا يعاني من الآلام من أجل خلاصنا، أغمي عليها من شدة حزنها، وحملت على أيدي الرجال من

هنـاك إلى قبو تحت الأرض هنـاك، حيث أنها مـن حزنها وآلامهـا نزعـت شعرهـا من رأسها، وهذا الشعـر مايزال محفـوظاً حتى هذا اليـوم في وعاء زجاجـي في تلك الكنيسة، ويوجـد في هذه الكنيسة أيضاً رأس القـديس فيليب الـرسول، وهـو مزيـن بشكل بهي بـالذهـب، وهناك كـذلك ذراع القديس سمعان الرسول، وذراع القديس سيبريان Cyprian ، الأسقف، وفي هذه الكنيسة رهبان تحت حكم وسلطان راعي دير.

١٤ــ هيكـل الرب: الصحـن، السلالم. الكهـف تحت الأرض. البركـة الكبيرة. البيـوت. الحدائق. مـدرسـة القـديسـة مـريـم. الصخرة الكبيرة. الـدير والأبنية الـديريـة لرجال الـدين. والبرك الأخرى.

وينعطـف الانسان مـن هناك قليـلاً نحو الجنـوب عبر الشارع فيجـد نفسه داخـل الباب الجميـل لمعبد الـرب، وهو عبر حـوالي وسط المدينـة، ويصعد الانسان من هناك الساحة المنخفضة إلى الساحة العلوية بوساطة اثنتين وعشرين درجـة، ويدخل الانسان مـن الساحة العلويـة إلى المعبد، ويـوجد أمـام هـذه الدرجـات نفسهـا في الساحـة السفلى خمس وعشرون درجة أو أكثـر تقود نـزولاً إلى بركـة كبيرة، وقد قيـل يوجـد من هنـاك ممر تحت الأرض يوصـل إلى كنيسة الضريح المقـدس، ومن خلال هـذا الممر يقال بـأن النار المقدسة، التـي تشتعل بشكل إعجازي في تلـك الكنيسة عشيـة عيد الفصـح، تنقل مـن تحت الأرض إلى هيكل الـرب، ويجري في هـذه البركة غسـل الضحـايـا التي تقـدم إلى معبـد الـرب تبعاً لمبـادىء القـانـون، والساحـة الخارجيـة تبلـغ بالحجـم ضعـف مسـاحة السـاحـة الداخلية، أو أكثر، والساحة الداخليـة مثلها مثل الساحة الخارجية مبلطة بحجارة عريضة وكبيرة، وطـرفان من الساحة الخارجية مـايزالان موجودان حتـى هـذا اليوم، وجـرى أخـذ الطـرفين الآخـريـن لاستخدام الـرهبـان والـداوية، الـذين بنـوا بيوتـاً وزرعـوا حدائق عليهما، وفي الجهـة الغربيـة

يصعد الانسان إلى الساحة العليا بوساطة سلسلتين من السلالم، وكذلك الحال نفسه في الجهة الجنوبية، ويوجد فوق الدرجات التي تقوم البركة أمامهن، ويقوم أربعة أعمدة، فوقهم قناطر، وهناك أيضاً ضريح لرجل غني، محاط بسياج حديدي ومغطى بالمرمر بشكل جميل، ويوجد في جهة اليمين أيضاً، فوق الدرجات في الجهة الجنوبية، أربعة أعمدة مشابهة، وفي جهة اليسار ثلاثة، ويوجد في الجهة الشرقية أيضاً خمس عشرة درجة مزدوجة، يصعد الانسان بوساطتها إلى المعبد من خلال البوابة الذهبية، وتبعاً لهذا العدد يقوم الذين ينشدون المزامير بنظم خمسة عشر مزموراً، ويقف فوق هذه الدرجات أيضاً أعمدة، وإلى جانب هذا، وفي الجهة الجنوبية، فوق زاويتي الساحة الداخلية، يقوم مبنيان صغيران، وقد قيل بأن الذي هو باتجاه الغرب يضم مدرسة العذراء المباركة، ويوجد بين المعبد وبين طرفي الساحة الخارجية —أي بين الطرف الشرقي وبين الطرف الجنوبي— صخرة كبيرة، على شكل مذبح، هي تبعاً لبعض التقاليد فم بعض البرك التي وجدت هناك، وهي أيضاً تبعاً لبعض معتقدات الآخرين، تشير إلى المكان الذي قتل فيه زكريا بن براخيا، ويوجد على الجانب الشمالي دير وأبنية ديرية لرجال الدين، كما وهناك حوالي المعبد نفسه برك كبيرة للماء تحت البلاط، ويوجد بين البوابة الذهبية والدرجات الخمس عشرة صهريج ماء قديم مهدم، فيه كانت في العصور القديمة يجري غسل الضحايا قبل تقديمها.

١٥ — *وصف الهيكل: المكان الذي عرض فيه المسيح، والمكان الذي رأى فيه يعقوب السلم.*

من الواضح أن الهيكل نفسه له شكل ثماني في جزئه السفلي، وهذا الجزء السفلي مزين حتى الوسط برخام رائع جداً، ومن الوسط حتى إطار النهاية القصوى، أي إلى حدود استناد السقف، مزين بأجمل أنواع أعمال الفسيفساء، ويوجد حول هذا الاطار الذي يمتد حول دائرة المعبد

كله، النقـش التالي، وهو يبـدأ من الواجهـة، أو من الباب الغـربي، ومن المتوجب قراءته شروعاً من اتجاه الشمس كما يلي:

في الـواجهة: «سـلام دائم على هـذا البيـت، من الأب الـدائم»، وعلى الجانب الثـاني: «معبد الـرب مقدس، الرب يـرعاه، وهـو الذي قـدسه»، وعلى الجانب الثالث: «هذا هو معبد الرب، مبني بثبات،»، وعلى الجانب الرابـع: «في معبد الرب رجال سـوف يتحدثون عـن مجده»، وعلى الجانب الخامس: «مبارك مجد الرب من مكـانه المقدس»، وعلى الجانب السادس: «بورك في الذيـن يقطنون في بيتك يارب»، وعلى الجانب السابـع: «صدقا الرب في مكـانه المقـدس هذا، وهذا مـالاأعرفـه»، وعلى الجانب الثـامن: «بني بيت الـرب بشكل جيد على صخرة ثـابتة»، وإلى جانب هـذا يوجد على الجانب الشرقـي في مواجهـة كنيسة القديـس جيمس عمـود ممثل في الجدار بعمـل فسيفساء، جـاء عليـه النقش التـالي: «العمـود الرومـاني»، ويشكل الجدار الأعلى دائرة ضيقـة، تقوم على أقواس داخل البنـاء، وهي تسنـد سقفاً مـن الـرصاص، هنـاك على ذروته كـرة كبيرة فـوقها صليـب مذهـب، وهناك أربعة أبواب تقـود إلى داخل البناء وإلى خارجـه، ويتجه كل بـاب نحو ربـع من أربعـة أرباع العـالم، وتستند الكنيسـة على ثمانية أجزاء مـربعة، وستـة عشر عموداً، وقد زينـت جدرانها وسقفهـا الداخلي بـالفسيفساء بشكـل رائع، وتحتوي دائرة شرفـة جـوقة المرتلين على أربعـة أعمدة أساسيـة، أو دعامات، وعلى ثمانية أعمدة تـدعم الجدار الداخلي، مـع سقفـه الجملوني المرتفـع، وفـوق أقـواس شرفـة جوقـة المرتلين نقـش مكتوب يمتـد حول البناء كلـه، يحمل النص التـالي: «سوف يدعـى بيتي بيت الصلاة» فهكذا قال الرب، «من سأل فيه شيئاً تلقاه، ومن نشد أمراً وجده، ومن يقـرع على بابه، سوف يفتـح له، اسأل ولسوف تتلـق، وانشد ولسوف تجد»، وفي الـدائرة العليا هناك نقـش مماثـل موضوع حـول البناء وفيه النص التـالي: «فالتفت إلى صلاة عبـدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي

واسمع الصراخ والصلاة التـي يصليها عبدك أمامك اليـوم. لتكن عيناك مفتوحتين على هـذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضـع الذي قلـت إن اسمي يكون فيه لتسمع الصلاة التي يصليهـا عبدك في هذا الموضع..... واسمع أنت في موضع سكناك في السماء» (الملوك: ١/٨/ ٢٨).

وعند المدخل إلى شرفة جـوقة المنشدين، هناك مذبـح مكرس للقديس نيقولا، وهو محاط باطار حديدي، ويـوجد على الحافة العليا النقش التالي، أولاً في الواجهـة:«في سنة ١١٠١، في الخمسعشريـة الرابعـة، وفي ١١ من الجبيرة Epact»، وعلى الجانب الأيسر :«من ٦٣ سنـة من الاستيلاء على طرابلس على القدس»، وعلى الجانب اليميني« من ٥٢ سنة من الاستيلاء على طـرابلـــس، و٥١ سنـة مـن الاستيـلاء على بيروت، و١١ سنـــة مـن الاستيلاء على عسقلان».

زيـادة على هذا، هنـاك مكـان، بـاتجاه الشرق على صف طـرف شرفـة جوقـة المغنين، محاط بسياج حـديدي مـع أبواب، وهـو جديـر بالاحترام العظيـم، حيث يعتقد أن هناك جرى تقديم مولانا يسوع المسيح، من قبل والديه، عنـدما جلب إلى الهيكل مع تقـدمة،وكان ذلك بعـد أربعين يوماً مـن ولادته، وكـان قـد أخذه سمعـان الشيـخ عنـد المدخل، وحملـه على ذراعيه إلى مكان التقدمة، ويوجد في واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«ابن العذراء، ملك الملوك، قدّم هنا

ولهذا زينا هذا المكان بالهدايا وبالتبجيل».

وقريب من هـذا المكان، وعلى مسافة غلوة تقريبا، تـوجد الحجرة التي وضعها البطريـرك يعقوب تحت رأسه، وعليها نام عنـدما رأى سلماً يصل إلى السماء، كانـت الملائكة تنـزل عليه وتصعد فقـال:«حقاً الـرب هنا في هذا المكان، وأنا لست أدري»، وفي واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«يعقوب مع جسم مستريح، لكن مع عقل مستيقظ

هنا رأى السلم، وهنا أقام مذبحه»

١٦ــ بيعة القديس جيمس خارج الهيكل. المكان الذي سئل فيه مولانا عن وسط العالم. المكان الذي رأى فيه حزقيال الماء. السرداب الموجود تحت السدة. النوافذ. المذبح العالي. تاريخ(الهيكل).

ويدخل الانسان من هناك من خلال الباب الشرقي إلى بيعة القديس جيمس الرسول أخي ربنا، الذي كان قد قتل من قبل اليهود الفجار، حيث رمي من أعلى الهيكل، وحطمت جمجمته بوساطة عصا القصار، وقد دفن أولاً في وادي شعفاط قرب الهيكل، ثم نقل إلى ها هنا فيما بعد من قبل المؤمنين، بكل تشريف يليق به، ووضع داخل ضريح، كتب فوقه النقش التالي:

«قل أيها الصخر والقبر، هل وجدت عظام الملك مكاناً لها هنا؟

القديس جيمس العادل: يرقد في داخل هذا القبر»

وهذه البيعة مستديرة في نفسها، وهي واسعة في الأسفل، وضيقة بالأعلى، وهي مدعومة بوساطة ثمانية أعمدة، ومزينة بشكل رائع باللوحات المرسومة، وعندما نعود منها بالطريق نفسه، يوجد على جهة اليسار، خلف عضادة الباب، مكان طوله خمسة أقدام وكذلك عرضه، فهناك وقف ربنا عندما سئل في أي مكان كان هو من القدس، حيث أكدوا بأنه موجود في وسط العالم، وقد أجابهم:«يدعى هذا المكان القدس»، ويوجد أيضاً خلف الباب نفسه في الجهة المقابلة لمشهد المكان المتقدم الذكر، وعلى الزاوية الشمالية، مكان آخر يحتوي على المياه التي رآها النبي حزقيال تتدفق نازلة من تحت الهيكل، على جهة اليمين، وفي طريق عودتنا إلى الكنيسة الكبرى، هناك في جهة الجنوب قرب السدة، لابل في الحقيقة تحت السدة، باب، يدخل الانسان من خلاله بعد نزوله

خمساً وأربعين درجة، إلى السرداب إلى حيث كان الكتـاب والفريسيون قد جلبوا امرأة، أخـذت لممارستها البغاء، إلى المولى يسوع واتهموهـا، وقد عفا المعلم المقدس عـن ذنوبها وحللها منها، وفي ذكـرى لهذا سمح للحجاج بـالنـزول إلى هـذا المكـان، وللكنيسـة في دورهـا الأدنـى سـت وثـلاثين نافـذة،وفي دورها الأعلى أربع عشرة، وهم إذا مـا جمعوا مع بعـض يصبح تعدادهـم خمسين، وهي مكـرسة لمولاتنا القديسة مريـم، ولها أيضاً مكرس المذبح العلوي، ويقـال بأن الكنيسة نفسها قد بنيت مـن قبل الامبراطورة القديسة حنة، وابنها الامبراطور قسطنطين.

ودعونـا نستعرض الآن ونقوم بتفحـص كم مـرة بني الهيكل ومـن قبل من، وأيضـاً كم من المرات قد هـدم ومن قبل من، وحسبما نقـرأ في سفر الملـوك، كـان الملـك سليمان أول مـن بنـى الهيكـل، بنـاء على أمـر إلهي، ومقابل نفقـات عالية، لكن ليـس على شكل مستدير حسبما نـراه في هذا اليوم، بـل على شكل مستطيـل، واستمر هـذا الهيكل مـوجوداً حتـى أيام صدقيـا، ملك اليهـود، الذي وقـع أسيراً لنبوخـذ نصر، ملك بـلاد بابـل، واقتيـد وهـو أسير إلى بابـل، وكـان معـه يهوذا وبنيامين، مثلـه قـد اتخذا أسيريـن، واقتيدا إلى بـلاد آشـور، وقدم بعـد ذلك بـوقـت قصيرحاجبـه نبـوزردان إلى القدس، وأحـرق كـل من الهيكـل والمدينـة،وكـان هذا هـو الخراب الأول للهيكل، وبعـد سبعين سنة من النفـي عاد بنـواسرائيل إلى أرض اليهودية، يقـودهـم زوروبابل، واسداراس، وذلـك بفضل وسماح من الملـك قورش، ملـك الفرس، وقـد أعـادوا بناء الهيكـل نفسه، في المكـان نفسه، وزينـوه حسب أفضل مـا استطاعوه، ويحكـى أنهم بإعادة بنـائهم للهيكل والمدينـة قد عملـوا وهم يمسكـون حجرة بيـد والسيف في اليـد الأخرى، بسبب استمرار الحملات عليهم مـن قبل الشعوب التي عاشت من حولهم، وعلى هـذا كان هذا البناء الثاني للهيكـل، وبعد هذا، وحسبما نقرأ في سفـر المكابيين، هدمـت المدينة — لكـن ليس كلياً — مـن قبل

انطيخوس، ملك سورية، وظل معظم المدينة مهدوماً، وقد تدمرت كل تزيينات الهيكل، وجرى منع الأضاحي، وهدمت الأسوار وسويت بالأرض، وبات الهيكل، وكذلك المدينة، مقفرين، وتمكن بعد هذا يهودا المكابي مع أخوته ـ بعون الرب ـ من إلحاق الهزيمة بأنطيخوس وإرغامه على الفرار، وطرد قادته من اليهودية، وأعاد بناء الهيكل وترميمه، ورد المذبح وأقام الأضاحي والتقدمات وأرجعها كما كانت في القديم بوساطة كهنة نظاميين، وكان هذا البناء الثالث للهيكل، وقد بقي حتى أيام هيرود، الذي قام ـ وفقاً لما أخبرنا به يوسفيوس، مع أن اليهود ينكرون ذلك ـ بهدم الهيكل وسواه بالأرض، وبنى واحداً أعظم، وأكثر إحكاماً في عمارته، وكان هذا البناءالرابع للهيكل، الذي استمر حتى أيام تيتوس وفسبسيان، اللذان استوليا على البلاد كلها عنوة، وهدموا كل من المدينة والهيكل واجتثوا كل شيء من الأساسات، وكان هذا التدمير الرابع للهيكل، وكما تقدم بنا القول، إن الهيكل الحالي، الذي بأيدينا، قد بني من قبل الامبراطورة حنة مع ابنها الامبراطور قسطنطين، وذلك تشريفاً لمولانا يسوع المسيح، وأمه المقدسة، وكانت هذه خامس عملية إعادة بناء للهيكل.

١٧ — قصر سليمان. بيت الداوية واسطبلهم. حديقتهم. مخازنهم للخشب وللماء. مخازنهم للحبوب وحجر الطعام لديهم. قاعتهم القديمة والجديدة. كنيستهم الجديدة.

ثم يأتي إثر هذا في الجنوب، قصر سليمان الذي هو مستطيل، ومدعوم بأعمدة في داخله مثل كنيسة، وهو في نهايته مستدير مثل معبد، وهو مغطى بقبة مستديرة عظيمة، ولهذا قلت إنه يشبه كنيسة، وقد انتقل هذا المبنى مع جميع ملاحقه إلى أيدي فرسان الداوية، الذين يقطنون فيه وفي المباني الأخرى المرتبطة به، ذلك أنهم يمتلكون مخازن كثيرة للسلاح، والثياب والطعام، وهم دوماً متيقظين لحراسة البلاد وحمايتها، ويوجد

تحت الأبنية اسطبلات للخيول كان قد بناها الملك سليمان نفسه في الأيام الخوالي، ملحقة بقصره، وهو بناء واسع ورائع يقوم على دعائم، ويحتوي على ما لا يمكن تعداده من الأقواس المعقدة والقناطر وهذا الاسطبل، أعلن أنه بتقديري وتبعاً لما لاحظته، يمكن أن يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيول مع ساستها، وما من إنسان يمكنه أن يرسل سهماً من طرف مبناهم إلى الطرف الآخر سواء بالطول أو بالعرض، وذلك بطلقة واحدة من قوس عقار، ويوجد فوقه عدد وافر من الغرف، والقاعات المفردة، والأبنية الموائمة لجميع أشكال الاستخدامات، ويرى الذين يمشون على السقف عدداً وافراً من الحدائق، والساحات، وحجر الانتظار، والردهات، وصهاريج مياه الأمطار، بينما يحتوي تحته على عدد من أروع الحمامات، والمخازن، ومخازن القمح، والمستودعات لخزن الأخشاب وحاجيات العتاد الأخرى، وشيد الداوية على الجانب الآخر من القصر، أي في الجانب الغربي، بناء جديداً يصعب عليّ إعطاء مقاسات ارتفاعه،وطوله، وعرض أقبية مخازنه، وقاعات طعامه، وسلالمه، وسقفه المرتفع بشكل هرمي، وليس مثل السقوف المسطحة لتلك البلاد، ولو أنني تمكنت من إحصاء ذلك، من الصعب على المستمعين إليّ تصديق ذلك، وقد بنوا هناك ديراً جديداً بالإضافة إلى الدير القديم، الذي هو موجود لديهم في جزء آخر من البناء، زد على هذا إنهم يرسون الآن أساس كنيسة جديدة، بحجم رائع، وبعمل فني في هذا المكان، وذلك إلى جانب الساحة الكبيرة، وليس من السهل على أي إنسان تكوين فكرة عن مدى قوة الداوية وغناهم، ذلك أنهم مع الاسبتارية قد استولوا على جميع المدن والقرى التي كانت اليهودية غنية بهم، وهي المواقع التي جرى تدميرها من قبل الرومان، وقد بنوا قلاعاً في كل مكان، وشحنوها بالحاميات العسكرية، كل هذا بالاضافة إلى ما لايحصى تعداده في الحقيقة من الممتلكات، التي من المشهور امتلاكهم لها في البلدان الأخرى.

١٨ — الأسوار القديمة حول الهيكل. خرائب أنطونيا. موريا. كنيسة الحمام. أو مهد ربنا. بيت سمعان العادل.

ويحيط سور المدينة من جانبي الجنوب والشرق بجميع السكان هناك، وإنما نجد من جهتي الغرب والشمال، أن السور الذي بني من قبل الملك سليمان لايحيط بالبيوت الموجودة هناك، بل يحيط أيضاً بالساحة الخارجية للهيكل نفسه، وبقي في الجانب الشمالي من الساحة جدار واحد، وبوابة واحدة بين مجمل خرائب أنطونيا، التي بناها هيرود، وكانت الرابية التي يقوم الهيكل عليها تدعى في القديم باسم موريا، وفوقها رأى داود ملاك الرب، وهو يضرب الناس بسيف مجرد، ووقتها قال للرب:«ها أنا أخطأت، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي»(صموئيل:٢/ ٢٤ / ١٧)، وكان على هذه الرابية ساحة بيدر أرونا اليبوسي، التي اشتراها داود منه لبناء بيت للرب، ويوجد هنا في الخلف ممر ضيق بين السور الشرقي للمدينة وحديقة الداوية، التي يأتي الانسان عبرها إلى أعظم الكنائس قداسة، المدعوة كنيسة الحمّام، أو كنيسة مهد مولانا المخلص، ففيها تتم عبادة مهد مولانا المسيح، وهذا المهد موضوع في مكان تشريف عند النهاية الشرقية للجدار العالي، في مواجهة نافذة هناك، ويمكن للانسان أن يرى في الجانب الجنوبي جرن كبير من الحجارة، موضوع فوق الأرض، من المعروف أنه استحم فيه وهو طفل، ويوجد في الجانب الشمالي فراش سيدتنا، الذي تمددت عليه وهي ترضع طفلها من صدرها، ويهبط الانسان إلى هذه الكنيسة بوساطة الخمسين درجة، وهي قد كانت فيما مضى بيت سمعان العادل، الذي يرقد فيها هناك بسلام.

١٩ — بركة سلوان للاستحمام

وإذا ما مضى الانسان جنوباً من هذه الكنيسة، أو من زاوية المدينة نفسها، وذلك عبر الجانب المنحدر من الرابية، على محاذاة البناء الخارجي

الذي بناه الداوية لحماية بيوتهم وديرهم، وهو المكان الذي قامت فيه المدينة نفسها في العصور القديمة، هناك ممر صغير يقود إلى بركة سلوان للاستحمام، التي أُخبرنا أنها حملت هذا الاسم لأن الماء الصادر من ذلك النبع يصل إلى هناك بوساطة مجرى قائم تحت الأرض، ممتد من جبل سيلو، ويبدو لي هذا أمراً مشكوكاً به، لأن جبلنا الذي تقوم المدينة عليه مع جبال أخرى عديدة قائمة فيما بينهم، كما لايوجد واد يمتد مباشرة من الجبل إلى البركة، كما أنه من غير الممكن توفر ممر تحت الأرض خلال جبال بمثل هذه الضخامة بسبب المسافة، لأن جبل سيلو يبعد ميلين عن المدينة، وبناء عليه ودون التلفظ بأي قرار حول هذه النقطة، دعونا نخبر المستمعين إلينا مانعلم أنه الحق، ونعلن أن الحق هو أن الماء يفور من الأرض مثل أي نبع، وبعدما يملأ البركة ويسيل إلى بركة أخرى مجاورة، يتوقف عن التدفق، وينزل الانسان إلى البركة بوساطة ثلاث عشر درجة، ومن حولها سواري تحمل قناطر، تحتها جرى تبليط ممر مستدير حولها، وهو مصنوع من حجارة كبيرة، يمكن للواقفين عليها شرب الماء منها وهم نازلين، والبركة الثانية مربعة ومحاطة بجدار وحيد، وكانت بركة الاستحمام هذه فيما مضى في داخل المدينة، لكنها الآن خارجها، لأن المدينة تقلصت مرتين في هذا الاتجاه ذلك أنها توسعت في الأجزاء القريبة من الضريح المقدس.

٢٠— *بيت عنيا. بيت فاجي. البوابة الذهبية مع بيعتها.*

وينبغي أن نقوم الآن بترتيب سياق روايتنا حول آلام المسيح، الذي بنعمته سمح لنا بالمشاركة في آلامه حتى نكون قادرين بوساطة ذلك على المشاركة في مملكته فيما بعد، وعلى بعد ميل من القدس تقع بيت عنيا، حيث يقوم فيها بيت سمعان المجذوم ولعازر، وأختيه مريم، ومرثا، فهناك كان مولانا يستقبل على الدوام ضيفاً، وتقوم بيت عنيا قرب وادي الزيتون، الذي ينتهي فيه الجبل باتجاه الشرق، وحدث في يوم أحد سعف

النخل أن انطلق مولانـا يسوع المسيح، العزيز جداً، مـن بيت عنيا، وجاء إلى بيت فاجي، القائمة في منتصف الطريق بين بيت عنيا وجبل الزيتون، وهنـاك بنيت الآن بيعـة جميلـة على شرفه، ومـن هنـاك أرسـل باثنين مـن حوارييه لجلـب أتان وابنها، ووقف فوق حجـرين عظيمين يمكن رؤيتها في البيعـة، وجلـس فـوق ظهـر الأتـان، ومضـى عبر جبـل الـزيتـون إلى القدس، وقـد استقبل من قبل حشـد كبير وهو ينزل منحدراً مـن الجبل، وتابـع طريقه إلى مـا وراء وادي شعفاط، وبـركة قدرون، حتـى وصل إلى البوابة الـذهبية، التي هي مزدوجـة، وعندما وصل إليها انفتـح واحد من الأبواب من قبـل نفسه، لأن القفل سقط منه، وخرج بعنـف من دائرته، فجعل الباب الآخر ينفتـح سريعاً مع صوت مرتفع، ولهذا جـرى تكريس بيعة هناك على شرف ذلك، وفيها دائرة القفل مغطـاة بالذهب، وهي محل تبجيل عظيم، ولاتفتح هذه البوابـة نفسها إلاّ في يوم سعف النخيل، وفي يوم عيد تمجيد الصليب(في ١٤ — أيلـول)، وذلك بسبب أن الامبراطور هرقل عبر من خلالها مع قطعة كبيرة مـن خشبة الصليب، كان قد جلبها مـن بلاد فـارس، ودخل مـولانا إلى الهيكـل في ذلك اليـوم نفسه، وبقـي هناك يُعلّم كل يوم، حتى اليوم الرابع من الأسبوع.

٢١— سجن بطرس

ولهذا أرغب أن أصعـد معه إلى جبل صهيون، ومشـاهدة ما فعلـه بعد هذا، لكنني أرغب أولاً في أن أسجن مـع بطرس، حتى يمكنني أن أتعلم مـن المسيح أن لا أنكـره، بـل أن أصلي له، وعلى الطـريـق الـذي يركبـه الناس مـاضين من الهيكل إلى جبـل صهيون، يمـرون ببيعة جميلة، يـوجد فيها حفـرة على عمق عظيـم تحت الأرض، ينزل إليهـا الانسان بـوساطـة عشرين درجـة أو أكثر، حتـى يدخل إليهـا، فهنا السجـن الذي غـلّ فيه هيرود الأصغر القديس بطرس، ومن هذا السجـن قام ملاك الرب بقيادته وإخراجه، وقد نقش عند مدخل هذه البيعة الأبيات التالية:

«قم يابطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك
قم وغادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء»
«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن
حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

٢٢— جبل صهيون. كنيسة القديسة مريم. المكان الذي ماتت فيه. حجرة العشاء الأخير. المكان الذي نزل فيه روح القدس. المكان الذي غسل فيه المسيح أقدام الرسل. المكان الذي شعر فيه توما بجرح الرب . قبرالقديس ستيفن.

تقع معظم أجزاء جبل صهيون القائمة باتجاه الجنوب خارج أسوار المدينة، وهي تحتوي على كنيسة مكرسة لسيدتنا القديسة مريم، وهي محصنة بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية ضد هجمات المسلمين ، ففيها يعيش كهنة نظاميون تحت ولاية راعي دير، وعندما تدخل إليها سوف تجد فيها في جهة اليسار قسماً بارزاً، فهذا هو المكان المقدس الذي تسلم فيه مولانا يسوع المسيح روح أمه المحبوبة، سيدتنا مريم المباركة، ورفعها إلى السماء، وهذا الجزء البارز مربع في الأسفل، ومستدير في الأعلى، وهو يسند قبة، ويصعد الانسان حوالي الثلاثين درجة في جهة اليمين، إلى القاعة العلوية، القائمة في الطرف الأقصى من القسم البارز، ومن الممكن أن نرى هنا مائدة عليها تناول مولانا العشاء مع حوارييه، وبعد مغادرة الخائن أعطى إلى الحواريين جسده الرمزي ودمه، ويقف في هذه القاعة العلوية نفسها، وعلى مسافة أكثر من / ٣٠ / قدماً، باتجاه الجنوب في ذلك المكان، مذبح، وذلك في المكان الذي نزل فيه روح القدس على الحواريين، وينزل الانسان من هناك العدد نفسه من الدرجات التي صعدها،فيرى في البيعة القائمة تحت القاعة العليا، الجرن الحجري، المبني في الجدار، حيث غسل مولانا أقدام الحواريين في ذلك

المكـان، وإلى جواره، في جهـة اليمين،يقوم مـذبح في المكـان الذي شعـر فيه تـوما ولمس طـرف الرب بعـد قيامتـه، وهو لهذا يـدعى بـاسم مـذبح الاصبـع، ويمـر الانسـان مـن هـذا المكان مـن خـلال نـوع مـن أنـواع الردهات حول حرم الكنيسة، وبنـاء عليه يجد على الجانب الأيسر مذبحاً مقدساً، تحته بـدون شك جسد القديس ستيفن الشهيـد الرائد، وكان قد دفن هناك مـن قبل يوحنا أسقـف القدس، ونقل هذا الجسـد فيما بعد— حسبما نقـرأ في التـاريـخ— مـن القـدس إلى القسطنطينيـة مـن قبـل الامبراطـورة حنـة، ثـم مـن القسطنطينية إلى رومـا مـن قبـل الامبراطـور ثيودوسيـوس، ويوجـد قبل السـدة عمود مـن الرخـام الثمين قائم قـرب الجدار، وقد اعتاد بسطاء العقول من الناس على الالتفاف حوله.

٢٣— *نهر قـدرون. جيسماني. كنيسـة القـديسـة مـريـم. بيعـة الضريح. البيعـة الصغيرة فوق الـدرج. الأسطورة حـول يهودي رغب في سرقة جسد مريم المباركة.*

ومن هناك ذهب المولى بعد عشائه عبر نهر قدرون، حيث كانت هناك حديقة، ويمر نهر قدرون في وسـط وادي شعفاط، ويوجد الآن في المكان الذي كانـت فيه الحديقة كنيسة القديسة مـريم، مع أبنيتها الديـرية، وقد تأسسـت حيث دفن جسدهـا، ومن خلال رواق ينزل الانسـان عبر أكثر من أربعين درجـة إلى قبو، فيه يقوم ضريحهـا المقدس، وهو مغطى بـأثمن الزينة من أعمال الرخام والفسيفساء، وعلى مـدخل هذا القبو يوجد هذان البيتان من الشعر.

«أنت ياوارث الحياة تعال وامدح ملكتنا، التي لها

ندين بحياتنا، والتي حركت مصيرنا».

ويـوجد حـول هـذا الضريح عشرون عمـوداً، تحمـل أقـواساً، وسقفـاً فوقها، وقد نقشت على الحواف هذه الأبيات:

«من هنا ومن وادي شعفاط، ممر يؤدي إلى السماء،
كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،
من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء
للفقراء المذنبين، وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

زيادة على هذا يوجد فوق السقف قبة مدعومة بستة أزواج من الأعمدة، ومع كرة وصليب فوقها، وجرى تعليق مصباح تحت كل زوج من هذه الأعمدة الصغيرة المحيطة بالقبة، ويدخل الانسان إلى الضريح من الجانب الغربي، ويغادره من الجانب الشمالي، ورسم صعودها بشكل رائع على السقف في أعلاه، وهو يحتوي على الفقرة التالية تحت خط مستقيم: « أخذت مريم إلى السماء، وقد فرحت الملائكة، وباركت سيدتنا، وغنت بحمدها»، ومن حول حرم الكنيسة نفسها هناك مدرج يحتوي على النقش التالي:«حملت أم الرب المقدسة إلى مملكة السماء، فوق تراتيل الملائكة»، ويصعد الانسان من هنا إلى الكنيسة بوساطة عدد كبير من الدرجات بقدر عدد الدرجات التي نزل بوساطتها إلى القبو، والكنيسة نفسها والأبنية الديرية المرتبطة بها محصنة بقوة، بأسوار مرتفعة، وبأبراج حصينة، وبسواتر دفاعية، ضد الحملات المرعبة للمسلمين، ويوجد حولها كثير من الصهاريج، وعندما يخرج الانسان من القبو يرى بيعة صغيرة جداً، موضوعة فوق الدرجات نفسها، ويمتلك السريان في الكنيسة مذبحاً خاصاً بهم، ومرئي أيضاً على السقف الداخلي القائم فوق الدرجات التي ينزل الانسان بوساطتها إلى قبو رفع سيدتنا، وهي صورة فيها ابنها المحبوب، مولانا يسوع المسيح، موجود بين حشد من الملائكة، وقد تسلم روحها، وتولى حملها إلى السماء، في حين وقف الحواريون في حزن عميق، وهم يدعون لها بتعبد وتقوى، وكان عندما مدد جسدها ووضع فوق نعشها المقدس جداً، حاول يهودي أن

يسحب الستارة المغطاة بها، وقد تولى ملاك قطع يديه معاً بالسيف، وقد سقطتا على الأرض، وبقي أثرهما على جسده، ذلك أنه هناك رواية تتحدث أنه عندما غادرت روح سيدتنا جسدها على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في فصول متقدمة، وقام الحواريون المبجلون بكل احترام بوضع جسدها الأقدس على النعش، وبينما كانوا يحملونها على طول الطريق الذي يقود نحو الشرق، خارج أسوار المدينة، لدفنها في وادي شعفاط، كان اليهود، الذين يتحرقون كراهية وحسداً، والذين تولوا تعذيب ابنها لمدة طويلة، غير قانعين بعد، وقابلوها بنية تقديم إهانة ما إليها، وقام واحد كان هو الأوقح من البقية والأقل حظاً، وتقدم نحو النعش، الذي تمدد عليه جسدها المقدس، وحاول جاهداً، بمقاصد شريرة، أن يمزق الستارة التي كانت مغطاة بها، لكن محاسن العذراء مريم المباركة وانتقام السماء، عاقبته بقسوة على اندفاعه، حيث أن يديه وذراعيه قد يبسوا، وألقى هذا بالرعب في قلوب البقية، وجعلهم يفرون مسرعين.

٢٤— كنيسة جيسماني. كنيسة صلوات (مخلصنا). المكان المرتفع الذي يقوم منه البطريرك بمباركة حاملي سعف النخيل. الطريق الذي اقتيد مولانا عبره وهو معتقل.

وعندما ترتحل من هناك باتجاه الجنوب، نحو جبل الزيتون، تلتقي بكنيسة ليست صغيرة الحجم، تدعى جيسماني، إليها دخل مخلصنا، عندما خرج من الحديقة مع حوارييه، وقال لهم: «اجلسوا أنتم هنا، بينما أذهب أنا إلى هناك وأصلي»، وما أن تدخل إليها حتى تجد مذبحاً مقدساً، وتدخل من جهة اليسار إلى كهف تحت الأرض، وتجد أربعة أماكن معلمة، في كل منها تمدد ثلاثة من الحواريين وناموا، وهناك أيضاً في جهة اليسار صخرة عظيمة على زاوية المدخل إلى الكهف، وعليها ضغط المسيح بأصابعه، تاركاً ست فتحات مطبوعة عليها، وفي الحقيقة

قدم في مكان أعلى قليلاً، باتجاه جبل الزيتون، ثلاث صلوات، في مكان يبنى عليه الآن كنيسة جديدة، وواحد من أماكن هذه الصلوات موجود في البروز القائم على جهة اليسار، وهناك واحد آخر في منتصف السدة، والثالث قائم على يمين البروز، ويوجد في الفراغ القائم فيما بين جيسماني وأماكن الصلوات، على طرف جبل الزيتون، حيث التقت الحشود بمولانا مع سعف النخيل، مكان مرتفع قد بني بالحجارة، فيه يتم في أحد السعف، مباركة سعف النخيل من قبل البطريرك، وقرب هذه الأماكن، عندما كان يسوع يرتعد وينهار، جاء يهوذا مع مصابيح ومشاعل وسلاح وقادة من اليهود، واعتقلوه، واقتادوه بعيداً، وجلبوه إلى قاعة الكاهن الأعظم، أو قاعة كيفاس، وبعدما سخروا منه طوال الليل، جلبوه في الصباح إلى أمام قاضيه بيلاطس.

٢٥ــ البلاط على جبل صهيون. بيعة مولانا مع عمود الجلد. كنيسة الجليل. الكهف الذي فر إليه بطرس. طريق الآلام.

وبعدما سأله بيلاطس أسئلة كثيرة، أمر باقتياده إلى قاعة المحكمة، وجلس على طريقة مجلس القضاء، وذلك في المكان المسمى البلاط، الذي يوجد مكانه أمام كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون، وذلك في مكان مرتفع قرب سور المدينة، وهناك بيعة مقدسة مكرسة لمولانا يسوع المسيح، وفيها يقف جزء كبير من العمود الذي ربط إليه الرب من قبل بيلاطس، حيث أمر بجلده، بعدما حكم عليه من قبله بالصلب، واعتاد الحجاج في تقليد له على الجلد، ويوجد على صخرة أمام الكنيسة قطعت على شكل صليب الكلمات التالية منقوشة: «يدعى هذا المكان البلاط، وهنا حكم على الرب»، وخلف هذه باتجاه الشرق، وعلى جهة اليمين، ينزل الانسان إلى جزء آخر من الشارع خمسين درجة إلى كنيسة تدعى الجليلية، حيث تبقّى هناك حلقتان من السلسلة التي ربط بها القديس بطرس، وينزل الانسان بعيد مسافة من هناك، من الجهة

اليسارية للمذبح، حوالي الستين درجة إلى كهف مظلم جداً موجود تحت الأرض، إليه هرب القديس بطرس بعد إنكاره للمسيح، وأخفى نفسه في زاويته، وقد جرى رسمه هناك وهو جالس ورأسه فوق يديه، وهو يبكي بسبب آلام معلمه ولإنكاره له، بينما هناك جارية وصيفة تضغط عليه مهددة، والديك واقف يصيح أمام قدميه، وهذه الكنيسة هي بأيدي الأرمن، ومن هناك اقتيد مولانا للطواف حول سور المدينة، حيث كان هناك آنذاك حدائق، والآن بيوت، وبعد ذلك صلب، لأنه حسبما يقول الرسول:«تألم مولانا خارج البوابة»

لقد تحدثنا حتى الآن، حسب أفضل ما نستطيع، عما رأيناه وتعلمناه عن المسيح بأعيننا، وكذلك عن الأماكن المقدسة، ولسوف نتحدث بما هو معروف حول رفاقه وحول الأماكن الأخرى، وبعد هذا سوف نتحدث عن بعض الأشياء التي رأيناها بأنفسنا، وبأشياء رويت لنا من قبل الآخرين.

٢٦— *مكان بيلاطس. كنيسة القديسة حنة. بركة بوابة الضأن. كنيسة المجذومين ومكان إقامتهم. صهريج الاسبتارية الكبير. كنيسة القديس ستيفن. المشفى القائم عند بوابة القديس لعازر. كنيسة القديس شارتون.*

إلى جانب هذا الشارع، الذي يقود إلى البوابة الشرقية، على مقربة من البوابة الذهبية، ووراء بيت — أو قصر — بيلاطس، الذي تحدثنا عنه أنه ملاصق للشارع نفسه، تقوم كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا مريم، التي إلى قبرها ينزل الانسان إلى قبو تحت الأرض، بوساطة حوالي العشرين درجة، ويوجد هناك راهبات يتعبدن الرب تحت سلطان راعية دير، والذي يذهب إلى جانبها الشمالي، سوف يجد بركة الضأن،القائمة في واد عميق قرب رابية صخرية، مغطاة ببعض الأبنية القديمة، ولهذه البركة— حسبما أخبرنا في الانجيل— خمسة أقسام، ويقوم في الجزء

الأقصى منها مذبح، وكل من يقوم بالدوران حول أسوار المدينة، إذا ما ابتدأ برحلته من عند برج داود، سوف يجد عند الزاوية الغربية من المدينة كنيسة المجذومين ومكان إقامتهم، وهو موقع أنيق، ومحفوظ بنظام جيد، وإذا ما مررت بالصهريج الكبير للإسبتارية، وقبل أن تصل إلى البوابة الشمالية، سوف تجد فوق رابية، كنيسة القديس ستيفن الشهيد الرائد، وهو الذي عندما ألقي به خارج البوابة، وقذف بالحجارة من قبل اليهود رأى السموات مفتوحة في ذلك المكان، وهناك في وسط الكنيسة مكان قائم فوق درجات، وهو محاط بسياج حديدي، وفي وسطة مذبح مقدس،له شكل مقعر، وهو موجود في المكان الذي وقف فيه عندما رمي بالحجارة، وحيث فتحت السموات من فوقه، وهذه الكنيسة خاضعة لراعي دير القديسة مريم للاتين، ويوجد عند البوابة نفسها مشفى محترم يدعوه الاغريق بـ Xenodochium، وعندما تسير قليلاً على هذا الطريق، ثم تأخذ الطريق نحو اليسار باتجاه الشرق، سوف تجد كنيسة عائدة إلى الأرمن، وفيها يرقد شهيد اسمه شارتون، عظامة مغطاة باللحم، وكأنه مايزال حياً.

٢٧— جبل الزيتون. كنيسة مخلصنا (أو الصعود). كنيسة القديسة بيلاجيا الصغيرة. كنيسة التعليم الرباني.

وبما انه بعد هذا كانت ساعة صعوده تقترب، تسلق مولانا جبل الزيتون، ووقف هناك فوق صخرة عظيمة، على مرأى من حوارييه، وبنعمة منه منحهم تبريكاته، ثم صعد إلى السماء، وجبل الزيتون حسبما تقدم بنا القول هو أعلى الجبال التي تطوق المدينة، وهوممتلىء بالفواكه من جميع الأنواع، ويحتوي على نقطة ذروته كنيسة، من أعلى الكنائس قداسة، مكرسة لمخلصنا، وفي الحقيقة ليس في هذه الأجزاء تكريس وراء ذروة الجبل نفسه، مما تم بالعادة اضفائه على هذه الأماكن التي تمجدت بحضور مولانا، ويصعد الانسان إلى الكنيسة بوساطة عشرين درجة

كبيرة، ويقوم في وسـط الكنيسة بنـاء مستديـر، مزيـن بشكل رائع بـرخام باروسي، وبرخـام أزرق، مع بروز مرتفـع، وضع في وسطه مذبـح مقدس، وتحت هـذا المذبح مـن الممكن رؤيـة الصخرة التـي يقال بـأن الرب قـد وقف عليهـا عندما صعد إلى السـاء، ويتولى ادارة القداسـات في الكنيسة رهبان نظـاميون، وهي محصنـة بشكل جيد ضـد المسلمين بوساطـة أبراج كبيرة وصغيرة، مع أسوار،وشرافـات، ودوريات حراسة ليلية، وعنـدما يأتي الانسـان إلى الكنيسـة يـأتي إلى كنيسـة صغيرة في الجهـة الغـربيـة، وهـي مظلمـة لأنها كهف تحت الأرض، وعنـدما ينـزل الانسـان عشرين درجـة إليها، يرى تابـوتاً حجرياً كبيراً، فيه جسد القديسة بيـلاجيا، التي أمضت حياتها حبيسة هنـاك في عبادة الرب، ويوجد كذلـك في جهة الغرب، إلى جانب الطريق الذي يقود إلى بيـت عنيا، على طرف جبل الزيتون، كنيسة ذات قداسة عظيمة،لأنها قائمة في المكان الذي جلس فيه مخلصنا، عندما سئـل من قبـل حوارييـه: كيف ينبغـي أن يصلوا، وقـد علمهم الصـلاة بالقول:«أبانا الذي هو في السماء»، وقد كتب هذا لهم بيده، وهذه الكتابة مـوجودة تحت المذبـح نفسه حتـى يتمكـن الحجاج مـن تقبيلها، وهنـاك أيضاً من وسـط الكنيسة طريق يقود نـزولا بوساطة حـوالي الثلاثين درجة إلى كهف تحت الأرض، قـد قيل بـأن الرب غـالباً مـا جلس هنـاك وعلم حوارييه.

٢٨— *بيت عنيـا. كنيسة القديـس لعازر. كنيسـة مريم ومـرثا. الصهـريج الأحمر مـع قلعته. حـديقـة إبراهيـم. الأبراج والبيـت هناك.*

وهكـذا انتهيت مـن القدس، التـي كان لها في روايتـي الأهمية نفسهـا التي للرأس في الجسـد، وسأتحول الآن إلى أماكن أخـرى، وكأنها الأطراف لهذا الجسد.

ويأتي بعدها بيت عنيا التي هـي أيضاً حصينة، وحصانتها الناتجة عن

طبيعة الأرض ليست أقل مـن حصانتها بالبناء هناك، ويـوجد هنا كنيسة مـزدوجة، القسـم الأول منهـا ممجد بجسـد القديـس لعـازر، الذي بعثـه مولانـا من الموت في اليوم الـرابع، وهـو الذي حكم كنيسـة القدس لمدة خمسين سنـة، والقسم الآخـر ممجـد بآثـار أختيـه: مريـم ومـرثا، وتتعبـد الراهبـات الرب هناك في ظـل ادارة راعية، وهنا غـالبا ما جـرى استقبال ربنـا ومخلصنا بمشـابـة ضيف، وبـاتجاه الغـرب فيما وراء بيت عنيـا، وعلى مسافـة أربعة أميال مـن القدس، يقوم هنـاك جبل الصهريـج الأحمر، مع بيعة مرتبطة به، ويحكى أنه في هذا الصهـريج جرى إلقاء يوسف من قبل أخوتـه، وقد بنى الداويـة هنا قلعة حصينة، وعلى مسـافة أكثر من ثـلاثة أميال من هناك تقـوم حديقة إبراهيم، في وسط سهـل جميل قرب الأردن، ذلك أنه يبعد نصـف ميل عنها، وطوله ضعف عـرضه، وفيه منبسط كبير يسقيه نهر جميل.

ويمتـد عرض هـذا السهل حتـى الأردن، ويصـل امتداد طـوله حتـى البحر الميت، وفيه تربة موائمة لنمو جميع أنواع الفواكه، مع كميات وافرة من الخشب غير أنها شوكية، ورأينا الحديقـة نفسها مليئة بالأشجار التي تحمل مـالا يحصى تعـداده من التفاح، لكـن من الحجـم الصغير، ورأينا شعيراً ناضجاً، في يوم الاثنين بعد أحد السعف.

ويوجد هناك عدد كبير من الأبراج والبيـوت الواسعة في أيدي الداوية وتحت سلطانهم، ويمارس هؤلاء، مثلهم مثل الاسبتـارية، حراسة الحجاج الذيـن يتوجهون إلى الأردن، ويحتـاطون حتى لايكونـوا عرضة لـلأذى من قبل المسلمين، أثناء الذهاب والاياب وأثناء إمضاء الليل هناك.

(يعتقد وجود سقط كبير في النص هنا).

٢٩— *الأردن .جبل القرنطل. نبع اليجا.*

يقـع الأردن على مسافـة ميل مـن هنا، وهـو يجري بشكل متعـرج، أو

بالحري هو نهر كثير الالتفافات، يساير جبال العربية، ويصب في البحر الميت، ولايظهر بعد ذلك مطلقاً، ويوجد بين الصهريج الأحمر والوادي المتقدم الذكر فيافي مرعبة، إليها جلب مولانا يسوع من أجل إغوائه من قبل الشيطان، ففي نهاية هذه القفار جبل مرعب، ومرتفع جداً، وشديد الانحدار حتى أنه يكاد أن يكون متعذر التسلق، ففي الوقت الذي نجد فيه مؤخراته فوقها ذروته العالية، فهذه الذروة يتلوها منحدر يقود إلى واد مرعب، ويدعو الناس من غير رجال الدين هذا المكان باسم القرنطل، ويمكننا أن ندعوه Quadragena، لأنه هنا جلس مولانا صائماً لمدة أربعين يوماً وليلة، ويمضي الطريق إلى حيث جلس مولانا على طول منتصف طرف الجبل، لكن ليس بشكل مستقيم، لكنه شديد التعرج وغير منتظم بسبب طبيعة الأرض، ذلك أنها منزلقة في مكان ما، حتى أنها ترغم أحياناً الحجاج على الزحف على أيديهم، ويوجد في القمة بوابة، وعندما تجتازها وتتابع سيرك قليلاً سوف تجد بيعة بنيت فوق كهف صنع بالأيدي البشرية، وهي مكرسة لسيدتنا، وتصعد من هناك خلال ممر صعب ومتعب نحو الأعلى بدون درج، وتعبر فوق جروف وعرة وهائلة من جروف الجبل، ومن ثم تدخل إلى بوابة أخرى، وتصل من خلال ممر ينعطف مرتان نحو الخلف وهو كثير التعرج، تصل بالتدريج إلى بوابة ثالثة، وبعبورك لهذه سوف ترى مذبحاً صغيراً مكرساً للصليب المقدس، وفي جهة اليمين من البيعة الصغيرة التي تحتويه، هناك ضريح قديس اسمه بيليجرينوس Piligrinus ، الذي ماتزال يده مغطاة باللحم، وهي مرئية هناك.

وبصعودك الآن حوالي ست عشرة درجة إلى الذروة، سوف تجد في جانب الشرق مذبحاً مقدساً، وفي الغرب المكان المقدس نفسه حيث جلس مولانا، وحسبما تقدم بنا القول صام هناك أربعين يوماً وليلة، وهناك أيضاً بعد صومه، قام ملائكة بتقديم قداس له، ويقوم هذا

المكـان في وسط الجبـل، لأن ذروته بعيـدة صعـوداً بقدر بعـد القعر عـن هناك.

ويمكـن أن يرى على ذروتـه صخـرة عظيمة، يقـال بـأن الشيطان قـد وقف عليها وهـو يحاول إغواءه، ويمكن من هذا الجبل رؤيـة مشهد يمتد إلى مسافة عظيمة فيما وراء الأردن، إلى العـربية، لابل حتى إلى تخوم مصر فيما وراء البحر الميت يمكـن الرؤية، وسطح جبـل القرنطل وكهوفـه التي هي تحت الأرض مشحونـة جميعاً بالأطعمة، وبالأسلحة العـائدة للداوية، الذيـن لايمكنهم إيجاد حصن أمنـع أو أفضل بالموقـع لإزعاج المسلمين، وعنـدما يصعـد الانسـان هذا الجبـل أو ينزل منـه، أي عنـدما يكـون في قاعدته، يجد نبعـاً عظيماً يتدفق بالماء الذي يمد حـدائق إبراهيم والسهل الموجـود هناك بـالماء، وهناك في هـذا السهل الـذي يُسقى بـالنهر الـذي يتشكل مـن مياه ذلك النبـع، اعتاد الحجاج — كما قلنـا — على إمضاء ليلـة، حتى يتمكنـوا من الـذهاب إلى القـرنطل للصـلاة، ولكي يغسلـوا أنفسهـم بمياه نهر الأردن، ويحظـون هنـاك بالحمايـة من ثـلاثـة جوانـب بوسـاطة الحديقـة نفسها التي تحميهـم من الكمائن، وتجري حمايتهـم من الجهة الرابعة بوساطة دوريات الحراسة التابعة للاسبتارية والداوية.

٣٠— المكان الموجود على شـواطىء الأردن الذي تعمد مـولانا فيه. الكنيسة والدير. قلعة الداوية. جبال جلبوع.

عندمـا زرنا بأنفسنـا المتواضعة هـذا المكان أيضاً، مـن أجل أن نصلي هنـاك، ومع الـرغبة في أن نستحـم في مياه الأردن، نـزلنا مـن الجبل بعـد غروب الشمـس، ومع حلول الظـلام، وكنا قد نظـرنا من أعـالي الجبل إلى السهل المنبسط تحتنا، فرأينا تبعاً لتقديراتنا أكثر من ستين ألفاً من الرجال يقفون هناك، وكلهـم تقريباً يحملون مشـاعل في أيديهم، وكلهم كـان من الممكن رؤيتهـم من قبـل المسلمين، من جبـال العربيـة فيما وراء الأردن، وفي الحقيقة كـان هناك مايزال عـدداً أكبر من الحجاج في القدس، كـانوا

قد زاروا هذا المكان.

ويوجد في المكان نفسه الذي جرى تعميد مولانا فيه من قبل يوحنا، هناك صخرة كبيرة، يقال بأن مولانا قد وقف عليها أثناء تعميده، وبذلك جاء ماء نهر الأردن إليه، وهو لم يدخل إلى النهر، وقد جرى بناء كنيسة على شاطىء الأردن، وفيها جرى إعدام ستة رهبان سكنوا فيها من قبل زنكي والد نورالدين، ويوجد هناك قلعة حصينة للداوية، وإذا ما عدت عبر الطريق المستقيم المباشر من الأردن إلى القدس، من خلال سهل منبسط، وقبل الدخول إلى المنطقة الجبلية، تصل إلى أريحا، حيث يجري بعدها نهر، يتدفق نزولاً من جبال القدس، وقد تحولت أريحا الآن إلى بلدة صغيرة، وهي على كل حال قائمة وسط تربة خصبة، فيها تنضج جميع الفواكه بسرعة، وتنمو هناك الكثير من الورود المتفتحة بوفرة وافرة من الورود الجميلة، ومن هنا جاءت المقارنة بقولهم:«مثل وردة زرعت في أريحا». وهذا ينطبق على سيدتنا، وهي أيضاً موائمة بشكل مدهش من أجل كروم واسعة، وأعناب رائعة، وهذا المكان قائم تحت سلطان كنيسة لعازر في بيت عنيا، لكن كثيراً من الأرض هي غير مزروعة بسبب غارات المسلمين،وإلى الشمال من هذا الطريق، وعلى جهة اليمين تقع جبال جلبوع، وهي قائمة على طرف السهل المتقدم الذكر، ومن الممكن رؤيتها بوضوح.

٣١ــ صحراء إيليم. وادي موسى. جبال سيناء.: حوروعبريم والشوبك. المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل الأردن.

تقع الصحراء التي قاد الرب من خلالها مرة بني إسرائيل، بعد قدومهم وعبورهم للبحر الأحمر، بين مصر والعربية، وأطعمهم هناك حسبما نقرأ(في التوراة) بخبز السماء، وجعل الماء ينبع من أجلهم من الصخرة، وتدعى الصحراء التي وجد بنو إسرائيل فيها اثني عشر بئراً للماء، وسبعين نخلة وهي قائمة على تخوم العربية، باسم إيليم(الخروج

:١٥ / ٢٧)، وفي العربيـة هناك واد أيضـاً، يدعى بـاسم وادي مـوسى، لأن مـوسى ضرب هنـاك الصخـرة مرتين بعصـاه، وجعـل الماء ينبع مـن الصخرة مـن أجل شعبه، وتشرب مـن هذا النبـع الأرض كلها الآن، وفي المنطقة نفسهـا جبل سيناء، الـذي صام موسـى عليه أربعين يومـاً وليلة، وهناك أيضاً تسلم الشريعـة وقد كتبت باصبع الرب فـوق ألواح حجرية، وجبل حور، الذي دفـن هرون عليه، موجود أيضاً في العـربية، ومثله أيضاً عبريم، الذي دفن الرب عليه موسى، الذي — على كل حال — لم يعثر على قبره، ويوجد في العربيـة جبل يدعى الشوبك، استـولى عليه بلدوين ملـك القـــدس، ووضعـه تحت حكـــم الصليبيين، وهـذه هـــي التخـوم والمقاطعات التـي عبر من خلالها بنو إسرائيـل، عندما خرجـوا من مصر، وعبروا فوق البحـر الأحمر، وقتلوا سيحـون ملك العمـوريين، وعوج ملـك باشان، وتقع بلدان هذيـن الملكين فيما بين أدوميا والعربية، وقد عبروا نهر الأردن، في المكان نفسه الذي جرى تعميد المسيـح فيه، وباستيلائهم على أريحا في السهـــل، استحـوذوا على ملكيـــة أرض الميعـاد، وذلـــك حسبما أخبرنا، وفي الأيام التي عبر فيها بنو إسرائيل العـربية، كانت بلاداً مقفرة، إلى حد أنها لم تتميز باسم خاص بها.

٣٢— وادي جهنـم قـرب القـدس. الصهـريـج الجديـد. بيعـة القديسة مريم حيث اعتادت أن تستريح. كفراتا . قبر راحيل.

كـل من يجتـاز الباب الغـربي للمدينـة، قرب بـرج داود، ويوجـه سيره باتجاه الجنوب، سوف يجتاز وادي جهنم، الـذي يتاخـم طرفين من أطراف المدينة عند الصهريـج الجديد، وسيصل بعد مسافة أكثـر من نصف ميل إلى بيعة لها قـداسة خاصة، فهـي مكرسة لسيدتنـا مريم المباركـة، حيث اعتادت أن ترتاح هنـاك، عندما كانت تسافـر من بيت لحم إلى القدس، ويقـوم عنـد بـابها صهـريـج، اعتـاد المارون مـن هنـاك على الشرب منـه والاستراحـة هناك، وفي الخلـف هناك حقـل فيـه عدد لايحصـى من كـوم

الحجارة، يبتهج الحجاج البسطاء في جمعهـا هناك، ذلك أنهم يقولون أنهم سوف يجلسـون عليها في يـوم الحساب، ومجاور لهذا المكـان الذي يـدعى كفراتا، حيث تـوفيت راحيل زوجة يعقوب بعد ولادتها لبنيـامين، وبعدما دفنت هنـاك، وضع يعقـوب فوق قبرهـا اثنتي عشرة صخـرة، ويقوم الآن هناك هرم، كتب عليه اسمها.

٣٣— بيت لحم. كنيسـة القديسة مـريم. بيعـة المهد. المزود. قبر يوسف الأرمـاثي والقديس جيروم. المكان الذي غنـي فيه«المجد لله في الأعالي».

ونأتي الآن إلى مدينة بيت لحم الشهيرة، التـي — تبعاً لتوقعات الأنبياء — ولـد فيها مـولانا العـزيز يسـوع المسيح رجـلاً، ويوجـد هناك كنيسـة مقدسـة، مشرفة بتمييـزها وبجعلها أسقفيـة وكنيسة كـاتدرائيـة، والمذبح العالي فيها مكرس لسيدتنا مريـم المباركة، وعند نهاية جهة اليمين للبروز، وإلى جانب البـاب، ينزل الانسان بوساطة عشريـن درجة إلى كهف تحت الأرض، حيـث هناك مـذبـح مقدس لـه شكـل مجوف، لأنه يحتـوي على صليب مرسوم على الأرض، ويتألف هذا المذبـح من أربعة أعمدة، تدعم قطعة كبيرة من الرخام، وقد كتب فوق هذا المكان البيتين التاليين:

«من رئيس ملائكة لامثيل لفضائله

حملت بالفعل عذراء هنا بالرب»

وفي جهـة اليمين، أو باتجاه الغـرب، في الكهف نفسـه، ينزل الانسـان أربع درجـات، ويصل بذلـك إلى المزود، الذي مـرة وضع فيه ليـس فقط تبناً للمـواشي، بل وجد فيه طعـام للملائكة، وجرى تغليـف المزود نفسه بـرخام أبيـض، وهناك ثـلاث فتحـات مستديـرة في القسم الأعلى، يقـدم الحجـاج من خـلالها إلى المزود قبلاتهم التـي اشتاقـوا طويـلاً لتقديمهـا، وهذا الكهـف — زيادة على هذا — مزيـن بشكل جميل بوسـاطة أعمال

الفسيفساء، ويقوم فوق الكهف بيعة مقدسة، مقنطرة بشكل مزدوج، حيث يوجد على جهة الجنوب مذبح مقدس، وعلى جهة الغرب قبريوسف الأرماثي مرئي في الجدار، وليس بعيداً عن مزود الرب يقوم قبر القديس جيروم، الذي يقال بأن قبره قد نقل من هناك بوساطة ثيودوسيوس الأصغر إلى القسطنطينية، وعلى سقف الكنيسة نفسها نجمة من النحاس المذهب بشكل جيد، وهي تلمع فوق رمح، وفي ذلك إشارة إلى الحكماء الثلاثة، الذين حسبما نقرأ في الانجيل، جاءوا إلى هناك، يقودهم النجم، ووجدوا الطفل يسوع هناك مع أمه مريم، فتعبدوه، وعلى مسافة ميل من بيت لحم ظهر الملاك إلى الرعاة وتألق حولهم هناك مجد الرب، وهناك ظهر أيضاً جمهور من الحشد السماوي وهم يغنون:«المجد لله في الأعالي».

٣٤— *الخليل. الكهف المزدوج. الأرض الحمراء. ممرا. البلوطة.*

وعلى مسافة من هناك، باتجاه الجنوب، قرب البحر الميت، تقوم الخليل، حيث يقال بأن آدم قد سكن فيها بعد إخراجه من الجنة، وفيها أيضاً دفن، وكانت هذه المدينة مدينة الكهنة من سبط يهوذا، وكانت مقر سكنى العمالقة، وكانت تدعى في الأيام الخوالي باسم« قرية أربعة» أي«مدينة أربعة»،لأن أربعة من الآباء المبجلين قد دفنوا فيها هناك في كهف مزدوج، وهؤلاء هم: آدم — أول إنسان مخلوق — وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وهم الآباء الثلاثة، ومعهم زوجاتهم: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وكانت هذه المدينة تدعى من قبل باسم«أربعة» وفي أراضيها — أي في طرفها الأقصى — يوجد كهف مزدوج، يتجه نحو ممرا، التي اشتراها إبراهيم بثمن من عفرون بن ساعور الجتي، وفي المنطقة القريبة من المدينة هناك الأرض الحمراء، التي تحفر من قبل السكان، وتؤكل وتصدر إلى مصر، ويقال بأن آدم قد صنع من هذه الأرض، ويقال بأنه مهما بلغ الحفر بهذه الأرض بالحجم أو بالعمق،

تعود في السنة التالية كما كانت بوساطة القوة الإلهية، وقرب هذه المدينة يقع جبل ممرا، الذي تقوم عند سفحه البلوطة، التي تدعى حالياً باسم«الدلبة»، فتحتها رأى إبراهيم الملائكة الثلاثة، والمعبود الواحد، وقد ضيفهم بكرم وعناية، وبقيت هذه البلوطة حتى أيام الامبراطور ثيودوسيوس، وقد نما من جذعها، أو من جذرها بلوطة أخرى، ومع أنها ذبلت جزئياً، هي ماتزال قائمة، ولها فعاليتها، فإذا ما حمل فارس قطعة منها في يده، لن يضل حصانه مطلقاً، وكانت الخليل أول مكان وصل إليه كالب ويوشع ورفاقهما العشرة الذين بعث بهم موسى من برية فاران ليتجسسوا على أرض الميعاد، وكانت هذه المدينة بعد ذلك حاضرة مملكة داود، الذي حكم هناك لمدة سبع سنوات، بموجب الأوامر الربانية.

٣٥— *قبر لوط. بحيرة اسفلت. سيجور. تمثال الملح. كرنيم.*

على مسافة ميلين من الخليل، كان ضريح لوط، ابن أخي ابراهيم، وعلى بعد عشرة أميال باتجاه الشرق، تقوم بحيرة اسفلت، التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، لأنه لايوجد فيه شيئاً حياً، ولايقبل شيئاً حياً، ويسمى أيضاً ببحر الشيطان، وذلك في إشارة إلى المدن الأربعة: سدوم، وعاموره، وساعور، ودومه، التي استمرت في ممارسة شرورها، وقد أحرقت بوساطة النيران التي سقطت من السماء، ومن ثم أغرقت في البحيرة، التي ارتفعت في مكان المدن المتقدمة الذكر، ومياه هذه البحيرة مرعبة بسبب شكلها المقيت، وتجعل رائحتها الذين يقتربون منها يهربون، ورؤيت في إحدى السنوات، في يوم ذكرى تهديم هذه المدن أحجاراً وأخشاباً وأشياء أخرى من مختلف الأنواع تعوم على وجه البحيرة، وذلك كشهادة على دمارهم.

وقرب البحيرة تقوم مدينة سيجور التي تدعى أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي قد حفظت من الدمار بوساطة دعاء لوط، وهي باقية حتى هذا اليوم، وعندما خرج لوط منها، نظرت زوجته إلى الخلف، فتحولت إلى

تمثال مـن ملح، وهـو مايـزال باقيـاً حتى هـذا اليوم، وهـو يغدو صغيراً عندما يكون القمر قد أخذ بالاضمحـلال، ثم يزداد حجمه عندما يصبح بدراً، ووجههـا ملتف إلى وراء ظهـرها، وتنتـج هذه البحيرة القـار أيضاً، الذي يدعى بـاسم الحمر اليهودي، وهو مفيد جـداً للبحارة، ويعثر عند شـواطئها أيضـاً على الشب، الـذي يدعـوه المسلمون بـاسم «القطـران»، زيـادة على هـذا، يـوجد عبر البحيرة، عنـدمـا يمضي الانسـان نـزولاً إلى العربية، مدينـة كرنيم، وذلك على جبل الموآبيين، الذي أقـام فيه بلك بن باعـور ملك الموآبيين بلعـام الكاهـن ليلعن بنـي اسرائيل، ويـدعى هـذا الجبل بسبـب شعابـه المنحدرة بـاسم «الانقطـاع»، وتفصل هـذه البحيرة اليهودية عن العربية.

٣٦— غزة. عسقلان. يافا. أرماثيا (رامه). حقل حبقوق.

وتقوم مـدينة غزة على شـاطىء البحـر المتوسط، وهـي على بعد عشرة أميال مـن الخليل، باتجاه الغـرب، وهي تـدعى الآن «غزرة»، وفيهـا فعل شمشـون أفاعيـل عظيمة، وحمل أبـوابها بعيـداً أثناء الليـل، وعلى مسافـة ثمانية أميـال من غزة، على شـاطىء البحر المتـوسط، تقوم عسقـلان وهي مدينة جيدة التحصين، ومن العادة وجود هاتين المدينتين في فلسطين، أو بـالحري في بلاد الفلسطينيين، وتقـع يـافا على شـاطـىء البحـر المتوسـط نفسه، التي فيها أقام الرسول بطـرس طابيثا من الموت، ويدعو المعاصرون يافا بـاسم يفيس Jafis، وعلى مقربة منهـا تقع أرماثيا (رامـة) التي جاء منها يوسف، المستشار الطيب، الذي تـولى دفن المسيح، ويوجد أيضاً في أرض اليهودية الحقل الـذي حمل منه النبي حبقوق بوساطـة ملاك، وذلك عندما كان يحمـل خبزاً في جعبة، وكان متوجهاً في الحقـل لإعطاء الخبز إلى الحواصيد، وجاء حمله إلى بابل، مـن أجل أن يحمل الطعام إلى دانيال الذي كان في عرين الأسد.

٣٧— مقبرة بيت الأسد، قرب القدس.

ولدى خـروجك من المدينـة المقدسة، والسير بـاتجاه الغرب، بوسـاطة الباب القـائم قرب بـرج داود، يوجـد في جهة اليمين ممـر يقود إلى بيعـة، ينزل الانسان منها حوالي المائة درجـة إلى كهف عميق جداً تحت الأرض، فيجد فيـه مالا يحصـى تعداده من أجسـاد الحجاج، الـذين يحكـى بأنهم جلبـوا إلى هاهنـا وفق الطـريقة التـالية: وجـد الحجاج الـذين جـاءوا في إحدى السنوات للصلاة كما هي العادة، المدينة مليئة بالمسلمين، وبما أنهم كانـوا غير قادرين على الـدخول إليها، حاصروا الـذين كانـوا في المدينة، لكن بما أنهم لم يمتلكـوا ما يكفي من طعـام وسلاح لإنجاز هـذه المهمة الصعبة جـداً، ظهروا وهـم يعـانون مـن عوز عظيم بـالمؤن، وفيما هـم بهذه الأحـوال الشاقـة، رأى المسلمون أنهم كـانـوا غير قادريـن على المقاومـة، فانقضوا عليهـم بشكل مفاجيء بحملـة قاموا بها من المدينـة، وجعلوهم طعمـة للسيف، وعنـدمـا تصاعـدت روائح الجيف النتنـة التـي كانـت عظيمة الأعـداد، قرروا احـراقها جميعـاً، لكن ظهـر في تلك الليلـة نفسها أسـد أرسله الـرب، فقام بـرمي الجثـث في الكهف، الـذي امتلك فتحـة ضيقة، ومن الممكـن حمل كل واحد منهم عبر البحر، وفي الحقيقـة عندما كانـت جثة أحدهم تـوضع على ظهر سفينـة، كانت السفينة تـذهب إلى وطنه بإرادة منها، ودونما قيادة.

٣٨— كنيسـة الصليـب المقـدس. المكـان في الغـابـة أو مكـان القـديـس يـوحنـا. جبال مـوديـن أو بليمـونـت. عمـواس، أو فـونتنويـد. جبـال صـونيـم. رامـاثا. سيلـو، أو جبـل صموئيـل المقدس.

ويقع بعد هـذا خلف أحد الجبال واد خصب جداً وجميـل، وفيه تقوم كنيسة جليلـة مكرسة لمولانـا يسوع وإلى أمه المحبـوبة، يتعبد النـاس فيها تحت مذبـح مفتوح، المكان المقـدس الذي قـام فيه جذع الشجـرة، التي كان الصليب قد قطـع منها، وهو الصليب الذي علق عليـه مخلصنا من

أجـل خلاصنـا، وهـذه الكنيسة محصنـة بشكـل جيد بـأبـراج وبأسـوار، وبشرافـات، ضد الهجمات المفـاجئة للمسلمين، وهـي فضـلاً عن ذلـك مزينـة ببيوت، وغرف طعـام، وقاعـات، ومقيمين من جميع الأنـواع، وهي صالحة لجميع أنـواع الاستخدامات، وهي ذات بناء شامـخ من الحجارة، ويحكى بأن هذه الصخرة قد قطعـت من قبل الملك سليمان، الذي وضع عليهـا علامـة الصليب، ووضعهـا جـانبا في مكـان لائق، لإنتظار قـدوم المخلـص، لأنه رأى مسبقـاً بوسـاطة الـروح أن الخلاص سوف يـأتي إلى العالم مـن خلال وفـاة المسيح، ومـن هناك يمضي الانسـان إلى القديـس يوحنا، أو إلى المكان الذي يدعى «في الغابـة»، حيث عاش أبوه زكريا مع أمـه اليزابـث، وحيث ولـد القديـس يـوحنا نفسـه، وحيث أيضـاً بعدمـا استقبلت القديسة مـريم بالتحيات من قبل الملائكـة في الناصرة، جاءت إلى هناك وحييت مـن قبل اليزابث، وإلى جـانب هذا المكان تقـوم جبال موديـن Modin، التـي عليها جلـس متتيـا مـع أولاده، عندمـا استـولى أنطيخـوس على المدينة وهـزم بني إسرائيـل عنـوة، وعلى مقربـة من هـذه الجبال تقـوم قلعة عمـواس، التي يـدعوهـا المعاصرون بـاسم فـونتنويـد، Fontenoid، فهنـاك ظهر الـرب إلى اثنين من حـوارييه في يـوم قيامتـه نفسـه، وليس بعيـداً عن هنـاك جبال افـرايم، التـي تعرف أيضـاً باسـم صوفيم Sophim، وفي الحال نصل إلى راماثا، وهي مـدينة كبيرة تدعى الآن باسم راما، ومن أهليها كان ألقانـه، والد النبي صموئيل، وحنه أمه، وعلى مقربة من صـوفيم بيت عرون Bethoron، التي تعرف الآن بـاسم بتر Beter وعلى جهة اليمين، أو في الجهـة الغربيـة من تلـك المنطقة، وعلى مسـافة ميلين مـن القدس، يصعـد الانسان إلى جبـل سيلو، الـذي ينبع منه نبع ماء عذب، يتدفق في الـوادي القائم تحته، وهناك بقي تابوت عهد الـرب منذ دخول بنـي اسرائيل إلى أرض الميعـاد حتى أيام الكـاهن عـالي، الذي أرغـم التابـوت في أيامـه، بسبب ذنـوب العبرانيين، على أن يستولي عليـه الفلسطينيون، وبقـي في أيديهم حتى أصيبـوا بالعـذاب من

السماء، فوضعوه على عربة، وردوه مكرهين إلى بيتشمس، وكان ذلك بعد سبعة أشهر من استيلائهم عليه، وهنا ثار غضب الرب بشدة على كل من الكهنة والشعب لأنهم احتفظوا بالتابوت، وجاء بعد هذا أهل قرية يعاريم— أو جبعه— وأخذوه من بيتشمس، واحتفظوا به في بلادهم، ثم حمله فيما بعد الملك داود ومعه جميع بني اسرائيل، وسط الغناء والرقص والأناشيد التي أنشدها الكهنة، وأودعوه في مدينة داود، على جبل صهيون. وبعد هذا عندما قام الملك سليمان ببناء هيكل الرب— كما قلنا من قبل— على جبل موريا، حيث كانت أرض بيدر أرونا اليبوسي، وقتها وضع التابوت في الهيكل، وفي سيلو دفن النبي صموئيل، ومنذ ذلك الحين تغير اسمه الأول، وصار هذا المكان يدعى باسم القديس صموئيل، ويوجد هناك دير للرهبان المحترفين الذين يعرفون باسم الرهبان الرماديين.

٣٩— اللد. كاكو. قيسارية فلسطين. جبل الكرمل والبلدة.

وعلى بعد ستة أميال إلى الغرب من سيلو، وفي السهل، تقع مدينة اللد، وهي — تبعاً للتقاليد— مكان دفن القديس جورج الشهيد، ولهذا السبب فقد هذا المكان اسمه القديم، وبات يدعى الآن باسم «القديس جورج» وذلك من قبل المعاصرين، ومن هناك ينزل الانسان ويمضي عبر الطريق الذي يقود إلى عكا، وذلك خلال سهل بهيج وجميل، يمتد فيما بين الجبال والمنطقة المنبسطة قرب ساحل البحر، حيث هناك العديد من المدن والبلدات، الجديدة والقديمة، وبين هؤلاء: كفر جمالا، وكفر سمالا، وهي قلعة يدعوها المعاصرون كاكو Cacho، وهي قائمة في سهل خصب جداً، وتدعى البلدة هناك باسم قيسارية فلسطين، وكانت فيما مضى تعرف باسم برج ستراتو، وتقوم جبال حيفا بالقرب، وهناك بلدة نصف مهدمة تحمل الاسم نفسه. ويقال بأنه هنا جرى صنع ثلاثين قطعة من الفضة، وهي التي أعطيت إلى الخائن يهوذا كثمن لدم المسيح،

ويوجد على قمة الجبل قلعة للداوية، تمكـن البحارة من رؤية اليابسة من مسافة.

٤٠ — *قلعة عقرون الجديدة. حديقة النخيل. عكا.*

وبعيـد هذا هنـاك على شاطـىء البحر، مقـابل عقـرون قلعة عظيمـة، تحمل الاسـم نفسه، وهـي قائمـة في منطقة غنيـة، وتدعـى باسـم القلعة الجديدة، وفي جـوارها حـديقة كبيرة من أشجـار النخيل، وتقـع على بعد ثلاثة أميال مـدينة عكا، وهي مدينة ثريـة وكثيرة السكان، وعلى كل حال إن مـرسـىء عكا— أو لنقـل الطـريـق المستقيـم إليه— صعـب، وخطـر للوصـول إليه، عندمـا تهب الريح مـن الجنوب، وترتجف السـواحل تحت الهزات المتـواصلـة التـي تتلقـاهـا مـن الأمـواج، التـي تتراكـم هنـاك في مجموعـات كبيرة، لأنه بما أن هيجان البحـر لايوقفـه أي تدخل مـن قبل أي جبل، تظـل الأمواج هائجة أكثـر من رمي حجـرة على الأرض، وبنى الـداويـة في هـذه المدينـة بيتـاً كبيراً بفـن معماري رائع، وهـو قـائم على شاطـىء البحر، ومثلهم أقـام الاسبتارية بيتـاً فخماً هناك، وعندمـا تجلب السفـن الحجـاج وتنـزلهم فيها، يجدون أنفسهـم مـرغمين على العـودة إلى مرسى المدينة لنقلهـم ثانية إلى أوطانهم، وذلك بعد عـودتهم من القدس، وفي الحقيقة أحصينا في السنـة التي كنا فيها هناك— في يـوم الاربعاء من اسبوع الفصح— وجود ثمانين سفينة في المينـاء، وذلك إلى جانب السفينة التي تدعـى «باص Buss »التي جئنا على متنها مبحـرين إلى هنا ثم بها عدنـا، ويصدف الانسان على الطـريق الـذي يقود من القـدس إلى عكا، مـن خلال الأمـاكـن المتقـدمة الـذكـر، عـدداً كبيراً من المدن المهجـورة، والقلاع، مما كان قد دمره فاسباسيـان وتيتوس، ويرى أيضاً قلاعاً حصينة جداً عائدة للداوية وللاسبتارية.

٤١ — *الكنيسة الصغيرة القائمة في البقعة التي يرى منها الحجاج القدس للمرة الأولى. قرية ماهوميريا (البيرة) وكنيسة القديسة*

مريم. قرية أخرى. شكيم أو نابلس. المسلمون.

هناك على بعد ميلين من المدينة المقدسة، وعلى الطرف الشمالي كنيسة صغيرة في مكان يمتلىء فيه الحجاج ببهجة عظيمة، لدى رؤيتهم للمرة الأولى المدينة، وقد اعتادوا على وضع صلبانهم أرضاً، وعلى خلع أحذيتهم، وعلى السعي بتواضع للوصول إلى الذي تلطف من أجلنا بالقدوم إلى ها هنا فقيراً ومتواضعاً، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك توجد قرية كبيرة يدعوها المعاصرون باسم ماهو ميريا، وبجوارها أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة مريم، وكذلك صليب كبير منحوت من الحجر، وهو قائم فوق سبع درجات، ويصعد الحجاج هذه الدرجات، ومن هناك يبصرون برج داود، لكن ليس بدون تنهدات، ذلك أن برج داود— كما سلف بنا القول— يقوم على جبل صهيون، على مسافة تزيد على الأربعة أميال، ولم أعد أتذكر الاسم القديم لهذه القرية، وعلى بعد ثمانية أميال من هناك، توجد قرية أخرى كبيرة، وتقوم فوق جبل مرتفع، وينحدر الانسان منها عبر ممر وعر إلى سهل جميل وخصب، ويوجد فوق جبال أخرى مدينة حصينة جداً، عرفت في الأيام الخوالي باسم شكيم— أوشيكار— غير أنها تعرف الآن باسم نابلس، أو المدينة الجديدة، ولدى عبورنا لهذا الطريق صدفنا حشداً من المسلمين معهم ثيران وحمير من أجل فلاحة السهل الكبير والجميل، ومن عادتهم عندما يقومون بأي عمل من الأعمال، إصدار صرخات مدوية مثل أصوات الرعد، وقد أنزلت هذه الصرخات بين صفوفنا رعباً عظيماً، ويقطن في الحقيقة أعداد من المسلمين هناك في أرجاء البلاد، وكذلك في المدن وفي القلاع وكذلك في القرى، ويتولون فلاحة الأرض في ظل أمان حصلوا عليه من ملك القدس، أو من الداوية، أو من الاسبتارية.

٤٢— شكيم ثانية. بئر وكنيسة يعقوب. قابيل وهابيل. بطمة راحيل. بيت إيل أو لوزة. جبل جرزيم وعيبال.

تقوم مدينة نابلس المتقدمة الذكر في السامرة، وفيها الكثير من الينابيع والأنهار والكروم وأشجار الـزيتون، وأشجار من مختلـف الأنواع، ذلك أن تربتها خصبة ومستغلة زراعياً بشكل ممتاز، وعندماجاء مولانا يسوع إلى ها هنا، ولأنه كـان منهكاً بسبب سفره، جلـس إلى جانب نبع، حيـث تكلم مع امـرأة سامـرية، ويقوم البئـر الذي جلس إليـه مولانـا الآن على بعد نصف ميل من المدينـة، وهو قائم أمام المذبح في كنيسة بنيـت فوقه، وفي هذه الكنيسة راهبات يتعبدن الرب، ويعرف هـذا البئر باسم بئر يعقوب، وهو واقع في الأرض التـي منحها لابنه يوسـف، وقد هدمت هـذه المدينة في إحدى المرات مـن قبل أبنـاء يعقوب، الـذين قتلـوا أميرها شكيـم بن عمور الجتي، لأنـه ضاجع أختهم دينا، وتقع هـذه المدينة بين دان وبيت إيـل، وفيهـا صنع يـربعـام ملـك إسرائيـل عجلين مـن الذهـب، وضـع أحـدهما في دان والآخـر في بيت إيـل، ويـوجـد على مقـربة مـن شكيـم جبلين، قدم على واحد منهما قابيل قرباناً إلى الرب من ثمار الأرض الجافة والمهجورة، وعلى شاكلته قدم هابيل قربـاناً إلى الرب كان فيه أسمن ما في قطيعـه، وكثيراً مـن ثمار الأشجار ومـن مختلـف أنـواع الفواكـه بكميـات كبيرة، وإلى شكيم جلبت عظـام يوسف من مصر، وعلى مقربة منـه توجد البطمـة التي خبـأت أمـه راحيل تحتهـا الأصنام التـي سرقتهـا من أبيهـا لابان، وعلى بعد ميل مـن هناك باتجاه الشرق تقوم بيت إيل، التـي كانت تعرف من قبـل باسم لوزة، فهناك جـرت حادثة محاولة إبـراهيم التضحية بابنـه إسحق، وهناك أيضاً، رأى يعقـوب وهو نائم، ورأسـه على صخرة، سلماً يصل إلى السماء، والملائكـة يصعدون عليـه وينزلـون، والرب نفسـه واقف فـوقه، وعلى مقربة مـن هناك يرى الانسـان جرزيم، وذلك مقـابل جبل عيبال، الذي منـه أصدر موسى الأمر القاضي بـأن الناس ينبغي أن يباركوا أو أن يلعنوا وفقاً لما يستحقونه.

٤٣ـــ السامرة أو سبسطية. كهف هيليسيوس وعوبديا. ضريح

الأنبياء السبعين.

وعلى بعد ستة أميال من هناك تقع السامرة، وهي تدعى أيضاً باسم سبسطية، ويدعوها المعاصرون باسم القديس يوحنا، وهي قائمة على جبل حصين، مع أنه غير مرتفع، ومنها نالت منطقة السامرة اسمها، وتعطيها خرائبها العظيمة مظهر مدينة، وهي غنية بتربتها، وفيها وفرة من الكروم وجميع الفواكه، وفي هذا المكان دفن حواريو القديس يوحنا المعمدان جسد معلمهم، وذلك بعدما قطع رأسه من قبل هيرود الأصغر في قلعة مكرونتا، وقدمه هدية لفتاة رقاصة، ويقال بأنه أحرق فيها بعد من قبل يوليان المرتد، وحمل رأسه فيما بعد إلى الإسكندرية، ونقل من هناك إلى جزيرة اسمها رودس، وبعد هذا نقل إلى القسطنطينية من قبل الامبراطور ثيودوسيوس، زيادة على هذا جزء من ذراعه محفوظ هناك، وهو محط قداسة عظيمة، وقد دفن في كهف بين النبيين إلياس وعوبديا، وهو الكهف الذي أطعم فيه ذلك النبي مرة سبعين نبياً، وهم أيضاً قد دفنوا هناك، ويذهب الانسان إلى ذلك الكهف بوساطة خمس وثلاثين درجة.

٤٤— جينين. جرزيل. جبال جلبوع. بيسان. قلعة صفام. جبل حرمون. قلعة أخرى.

وعلى بعد عشرة من أميال تقع بلدة جينين، وهو المكان الذي بدأ منه السامرة، وعلى بعد خمسة أميال من جينين تقع جرزيل(زرعين)، التي تدعى الآن باسم:«أد كورسوم غاليناروم Ad cursum gallinarum»، وهنا كان يسكن نابوت الذي رجم بالحجارة من قبل يزابل المرأة غير التقية، وهي التي جعلها يهوه تنسحق فيما بعد تحت حوافر خيوله هناك، وإلى جانب جرزيل يقع سهل مجيدو حيث واجه يوشع ملك اليهودية الهزيمة ثم القتل على يدي ملك السامرة، ومن الممكن أن نرى هناك الكثير من الخرائب، وكذلك أهرام اسمه يزابل، وعلى ميل من جرزيل،

يمكن رؤية جبال جلبوع(فقوعة)، وعلى ميلين منها تقوم المدينة التي عرفت فيما مضى باسم بيسان«بيت الرب»، وهي تدعى في هذه الأيام باسم سكيزوبولس، ونقرأ أنه جرى تعليق رأس شاول وأولاده على سورها، عندما قتلهم الغرباء(الفلسطينيون) وفي جوارها بنى الاسبتارية، فوق جبل مرتفع، قلعة حصينة جداً وواسعة، حتى يتمكنوا من حماية البلاد من هذا الجانب من الأردن ضد الهجمات المباغتة لنور الدين، حاكم حلب، وهناك أيضاً على مقربة، في جهة الغرب قلعة للداوية اسمها صفام Sapham، وهي محصنة بشكل جيد لصد هجمات المسلمين، وخلف هذا، باتجاه البحر المتوسط، هناك جبل حرمون، الذي بنى الداوية عند سفحه، في الجهة الغربية قلعة ذات حجم كبير، وصنعوا في داخلها صهريجاً واسعاً، مع آلة دولابية لنضح الماء.

٤٥— *طبرية. المكان الذي اسمه المائدة. بحر الجليل. الجبل الذي اعتاد مولانا على إمضاء الليل فيه. بانياس أو بلنياس.«أر» و«دان». الأردن. سهل مزيريب. الوادي في الحقول.*

ويأتي خلف هذا أجمل الحقول وأكثرها خصباً، التي تقوم في نهايتها باتجاه الشمال، مدينة طبرية، وذلك على شاطىء بحر الجليل، حيث أشبع مولانا خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وثلاث سمكات، ولهذا السبب وإثره عرف هذا المكان باسم المائدة، ومن الممكن رؤية آثار المعجزة حتى هذا اليوم، وعلى مقربة أيضاً المكان الذي ظهر فيه الرب لحوارييه بعد قيامته، وأكل قطعة من سمكة، وقطعة من قرص عسل بحضورهم، وهنا في بحر الجليل حيث جاء مولانا يمشي على وجه الماء نحو حوارييه، وذلك في الهزيع الرابع من الليل، وذلك عندما مشى بطرس فوق الأمواج، وبدأ يغرق، فأخذه من يده وقال:«آه، أنت قليل الإيمان، لماذا شككت؟»، وهنا ثانية عندما كان حواريوه في خطر، فجعل البحر يهدأ، وقرب البحر نفسه، ليس بعيداً عن طبرية يوجد الجبل الذي

صعده، فرأى حشداً، وحيث غالباً ما جلس وخاطب تلاميذه والشعب، وعليه نفسه اعتاد أن يمضي الليل، وهنا أيضاً تلطف فقام بشفاء المجذوم، وعند سفح جبل لبنان، الذي هو حد الجليل باتجاه الشمال، تقوم مدينة بانياس، التي أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل فيليب طيطراخ إيطورية، ومنطقة طرخونية، وقد دعيت باسم قيسارية فيليب، وذلك كذكرى لاسمه(فيليب)، وأيضاً تمجيداً للقيصر تايبيروس، الذي حكم في ظله، وهذه المدينة تدعى باسم بلنياس من قبل المعاصرين، وقد استنقذت من أيدي المسلمين في سنة ١١٦١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، والذي تولى استنقاذها هم الصليبيون الذين أقاموا حصناً لشعبهم فيها، وفي هذه المدينة نبعين هما:«أر» و«دان»، وكل منهما ينبع ويتدفق منفرداً حتى جبل«جبل»، وهناك يشكلان الأردن، ويتدفق نهر الأردن — كما قلنا في فصول متقدمة — من جبال«جبل» إلى بحيرة إسفلت، وذلك في خلال واد يدعى«الوادي الكبير» أو«وادي المروج»، وهذا الوادي محاط من طرفيه بسلسلة متصلة من الجبال، وذلك امتداداً من لبنان إلى صحراء فاران، ويفصل مجراه الجليل عن أدوميا وبلاد بصرى، وبصرى هي العاصمة الثانية لأدوميا بعد دمشق، ويتدفق دان من منبعه تحت الأرض حتى سهل اسمه مزيريب(Medan)، حيث يظهر مجراه بشكل واضح تماماً، وتجتمع حشود لاتحصى من الناس في هذا السهل كل سنة عند بداية الصيف، ويجلبون معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويأتي معهم عدد كبير من الفرس والعرب لحماية الناس وحماية قطعانهم، ذلك أنهم يبقون في هذه الأماكن خلال الصيف، وبعدما يغادر«دان» هذا السهل، يمر خلال السواد، الذي مازال فيه تمثال يعقوب المبارك، وينظر إليه بقداسة من قبل السكان المحليين، ويجري من هناك باتجاه الجليل الإسلامية ثم إلى مدينة جدر(أم قيس)، ويمر بعدها بسهل الأشواك، حيث أماكن التطبيب، وتندمج(مياهه بمياه)«أر»، وإثر هذا يتدفق الأردن من بحيرة بعيدة عن بانياس، وبعدما

يمر فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم من خلال بحر الجليل، يصنع بداية جديدة.

٤٦— *بيت صيدا. جدر. كوروزين. كفر ناحوم. بيت أوليا. بحيرة جنسارث. مجدل. طبرية. جبل الطور.نين. عين دور.*

وبيت صيدا هذه هي التي جاء منها: بطرس، وأندرو، وجون، وجيمس بن ألفيوس، وعلى مسافة أربعة أميال من بيت صيدا تقوم كوروزين(قلعة الحصن)، التي يعتقد أن فيها ولد المسيح الدجال، لأن المولى قد لامهما بقوله:«الويل لك كوروزين، والويل لك بيت صيدا»، وعلى مسافة خمسة أميال من كوروزين تقع جدر، وهي مدينة جميلة، وهي التي قال عنها النبي في المزامير:«لقد سكنت بين سكان جدر»،وتقوم كفر ناحوم على جانب اليمين من البحر نفسه، وهي مدينة قائد المائة، الذي أقام مولانا ابنه من الموت، وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقع مدينة بيت صيدا، التي جاءت منها يودث التي قتلت هولوفيرنس، وعلى بعد أربعة أميال من طبرية، باتجاه الجنوب تقع دوثيم(خان جب يوسف)، حيث وجد يوسف أخوته، وعلى جهة اليسار من البحر نفسه، ويوجد في تجويف جبل، سهل جنسارث الصغير وذلك عند مخرج التجويف، وبما أن هذا السهل محاط من جميع الجوانب بالتلال، فإنه لايشعر بهبوب رياح فيه، ويقال بأنه يشكل رياحه الخاصة من تصاعد الأبخرة الخاصة به، وعلى بعد ميلين من جنسارث تقع بلدة المجدل، التي جاءت منها المجدلية، وتدعى هذه المنطقة باسم«جليل المسلمين»، وهي قائمة في دار سبطي:زبلون،ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هذا الجليل، توجد العشرون مدينة، التي يقال بأن الملك سليمان — كما جاء في سفرالملوك، قد أعطاهن إلى الملك حيرام، ملك صور، وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث، التي تدعى أيضاً باسم طبرية، والتي سلف وتكلمنا عنها، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب من طبرية، يقوم جبل الطور،

الذي ارتفاعه كبير، والذي عليه تغيرت هيئة مولانا يسوع المسيح بحضور حوارييه، وقد بني على هذا الجبل كنيسة رائعة، وقد كرست لمخلصنا، وفيها يتعبد رهبان الرب تحت سلطان راعي دير، ويقال بأن الاحتفال بأول قداس قد تمّ في هذه الكنيسة، وعلى تخوم هذا الجبل إلتقى ملكيصادق كاهن الرب العلي الأعلى، وملك سالم، بإبراهيم وهو عائد من قتل أبيمالك، وقدم إليه الخبز والنبيذ، وعلى ميلين من الطور تقوم مدينة نين، التي عند بابها أقام مولانا ابن الأرملة من الموت، وفوق نين يقع جبل عين دور، الذي انتصر عند سفحه، على شاطىء نهر كدوميم — الذي هو نهر قيسون(نهر المقطع) — باراق بن أبينوعم على يبين ملك الأدوميين، وذلك بعد أخذه بنصيحة النبية دبورة، وطارد أيضاً سيسرا قائد جيوشه كما وقام بمطاردة ذئب Zeb وزئبي Ze-bee(زبح)وسلمانا، ملوك الإسماعيلية، والهجارين، والعمالقة، والعمونيين عبر الأردن، ولدى عودته من مطاردته لهم وجد سيسرا نفسه قد قتل من قبل ياعيل زوجة حابر القيني، وبوساطة وتد خرق صدغه حتى الأرض.

٤٧— الناصرة. كنيسة القديسة مريم وكهف البشارة. قبر يوسف. مكان ولادة مريم المباركة. المعجزة التي تمت عند نبع جبرائيل. مكان الرمي نحو الأسفل.

على بعد أربعة أميال من الطور، وباتجاه الشرق، على الطريق الذي يقود إلى عكا، تقوم مدينة الناصرة الأكثر مجداً، التي فيها الكنيسة المبجلة،والتي تتمتع بشرف كونها كنيسة كاتدرائية، برئاسة أسقف، وهي مكرسة لسيدتنا مريم المباركة، وينزل الانسان من جهة البروز القائم على اليسار، حوالي أربع عشرة درجة، إلى كهف تحت الأرض ، حيث يوجد في نهايته الشرقية صليب صغير مرسوم على الأرض تحت مذبح، وهو يشير إلى المكان الذي أبلغ فيه الملاك جبرائيل سيدتنا بالرسالة حول المسيح، وعلى جهة يسار هذا المذبح، أي إلى الشمال منه، هناك زوجها يوسف،

الذي تـولى تربية المخلـص، وهو مدفـون هناك، ومبنـي فوقه مـذبح، وفي جهة اليمين، أي في الجانـب الجنوبي، هناك مكـان مع صليـب صغير قد رسم على الأرض، وقـوس من فوق، فهـا هنا خـرجت أم الرب مـن رحم أمها لـدى ولادتها، ويتحدث النـاس جميعاً حـول معجزة رائعـة اختصت بها هذه المدينة، أنـه كلما حاول الكفار مهاجمتها، أصيبوا بـالعمى أو بداء من هذا القبيل، يأتيهم من السماء، ويرغمهم على التراجع، وهناك نبع في هذه المدينة يتدفق نحو الأمام ويندفع من خلال ما يشبه فم أسد مصنوع من الرخام، ومـن هذا النبع غالباً ما اعتـاد الطفل يسوع على نضح الماء وأخذه إلى أمه، ويحكى بأن هذا النبع يستمـد أصوله من الحوادث التالية: عندمـا جاء الطفـل يسوع في إحـدى المرات لينضح الماء مـن الصهريـج انكسر إبريقه بوساطة رفاقـه أثناء لعبهم، ونضح هو الماء وحمله إلى أمه في داخل مئـزره، وحيث أنها رفضـت أن تشرب من الماء، لأنـه بدا لها أنـه لم يجلبه بشكـل نظيف بما فيـه الكفايـة، قام وهـو مغضب بصـب الماء من مئزره فـوق الأرض، ونبع الماء من المكـان الذي مايـزال يتدفق منـه، وهو المكان الـذي انصب مـا كان في مئـزره عليه، وعلى ميـل إلى الجنوب مـن الناصرة المكـان الذي يـدعى بـاسم:«مكـان الرمـي نحو الأسفـل»، لأن اليهود رغبـوا في رمي المسيـح أرضاً، عنـدما مـرّ من وسطهـم، ومضى في سبيله.

٤٨— صفورية. قانـا الجليل. قلعة الداوية. عكا. الطـريق الذي يقود مـن هناك إلى القدس عبر الجبـال. والطريق الـذي يقود إلى القدس على طول شاطىء البحر.

تقع الصفوريـة على مسافة ميلين من الناصرة، وهي مـدينة محصنة على الطريـق إلى عكا، ومنهـا جاءت حنة المبـاركة أم أم المسيـح، وعلى أربعة أميال من النـاصرة، وميلين من صفورية باتجاه الشرق، تقوم قـانا الجليلة، التي منهـا جاء فيليـب وناثائيـل،وفيها أيضاً حـول مولانـا الماء إلى نبيذ،

وأيضاً هناك على بعد ثلاثة أميال من صفورية على الطريق إلى عكا، قلعة قوية جداً وحصينة تابعة للداوية، وعلى بعد أكثر بقليل من ثلاثة أميال، تقع عكا نفسها،ويدعى الآن هذا الطريق الذي يجري من عكا،ومن خلال الناصرة، والسامرة،ونابلس، إلى القدس، باسم الطريق الأعلى، أما الذي يجري من عكا ومن خلال قيسارية واللد، إلى القدس، فيدعى باسم طريق البحر.

٤٩— دمشق. حوران. السواد. تيهان. نعمان. أرفات. حماه.صفرنئيم. نهر يبوق. جبل سعير.المكان الذي تحول فيه شاول إلى بولص. نهرا فرفر وأبانا. سهل أركاس. أنطاكية.

تتصل العربية بأدوميا في منطقة بصرى،وأدوميا هي مقاطعة في سورية، ودمشق هي المدينة الرئيسةفي أدوميا، وهي المدينة التي بناها اليعازر خادم إبراهيم في الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل،(وعاش)فيما مضى في دمشق عيسو، وسعير، وأدوم، وتبعاً لذلك عرفت تلك البلاد باسم أدوم، ويدعى قسم منها باسم حوران، ومنها جاء المبارك يعقوب، وجزء آخر اسمه السواد، جاء منه بلداخ السوادي، وفي هذه المقاطعة نفسها تقع مدينة تيهان، التي جاء منها علفت(علفز) التيهاني، وهناك أيضاً مدينة نعمان التي جاء منها زفر النعماني، وأرفات(أرواد أوتل أرفاد) وحماة، وصفر نئيم (الصرفند)مدن تابعة لدمشق، ويجري في بلاد أدوميا، وعلى بعد ميلين من الأردن نهر (مخاضة) يبوق، وبعدما قطعها يعقوب في طريق عودته من بلاد الرافدين، تصارع مع ملاك، فغير اسمه من يعقوب إلى اسرائيل، وفي بلاد أدوميا جبل سعير (حرمون)، الذي عليه تقوم دمشق، وعلى ميلين من دمشق، المكان الذي صعق المسيح فيه شاول، ثم أنهضه باسم بولص، جاعلاً منه صديقاً بعدما كان عدواً، ومعلماً للحق ومنفذاً له، وعند سفح جبال لبنان ينبع فرفر (العاصي) وأبانا (نهر القاسمية)، وهما نهرا دمشق، حيث

أن أحـدهما ، وهـو أبـانـا، يجري في سهـل أركـاس، ويصب في البحـر المتوسط، وإلى هذه الأماكن عاد يوستـا خيوس المبارك ليعيش بعد فقدانه لـزوجته ولأولاده، ويجري فـرفر خـلال سـورية إلى أنطـاكية، حيـث يجري تحت أسوارهـا، ثم ينصب في البحر المتـوسط على بعد عشرة أميـال منها، وذلك في ميناء سـوليم Solim ، (السويديـة) الذي يعرف باسـم ميناء القـديـس سمعان، وحصـل القـديـس بطـرس في هذه المدينـة على تـاج البطريركية، وهي ماتزال بطريركية.

٥٠— فينيقيـة. المطرانيـات. المصيصـة. أنطـاكية. طـرابلـس أو طورسولت. جبلة. بيروت. التمثال الرائع هناك.

يفصل لبنان فينيقية عـن أدوميا، ومدينة صور هي المدينـة الرئيسية في مقـاطعة فينيقيـا، التـي يقال بـأن سكانها مـن السريـان رفضوا استقبـال المسيح عندمـا سار على شاطىء البحر، مـع أنه هو نفسه قد قـال بأنه لم يرسـل لانقاذ الخراف الضالة مـن بني اسرائيل، والمدن التاليـة هي المدن المسـورة العظيمـة القـائمـة على شـاطـىء البحـر في سـوريـة، ذلـك أن مقاطعتـي فلسطين واليهودية تحت سلطـة الصليبيين وكذلـك: المصيصة، وأنطاكية، وطـرابلس، التي تدعى مـن قبل المعاصرين طـورسولت -Tur solgt ، ومدينـة جبلة التـي تمتلك قلعة حصينـة جداً، والمدن هـذه هي مدن سوريـة المجوفة، ويلي هذه المدن باتجاه الجنوب على شـاطىء البحر، مدينـة بيروت، التي يـدعوهـا المعاصرون بـاسم بـاروت Baruth ، وهي مـدينـة حصينـة وغنيـة وواسعة، وكثيرة السكـان، وفيهـا قـام اليهـود فيما مضى، وهـم أعداء صليب المسيح، فصلبـوا تمثالاً له، ظانين أنهم بـذلك يوجهون إهانـة إليه، وبعدما فعلوا هذه الفعلة النكـراء، مثلما فعل آباؤهم للمسيـح على الصليب — حتـى أنهم قلـدوهـم فطعنوا طـرف التمثـال برمح — وهنا تدفق الدم والماء، مثلما تدفـق من المسيح عندما علق فوق الصليب، ولقـد أضافوا ذنباً إلى ذنـب بجمعهم ماتدفـق في وعاء، وتجرأوا

على تحدي الرب، غير أن الرب القدير حوّل شرهم إلى خير، ولقد امتلكوا أسباباً لكراهيته أكثر، لولا أن مؤثرات فضائل الرب نتجت عن ذلك، حيث أنهم دهنوا أطراف بعض المعوقين بالدم نفسه، وهنا رأوا أن جميع الذين دهنوهم بهذا السائل المقدس، قد استردوا على الفور صحتهم، فما كان منهم إلا أن لووا رقابهم نحو الإيمان المسيحي واعترفوا به، وهذا التمثال محتفظ به حتى الآن بمثابة أثر مقدس في كنيسة المدينة، وهذه الكنيسة سامية المكان لأنها الكنيسة الكاتدرائية للبابا.

٥١— صيدا. الصرفند. صور. قلعة اسكندرية. قلعة إيمبرت. عكا والقلاع الأخرى القائمة على ساحل البحر.

تقع صيدا على بعد ستة عشر ميلاً عن بيروت، وهي مدينة جليلة، منها جاء ديدو الذي أسس مدينة قرطاج في أفريقيا، وتبعد الصرفند ستة أميال عن صيدا، التي عرفت أيضاً باسم صرفند الصيداويين، وفيها أطعمت الأرملة النبي إلياس، وفيها أقام الرب بوساطة النبي نفسه ابن الأرملة من الموت، واسم ابن الأرملة هذا يونه النبي، وعلى بعد ثمانية أميال من الصرفند تقوم مدينة صور، التي هي قائمة على ساحل البحر، وتتفوق صور على جميع المدن الأخرى بقوتها وبأبراجها وبأسوارها، وهذه المدينة مربعة في شكلها، ولها مظهر جزيرة، ذلك أن حوالي ثلاثة من أطرافها محاطة بالبحر، أما الطرف الرابع فهو شديد التحصين، بالخنادق، وبالسواتر الدفاعية، وبالأبراج، والأسوار، والشرافات، وفتحات الرماية، ولها مدخلان فقط محروسان ببوابات رباعية وبأبراج على الطرفين، وهي مدهشة ومتميزة مثل عكا، لأنها تمتلك ميناءً مزدوجاً، ففي الميناء الداخلي ترسو سفن المدينة، وترسو في الخارجي سفن الغرباء والأجانب، ويوجد بين الميناءين برجين بنيا من مجموعة ضخمة من الحجارة، وهما داخلين في البحر، وفيما بينهما الطريق أو الباب عبر سلسلة ضخمة مصنوعة من الحديد، وعندما يغلق هذا الباب يجعل الدخول أو الخروج

مستحيلاً، لكن المجاز يصبح ممكناً عند الفتح، وهذه المدينة مشرفة لأنها مقر أسقف، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك توجد تقوم قلعة اسكندرية، التي من خلالها تجري المياه التي تنبع فوقها، وتتدفق لتصب في البحر في ذلك المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك قرية واسعة يدعوها المعاصرون باسم قلعة ايمبرت، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك نأتي إلى عكا، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقوم حيفا القديمة والجديدة، وعلى بعد ستة عشر ميلاً منها تقوم قيسارية فلسطين، التي بنيت مع الميناء المتصل بها بشكل فخم من قبل الملك هيرود، وأيضاً على مسافة أربعة عشر ميلاً منها تقوم يافا، التي لها ميناء خطر للابحار أثناء هبوب الرياح الجنوبية، ووراء هؤلاء بانتظام تأتي غزة، وقلعة عسقلان الحصينة جداً، وهؤلاء جميعاً قد جرى وصفهم من قبل، وجميع هذه المدن قائمة على ساحل البحر، وهم جميعاً مدن واسعة ومحاطة بالأسوار.

وقد استقينا هذه الرواية عن الأماكن المقدسة، التي ظهر فيها مولانا يسوع المسيح بالمظهر الجسدي، حيث أخذ نفسه شكل عبد من أجلنا، ورتبناها وصنفناها، اعتماداً على مارأيناه بأنفسنا من بعض الجوانب، ومن جوانب أخرى مما سمعناه من روايات موثوقة رويت عن رجال آخرين، وقمنا بهذا على أمل أن يثور في عقول الذين سوف يقرأونها أو يسمعونها حبه من خلال معرفتهم الأماكن التي تقدم وصفها.

رحلة حج يوانس فوقاس
في الأرض المقدسة
(في سنة ١١٨٥)

استهلال

لاحظنا فيما تقدم أن معظم الرحالة الذين زاروا فلسطين في أيام الحروب الصليبية، قد قدموا من الغرب الأوربي، أي كانوا من أتباع الكنيسة اللاتينية، ومن المقدر أن لجميع الرحلات مكانة عالية لمؤرخ الحروب الصليبية، فالمواد التي فيها وثائقية، وإذا كانت الغاية التي أعلن عنها الصليبيون من الارتحال إلى فلسطين هي الحج، نستفيد من الرحلات — فيما نستفيد — في دراسة طقوس الحج وتطورها أيام الحروب الصليبية، ولدى امتلاكنا لتقرير رحالة غير لاتيني، نقارب وقتها بين الطقوس اللاتينية والطقوس الأرثوذكسية ونقارن، لنعرف هل الخلافات بين الكنيستين قد وصلت إلى هذا الجانب؟.

والرحلة القصيرة التي نقدمها الآن كتبها رجل دين إغريقي أرثوذكسي اسمه يوانس فوقاس، وقد ولد يوانس في جزيرة كريت، وكان اسم أبيه متى، وقد التحق هذا الأب بالعمل الديري، أي صار راهباً، ومات في جزيرة باتموس Patmos ، وخدم يوانس في سن شبابه في جيش تحت قيادة مانويل كومينوس، وأورد في الفصل / ٢٤ / ذكر إسباني عجوز« الذي مارس لسنوات طوال تقدمت حياة الزهد والتأمل فوق صخرة قرب بحر أضاليا، حيث تحدثت أنا شخصياً إليه عندما كنت أخدم تحت لواء إمبراطورنا الرائع كومينوس بروفيروجنتوس»، وغالباً ما أشار إلى هذا الامبراطور نفسه في كتابه، وقد تزوج وأنجب ولداً ذكراً، لم نستطع التعرف إلى اسمه، وقد سلك فيما بعد مسلك أباه فصار راهباً، وقد زار الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥، وقد أمكن جمع هذه المعلومات من هامش مخطوطة رحلته، ونقرأ على هذا الهامش العبارة التالية:«رواية كتبها الكاهن جون، المقدس جداً فوقاس، الذي مارس العمل الديني في جزيرة باتموس، وذلك حول ما رآه في الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥» وقد كتب في بداية الكتاب العبارة التالية:«أنا ابن فوقاس الكريتي كتبت هذا، باسم....».

وصف مختصر

كتبه

يوانس فوقاس

للقلاع وللمدن من مدينة أنطاكية حتى القدس، وكذلك لسورية ولفينيقية وللأماكن المقدسة في فلسطين

١— هل يتوجب علي أنا الذي تمتعت برؤية الأماكن المقدسة، وأبصرت المناطق التي تجلى فيها الرب بشخصه في إحدى المرات، وذلك عندما جلب شعبه اللاجىء وأخرجه من مصر بوساطة موسى مع شارات ومعجزات، وبقوة جبارة صعق الأمم وحكامها: سيحون ملك العموريين، وعوج ملك باشان، وجميع ممالك كنعان، ومدّ ذراعه فغرس هناك شعباً غريباً، زاد من تعداده، حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وهذه الأماكن هي التي قدسها بالتجسيد المقدس لابنه الوحيد المنجب، وبإنجاز أعمال إعجازية متجددة بنا؟،وسبب سؤالي، هو أنني وحدي قد تمتعت بهذه المباركة، وقلدت سلوك النهم في تعامله مع الطعام، فأين يمكن أن نجد مثل ذلك السلوك المستقيم واللطف الأخوي، التي ظهر بحب أحدنا للآخر، وبذلك عّبرت الألطاف الخاصة في الطبيعة البشرية عن ذاتها، وبناء عليه، أرى من واجبي، بحسب ما أمتلك من قدرة، أن أحاول تصوير البلاد بالكلمات، وكأنها مرسومة على خريطة، وأن أقوم بشكل غير مباشر بتقديم الأوصاف كتابة لطلاب الدين، أي أوصاف الأماكن التي رأيتها بأم عيني مباشرة، وسيبدو عملي هذا عملاً عابثاً بالنسبة للذين رأوا هذه الأماكن، لأنه إذا كان الهدف من كتابتي هو تقليد المشاهد الحقيقي، عندها سوف تكون جميع التشبيهات أدنى من الأصل، ومن الواضح وقتها أنني سوف أمنحهم سروراً أقل مما ترسخ في أعينهم، فماذا إذن سيكون هدف كتابي ؟ يخيل إليّ أن الأشخاص الذين

لم يروا قط هـذه الأماكن الرائعة بـأعينهم، بل تواجهوا بشكـل متكرر مع الإشارة إليها، سوف يتعلمون بتمياز أكبر بوسـاطة كتابي، وأكثر من التعلم من الـذين تحدثـوا عنهم دون القيـام بتحديـد الذي هـم عليه، وينبغـي أيضـاً أن نكون قـادرين على تقـديم المزيـد من السرور حتـى إلى الذيـن رأوهم، وذلـك إذا ما راق لهم الإصغاء إلى روايـات حول ما سيكـون من الممتع رؤيته.

٢— تقع مدينة أنطاكية الربانية على ضفاف نهر العاصي، وهي تشتهر بمسارح واسعـة، وبأعمدة جميلة، وبكثير مـن المعابد، وبأعـداد كبيرة من السكان، وبـوفرة من الثراء، ولهذا تفـوقت بمجدها على كـل مدن الشرق تقريباً، وإنما أطفأت الأيام مع أيدي البرابـرة ازدهارها، ومع ذلك مايزال بإمكانها أن تفخـر بأبراجها وبدفاعـاتها القوية، وبتدفق مياههـا الساحر، وبتوزع هـذه المياه، أثناء جـريان النهر بكل لطـف، ليقوم بالانتشـار هناك والإحـاطة بـالمدينة، والـدوران حول أبـراجها واحتضـانها بشكل رطـب، وبـالإضاقـة إلى هذا، تتـزود بشكل مـدهش بـالمياه بـوساطـة أنهر صغيرة تتدفـق من نبـع قصطليا(بيت الماء)، الـذي تندفع ميـاهه بقـوة، وتسيل عبرعـدد كبير من الأقنيـة في جميـع أرجاء المدينـة، وتـرويها بـالمياه وذلـك بفضـل الأعمال الواسعـة، وذلك خـلال الجبال إلى المدينـة، وتقع خـارج الأسوار ضاحية دفني المشهورة، المزينـة بحدائق فيها جميع أنواع الأشجار، وبالجبـل الرائع الذي سكنـه سمعان الـرائع، وقرب هذا الجبـل أي جبل طوروس(أمـانوس) شعـاب جميلة بحث فيهـا قوم في العصـور الخوالي عن الرب ووجـدوه، وبين هؤلاء في هذه الأيام الـذين صانوا أرواحهـم، وهم يسكنـون في المنـاطـق الأكثـر كثافـة في هـذه الجبـال، ويتمتعـون بجمالها ويفتتنون، وينبع نبع بيـت الماء بين تلتين، وينعطف مجراه على طول سفح التل الذي هو الأقـرب إلى البحر، حيث يتدفق بشكل مفـاجىء بكميات مدهشة من الماء، ورأينا هناك رواقاً يغطـي النبع، حيث يتدفق الماء بوفرة،

فينقسم إلى نهرين، ويتم نقل مياه أحدهما بوساطة أقنية عالية، وبذلك صار نهراً هوائياً، ويصب من الأعلى في المدينة في جهة اليمين ويجري الفرع الآخر على الأرض في الجهة اليسرى من النبع، ويصب في المستنقعات، وبعد سقايته جميع مرج دفني، يلتحق بنهر العاصي من جهة اليسار، والجبال القائمة بين المدينة والبحر رائعة وذات منظر جميل، ومن الممتع جداً النظر إليها، لأن تخومها تصل إلى المدينة وإلى أرسوز، وتتصل هذه الجبال من جهة أخرى بجرف رأس الخنزير كما وتتصل من الجهة الثالثة بالرابية التي تدعى جبل الأقرع، ويجري نهر العاصي وسط عدد لايحصى من المروج ويرويها، ويلتوي حول قاعدة هذا الجبل، وبعد هذا يصب مياهه في البحر، وعاش على ذروة هذا الجبل رجل عظيم حياة تأمل، وحلق بقلبه، وحلق بجسده أيضاً، وبذل جهوده كي يطير في الهواء هو وجسده، فتعلق في منتصف الطريق فيما بين الرب والانسان،أما كيف تهيأت هذه الحياة الغريبة لهذا الرجل المقدس، فهذا ما سوف أشرحه لكم، فقد تمكن بأعمال الحجارين من حفر قمة هذا الجبل الرائع، وصنع بذلك من صخرة صماء حية، ونحت وسطها عموداً طبيعياً وقد اتخذ موقفه فوقه، ووضع قدمه على صخرة، حسبما جاء في الكتابات المقدسة، وبنى كنيسة جميلة اتجاهها نحو الشرق، وهي مكرسة للرب، وفيها اعتاد أن يجمع تلاميذه: وبذلك كان يبقى خارج الأبواب، ويمضون هم الليل بطوله في داخل الكنيسة، ويتعبدون الرب، وبذلك صاروا قديسين.

٣— والتالي لهذا ولمدينة أنطاكية هي مدينة اللاذقية، وهي مدينة عظيمة وكثيرة السكان، وهي أيضاً قد فقدت عظمتها، ويليها جبلة، أو«زبله»، ويلي جبلة قلعة اسمها أنطرطوس، أو طرطوس، وعلى هذه الصورة تقوم قلاع متنوعة على الساحل حتى طرابلس، وهناك في داخل البلاد سلسة جبلية عظيمة، يسكنها قوم يدعون«الحشيسية»، وهم من

الأمة المسلمة، لكنهم لايأخذون لا بالمسيحية ولا بعقيدة محمد(ﷺ)، إنما يعبدون الله وفقاً لهرطقة خاصة بهم، ويدعون المقدم بينهم باسم سفير الرب(شيخ الجبل)، ويتولى الذين يذهبون بناء على أوامره إلى حكام البلدان الكبيرة، قتلهم بالسيف، ويقفزون عليهم وهم غير متيقظين، ويهلكونهم فور إنجازهم لأفاعيلهم، وبعدها يقاتلون وهم قلة ضد حشد، وذلك بعد تنفيذهم لجريمتهم، ويعدون هذا بمثابة شهادة تجعلهم مخلدين.

٤— ويلي سلسلة الجبال هذه جبال لبنان، التي هي جبال جميلة جداً، وعظيمة الشهرة في أسفار العهد القديم، وهي أيضاً جبال ضخمة جداً، مغطاة بثوب من الثلج، المتدلي فوقها مثل جدائل الشعر، وتنمو فوقها بكثافة أشجار الأرز، والصنوبر، والسرو، وهي مزينة أيضاً بكميات هائلة من الأشجار المثمرة من مختلف الأنواع، والطرف الموازي للبحر مسكون من قبل المسيحيين، في حين يقطن المسلمون في الجانب المتجه نحو دمشق والعربية، ويندفع من شعابها وتجاويفها الكثير من الأنهار نحو البحر، وهي فائقة الجمال وباردة جداً عندما يأخذ الثلج بالذوبان، فيجعل الأنهار التي يصب فيها شديدة البرودة، وتقوم مدينة طرابلس عند سفوح هذه الجبال، التي بناها مؤسسها فوق شبه جزيرة، ذلك أن هناك نتوءاً، تفرع من جبل لبنان وامتد في داخل البحر على شكل لسان، ويرتفع هذا اللسان كثيراً في نهايته الشرقية، وعلى ذروة هذه الأرض المرتفعة وضع مؤسس المدينة أساساتها، وهذه المدينة صغيرة جداً بالنسبة لمساحة الأرض التي تشغلها، لكنها جديرة بالإعجاب بالنسبة لارتفاع أسوارها وجمال أبنيتها.

٥— وتأتي بعدها جبيل، وبعدها بيروت، التي هي مدينة واسعة وكثيرة السكان، ومن حولها سهول خصبة، وهي مزينة بميناء جميل، وهذا الميناء ليس ميناءً طبيعياً، وهو قد صنع بشكل فني، وهو يحتضن المدينة

على شكل هلال، وقد توضع عند النهايتين الأخيرتين للهلال برجان عظيمان على شكل قرنين، ويمتد من أحدهما إلى الآخر سلسلة تمنع السفن من الدخول إلى الميناء، وهذا المكان قائم على الحدود ما بين سورية وفينيقيا.

٦— ويأتي بعد هذا صيدا، والميناء المزدوج فيها، الذي أعجب المؤرخ(آخيل تاتيوس Achilles Tatius)فوصفه في(الكتاب الأول من روايته كليتوفون Clitophon)و ليوسيبي Leucippe، لأنك إذا ما زرت المكان مع مرساه، ومرساه الخارجي سوف تجد حقيقة متوافقة مع الوصف الذي قدمه في كتابته، وفي خارج المدينة وعلى مسافة حوالي ثلاث رميات سهم تقوم كنيسة، محاطة بأعمدة ذات طول كبير، ويوجد فوقها شرفة توضعت عليها صخرة ذات جوانب أربعة، يقول العامة بأن المسيح المخلص للعالم اعتاد أن يقف عليها، ويعلم الحشود.

٧— وتقوم قلعة الصرفند بعد صيدا، وقد بنيت فوق شاطىء البحر، ويوجد في وسط المدينة كنيسة مكرسة للنبي إلياس، وقد بنيت فوق موقع البيت ذي النافذة، الذي قدم له الضيافة.

٨— وتأتي مدينة صور بعد هذا، وهي المدينة التي تفوقت بجمالها على جميع مدن فينيقيا تقريباً، وهي مبنية مثل مدينة طرابلس فوق شبه جزيرة مشابهة، لكنها ذات حجم أكبر منها بكثير، وتمتلك أبنية أكثر جلالة وجمالاً مما هو موجود في طرابلس، ويقارن مرساها الخارجي ويشبّه بمرسى بيروت، مع أنهُ متفوق عليه بالحجم وبالجمال، وكذلك بارتفاع برجيه ، ويوجد خارج المدينة وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، صخرة عظيمة جداً، جلس عليها، تبعاً للتقاليد، المسيح عندما بعث إلى داخل المدينة الحواريين المقدسين: بطرس ويوحنا، لشراء خبز، وقد مضيا وجلبا الخبز، ثم توجها معاً مع المخلص إلى نبع مجاور، يبعد حوالي الميل، حيث جلس المخلص أرضاً، وبعدما أكل مع الحواريين وشرب من الماء، بارك النبع،

وصدقاً لقد بقـي النبع أعجوبة لانظير لها حتى هذا اليـوم، ذلك أنه ينبع وسط مـروج هناك، وهو يـدهش عابـري السبيل ويبهجهم، ويقـال أيضاً أنه لاقعر لـه، وعمارته وشكله هو وفـق مايلي: فالذيـن عملوه أولاً صدوراً عن الحب، تـولوا بناء هذا النبـع وأحاطوه ببرج ثماني الشكل، وقـد رفعوه إلى علو منـاسب، وبعـدما بنـوا الزوايـا على شكل فتحـات لتدفـق المياه، عمروا أقنية رفعوها فوق قناطـر عالية، وبذلك أرغموا الماء على الانصباب فوق المروج الموجودة تحت كل فتحة، وكأن هـذه المياه صادرة عن أنبوب، وتنصب الميـاه بصوت مرتفـع، وتتولى سقـاية جميع المروج الموجـودة حول النبع بكميات وافـرة من المياه، والذي يقـف فوق هذا البرج، مثل وقـوفه فوق بـرج حراسة، يمكنه رؤيـة النباتات الكثيفـة تحته، مع سقايـة حقول القمح بشكل متواصل حتى وقت الظهيرة.

٩— وبعد هذا تقوم عكا، التي هـي مدينة واسعة، وكثيفة السكان إلى حـد جعلها تتفـوق على جميع البقيـة، وهـي تستقبل جميـع سفن التجـار، وإليها يقدم جميع الحجـاج الذين قدموا من أجل المسيـح سواء بالبحر أو بالبر، ومنهـا يقلعون، وقد فسـد الهواء هنا بسبـب التدفق الهائل للغـرباء، ولهذا انتشرت مختلـف أنواع الأمـراض، التي غـالباً مـا تؤدي إلى وفيـات متتـاليـة بينهم، مما ينجـم عنـه روائح نتنـة، وفسـاد للهواء، وسـوء حـظ للمدينة لاعلاج له، ويوجد على جهـة اليمين منها الكرمل، وشاطىء بحر جميع بلاد فلسطين، وتحتوي المناطق الواقعة على اليسار: الجليل والسامرة.

١٠— والمكـان الأول الذي يلي عكـا هو الصفـورية، وهـي مدينـة في الجليل، خاليـة من السكان تقريبـاً، وليس فيها ما يشير إلى ازدهـارها فيما مضى، وتأتي بعدهـا قانا، وهي موقع حصين وصغير، فهـذا حالها في هذه الأيام، وهنا حـوّل مخلصنا الماء إلى نبيذ، ونقدم بعدها إلى مـدينة الناصرة، التي بنيت في قعر وديان، قادمة مـن هضاب متنوعة، وتقف في وسطها في المكان الذي شهد معجزة عظيمة، حين أعلن رئيس الملائكة جبرائيل إلى

العـذراء أم الرب، وذلـك مـن خلال رحمة الـرب العظيمـة والثمينة عـن صنعه مـن أجل خـلاصنا المسيح ربنـا جسدياً، وتجد لـدى دخولـك من الباب الأول لهذه القـرية الكبيرة، كنيسـة جبرائيل رئيـس الملائكة، ومـن الممكن أن نرى هنـاك كهف صغير على طرف اليسار للمـذبح الموجود في الكنيسـة، ينبـع فيه مـاء يتـدفـق، ويجري على شكل نهر شفـاف، فهنـاك اعتـادت أم الرب الطـاهرة على القـدوم يـومياً ونضـح الماء، وذلك أثنـاء إعطائها من قبـل الكهنة إلى يوسف البار، ولدى إقـامتها في بيته، وتلقت في الشهر السـادس(من الحمـل) بالرائد(يـوحنا المعمـدان) الضمة الأولى مـن قبل جبرائيـل، وذلك أثنـاء نضحهـا للماء، كما جرت عـادتها، ولأنها ارتعبت كثيراً، عادت وهي ترتجف إلى بيت يوسف، حيث سمعت الملاك يقول:«سلام لك أيتها المنعم عليها» فأجـابته بقولها:«هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك»، وبناء عليه تلقت كلمـة الرب في رحمها الطاهر، وجرى بعد هذا تحويل بيت يوسـف إلى كنيسة جميلة ويوجد على الجانب الأيسر من هناك كهف، ليس مفتوحـاً في بطن الأرض، بل على وجهها، وفم هذا الكهف مـزين برخـام أبيض، وفوقـه رسمت يـد رسام ملاك مجنـح نازل، قدم التحيات إلى العـذراء أم الرب وحمل إليها البشائر الطيبـة، وكان هذا الرسـام قد وجـد عملاًجنـائزياً في قبر، وهو قطعـة منسوجـة بالإبـرة، وقد رسمه وكـأنه كان يتحدث إليهـا، غير أن العذراء، ارتعبت بسبب الـرؤيا غير المتوقعة، واستدارت حول نفسها بكـل سرعة، وأسقطت من يديها كل شيء حتى الـلآلىء، وكانـت ترتجف وقد تـركت حجـرتها بسبب خـوفها، وقابلت امـرأة كانت قريبتها وصـديقة لها، وعانقتها بتحيات صـداقة، ثم إنها دخلت داخـل فم الكهـف، الذي تنـزل إليه بعـدة درجات، ووقتهـا تشهد بيت يـوسف القديم، الـذي فيه حسبما قلت من قبـل أعلن رئيس الملائكـة البشائر الطيبـة إلى العذراء عنـدمـا عادت مـن البئر إلى البيـت، ويوجد في البقعة التي وقعت عليها حـادثة الإعلان صليب قد نحت من صخرة سـوداء فوق رخـام أبيض، وفـوقها مـذبح، وعلى جهـة اليمين من

المذبح يمكن رؤية حجرة صغيرة، فيها اعتادت العذراء الدائمة أم الرب، أن تعيش، وعلى جهة اليسار من مكان الإعلان من الممكن رؤية حجرة صغيرة أخرى بلا نافذة، تقول مصادرنا المقدسة بأن المسيح ربنا قد قطن فيها بعد العودة من مصر حتى قتل يوحنا المعمدان صبراً، فوقتها — تبعاً للروايات المقدسة — عندما سمع بأن يوحنا قد تعرض للخيانة، ترك الناصرة، وسكن في كفر ناحوم، ويلي هذا سلسلة مكونة من تلال متنوعة، بينها مكان منحدر، إلى أسفله عزم اليهود على رمي مولانا، غير أنه عبر من بين وسطهم وذهب إلى كفر ناحوم.

١١ — ويوجد خلف سلسلة التلال هذه سهلاً كبيراً، ويقوم هناك على مقربة من التلال جبل الطور، وهو جنة الأرض، وبهجة النفس، والسرور لكل ذوي الإيمان الصحيح، لأن هناك رعاية ربانية خاصة تظلله، وترسل نفحات النعمة الروحية، وهو هضبة مستديرة، ذات ارتفاع معتدل، يوجد على ذروتها ديرين، فيهما يعيش المسيحيون الذين نذروا أنفسهم إلى حياة الرهبنة، وينشدون رحمة الرب في مختلف اللغات، ويسكن في الدير الذي تغيرت فيه هيئة المسيح من أجل خلاصنا عدد من الرهبان اللاتين، والمكان الواقع إلى جهة الغرب من ذلك المكان المقدس، قد تقدس بالحضور المقدس للناصريين من كنيستنا، وقد وقع حادث التغيير المبارك لهيئة المسيح على قمة الهضبة، حيث يقوم الدير اللاتيني، وفيه يقع المذبح فوق المكان الذي تغيرت فيه هيئة الرب بين إلياس وموسى، وبين ثلاثة من نخبة حوارييه هم: بطرس ،ويوحنا، وجيمس، وهذا المكان محاط بسياج نحاسي،ومن الممكن أن نرى فوق المكان الذي وقفت عليه قدما مولانا حلية بارزة بيضاء ناصعة جداً، وقد حفر عليها شكل الصليب المقدس، ويفوح منها رائحة طيبة لايمكن وصفها، وهي تبهج مشاعر الذين يزورونها، وعلى بعد رمية حجر خارج الدير هناك كهف صغير، دخله المسيح بعد تغييرهيئته الرائع، وأمر

حوارييه بعدم إخبار أي إنسان بما رأوه حتى يقوم من الموت، ويوجد باتجاه الجانب الشمالي من الجبل كهف ملكيصادق، وهو جدير بالرؤية، لأنه حفر بأفواه عدة، ويوجد فيه تحت الأرض وفوقها غرف وأماكن للإقامة متنوعة، وحجيرات تستخدم بمثابة أماكن إقامة للزهاد، حيث أمضى عدد كبير من كبار القديسين حياتهم الزاهدة، وإلى جانب الكهف هناك كنيسة بنيت فوق المكان عينه الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم لدى عودته من القتال، وباركه وجعله ضيفه، وإذا ما نظرت من هذه الهضبة باتجاه الشرق، سوف ترى سباخ الأردن وأقنيته، وهو النهر المبارك بين الأنهر، وإذا ما مددت بصرك أبعد سوف ترى أقساماً من لبنان، مما يتجه نحو الشرق، وهضبتين عظيميتين بينهما بنيت دمشق، وإذا ما حولت بصرك قليلاً إلى يسار الأردن، فسوف ترى بحيرة طبرية بشكل واضح وبدون أية مصاعب، ويظهر على الجهة المقابلة أرض مرتفعة قليلاً، فهناك بارك مخلصنا الأمواج، وأطعم الخمسة آلاف، وبعد القيامة أكل مع حوارييه، وذلك بعد سحب المائة والثلاث وخمسين سمكة، وعلى الطرف الشمالي للهضبة نفسها، هناك سلسلة أخرى من الهضاب تحيط بالسهل على مسافة تقارب الاثنتي عشرة غلوة أو حتى أكثر، وتقوم في داخل الدائرة مدينة نين، حيث بعث المولى ابن الأرملة من الموت، وباتجاه الجانب الشرقي من المدينة نفسها يمكن رؤية مكان اسمه عين دور، وفيما بين الطور ونين وعين دور يجري نهر قيشون، الذي عنه يقول داود: «افعل بهم كما بمدين، كما بسيسرا، كما بيابين في وادي قيشون. بادوا في عين دور» (المزامير: ٨٣ / ١٠ — ١١).

١٢— وعلى مسافة سفر يوم واحد من هناك تقوم مدينة سبسطية، التي أعاد هيرود الطيطراخ عمارتها على شرف قيصر، وفيها أيضاً قطع هيرود الأصغر رأس المبجل يوحنا المعمدان، الذي لم يكن هناك قط من هو أعظم منه بين من ولدتهم النساء، وكان ذلك في وسط احتفال، وفي

وسط هذه المدينة هناك سجن ألقي فيه بسبب انتقاداته للهيروديين، وفيه قطع رأسه، وهذا السجن سجن تحت الأرض، ويقود إليه عشرون درجة هبوطاً، ويوجد في وسطه مذبح قائم فوق المكان الذي قطع فيه رأسه من قبل الجندي(سبكولاتور Speculator)ويوجد على جهة اليمين من هذا المذبح نعش، وضع فيه جسد زكريا المقدس، وهو والد الرائد(يوحنا المعمدان)، وهناك في الجهة اليسرى نعش آخر تمدد فيه جسد إليزابث المقدسة، التي هي أمه، وأودع كل جانب من جوانب السجن بقايا قديسين وحواريين للرائد(يوحنا المعمدان) ويقوم فوق السجن كنيسة قد وضع فيها نعشين، وقد عملا من رخام أبيض، يحتوي أحدهما — وهو الموجود في جهة اليمين — رماد جسد المبجل الرائد(يوحنا المعمدان)، في حين يوجد في الآخر جسد النبي إلياس، ويوجد فوق في وعاء ذهبي اليد اليسرى للرائد، وهي مغطاة من كل جانب بالذهب، وتقوم في وسط الجزء الأعلى من المدينة رابية، عليها قام في العصور القديمة قصر هيرود، حيث فيه جرت الحفلة، وفيه رقصت تلك الفتاة الخبيثة، وتسلمت رأس المعمدان جائزة لرقصها، وعلى كل حال صار المكان في الأيام الحالية، ديراً رومانياً، وكنيسة هذا الدير مغطاة بقنطرة، وهناك على الجانب الأيسر من المذبح حجيرة صغيرة، يوجد في وسطها ترصيعة من الرخام، موضوعة في قعر حفرة عميقة، فيها تمّ اكتشاف الرأس المقدس والمبجل للرائد، وذلك من قبل الملائكة، حيث كان قد دفن هناك في ذلك المكان من قبل الهيروديين.

١٣— ويلي هذا بعد رحلة تقارب الخمس عشرة غلوة Stadia شكيم، التي هي المدينة الرئيسة للسامرة، والتي دعيت فيها بعد باسم نابلس، وهي قائمة فيها بين هضبتين، وقد وضعت أساساتها على الأجزاء المنخفضة لكل منهما، وامتدت لمسافة معتبرة، وعلى هذه الجبال، أي على جهة اليمين(جرزيم)، هناك — وفقاً لروايات السامرة — تكلم الرب

مـع إبـراهيـم، وطلـب منـه التضحية بـاسحـق، وهنـاك أيضـاً — وفقـاً لتقاليدهم — حقق التضحية، وعلى كـل حال هم لايعرفون عما يتكلمون لأن الجبل المقصود هو جبل الجلجلة المقدس، الذي عليه عانى المخلص آلامـه من أجـل خلاص العـالم، وعند سفـح هذه الهضبـة المكان الـذي أعطاه يعقوب لابنه يوسف، وهناك أيضـاً بئر يعقوب نفسه، حيث جلس الرب عندما كـان منهكاً وتكلم مع المرأة السامريـة، وذلك حسبما جاء في الانجيل المقـدس، وقرب الهضبة نفسها قـالت المرأة للرب«تعبد أبـاؤنا في هذا الجبـل»، وعلم الـرب الناس جميعـاً بحديثـه معها، كيـف أن الذيـن يتعبدون بروح وبصدق حق لهم التعبد.

١٤— ويلاحظ أن المسـافة من السامرة إلى المدينة المقـدسة هي خمس وعشرون غلوة Stadia، والطريق كله مرصـوف بالحجارة، وعلى كل حال هـذه المنطقـة كلهـا جـافـة وبـلا مـاء، ومـع هـذا هـي مليئـة بـالكـروم وبـالأشجار، وتقـوم المدينـة المقدسـة وسـط وديـان وهضاب، وعلى هـذا منظرهـا رائع، لأنه في الوقـت نفسه تظهر المدينـة عالية ومنخفضـة، فهي عاليـة عندمـا تقارن بمنطقـة اليهوديـة، غير أنها منخفضة عنـدما تقـارن بالهضـاب المرتبطة بها، وينشطر هذا المكـان المقدس إلى شطريـن: المدينة المقدسة، التي هي مبنية على الجزء المنخفض من الرابية من جهة اليمين، ويصل إطـارها حتى الوادي، والجزء الأعلى، مـن هذا المكان مغطـى كله بالكروم، وهنـاك جرى رجم ستيفن، رائد الشهـداء، وإلى يسار هذا، وعلى الجانب الآخر من الوادي، يقوم جبل الزيتـون، حيث غالباً ما أحب الرب أن يتمشى، وقـد قدس المكـان كله بصلـواته، وبتعليمـه، وأخيراً بصعوده الرائع إلى الأب، ويقع صهيون المقدس أمام المدينة المقدسة، ويمتد باتجاه طرف اليمين منهـا، ووصفها هو كما يلي: هنـاك قلعة، فيها كنيسـة صهيون المقـدسة، التـي هي أم الكنـائس، وهـذه الكنيسة ذات حجـم كبير، ولها سقف مقنطـر، ويجد الداخل إليها مـن الأبواب الجميلة التي هـي هناك،

على جهة اليسـار، بيت القـديس يـوحنا الإنجيلي، ففيـه سكنت العـذراء المثلثة البركات، بعد القيامة، وهناك أيضاً توفيت، ويوجد في ذلك المكان حجيرة صغيرة، محاطة بسياج حـديدي، وعقدتين ترصيعيتين فـوق البقعة التي سلمـت فيها روحها إلى ابنهـا وإلى الرب، ويوجـد على جهة اليمين من الكنيسـة، وكذلك على جهة اليمين مـن المذبح، حجرة علويـة، يقود إليها سلم فيه ستين درجة، ولهذه الكنيسـة أربعة أقواس وقبة، وعلى جهة اليسار من الحجرة العلـوية من الممكن رؤية المكان الـذي تم فيه العشاء الأخير للرب، وفي البروز الموجـود هناك نزلـت الروح القدس على الـرسل، وجـرى في القسم الأسفـل من هـذه الكنيسـة غسل (أقـدام الحواريين)، ومقـابلها تـوجد كنيسـة قـائمة في مـوقـع البناء الـذي دخله المسيـح إلى الحواريين، مع أن الأبواب كانت مغلقة، وهنـا دفن الرائد الشهيد ستيفن بعد رجمه، وقـد نقل مـن قبل جمالئيـل إلى مكان آخـر، ويقوم في الجانـب الشمالي من المدينة البرج الـذي يدعى برج داود، وهو بـرج كبير جداً، ومع أن جميع النـاس الذين يسكنون في القـدس يعلنون أن هذا البرج هـو برج داود، يبدو لي أن هناك أسباباً معقولـة للاعتراض على هذا، لأن يوسفيوس أخبرنا بأن هـذا البرج قد بني بوساطـة رخام ملمع أبيض، هـذا ويلاحظ وجود كل من هذا البرج والكنيسة، ثـم هناك البرجين الآخرين اللذان بنيا فيما بعد مـن قبل هيرود، وأطلـق عليهما اسمي فـازليس Phaselis ، ومريمـن، ويبدو مـع هذا أن البرج (بـرج داود) قد بنـي بحجارة عـادية، ولعل البرج الـذي نراه في الأيام قـد بني فوق أساسـات برج قديـم جداً، ويـوجد قـرب هذا البرج بـاب يقود إلى المدينـة، وهو إذا مـا دخلت منـه سوف تتـابع سيرك عبر شـارع عريض، يقـوم فيه على جهـة اليمين، قرب القصر الملكي مشفـى القديـس سابـا، وإذا ما تـابعت سيرك حـوالي رمية سهـم على طول الشـارع سوف تجد كنيسـة الضريـح المقدس المشهـورة، ومظهرهـا مثلما جرى وصفـه من قبل العـديد مـن الكتاب، والقبـو الذي يقوم مقـام ضريح جسد الرب هـو مضاعف، ففي الجزء الأول منـه هناك

الحجرة التـي أزيحت، وأبعدت (عن فم الضريـح)، وهي محفوظـة بغلاف من الرخـام الأبيض، ويوجد في الجزء الآخـر، وفي الجانب الشمالي صخرة منحوتـة مرتفعـة قرابة الـذراع فوق الأرض المرصوفـة، فهناك مـدد الجسد العـاري لمانح الحيـاة، وهو الآن كما يشـاهد مـزيـن من حـوله بـالذهـب الخالـص، بفضـل حـب وإيمان مـولاي ومعلمـي مـانـويـل كـومينـوس البروفيجنتوس، وبوساطتـه، وعلى مقربة منها موقع الجلجلـة، حيث مكان الجمجمـة، والحفـرة التي عملـت داخـل الصخـرة من أجـل الصليـب، والصـدع في الصخـرة، وهـو الصـدع التـي حـدث أثنـاء الآلام فـوق الصليـب، ويوجـد تحت الصدع مكـان مجوف في الصخـرة، فيه جمجمـة آدم، وبقـايا دم ربنـا الذي تلطخـت به عنـدمـا سفك فـوقها، وتتشكـل الكنيسة التـي بنيت فوق الجلجلـة من أربعة أقـواس وقبة، ويوجـد قرب هذه الكنيسة كنيسـة واسعة تحت الأرض، ففيها جرى اكتشـاف الصليب المبجل للمسيـح ربنا والمانح للحياة، ويـوجد باتجاه الجانب الشرقـي من المدينـة كنيسة، هـي قدس الأقـداس، وهذه الكنيسـة فائقـة الجمال، ولها سقف مقنطـر، وهي قـائمة فوق الأسـاس القديـم لهيكل سليمان الشهير، وهي مـزينة مـن كل مـن الداخل ومـن الخارج بالـرخام المتعـدد الألوان وبـالفسيفسـاء، ويـوجـد على الجانـب الأيسر لهذه الكنيسـة قـاعتين مقنطرتين، رسـم في إحداهن تقـديم مولانـا المسيح، لأنه في هـذا المكان تلقى سمعـان الرجل البـار مولانـا المسيح بين ذراعيه، ورسـم في الأخرى السلـم الـرائع الذي رآه يعقـوب، يصـل إلى السماء، مـع ملائكـة الـرب يصعدون عليه وينزلون، وتحت صورة السلم هذه من الممكن رؤية الحجر الذي وضـع يعقوب رأسه عليه، ويـوجد على جهة اليمين فتحـة تقود إلى كهف تحت الكنيسة، فيـه دفن النبي زكريا، الذي قتلـه اليهود — وفقاً لما جـاء في الانجيـل — بين الهيكـل والمذبـح، وهنـاك في خـارج الكنيسـة ساحـة كبيرة مبلطة، هـي — كما أظن — أرضية الهيكـل القديـم، وقرب الباب الـذي يؤدي إلى جيسماني المقدسـة توجد كنيسـة القديس يـواكيم

والقديسة حنة، وفيها تمت ولادة العذراء الطاهرة، وعلى مقربة من هناك تنبع مياه«البركة الواقعة قرب باب الضأن».

١٥— وبعد هذا، وفي خارج المدينة، باتجاه الجزء الشرقي، وفي وسط ما يشبه الوادي العظيم هوة تقسم جبل الزيتون وتفصله عن المدينة المقدسة، وهناك يقع موقع اسمه جيسماني، فيه قبر سيدتنا العذراء الأعظم قداسة، مع الحديقة التي غالباً ما استراح فيها مخلصنا مع حوارييه، وهناك أيضاً ثلاث كنائس أيضاً، القصوى منهن موجودة على اليسار، وهي قائمة في مكان منخفض تحت الأرض، تحتوي على القبر المبارك للعذراء، وهذه الكنيسة طويلة جداً، مع سقف نصف مقنطر، ويقف القبر في وسط الكنيسة، وهو يشبه منبر، قد عمل من الحجر، وذلك على شكل مبنى مؤلف من أربعة أقواس، وعلى الجهة الشرقية منه ما يشبه الفراش، المعمول من الصخرة نفسها، وهو مزين برخام أبيض، ففوقه جرى تمديد الجسد الطاهر للعذراء المباركة من قبل الرسل، وذلك بعد جلبه من صهيون، وفوق هذه الكنيسة هناك كنيسة أخرى، هي عبارة عن كهف، فيه تلفظ الرب بدعائه، وازداد نوم الرسل عمقاً،ونام، وتقوم الكنيسة الثالثة عند سفح جبل الزيتون، وذلك على مسافة رمية حجر، فهناك — تبعاً لما يخبرنا به الانجيل — قام مولانا، بعد توجيهه اللوم لحوارييه بسبب كسلهم، بحمل نفسه ثانية على الصلاة، ووقتها تصبب العرق منه مثل قطرات من الدم، وحدثت في هذه الحديقة حادثة الخيانة، وقبّل يهوذا خداعاً معلمه، وقام الرعاع من اليهود بالامساك به بشدة، وفي الجهة المقابلة من الحديقة، وفي الجزء الأعلى منها، في مقابل صهيون، هناك كنيسة، وتحتها كهف، دخل إليه بطرس بعد نكرانه(للمسيح)، وبكى بمرارة، وتوجد هناك صورة للرسول في حزنه،وفوق جيسماني وكنيسة دعاء الرب، من الممكن رؤية جبل الزيتون، وهو مفصول — كما قلت من قبل — عن المدينة المقدسة بوساطة وادي

شعفاط، ووادي البكـاء، والمكان — بناء عليـه — هو هضبـة، هي أعلى قليلاً مـن المدينة، تبـدو ليست واسعة جـداً، عندمـا ينظر إليهـا من اتجاه المدينة، لكن عنـدما تنظر إليها مـن اتجاه الأردن وبيت عنيا تبدو بـالفعل مـرتفعة كثيراً، ذلـك أنها تأخـذ بالارتفـاع بشكل لطيـف من الصحـراء، وعلى قمة الجبل المكان الذي غالباً ما تحدث فيه مخلصنا مع حوارييه بعد قيامتـه، وحيث صنـع فيها بعد معجـزة صعوده التـي هي الأعظـم سمواً، وقرب هـذا المكان، في القبـو في الأسفل، من الممكـن رؤية المكـان الذي أمضت فيـه القديسة بيـلاجيا جهادها التـأملي، وحيث يستريح جسـدها المبارك في داخـل نعش حجـري، وقرب هذا هنـاك كنيسة أخـرى، حيث أعطى مولانا حـوارييه دعاء«أبانا الذي»، ويـوجد على الجانب الأيسر من المدينة، دير هـو للرهبان اللاتين، قـد بني — كما قيل — فوق أسـاسات دير قـديم، كان قـد تأسس مـن قبل ميلين Melaneشهور،وأمـــام هذا الجبل، وخلـف المدينة، على طريق قـدومك من السـامرة، يوجد ديـر(دير كفـر جمالا) إليـه جلب جمائيـل الجسـد المبـارك والمقدس للـرائد الشهيـد المبارك ستيفن بعد رجمه بالحجارة، وتمدد في المكـان الذي ذكرناه من قبل، ويستمـر الـوادي الـذي يبـدأ مـن جيسماني حتى ديـر القـديـس سـابـا، وصحراء روبا، التي تقوم حول البحر الميت وسدوم.

١٦— خلف جيسماني مبـاشرة، وعلى مسافـة لاتزيـد عن رميـة سهم، يقوم بناء يـدعى«الكتل Kettle (عمود أبسالوم)، قـــد بني فوق صخرة، وله شكل ربـاعي، وهو مرتفع، حوالي رمحين، كما أعتقـد، وهو متدرج على شكل هرمـي من القاعدة حتـى القمة، ويوجد فيـه راهب إيبيري يعيش حيـاة عزلـة، وهو يعمـل في سبيـل خلاصـه الشخصي، ويلي هذا هضبـة عظيمة، فيهـا عدد متنـوع من الكهـوف الاصطناعيـة، حملت اسمهـا من اسـم العـذراء، وهـي مسكـونـة مـن قبـل عـدد ضئيـل مـن الـرهبـان الأرثوذكس، وبعدد كبير من الرهبان الأرمـن واليعاقبة، ويتسع الوادي بعد

هذا عند المكان الذي فيه وادي النـواح، ويلي هذا حقل الفاخوري الذي شري بثمن مولانا لـدفن الغرباء فيه، ويلي هذا بركة سلـوان، التي تتدفق مياههـا فوق جميـع تلك المنطقة الجافـة، وخلف هـذه يمكن رؤيـة مروج ذوات مساحات ضيقة وذلك في الجزء المنبسـط من الوادي، وفيها أشجار نـامية هنـاك، أما النبـع نفسه فمحـاط ومزيـن بأقـواس وبعدد كبير مـن الأعمـدة، ويمتد هـذا الـوادي — حسبما قلت — حتـى ديـر القديـس سابا، مسافـة أحد عشر ميلاً، ويتسع الوادي فيشكل فجـوة واسعة جافة، فيها من الممكـن رؤية: الدير، والكنيسـة، وضريح القديس، ويـوجد أمام الـدير، على جـانبـي الوادي، كهـوف وأبراج صغيرة، مسكـونـة من قبـل الذيـن تخلوا عن الدنيـا وعن مباهجهـا، من أجل مملكة السماء، فهـم قد تحملـوا حر الـدنيا الـذي لايحتمل، وأطفـأوا بـوسائل إطفـاء النار، الـذي لايطفأ، وينشطر الوادي، في البقعة التـي تقوم عليها الكنيسة مع قبر الأب المقدس سابا، الذي ألهم من قبل الـرب، إلى ثلاثة أقسام، ويصبح عميقاً جداً، وقد بنى القديس أبراجـاً على حافته، وبنيت الكنيسة في وسط هذه الأبراج الكبيرة، وعمل الـذين من حولها هـذه الحجيرات الصغيرة للعبادة والتأمـل، وذلك حسبما جاء في الـرواية التي تحدثت عـن حياته الـرائعة، وهـذه الكنيسة مليئـة بما هـو هام، ذلـك أنها واسعـة، وطـويلة، ومشبعـة بالضوء، وبـلاطها مزين بالرخـام الذي مع أنه منخفض التكـاليف، لأنه جلـب من القفـار، قـد صنع بشكـل غريـب ، وهنـاك في واجهة المعبـد سـاحة مبلطـة، وفي وسطها ضريـح أبانـا الكبير سابـا، وهو مـرتفع فـوق سطح الأرض حوالي القـامة، ومزين بألـواح من الرخام الأبيـض الناصع، وفي القرب، ومن حول هذا، وتحت الأرض، يمكن رؤية قبور الآباء الذين أشـع نـورهـم في الفيـافي، وبين هـؤلاء الشـاعـريـن القـديمين: س.س.كوزماس، ويـوحنا(الدمشقي)، ويوجد هنـا حوالي الأربعين رجلاً من الملهمين، وهم أعظم من سواهـم بكثير، بينهم ستة قد تحادثوا مباشرة مع الرب، وأسماء هـؤلاء: ستيفانوس، وثيودوروس، وبولص، وجـاء الرابع

بينهم من ميجالبوس Megalopols ، والخامس إسباني، والسادس هو يوانس العمودي، الذي هو واسع الشهرة بين الناس لنفاذ بصيرته الروحانية.

١٧— وإذا ما عدت إلى المدينة المقدسة، ليس من خلال الوادي بل عبر الشعاب الجبلية المجاورة، من مسافة ستة أميال عنها، سوف تجد دير أبانا المقدس ثيودوسيوس الكانوبيارخ Coenobiach (خربة ديـــر ابن عبيد)، وكان هذا الدير محاط بأنواع من الأبراج، وعلى حوالي رمية سهم من أمامه توجد القاعة، التي فيها — حسبما نقرأ في ترجمة حياته — انطفأ فحم كان قد اشتعل في يد القديس، وتقوم في وسط الدير، وفوق أرض مرتفعة، الكنيسة، التي لها سقف مستدير، والتي تحتها كهف، يوجد فيه ضريح القديس، ومتصل به عدة غرف، ترقد فيها آثار قديسين كبار، وعندما تنزل على الدرج إلى هذا الكهف، سوف تجد على جانبه مدخل كهف آخر، دخل إليه الحواري القديس باسيليوس، وبناء على طلب هذا القديس، قام باختيار قبره — حسبما جاء الخبر في تراجم حياة الآباء — وتمدد ميتاً هناك، وشوهد بعد ذلك لمدة أربعين يوماً ينشد تراتيل في وقت القداسات مع القديسين والأخوان.

١٨— وفي مقابل الدير المتقدِّم الذكر، وقليلاً باتجاه اليمين، وفي عمق قفار الأردن يوجد دير القديس يوثيميوس Euthymius الكبير(خربة مرد)، وهو دير محصن بأبراج وبسواتر دفاعية عظيمة، وفي وسط هذا كله تقوم الكنيسة التي هي مثل الكنائس الأخرى لها سقف مستدير، ويوجد تحتها كهف، وفي وسط الكهف ضريح يوثيميوس الكبير، الذي يشبه آبدة سابا الملهم، ذلك أنه مغطى مثله بالرخام الأبيض، ومدفون هنا أيضاً آثار الأبوين المقدسين: باساريون Pasarion، ودومشيان Do-mitian.

١٩— ويوجد خلف هذا الدير فراغ فاصل مقداره اثني عشر ميلاً،

تجد بعده وادياً عظيماً، يتدفق في وسطه مسيل ماء، ويوجد على الطرف المقابل لهذا الوادي دير كوزيبيا(دير القلط)، وهو شيء لايصدق حين يوصف، وأعجوبة ملهمة حين تبصر، ذلك أن حجيرات الرهبان هي أبواب كهوف، أما الكنيسة نفسها مع المقبرة، فقد حفرتا داخل الصخر الأصم، ويسخن بالعادة إلى درجة عالية بوساطة أشعة الشمس، حتى أن الانسان يمكنه أن يرى فيه ما يشبه شكل الأهرام، من ألسنة اللهب المندفعة من الصخور، أما الماء الذي يشرب منه الرهبان فهو يتدفق من الحال الذي سنصفه الآن: هناك ما يشبه البركة ذات المياه الآسنة، وتسخن هذه بوساطة أشعة الشمس عند الظهيرة في منتصف الصيف، وتسخن سخونة كاملة بوساطة الأشعة النارية، ورأيت في هذا الدير عدداً كبيراً من الرجال المقدسين، كان أحدهم صانعاً للأعاجيب، وهو يتحدث مباشرة مع الرب، واسم هذا الشيخ لوقا، ومع شيء من الخطر تسلقت إلى هذا الدير، ثم نزلت منه وذلك بسبب كل من الشعاب الطبيعية للمكان، والحرارة الشديدة جداً للشمس.

٢٠ — ويأتي بعد هذا طريق طويل، وضيق، ووعر جداً، يقود إلى خلف القفار، التي قبل أن تصل إليها ترى في وسطها جبلين، يمر بينهما الطريق إلى أريحا، ولايوجد على هذا الطريق مكان مرصوف بالحجارة، لكن مع هذا من الممكن تقصي الخطوط العامة الباهتة لذلك، وفي هذه الأيام جميع المناطق المجاورة مليئة بينابيع المياه لاستخدام الديرة التي تأسست في القفار، لأن البلاد قد قسمت ووزعت بين هذه الديرة المقدسة، ولهذا صارت مشجرة بشكل جيد ومليئة بالكروم، وقد بنى الرهبان أبراجاً فوق حقولهم، وجنوا محاصيل غنية منهم، ويبدو مظهر جميع الصحراء، والأردن وبحر سدوم الميت، وذلك وفقاً لتقديراتي، شبيه كثيراً بمنطقة أكريس Achris (في إليريا أو مقدونيا) مع استثناء وحيد، هو أن الماء ينبع من بحيرة أكريس، ويروي كثيراً من الوديان

المجاورة، التي يـدعوها السكان بـاسم: «ستروغاس Strougas »، بينما يصب الأردن هنا في البحيرة، فضلاً عن هذا إن عرض القفار أكثر بمرات عدة من عرض سهل أكريس.

٢١— ويقـع على طرف اليمين للجبـل المزدوج، الـذي تحدثت عنـه، طـرف البحـر الميت ومـن خلفـه سيجـور، وخلـف هذه الصحـراء، مـن الممكن رؤية صحـراء روبا Ruba الكبيرة وذلك بعـد مايجتـاز الانسان بين ديرين، وأقصـد بهذا ديري القديس يـوثيموس Euthymius ، ودير الراعـي «اللورا Laura»، وعلى يسار الجبـال والطريق من الممكـن رؤية الرابية، التـي تعرض عليها مخلصنا بعـد صومه لمدة أربعين يومـاً لغوايتين من قبـل الشيطان، الـذي تراجـع مقهوراً ومجلـلاً بالعـار، وفي مقابـل هذه الرابيـة، وعلى مسافة، يمكـن أن أقول، تسـاوي ستة أميال، هنـاك كنيسة فوقها، حيث تشاور رئيس الملائكة ميكائيل مع يوشع بن نون.

٢٢— ولقـد بني على ضفـاف الأردن ثـلاثة أديـرة هـي: ديـر الـرائد (يـوحنا المعمـدان) ودير خـريسوسـتـوم Chrysostom. ، وكان ديـــــر الرائد قـد سوتـه زلزلـة بالأرض، وقـد أعيدت عمارتـه الآن كامـلاً باليـد الكريمة لإمبراطـورنا مانويـل كومينوس البروفيروجنتوس، المتـوج من قبل الرب، ذلك أنـه الأول بالاهتمام الفائق بأعمال إعادة البنـاء، وعلى مسافة حوالي رميتـي سهم مـن هناك يجري الأردن، وهو النهـر الأكثر قـداسة بين الأنهار، حيث فيـه قام مولاي يسوع المسيـح، وهو متمسك بالفقـر، بصنع الأسرار العظيمة لخلاصي بوسـاطة التعميد، وعلى ضفته، على مسـافة رمية حجر تقـريباً، هناك بنـاء مربع مقنطـر، وذلك حيث عـاد الأردن بمجراه، ليحتضـن الجسد العـاري للذي غطـى السمـوات بالغيـوم، وحيث اليـد اليمنـى للرائد (يـوحنـا المعمدان) وهـي ترتجف عنـدمـا لامست رأسـه، وحيث أيضاً الروح وقد نزلت على شكـل حمامة على الكلمة القريبة منها، وأخيراً حيث صوت الأب قدم الشهادة على أن المخلص هو ابنه.

٢٣— ويوجد بين دير الرائد (يوحنا المعمدان) والأردن رابية صغيرة هي رابية حرمون، حيث وقف عليها المخلص، وأشار بإصبع يوحنا المعمدان إلى الحشود، وذلك عندما أزال ذنوب العالم، وكان بين ديري الرائد ودير كالامون Calamon ، دير القديس جيراسيموس Ge-rasimus ، الذي أزالته وأزالت أساساته مياه الأردن، ولذلك لم يبق منه أي جزء مرئي، باستثناء القليل من بقايا الكنيسة، وقبوين، وعمود للتنسك، يعيش فوقه شيخ إسباني طويل القامة، وهو شخص لطيف جداً، ويستحق الاعجاب، حيث حصلنا من الحديث معه على كثير من الفائدة، ذلك أن النعم الربانية العظيمة مزينة لهذا الرجل، وإنني أرى من الضروري أن أتحدث إلى جميع الذين يهتمون بسرور بالأشياء الربانية، فعن طريق المعالجة صنعت معجزة من قبل هذا الرجل قبل زيارتنا له، ويوجد لدى دوامات الأردن وتعرجاته، كما هو متوقع، قطع أرض كثيرة متصلة بها، نمت فيها كميات كبيرة جداً من القصب، اعتادت أن تنمو هناك، وهذه الأقصاب مأوى للأسود، وقد اعتاد أسدان على القدوم كل يوم سبت إلى صومعة الرجل العجوز، حيث كانا يحكان رأسيهما، ويطلبان الطعام من خلال تعبيرات أعينهما، وكان الطعام يقدم لهما بكل سرور، ومن ثم يعودان وهما مسرورين، إلى مأواهما قرب تعرجات النهر، وكان طعامهما عبارة عن خضار مبللة بالماء، وخبز مصنع إما من طحين القمح أو من طحين الشعير، وحدث في إحدى المرات أنهما عندما قدما وطالبا بطعامهما المعتاد بحركات أعينهما، لم يكن لدى الرجل العجوز من الوسائل ما يرضي به هذين المخلوقين، لأنه حدث أن هذا الرجل المقدس لم يتسلم طعاماً لمدة عشرين يوماً، ولذلك قال لهما: «أيها الوحشان، بما أنني لا أمتلك أية امكانيات للتخلص من ضعف طبيعتي، ولا أي نوع من الطعام منذ عشرين يوماً، ولم أزود نفسي بالضروريات المعتادة، إنه بأمر الرب القادر بكل سهولة على تلبية حاجاتنا، أرى أنه من الضروري وجوب ذهابكما إلى نهر الأردن، وجلب قطع صغيرة من

الأخشاب، يمكنني أن أصنع منها بعض الصلبان الصغيرة، وإعطائها من أجل المباركة إلى الرجال الذين نذروا الحج، وبما أن كل واحد من الرجال من الممكن أن يعطيني بالمقابل بعض القطع النقدية الصغيرة، بهذه القطع ستتمكن من شراء بعض المؤن لكم ولي»، فهكذا تكلم، وأصغى الأسدان إليه، وتوجها نحو نهر الأردن، وكأنهما يمتلكان العقل، وبعد هنيهة، كانت المعجزة، فقد حملا جذعين من الأخشاب فوق رقبتيهما، ووضعاهما عند قاعدة العمود، ثم بادرا بالفرار إلى مستنقعات الأردن، وهذا يكفي، ودعونا الآن نتابع وصف الأماكن.

٢٤— وقد بني دير العمود أيضاً مع أبراج، وأسوار وقاية، وتقوم في وسطه كنيسة بنيت بالملاط القوي، وهي مغطاة بسقف مقنطر متوضع فوق أقواس اسطوانية، وهي متصلة بوساطة هذه الأقواس بكنيسة مقنطرة صغيرة جداً، ويوجد في البروز صورة للعذراء مع المسيح المخلص فوق ذراعيها، وهي تشبه بشكلها، ولونها وحجمها لوحة أياصوفيا في المدينة الامبراطورية، وهناك رواية قديمة بأنها قد رسمت بيد الرسول الانجيلي القديس لوقا، ومما يؤيد هذه الرواية ويدعمها المعجزات المتوالية التي تصنعها هذه الصورة، والروائح الذكية المنعشة التي تصدر عنها، ويلي هذا الدير، على مسافة خمس غلوات تقريباً دير خريسوستوم، وعلى بعد رمية سهم من هناك صومعة يعيش فيها رجل طويل حياة تأمل، وهو رجل اسباني، له عادات بسيطة، وكلام لطيف، كان قد مارس من قبل لسنوات طوال حياة التأمل فوق صخرة كانت قائمة قرب شاطىء بحر أضاليا، حيث كنت قد قابلته، عندما كنت أخدم في جيش الامبراطور المتألق جداً مانويل كومينوس البروفير وجنتوس.

٢٥— وخلف الأردن، في مقابل مكان تعميد مولانا، هناك الكثير من الشجيرات النامية، في وسطها وعلى مسافة قرابة الغلوة الواحدة، يوجد

كهف يـوحنا المعمـدان، الذي هو صغير جـداً، ولايمكنه استيعـاب رجل حسن البنيـة وهو منتصب على قدميـه، ومقابل هذا، في عمـق الصحراء، هناك كهف آخـر سكن فيه النبي إلياس عنـدما حمل بعيداً بوساطـة عربة نـارية، وفيما وراء هـذيـن الكهفين، وعلى ضفـاف الأردن، توجـد — كما يقـال — القفـار، التي رأى المبجـل زوسيمـوس Zosimus ، أنها لائقة للحياة الملائكية للسيـدة المصرية، وخلف الهضاب تقوم القفـار التي تقود إلى سيناء، ورأسـو Rhaetho والبحـر الأحمر، وهنا نهايـة حـديثي عـــن القفار.

٢٦— ويوجد على الطـرف الأيمن من مدينة القدس المقـدسة، باتجاه برج داود، هضبـة مغطاة بالكروم، وهنـاك فوق الجزء المنخفض منهـا دير للـرهبـان الاسبـان وُجدت في محيطـه — كما يقـال —شجـرة الصليـب الرائع، ومن هناك قطعت، وتبدأ خلـف هذا المنطقة الجبلية، وهي تسمية مناسبة جـداً، لأن الهضاب تغدو لغلوات عديدة منحـدرة وأكثر انحداراً، وعلى مسافـة حوالي الأربع عشرة غلوة مـن المدينة المقدسة يمكـن رؤية بيت زكـريا النبـي، لأنه بعد البشـارة للعذراء الطـاهرة، نهضـت وسارت مسرعة، وعانقت اليزابيث، التي قفز طفلهـا في داخل رحمها، وكأنه بقفزته يقدم التحيـة للسيدة، وتفـوهت السيدة بتلـك الأغنية النبـوية التـي هي محط الإعجـاب، وهنـاك قلعـة في هـذا المكان، وكنيسـة قـد بنيـت فـوق كهـف، ففـي النهـايـة القصـوى للكهف حـدثـت ولادة الـرائد(يـوحنـا المعمـدان)، وعلى مسـافة حـوالي رميتـي قـوس، فوق الجزء العلـوي مـن الجبل، هنـاك الصخرة التـي انشقت، واستقبلـت في داخلها أم المعمـدان مع ابنهـا وهو على ذراعيها، عندمـا كانت هـاربة، أثناء قيام هيرود بـذبح الأطفال.

٢٧— خـارج القـدس، وبين الطريقين، اللـذان يقـودان أحـدهما إلى المنطقة الجبلية والآخـر إلى دير وبيعة(القديـس سابا) هناك جبـل، وطريق

فوقه، يقود من جبل صهيون المقـدس إلى بيت لحم، وتقع مدينة بيت لحم على حوالي ستـة أميال مـن المدينة المقـدسة، ويقـوم في منتصف الطـريق بينها وبين المدينة المقـدسة دير النبي المقـدس إلياس، الذي كان قـد بُني من قبـل رجل ربـاني في عصور قديمـة جداً، غير أنه تهدم كليـاً بوسـاطة زلـزال، وعلى كـل حال جـرت إعـادة عمارتـه على يد المحسـن العـالمي، معلمي وامبراطوري، فقد رفعه من أساسـاته بناء على رجاء رجل سرياني، هو مقدم طائفتـه، ويشكل ضريح راحيل مثلثاً مع الـدير ومع بيت لحم، وقـد بني على شكـل مقنطـر، توضّـع فـوق أربعـة أقواس، وفي منتصـف الطـريق بين بيـت لحم، ودير الـراعي، يمكـن للانسـان رؤية حقـل، وفي منتصف الحقل هناك كهف، فيه سمع الـراعي المبارك، وهو يتولى الحراسة في الليل، الملائكة تـرتل وتغني قائلة:«المجـد لله في الأعالي، وعلى الأرض السـلام والخلاص للعالم»، وبنيـت مدينـة بيـت لحم المقدسـة فوق رابيـة صخرية، وفيهـا هناك الكهف المقدس والمزود، والبئـر الذي رغب داود أن يشرب منه، وكذلك مـن الممكن رؤية كنيسة طويلة جـداً، قد بنيت فوق قمـة الكهـف، وهـي ذات حجـم كبير، وعلى شكـل صليـب، مسقـوفـة بجذوع مـن الشجر غير قابلـة للتلف، وأخـذ السقف فوق المذبـح شكلاً حجرياً مقنطراً، وبنيـت هذه الكنيسة الجميلة جداً والواسعـة، أيضاً باليد الكريمة لامبراطوري المنقذ للعالم، الـذي زين أيضاً الكنيسة كلها بأعمال الفسيفسـاء الذهبيـة، وقـام الأسقف المسـؤول في هـذا المكـان، وهو ممـن يمارس الطقوس الـلاتينية، فوضـع في كثير من الأماكـن، ولاسيما في قدس الأقداس نفسه فوق الكهف المقـدس، صورة جميلة للامبراطور، ربما تعبيراً عن الشكـر له على كرمه، ووضـع كهف المزود والبئر هـو كما يلي: تقوم على الطرف الأيسر لقـدس الأقداس الفتحة المؤدية إلى الكهـف المقدس، وإلى جانب ذلك البئـر الذي رغب جدنا داود أن يشرب منه جسـدياً وروحياً، وقـد قام رجـلان كانـا يحتلان مكـانة عـالية لـديه بشـق طريقهما خـلال معسكر العدو،ونضحا الماء في دلو، وجلباه لإطفـاء عطشه، وقام هو بدوره

بعـ المشهور، بصب الماء وإراقته تشريفاً للرب وتمجيداً، الأمر الذي
ما :د أصداء شهرته في الخارج، وينزل الانسان من مدخل الكهف
إلى قعره بوساطة ست درجات، وعلى جانبه الشمالي يوجد النزل المقدس
الذي ولدت العذراء فيه بالمسيح المخلص، وبذلك صارت جميع
المخلوقات التي خلقها الرب بالجسد، والعالم كله، جديدين، وأنا العبد
الفاني، صرت غنياً بوساطة لاهوت ربي وخالقي الذي انتزع فقري
ووضعه على نفسه، وعلى بعد درجة تحت هذا من الممكن رؤية مزود
الحيوانات، الذي له شكل رباعي متساوي الأطراف، وهو الذي غطاه
القدماء برخام أبيض، وقد تركوا فتحة مستديرة في وسطه، من خلالها
يمكن رؤية جزء من ذلك المزود الذي حوى الواحد الأبدي، الذي هو
أوسع من السموات، وأضخم بكثير من الأرض، والبحر، والأجزاء القائمة
تحت الأرض، وقد حواه بسهولة عندما كان رضيعاً، مع أنه هو الذي لم
يكونوا قادرين على احتوائه، وقد قفزت مرحاوأنا أكتب، وكنت كلي
روحياً في داخل ذلك الكهف المقدس،ورأيت الغطاء الذي غُطّي به
مولانا عند ولادته، والفراش الذي وضع عليه الطفل الحديث الولادة في
المزود، وشعرت بالنشوة من خلال التفكير بحب المخلص لي، ومن
خلال فقره الشديد الذي جعلني جديراً بمملكة السماء، ولقد رأيت
الكهف ذاك قصراً، والملك قد جلس على صدر العذراء كأنه جالس
فوق العرش، ورأيت أيضاً جوقة من الملائكة تحيط بالكهف، والحكماء
المجوس يجلبون هداياهم إلى الملك، ولقد امتلأت بجميع ألوان النشوة
والسرور لدى تأملي لأنواع النعمة التي رأيت نفسي جديراً بتلقيها، وتولى
الفنان، بيد بارعة، رسم جميع العجائب التي وقعت في ذلك الكهف،
ويوجد في البروز صورة العذراء وهي مستلقية على فراشها، ويدها
اليسرى موضوعة تحت مرفقها الأيمن، وواضعة وجنتها فوق يدها اليمنى
وهي تنظر إلى طفلهامبدية لطفها الزائد بابتسامتها المعبرة وفي لون
وجنتيها، ذلك أن لونها لم يتغير، ولم يظهر عليها الشحوب، مثل التي

ولدت حديثاً طفلاً، وذلك للمرة الأولى، لأنها وهي التي عدّت أهلاً لحمل طفل، كانت أقوى من رجل، ولا بد أيضاً أنها قد تجنبت آلام الولادة، وكان خلفها الثور والأتان، والمزود، والطفل، ومجموعة الرعاة الذين تردد في آذانهم صوت السماء، لذلك تركوا قطعانهم، وسمحوا لأغنامهم بأن ترعى دون مراقبة، الأعشاب التي كانت قرب النبع، وأسندوا لكلبهم مهمة المسؤولية عنهم، في حين رفعوا رقابهم نحو السماء، وأصغوا بتلهف إلى ترداد الصوت، وقد وقفوا باتجاهات متنوعة، وذلك حسبما رأى كل واحد منهم الوقفة الأسهل له، وبدت عصيهم للرعي بلا فائدة، وكانت أعينهم شاخصة نحو السماء، وأيمانهم ممتدة نحو الخلف، وكأنها ترمي سهماً، وآذانهم مصغية بتشوق، ومع هذا لم يحتاجوا لسماع الصوت مرة ثانية، لأن الأعين أكثر وثوقاً من الآذان، حيث أن ملاكاً قد قادهم وأراهم الطفل مستلقياً في المزود، ولم تلتفت الحيوانات لرؤية هذا المشهد بل حملوا أنفسهم بحماقة وصرفوها، بعضهم نحو الأعشاب، وبعضهم الآخر نحو النبع المتقدم الذكر، لكن الكلب، ذلك المخلوق الذي يبدو متوحشاً مع الغرباء، قد ظهر يحدق عن عمد بالمشهد غير المعتاد، بينما قفز الحكماء من على ظهور خيولهم، وهم يحملون هداياهم بأيديهم وجثواعلى ركبهم، وقدموها إلى العذراء مع رهبة وتهيب.

٢٨— وعلى حوالي الميلين خارج بيت لحم المقدسة، وفي دير الراعي، هناك كهف فيه أُنذر الحكماء بهاتف سماوي بعدم العودة إلى هيرود، وقد عادوا عبر طريق آخر إلى بلادهم، وعلى بعد حوالي الستة أميال خلف هذا الدير، وقرب صحراء روبا، وفي دير القديس شارتون، وعلى مسافة معتبرة خلفه يوجد الضريح المزدوج لابراهيم، الموجود في الخليل، وبلوطة ممرا، التي تحتها استضاف البطريرك إبراهيم الثلاثة المقدسين، وهذه هي أوصاف(الأماكن المقدسة) من عكا حتى القدس، المدينة المقدسة، وذلك عبر الجليل، وكذلك الأردن والقفار المقدسة،

والأماكن القائمة على شاطىء البحر، وهم كما يلي:

٢٩— على بعد حوالي الستة أميال من القدس، المدينة المقدسة، تقع مدينة أرمائم(رامة — النبي صموئيل) التي ولد فيها النبي صموئيل العظيم، وعلى مسافة حوالي السبعة أميال، أو بالحري أكثر، خلفها، تقع مدينة عمواس الكبيرة، وهنا تمتد منطقة الرملة حوالي الأربعة والعشرين ميلاً، ففيها من الممكن رؤية الكنيسة الكبيرة للشهيد الكبير المقدس جرجس(اللد)، وهنا كان قد ولد، وقام بأعمال قداسة عظيمة،وهنا أيضاً قبره المبارك، والكنيسة مستطيلة، وفي البروز تحت المائدة المقدسة، يمكن للانسان أن يرى فتحة ضريحه، المحاط كله برخام أبيض، ومن المفيد أن نروي ما سمعته من الكهنة التابعين للكنيسة حول ما حدث قبل عدة سنوات مضت عند ضريح القديس، فقد قالوا : غامر الأسقف اللاتيني المغتصب الحالي، بمحاولة فتح فم الضريح، وعندما أزاح اللوح الرخامي الذي كان مغلقاً له وانتزعه، تكشف له وجود كهف كبير، وجد في داخله ضريح القديس، وعندما حاول أيضاً أن يفتح هذا، شوهدت نا ر ملتهبة صادرة من الضريح، وقد تركت واحداً من الرجال نصف محروق، والآخر محروقاً حتى الموت.

٣٠— وتقع خلف هذه المنطقة منطقة قيسارية فيليب(اقرأ: فلسطين)، وقيسارية مدينة واسعة وكثيرة السكان، وقد بنيت على شاطىء البحر، وفيها بالفعل ميناء رائع، صنع بالبراعة الانسانية، وقد أنفق هيرود أموالاً عظيمة في سبيل بنائه، وهنا سأل المسيح الحواريين:«من هم الذين يقولون إنني ابن الانسان؟»، وأجابه بطرس قائلاً«أنتم المسيح ابن الرب»، مظهراً بكلماته حرارة حبه.

٣١— وخلف هذا يقع جبل الكرمل، الذي عنه نقرأ كثيراً في كل من العهدين القديم والجديد، وهو جرف طويل، يبدأ عند ميناء عكا وحيفا، ويمتد حتى جبال الجليل، ويقع كهف النبي إلياس عند نهاية السلسلة

الجبلية، في المكان الأقرب إلى البحر، وفي هذا الكهف بعدما عاش ذلك الرجل الرائع حياة ملائكية، رفع إلى السماء، وكان يوجد عند هذا المكان ديراً واسعاً، وذلك حسبما تحدثنا الأبنية المهدمة الباقية حتى اليوم الحالي، ذلك أن الزمان الذي ينهك كل شيء، وغارات العدو المتواصلة، هدمته كلياً، وقام على كل حال منذ بعض الوقت راهب كان كاهناً مرسوماً، وكان صاحب شعر أبيض، وهو من أهل كالبيرا، قام إثر رؤيا للنبي، فجاء إلى ذلك المكان، حيث سكن بين خرائب الدير، وقام ببناء ساتر دفاعي صغير وبرج وكنيسة صغيرة، وجمع حوالي العشرة رهبان، وقام بسكنى المكان المقدس حتى هذا اليوم.

٣٢— ولسوف أوقف هنا أعمال وصفي، بعدما أكملت الطواف حول الأماكن المقدسة، وإذا ما عدّ قارئي ورأى أن هذا عملاً مفيداً، وقتها أعدّ نفسي بأنني نلت التعويض على تعبي، وحظيت بالجائزة، وإذا لم ير ذلك، ليكن ما يلي: أعد يا بني إليّ الذي أنجبه، فبثرثرته يذكّرني بهذه الأماكن المقدسة، وذلك سوف ينعشني بحلاوة في خيالي ويذكّرني بهم.

المحتوى